عبد الله القصيمي

فرعون يكتب سفر الخروج

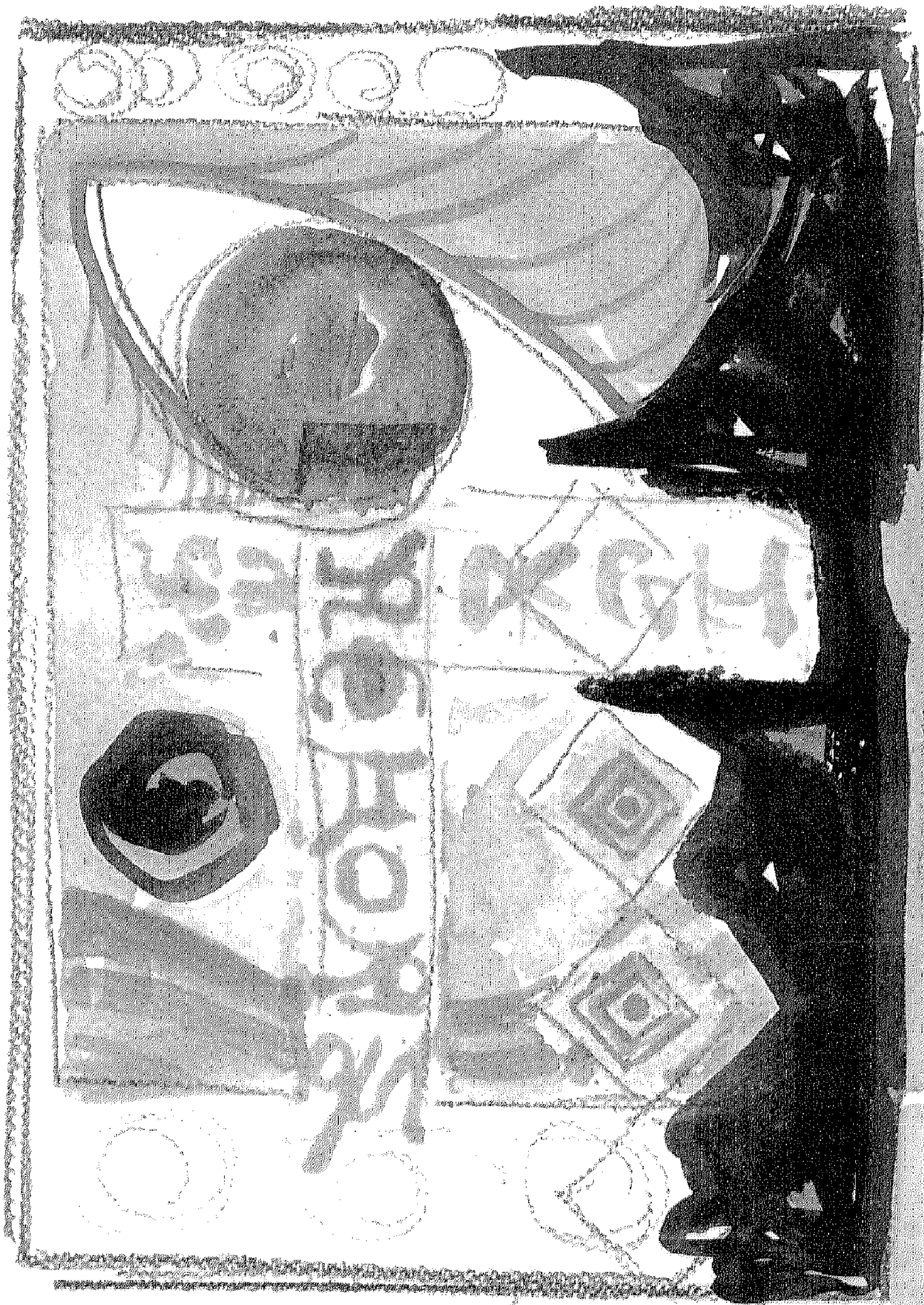

مؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

Bibliotheca Alexandrina
0180761

فرعون يكتب سفر الخروج

عبد الله القصيمي

مؤسسة
الانتشار العربي

فرعون يكتب سفر الخروج

عبد الله القصيمي

مؤسسة
الانتشار العربي
ص. ب. 13/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠١

الفهرست

الإيمان بحث عن متهم بكل الذنوب ٧

إنهم لا يرون لأن لهم عيوناً ١٣

لا تحدق في القمر ٨٧

كيف ابتكر الإنسان عقله ١١١

الفكر جهاز لا يمكن تصحيحه ١٣٧

لماذا الوهم أعظم مجداً من الحقيقة ١٥٧

وحينئذٍ ستظل عاقلاً مهما أصبحت مجنوناً ١٨١

هل تستطيع أن تحب الإله ٢٠١

فرعون يكتب سفر الخروج ٢٢٣

أيهما الوحش: أمعاؤه أم أنيابه ٢٤٣

القاتل بأمر السلطان شجاع ٢٦٩

كل جواب يصبح سؤالاً بلا جواب ٢٨٧

إذا تقادمت المذاهب والأرباب ٣٢٣

لماذا يا أنا ٣٤٥

سب الشيطان عزاء لأحزان القديسين ٣٦٩

غباء الإنسان تعويض له عن قسوة الطبيعة عليه ٤١٧

الإيمان بحث عن متهم بكلّ الذنوب

.. لقد عاشت عيناك لأنهما لا تحدقان في الأشياء.. لقد استطعت النظر إلى الأشياء وجرؤت على النظر إليها لأنك لا تستطيع التحديق فيها. لقد تقبلت أن تكون لك عينان بعد أن اشترطت عليهما ألا تكونا جهازي رؤية أو تحديق.

إنك لو حدّقت في أي شيء لتفجر في عينيك ... لتفجر في كل الإنسان الذي في داخلك، مختبئاً عن عينيك متباعداً عنهما لئلا يرى بهما أو يريا به أو يراهما أو ترياه. أنت لا تريد من عينيك فقط أن تعجزا عن الرؤية بل وأن تحميا منها، وأنهما أبداً لكما تريد منهما..

... لقد ركبت لك عينان لكي لا ترى. لأن الرؤية موت أو جنون.. إن العيون هي أقدم وأشمل جهاز احتمت به العيون لئلا ترى، وحمت به حاملها لئلا يرى.

إنه لخير لك ولآلهتك ولأنبيائك ومعلميك ومحبيك ـ إن كانوا أذكياء وأتقياء وشرفاء ـ أن يقال عنك أنك زنديق، وأن تكون كذلك زنديقاً، من أن يقال عنك أنك مغفل أو منافق أو جبان أو حقير أو بليد أو خائف، ومن أن تكون كذلك. إن تمردك على الإله الصحيح لأكثر مجداً لك من تمردك على الإله الزائف. إن استسلامك للإله الزائف لأقل جبناً وأكثر نبلاً ورحمة من استسلامك للإله الصحيح.

وإن رفضك للإيمان بكل الأنبياء خيفة أن يكون دجالين أو أن يكون بينهم دجال واحد، أو أن تكون أنت دجالاً أو لصاً أو منافقاً باسمهم، لأكثر إيماناً وتديناً وذكاءً وفضيلة واحتراماً لهم أي للأنبياء، من أن تؤمن بكل الدجالين أو بأوقح وأكذب الدجالين، مؤملاً أن تجد بينهم نبياً أو خيفة أن تكفر بنبي واحد صادق، ومن أن تؤمن بدجال واحد، مؤملاً أن يكون نبياً صادقاً. إن رفضك للإيمان بالنبي الصادق لن يكون إلا معنى من معاني تقواك مهما كان معنى من معاني عذابك أو عدوانك أو جنونك أو خوفك.

وإن كفرك بالله، لأنك لا تريد أن تحقره أو تتهمه أو تورطه أو تظلمه، أو خيفة أن تفعل به ذلك، لأعظم إيماناً وتقوى وتكريماً له ودفاعاً عنه ووضعاً للسرور في قلبه من أن تؤمن به ومن أن تحول الدنيا كلها إلى معابد لتؤدي إيمانك به فيها ولتتحول هذه المعابد التي هي كل الدنيا إلى إعلان عن إيمانك وإلى ثناء عليه، لكي تسوغ وتفسر بإيمانك ضعفك وذنوبك ونقائصك، ولكي تدافع بإيمانك عن نقائصك وذنوبك وضعفك، ولكي تستطيع أن تفهم به أي بالله الذي آمنت به ما لا يمكن أن يفهم، ولكي تلقي عليه أيضاً بكل أدرانك وعاهاتك وأخطائك، طالباً إليه وكأنك تعبده وتمجده أن يمسحها عنك بأردانه وبضميره، ومريداً منه أن يتحول إلى ممسحة شاملة ودائمة لعرقك المحرم وغير النظيف، ومتعرياً أمامه بكل بذاءاتك وكأنك تضع في عينيه كل فنون وصور ومعاني الجمال والتكريم والحب والمغازلة. وهل آمنت بالإله إلا لكي تفعل به كل ذلك ولكي يفعل لك كل ذلك؟ إذن هل وجد

معتدى عليه ومساء إليه مثل الإله؟ أو هل وجد معتد أو مسيء مثل المؤمن بالإله؟ أو هل وجد عدوان أو تحقير مثل الإيمان بالإله؟

هل هناك من يهان ويحقر ويتهم، مزعوماً التكريم والتعظيم له، مثل الإله؟ هل يوجد مظلوم مهان الكرامة مثل الإله؟ نعم، وإن خروجك على جميع المذاهب والتعاليم والعقائد خيفة أن تكون حاقدة أو كاذبة أو متعصبة أو مخادعة أو عدوانية، أو أن يكون فوقها حاقد أو كاذب أو متعصب أو مخادع أو عدواني، ليقاتل ويحتال ويطغى ويسود باسمها، لأفضل لك ولها وللبشر جميعاً من أن تؤمن بها وتتبعها، متجمعاً أو متفرقاً أو متنقلاً أو متعاقباً، راجياً أن تكون متسامحة أو صديقة أو ذكية أو صادقة، أو أن يكون فيها ما هو كذلك، أو أن يقاتل أو يحكم بها من هو كذلك.

أجل، إن المؤمن بالله العابد له ليس إلا إنساناً يشتم ويقاتل ويتهم ويطارد ويظلم ويلقي بالذنوب على البريء. إنه أي المؤمن يبحث بإيمانه عن متهم بريء، عن متهم بكل الذنوب والأخطاء. إنه لم يوجد ولن يوجد من يمكن أن يتهم بكل الذنوب والأخطاء والمظالم والتفاهات والحقارات غير الإله في تصور المؤمن به.

إن إيمان الناس بالإله أو بالآلهة أسلوب وقح وغير شهم أو كريم من أساليب البحث عن متهم لا يعلم عن ذنبه أو عن تهمته شيئاً. إن الإله هو أعجب متهم لا يعلم عن تهمته شيئاً. هل يوجد متهم بكل الذنوب دون أن يكون له ذنب واحد أو أن يعلم عن اتهامه شيئاً أو أن يقول شيئاً للدفاع عن نفسه مثل الإله؟..

إن البشر ليدركون ويرون أنهم يواجهون جرائم من كل الأنواع والأحجام وفي كل الاتجاهات. فمن هو المجرم، أو من هم المجرمون؟ إن ها هنا متهمين. فمن هم؟

إنهم فكرياً ونفسياً بل وأخلاقياً محتاجون إلى أن يجدوا متهماً أو متهمين، وأن يصوغوا اتهاماً ويوجهوه..

هم لا يريدون أن يعتقدوا أو يقتنعوا أنهم هم المجرمون المطلوبون، وهم كذلك لا يستطيعون أو لا يريدون الاعتقاد أو الاقتناع بأن الكون هو هذا المجرم المبحوث عنه. إن اتهام الكون بأنه هو هذا المجرم ليس سهلاً ولا مريحاً الاقتناع به. إنه اتهام لو كان مقنعاً لا يريح ولا يهب المعنى المطلوب منه.

... إذن فليؤمنوا بمتهم كبير بريء يستطيع أن يتحمل ذنوب وأخطاء ووقاحات جميع ما يرون ويواجهون ويعلمون ويقاسون ـ يستطيع أن يكون تفسيراً وتسويغاً ودفاعاً عما لا يستطاع الدفاع عنه أو التسويغ أو التفسير له، ويستطيعون هم الاقتناع بأنه كذلك، كما يستطيعون أن يجدوا فيه الراحة والتفسير الكامل الشامل الذي يبحثون عنه ويحتاجون إليه.

إذن فليؤمنوا بإله هائل كبير لا نموذج له، وليحددوا صفات هذا الإله تحديداً يجعله هو المتهم الأول الشامل، وهو المسؤول الأول الشامل عن كل ما يواجهون ويرون ويعلمون ويعانون من آلام وغباوات

وتفاهات ومن ذنوب وعاهات ووقاحات وأخطاء لا يمكن فهمها ولا تفسيرها ولا تسويغها ولا الدفاع عنها بغير إله كبير هائل ليس له نموذج ولا تفسير ولا منطق ولا شروط. ليؤمنوا بمثل هذا الإله إيماناً لا منطق ولا هدف ولا تفسير له سوى الاتهام وسوى الحاجة إلى وجود متهم بهذا الحجم، إلى وجود متهم بكل الذنوب والآلام والمظالم والحماقات.

إن الحاجة إلى وجود متهم ضخم ضخامة لا مثيل ولا شبيه ولا نموذج لها هي أحد الأسباب في إيمان الناس بالإله العظيم الطيب المنزه. لقد آمنوا بالإله لأنهم محتاجون إلى متهم ضخم بلا حدود! لقد وجدوا في الإله كائناً متهماً بكل الذنوب منزهاً عن كل الذنوب. إنه إذن لشيء رائع، رائع جداً.. لقد كانت قضية «من المتهم» هي البرهان الوقح على وجود الإله. لقد كانت إرادة العدوان والاتهام هي التي دلت على الإله وصاغت صفاته وأخلاقه ومنطقه وضميره وضخامته.

إن مثل هذا الإله الفريد، وكذا الإيمان به هو الذي يستطيع أن يجعل ما لا يستطاع فهمه مفهوماً، وما لا يمكن غفرانه أو الغفران له مغفوراً ومغفوراً له. إن تصور مثل هذا الإله هو الذي يجعل الإلقاء بكل القبح والسوء والغباء على متهم واحد أو على ذات واحدة ممكناً تقبله.

فهل يمكن أن يوجد من يذهبون يحاولون الانقاذ لهذا المتهم البريء الفريد النموذج والفريد المظلمة والاتهام، بل الفريد في خطاياه وآلامه وهمومه وهزائمه في تصور من يظنون أنهم يكرمونه؟

أليس إنقاذ هذا المتهم عملاً جيداً ومطلوباً، بل ومفروضاً، بل عملاً لا شبيه له في جودته؟ أليس إنقاذ الإله من الإيمان به هو أعظم وأتقى وأنبل إنقاذ يمكن عمله أو تصوره؟

ألا يوجد من يملكون أي مستوى أو قدر من الشهامة أو النخوة أو المروءة والرحمة أو العدل أو الصدق لكي ينقذوا هذا المتهم البريء الفريد النموذج والصورة والمظلمة؟ كيف فقد البشر كل معاني الشهامة والتقوى حينما تصوروا هذا المتهم وهذا الاتهام؟

كيف وجد أو يوجد من يستطيعون الصبر أو الصمت على مثل هذا العدوان أو على مثل هذا الاتهام؟ كيف لم توجد، أو كيف لا توجد محاولات دولية لرد هذا العدوان وهذا الاتهام؟

ألا يمكن أن توجد هذه المحاولات الدولية؟ أكل العالم قد أجمع بلا شهامة على ظلم هذا البريء؟ إن القضية هنا ليست الإيمان بإله ما ولكن القضية هي قضية اتهام لا مثيل له لبريء لا مثيل له. إذن هل يمكن أن يوجد أكثر نذالة ممن يؤمنون بالإله؟ هل يوجد أكثر نذالة ممن يؤمنون بكائن بريء لكي يجعلوه متهماً بجميع الذنوب والأخطاء والغباوات، لكي يجعلوه متهماً لا مثيل له، باتهام لا مثيل له دون أن تعاقبهم ضمائرهم أو أن يعاقبوا ضمائرهم؟

نعم، الآن وبتكرار لا يحتاج إلى اعتذار، أو يحتاج إلى اعتذار نقدمه كاملاً وبحماس إلى كل من يطالب به أو يرتاح إليه أو يراه حقاً من حقوقه أو يجد فيه تكريماً له أو قوة فيه... نعم، الآن.. وبعد هذا التاريخ الطويل الأليم لهذا الاتهام الفاجع، ألا يمكن أن يتحرك في العالم، في كل العالم شيء من

الشهامة أو من العدل أو من الرحمة أو من الغضب أو من التقوى أو من الفروسية أو من البحث عن الصدق والبراءة، أو من الاحترام للخيال وللصور الذهنية وللتعبير عن النفس وعن أمانيها وعن خوفها وهربها وعدوانها.

نعم، ألا يمكن الآن أن يتحرك في العالم بكل هيئاته ومؤسساته ودوله وحضاراته ومذاهبه وتعاليمه شيء من ذلك لكي ينقذ الإله أو لكي ينقذ اسمه أو صورته الذهنية من هذا الاتهام أي من جعله متهماً بكل الذنوب، أي من الإيمان به، أي من الإيمان بأنه هو المريد والمدبر والمخطط والخالق والمخرج لكل شيء، وبأنه إذن هو المسؤول عن كل شيء والملقى عليه كل شيء والمتهم بكل شيء بل والجاني لكل شيء؟ وهل يمكن أن يظلم أو يشوه أو يعاقب أو يحاكم أو يهان أحد مثل أن يتهم بأنه المريد المدبر المخطط الفاعل المخرج لكل شيء بل والناظر إلى كل شيء المحدق في كل شيء مع الاعجاب بموهبته وبأخلاقه وبحبه للجمال والذكاء ولصداقة الأشياء.

بل ألا يمكن أن يفعل العالم كل العالم شيئاً لكي ينقذ الإنسان أو لكي ينقذ نفسه من هذه الوقاحة والنذالة والعدوانية التي ألهمته أن يجرؤ على اتهام هذا الاسم البريء أو هذه الذات البريئة أو الفكرة البريئة، أي على اتهام الإله بكل ذنوبه هو وعاهاته وتشوهاته وآلامه وتفاهاته ونقائصه وبدايته ومصيره الحزينين، وبكل ذنوب وعاهات وتفاهات وتشوهات وآلام ونقائص ومصير وبداية كل الأشياء، حينما آمن به ليجعله كل المتهم بكل ذلك، أي ليجعله هو كل المخطط والعاشق والفاعل لكل الذنوب؟ وهل يمكن أن تكون المريد المدبر المخطط الفاعل المخرج لهذا الوجود دون أن تكون عاشقاً لكل الذنوب والآلام والأحزان والتشوهات والعاهات والحماقات والخطايا؟

نعم، ألا يمكن أن يصاب العالم بشيء من النخوة أو الشهامة أو الفروسية أو من حب العدل والصدق والعفة النفسية أو من نشاط الضمير لكي يعلن عالمياً براءة الإله من كل ذلك، أي لكي يعلن بأسلوب عالمي أنه لم يؤمن بالإله إلا لكي يجعله متهماً بكل الذنوب، وإنه لذلك يعلن عالمياً توبته من هذا الاتهام، أي يعلن توبته من الإيمان بهذا الكائن البريء أو الاسم البريء أو بهذه الصورة الخيالية البريئة؟.. أي يعلن بقرار دولي وبوسيلة دولية براءته من الإيمان بهذا الإله ليكون ذلك براءة للإله من هذا الاتهام الفاجع؟...

.... أيتها الشهامة، أيتها الطهارة، أيتها الفروسية أصيبي العالم بشيء من كبريائك لكي يعلن بأسلوب عالمي توبته من هذه الوقاحة والنذالة والعدوانية.

أيها الضمير العالمي.. كيف غفوت في كل تاريخك عن ذلك.. كيف غفرته وتعاملت به وعليه ومعه؟

إنهم لا يرون لأن لهم عيوناً

«إني أحذرك من أن تصبح كاتباً أو نبياً، إن ذلك يعني أن تسير عارياً صائحاً باكياً مستذلاً أمام كل الأبواب الموصدة في وجهك والمفتوحة لك أحياناً للشماتة بك، أو للتلهي والتسلي والتشفي بآلامك وعاهاتك، بدموعك وضعفك..

إن ذلك يعني أن تسير عارياً صائحاً باكياً ذليلاً متضرعاً أمام كل الأبواب المغلقة دونك تدقها وتدقها، دون أن تشترط لنفسك أي شرط من شروط الكبرياء أو الكرامة أو الاحترام للنفس أو المحافظة على الوقار.

دون أن تسأل هل أحد يقبل أن تدق عليه بابه أو أن تقف علي بابه.. إني أحذرك أن تصبح كاتباً أو نبياً، إن ذلك يعني أن تصبح رخيصاً مبتذلاً ثقيلاً متهافتاً علي الأبواب، مدفوعاً عنها.. إني أحذرك أن تصبح كاتباً أو نبياً.. إنك حينئذٍ الكائن الذي يجد الناس عزاءهم في الاستماع إلى آلامه وهوانه وصراخه ونفاقه وهزائمه.. إني أحذرك أن تكون كاتباً أو نبياً.. إني أحذرك، إني أحذرك...

هل يوجد من يقف على الأبواب أو من يعرض نفسه على الناس بابتذال وإلحاح مثل الكاتب والنبي؟

هل يوجد من يلقي بهمومه وعاهاته فوق الناس وفي الطرقات مثل الكاتب والنبي..؟»

ها، إنهم يسيرون في الطرق المتزاحمة، وينقلون أقدامهم وخطواتهم بين الأقدام والخطوات الأخرى المتواجهة المتناقضة. ها، إنهم يسيرون بين أصناف المخاطر والمهالك، ويتحركون حركات مبصرة، وإنهم يشاهدون الأخطار ويتقونها، وإنهم ليصلون إلى الأغراض والأماكن التي يقصدون إليها، وإنهم ليتحادثون وتغازل عيونهم عيونهم. وإن أقدامهم لتتحرك داخل عيونهم، وإن عيونهم لتأمر أقدامهم وتحكمها وتعلّم حركاتها قراءة الأشياء وتفاسيرها ورؤيتها. ها، انهم يتحركون ويقتحمون أنفسهم بقيادة عيونهم. لقد كانت عيون الإنسان هي أقوى وأعظم قادته وأدلائه في كل تاريخه. إن عيون الإنسان هي كل تاريخه. إنه لا تاريخ للإنسان لولا تاريخ عيونه. إن الآلهة لم تستطع أن ترى الإنسان أو ترى نفسها أو ترى الأشياء إلا بقوة عيونه لا بقوة عيونها هي.

ها، ان في وجوههم لعيوناً، وأن عيونهم لتتحرك وتنتقل بين الأشياء، بين حركات الأشياء وتنقلاتها، وإن عيونهم لترتجف وتغضب وتتوتر وتخاف وترفض وتحزن وتقاوم أحياناً، وإنها لتهدأ وترضى وتشكر وتعانق وتصافح وتراقص وتسالم وتؤمن وتهتف أحياناً أخرى لاختلاف وتغير المواجهات.

ها، انهم ليقفون أمام المرآة محدقين فيها طويلاً، بارتجاف وضراعة كأنهم يناشدونها ويبتهلون إليها أن تكون بوجوههم رحيمة نبيلة ـ كأنهم يعلمونها ويفسرون لها كيف ينبغي أن تصوغهم كأنهم يضعون لها النموذج الذي يريدون. كأنهم يرون أن المرآة هي التي تصنع وجوههم وصورهم، جمالهم وقبحهم، وليست هي فقط التي تعاقب بأن ترى، وبأن يرى بها ومنها، وبأن يكون أكثر من ينظرون إليها وبها ينظرون بحنق وغضب وباشمئزاز وباحتجاج وعبوس ـ وبأن تكون هي المسؤولة المذنبة المتهمة بما لم تصنع هي، بما صنعته وجوه من يتهمونها ـ بأن تكون هي المذنبة المتهمة المسؤولة عن ذنوب جنتها وجوه المتهمين لها ـ جنتها على نفسها وعلى أصحاب الوجوه وعلى المرآة نفسها. نعم، إن المرآة هي المظلومة دائماً والمتهمة دائماً والمكذوب عليها دائماً.

وبأن يكون جميع من ينظرون إليها وبها، ويطلبون شهادتها مطالبين لها بأن تكون دائماً شاهدة

زور لمصلحتهم، بأن تكون دائماً كاذبة منافقة تقول لهم ما لا تعتقد وما لا تجد وما لا ترى، كأنها كاتب أو معلم أو نبي أو زعيم عظيم أو متحدث عن الله واعظ بأسرار السماء وبعطاياها. إنه لا شيء ولا أحد يطالب ويرجى بأن يكون شاهد زور وكذاباً مثل المرآة.

ها، إنهم جميعاً ـ ما عدا المصابين بالعاهة العظمى، ما عدا المصابين بعاهة العاهات ـ يقفون طويلاً أمام المرآة محدقين فيها بأسلوب من يصلون أو يشكرون أو يصافحون أو يتغزلون أو يقبلون أو يتفاوضون ـ أو بأسلوب من ينكرون أو يشاتمون أو يحاكمون أو يخاصمون أو يتهمون أو يرفضون أن يكون ما يرون حقاً أو أن يكونوا هم ما يرون ـ أن يكونوا هم الذين يقفون أمام أنفسهم ـ أو أن تكون المرآة التي أمامهم مرآة وليست شبحاً أو شيطاناً رجيماً معادياً لهم، بسخر منهم، ويعاقبهم بتشويه وجوههم، أو بوضع وجوه أخرى مكان وجوههم. إن البشر لا يقفون أمام شيء مثلما يقفون أمام المرآة بكل ما في ذلك من انفعالات متضادة، من ارتجاف وابتهاج. إنهم لا يقفون أمام إله من آلهتهم الجبارة بمثل الحماس أو الذعر الذي يواجهون به المرآة. إن المرآة إله عالمي، إنها إله يقف أمامه برهبة وارتجاف وضراعة كل الناس، كل العالم، يرجون ويتملقون ويتعبدون. إن البشر لا يهبون تملقهم وتضرعهم وخوفهم وأملهم لشيء مثلما يهبون ذلك للمرآة.

ولكن مع كل ذلك هل هم يرون، هل يحتمل أنهم يرون، أو أنهم يستطيعون أن يروا؟

إن الناس لا يرون، وإن الرؤية لا تساوي العيون، إن العيون ليست رؤية. إن نقل الأقدام والخطوات وتحركها بين الأخطار وأسباب التصادم ليس رؤية. إن للحيوانات عيوناً، وإنها لتتحرك وتنقل أقدامها وخطواتها، سائرة في طريقها، وإنها لتهرب من الصياد ومن أسباب المخاطر المختلفة. فهل هي ترى؟ هل الحيوانات ترى مهما أبصرت؟ وهل هي ترى لأنها تبصر؟

إن العيون ليست رؤية، بل إنها قد تكون جهازاً للحماية من الرؤية.

إن الرؤية ليست عيوناً، وليست سيراً في الطريق ولا تجنباً للخطر أو للتصادم، وليست أيضاً وقوفاً أمام المرآة. إنها ليست النظر القوي الحاد، إنها ليست القدرة على رؤية أخفى المغازلات في أمكر العيون وأكثرها حياء واستتاراً وخوفاً. إن الرؤية ليست هي القدرة على قراءة أغبى الأفكار المكتوبة بأغبى الحروف على ضوء أغبى النجوم وأصغرها حجماً وأبعدها مكاناً.

إن الرؤية موهبة إنسانية، إنها موهبة إنسانية صعبة إنه ليس كائن غير الإنسان يملك الموهبة، موهبة الرؤية أو يستطيع امتلاكها أو معاناتها. وإنه ليس كل الناس يملكونها، ليس أقل الناس هم الذين يملكونها، حتى ولا أقل الناس. إنهم النادرون أو الشاذون جداً هم الذين يملكون هذه الموهبة، هم الذين يرون. إنه لصعب جداً أن تجد من يرى. إنك قد تجد كل واحد وكل أسلوب وكل مستوى من البشر دون أن تجد رائياً واحداً، دون أن تجد من يستطيع أن يراك أو يرى الأشياء التي يتعامل بها.

إن موهبة الرؤية، رؤية النفس والناس والأشياء موهبة نادرة وصعبة جداً. إن موهبة الرؤية ليست

موهبة، إنها عقاب وتعذيب. إنها أندر مواهب الإنسان وأكثرها قسوة. إنه ليس كل العباقرة يملكون هذه الموهبة أو هذا العقاب والعذاب. إنه ليس كلهم يستطيعون أو يتقبلون معاناة هذه الموهبة أو هذا العقاب. إن من يملكون هذه الموهبة لم يشاوروا في امتلاكها، وإنهم لم يطلبوا امتلاكها، وإنهم لم يختاروا لامتلاكها. لقد عوقبوا بامتلاكها دون أن يقصد عقابهم.

إن العباقرة من البشر أكثر من الذين يرون، إن امتلاك العبقرية أسهل من امتلاك الرؤية. لقد وجدت العبقرية أكثر مما وجدت الرؤية. ما أكثر العلماء والمخترعين والمكتشفين والملهمين والشعراء والفنانين والمفكرين في تاريخ البشر. ولكن كم هم الراؤون الذين أبدعهم أو أعطاهم تاريخ الإنسان الطويل؟ إن البشر يستطيعون أن يمارسوا ويعانوا كل العبقريات وأعظم العبقريات بكل عذابها وتكاليفها العقلية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية أكثر مما يستطيعون معاناة الرؤية. إن عذاب الرؤية عذاب خاص، خاص جداً. إنه عذاب بلا حدود وبلا زمان وبلا خلاص وبلا تهمة وبلا قانون وبلا طاغية. إنه ليس عذاباً يصيب الذات، إنه هو نفس الذات، نفس وجودها ونموذجها.

إن أقدر الناس على تحمل تكاليف أضخم العبقريات، وإن أقدرهم على اقتحام معاقل أعصى العبقريات ـ إن مثل هذا الإنسان قد يرتجف خوفاً من أن يكون رائياً أو من أن يكون مالكاً لموهبة الرؤية، أو متحملاً لعذاب الرؤية وأهوالها، ولما فيها من افتراس ورهبة وجنون وبذاءة ووقاحات ودمامات. إنها كل الكون، إنها كل الكون متحولاً إلى عذاب.

إن كل المجتمعات قد تتحمل، وقد تعطي كل أصناف العباقرة وكل مستويات العبقريات. ولكن هل توجد مجتمعات تتحمل أن يوجد فيها من يرون، أو تعطي هؤلاء الذين يرون ـ هؤلاء الذين يملكون موهبة الرؤية أو عذاب وعقاب الرؤية؟

ولكن ما هي الرؤية التي تتحدث عنها بكل هذه التهاويل؟

إن حاسة الإبصار هي أكثر حواس الإنسان شمولاً وحساسية وازدحاماً بالأشياء وتصادماً بها وتناقضاً معها ورفضاً لها وعجزاً عن التلاؤم بها وعن فهمها.

إن جميع الحواس تكاد تكون ذاتية، وتكاد تكون ممارستها بالاختيار، وإنه ليمكن الهرب منها، وإنها لا تكاد تتحول إلى تصادم أو مناقضة لنا. إنها لا تستطيع أن تصنع لنا أو تفرض علينا أهوالاً من العذاب. إنها بلا شمول ولا ديمومة ولا محاصرة ولا عنف، وبلا أبعاد ولا أعماق. إنها ذاتية، إنها ليست كونية.

أما حاسة البصر فهي كل الشمول والديمومة والاحاطة والعنف، وهي كل العمق وكل البعد. إنها كل التصادم والمناقضة والتحدي. إنها كل الآفاق وكل الحواس الأخرى. وإن الهرب منها لمستحيل حتى ولو على أي مستوى من مستويات الهرب.

إن حاسة البصر حاسة كونية، وإن ممارستها ممارسة لكل الكون. إن الكون موجود في عيوننا، وإن

عيوننا لموجودة في الكون. إن عيوننا لا تستطيع أن تعيش خارج الكون، وإن الكون لا يستطيع أن يعيش خارج عيوننا.

إنك إذا كنت ترى، إذا كنت تملك موهبة الرؤية أو عذاب الرؤية فأنت تمارس كل الكون وكل الناس وكل الأشياء. إنك حينئذٍ تعاني كل ذلك، كل ما فيه من آلام وأخطاء وحماقات وهموم وعبث وسخف ـ تعانيه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، تعانيه متكرراً ومتجدداً ومتغيراً وثابتاً. تعاني كل تفاسيره ومنطقه وحوافزه وأهدافه، تعانيه أسباباً ونتائج، خالقاً ومخلوقاً، مراداً ومريداً، قاتلاً ومقتولاً، ظالماً ومظلوماً ـ تعانيه بكل لغاته وأساليبه ومستوياته وظروفه ـ تعانيه في ذاتك وفي كل ذات وفي كل شيء.. تعانيه واقعاً ومحتملاً، صورة ومعنى وخيالاً. تعانيه خوفاً وانتظاراً.

إنك إذا كنت ترى ـ أو لو كنت ترى ـ فإنك سوف تعاني كل شيء وسوف تمارس كل شيء: كل آلامه وأحزانه وحقاراته وعاهاته وتفاهاته وضعفه وعبثه وموته ومرضه وجوعه وضياعه وغبائه وكل منطقه وتفاسيره. إنك حينئذٍ سوف تعاني كل ذلك معاناة المخاصمة والمصادمة والمقاتلة، معاناة التحدي والتحقير والرفض والاشمئزاز.

إنك حينئذٍ سوف تعاني وتمارس كل شيء ـ من طريق عينيك ـ تعانيه وتمارسه وتحياه، وتتعذب به فيما كان وفيما يحتمل أنه قد كان، وفي كينونته التي تشهدها، وفيما سوف يكون، وفيما قد يكون أي، فيما يحتمل أن يكون.

إنك حينئذٍ سوف تعاني وتعيش كل عذاب وتفاهة وخطأ وظلم ودمامة وبلادة وتشويه ـ تعاني كل ذلك وتعيشه بتمنيك وبمشاعرك وبخيالك وبتفسيرك وبمنطقك وبتوقعك وباشمئزازك وبرفضك، وبكل مستوياتك العقلية والنفسية والتاريخية والشخصية والأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، لأنك قد عانيته برؤيتك.

إنك إذا كنت ترى فإن كل شيء سوف يتحول إلى تحدٍ لك، وإلى اصطدام بك، وإلى عدوان عليك، وإلى مناقضة لأخلاقك ولذكائك ولأمانيك ولحبك ولأشواقك ولكل تعاليمك ومذاهبك. إن كل شيء سوف يتحول حينئذٍ إلى تحدٍ وإهانة لكل نماذجك، ولكل مستوياتك، بل لكل آلهتك وأنبيائك وقيمك.

إنك إذا رأيت فلن تقبل ولن تغفر ولن تفهم ولن تسالم، وإن الأشياء لن تتحول حينئذٍ لتكون على مقاس عينيك وعلى مقاس نموذجك، رحمة بك أو خوفاً عليك، أو بحثاً عن مصالحتك وراحتك، وإنك أنت لن تستطيع تحويلها لتكون كذلك.

إنه لمحتوم عليك حينئذٍ أن تتحول إلى خصم لكل الأشياء، وأن تتحول كل الأشياء إلى خصوم لك ـ أن تتحول كل الأشياء إلى وحوش تفترسك ـ إلى وحوش تهاجمك من طريق عينيك، تهاجم كل مستوياتك ونماذجك وأمانيك وتعاليمك لأنها تهاجم عينيك.

إنك إذا كنت ترى فإن كل شيء سوف يتحول إلى عذاب يغزوك من عينيك. إنك حينئذٍ لن تقبل ولن تغفر ولن تفهم ولن تسالم. وإن الأشياء حينئذٍ لن تتعذب من أجلك إنها لن تكون فاضلة، ولن تتحول إلى ما تستطيع أن تقبل أو تغفر أو تفهم أو تصالح. إن الأشياء حينئذٍ لن تقتلها الرحمة لك.

إن الرؤية تصادم محتوم، إنها لا تكون إلا تصادماً. إن الرؤية لأي شيء لا بدَّ أن تتحول إلى تصادم. إن الشيء الذي نراه لا بد أن يصبح نقيضاً لنا ونقيضاً لما نريد، وهزيمة لنا وهزيمة لما نريد.

إن الشيء الذي نراه لا بد أن يصبح خروجاً علينا، خروجاً على كل آمالنا وعلى كل مقاييسنا التي نتمناها، والتي نؤمن بها، والتي نحاول بلوغها أو نقاتل لبلوغها.

إن الشيء الذي نراه لا بد أن يصبح عاراً وذنباً وفضيحة ودمامة وعاهة في جميع مقاييسنا. إن الشيء ـ أي شيء ـ لا يكون جميلاً أو مهذباً أو معقولاً أو مرضياً أو سوياً أو جيداً إلا لأننا لا نراه. إن الرؤية هجاء للشيء المرئي بقدر ما هي عقاب وتعذيب للرائي. إن الرؤية هجاء وعقاب للمرئي وللرائي.

إنك لو رأيت الشمس ـ لو رأيت نفس الشمس لأذهلتك وقاحة الرؤية. إن كل هؤلاء البشر الذين يعيشون تحت الشمس لا يرونها. إنهم لم يروها، ولا يستطيعون أن يروها، ولا يريدون أن يروها، وإنهم لم يفكروا في أن يروها، وإنهم لم يعلموا أنهم لم يروها، بل وإنهم لا يعلمون أنه يوجد شيء أو مستوى اسمه رؤية الشمس، أو أن أحداً يراها، أو أن أحداً قد ينقدهم لأنهم لا يرونها، أو أن أحداً قد يصاب بمرض الرؤية، رؤية الشمس.

إن كل هؤلاء البشر لا يرون الشمس، إنهم لم يروها قط. إنهم يعيشونها ويواجهونها ويتعاملون عليها، ويستدفئون أو يستضيئون بها، وتبهرهم وتقهرهم ـ إنهم يفعلون ذلك، وتفعل بهم الشمس ذلك بالأسلوب الذي تمارسه الحشرات في مواجهتها للشمس، وفي مواجهة الشمس للحشرات. إن هؤلاء البشر لم يروا الشمس إلا بقدر ما رأتها الحيوانات والحشرات. لقد واجهوا ولم يروا، مثلما فعلت الحيوانات والحشرات.

لقد ذهب الأنبياء والمعلمون والشعراء والوعاظ وكل المتحدثين عن جمال الأشياء وعظمتها ـ لقد ذهبوا في حماس متفجر بالمبالغات وبالطفولة المتزاحمة بالصور والانفعالات التي ليست على مقاس شيء معروف أو معقول ـ يمجدون الشمس ويصلون لما فيها من عبقرية الجمال والذكاء والعظمة والابداع، ولما صب فيها من فنون الآلهة ومن حكمتها ورحمتها وحبها وشوقها إلى الكمال في جميع ممارساتها وفي جميع أشواقها.

لقد وجد الأنبياء والشعراء والوعاظ والمعلمون في الشمس اللوحة الكونية الهائلة للإله: لكل ما في ذاته من جمال وطلعة وضخامة واكتمال، ولكل ما في منطقه وأخلاقه من ذكاء وحب وسخاء ونظام. لقد وجدوا فيها الإعلان الكوني الهائل عن الإله ـ لقد وجدوا فيها الإعلان الكوني الهائل الذي تقرؤه

كل الحياة، وكل الطبيعة وكل الكائنات الأخرى، وكل الناس والحيوانات والحشرات ـ الذي يقرأ كل الوقت من كل أفق في كل وقت.

لقد وجدوا في الشمس كل صور الإله وكل جماله وذكائه وحبه وفنه واستواء ذاته. لقد وجدوا في الشمس كل مواهب الإله وكل قدرته وكل فنونه وأشواقه إلى عرض ذاته وفي عرض ذاته.

لقد وجدوا الإله مرتدياً الشمس، لابساً صورتها، ووجدوا الشمس لابسة أجمل وجوه الإله، وأجمل صوره وأجمل أزيائه. لقد ذهبوا يصلون ويغنون للإله، ويمجدونه، ويتحدثون بكل الرهبة والانبهار عنه، وهم يعنون الشمس. لقد ذهبوا يتحدثون بكل رهبة وانبهار عن الشمس، ويمجدونها، ويغنون ويهتفون لها، وهم يعنون الإله.

لقد وجد الأنبياء والشعراء والوعاظ والمعلمون في الشمس كل المنطق والجمال والحكمة والرحمة والفنون لأنهم لم يروها. إنهم لم يروها قط، إنهم لم يروها إلا بقدر ما رآها البرغوث والقراد والجمل. لقد سجدوا لمنطقها وجمالها وحكمتها ـ وهم لم يروها ـ مثلما سجد الذباب لحكمتها ورحمتها وذكائها وجمالها وهو يستدفىء بحرارتها ويستضيء بنورها ـ هاتفاً مغنياً محيياً لها دون أن يراها.

إن كل من هتفوا أو غنوا للشمس، وإن كل من وعظوا وعلموا بها، وإن كل من تحدثوا عن جمال الإله وعن ذكائه وحكمته وحبه، أو عن ذكاء الطبيعة أو عن حكمتها وحبها أو عن جمالها بالتحدث عما في الشمس من ذكاء وحكمة وحب وجمال، إن كل من أشار إلى الشمس أو نظر إليها ليشير إلى شيء من جمال الإله أو الطبيعة أو إلى شيء من ذكائهما، أو لينظر إلى شيء من جمالهما أو ذكائهما ـ إن كل من فعلوا شيئاً من ذلك إنما هم قوم لم يروا الشمس، إنما هم قوم يصعب عليهم أن يروها.

لقد كان الشعراء والفنانون والأنبياء والعلماء والواعظون الذين تحدثوا ـ في صوفية مبهورة ـ عن جمال الكون وعبقرية صوره ـ لقد كان هؤلاء عاجزين بالمزاج والموهبة والمستوى النفسي عن الرؤية، عن أية رؤية، عن رؤية أي شيء. نعم، إن الرؤية شيء صعب دائماً وشيء مستحيل في الغالب.

لقد كان هؤلاء يحملون عيوناً لا تحمل احتمالات رؤية. لقد كانت عيونهم أعضاء مغلقة مثل أيديهم وأرجلهم. إن عيونهم لم تكن ترى أو تستطيع الرؤية أكثر من أصابعهم أو شعر وجوههم. لقد كانوا يحملون عيوناً لا تمارسهم ولا يمارسونها، لا يمارسون بها الأشياء ولا تمارسها الأشياء. لقد كانوا يحملون أعضاء لا عمل لها تسمى عيوناً. لقد نبتت لهم عيون مثلما نبتت لهم أظافر. إن وظيفة عيونهم لم تكن هي الرؤية، كما أن وظيفة أظفارهم لم تكن هي القراءة والتفكير وصياغة البراهين على وجود الإله.

لقد كانت عيونهم عيوناً لغوية لا عيوناً وظيفية. لقد كانت اللغة تقول إن لهم عيوناً ولكن ممارستهم للكون ولأنفسهم تقول: إنه ليست لهم عيون. لقد كانت لهم عيون مثلما للأغبياء رؤوس.

إن اللغة تتحدث عن رؤوس الأغبياء، كأن لهم رؤوساً. وإنها أي اللغة تتحدث بنفس المستوى والأسلوب عن عيون الأنبياء والشعراء والوعاظ والفنانين والمعلمين الذين رأوا في الكون كل العبقرية والابداع والجمال والنظام. إنها أي اللغة تتحدث عن عيون هؤلاء وتشير إليها بتأكيد واقتناع وتكرار، كأن لهم عيوناً. إن للأغبياء رؤوساً مثلما للأنبياء والشعراء والفنانين والوعاظ عيون رأوا بها جمال الطبيعة وعبقرية مبدعها.

إن اقتناعك بأن للأنبياء والشعراء والفنانين والوعاظ عيوناً يساوي اقتناعك بأن للأغبياء رؤوساء مسكونة بأنواع العبقريات.

لقد رأى هؤلاء جمال الكون وعبقريته فغنوا له ومجدوه وحولوه إلى جمال إله وعبقرية إله مثلما رأوا جمال العلاقات الجنسية وذكاءها ونظافتها فركعوا لها وحولوها إلى تدبير إله ونظافة إله وحب إله وكرم إله. لقد رأت أعضاؤهم التناسلية جمال وذكاء الممارسات الجنسية مثلما رأت عيونهم جمال الكون وعبقريات صيغه. لقد رأوا جمال الله في الكون مثلما رأوا جماله في الجنس. لقد رأوا الله جميلاً ورحيماً ونظيفاً لأنه دبر لهم العلاقات الجنسية. إن أعضاءهم المحرمة هي التي رأت الله جميلاً ورحيماً ونظيفاً وليست عيونهم التي رأت الله كذلك.

إن موهبة الرؤية في عيونهم حينما رأت جمال الكون والإله والشمس ليست أعظم من موهبة الرؤية في عيونهم وفي أعضائهم البذيئة حينما رأت جمال ونظافة العلاقات والممارسات والنشوات المفتضحة بين هذه الأعضاء المتوحشة.

إن هؤلاء لا يشترطون لرؤيتهم الجمال والعبقرية في الكون وفي الإله وفي أنفسهم أكثر أو أفضل مما تشترط حشرات النباتات أو ذبابة المزارع لرؤيتها الجمال والنظافة في المزارع والنباتات التي تمارس نشاطاتها وشهواتها وصلواتها وأغانيها فيها ومعها ولها وإليها. إن هؤلاء لم يروا جمال الكون وعبقريته، أو جمال الإله وعبقريته، أو جمال حياتهم وعبقريتها أقوى أو أذكى مما رأت ذبابة الحقول جمال الحقول وعبقريتها، وجمال الزراع وعبقريتهم. إن هؤلاء لم يروا ولكن مارسوا، كما أن هذه لم تر ولكن مارست. لقد مارست هذه نفسها وتحدثت عن نفسها وشعرت بنفسها دون أن ترى، كما مارس هؤلاء أنفسهم وتحدثوا عنها وشعروا بها دون أن يروا. إن الرؤية ليست شرطاً في الممارسة. إن الرؤية تحقير للممارسة، إنها وعظ ضدها. إن الرؤية ليست شرطاً في الحديث عن الشيء الذي نتحدث عنه باقتناع لأننا لم نره. إن رؤية الطريق ليست شرطاً في المسير. إن عيون هؤلاء المبهورة بجمال الكون لم تر أكثر مما رأت أعضاؤهم المبهورة بجمال ممارساتها أو بجمال الأعضاء الأخرى التي تمارس معها ذاتها.

إنك لو رأيت الشمس لفدحتك فظاعة الرؤية وقباحة المنظر وسفاهة السخاء والتوزيع..

إنك لو رأيت الشمس لرأيت كل الجزاف وكل الدمامة، وكل السخف، ولرأيت ضخامة العبث، وسفه التوزيع والأسلوب والصيغة والحركة والمكان، وفقدان التخطيط والمنطق والغاية والنموذج،

وبلادة الموازنة بين العمل والنتيجة، أو بين العمل والغرض، أو بين الذات وعملها، أو بين عملها ونفعه.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ضلال البداية والنهاية، وضلال المدبر والمفكر، وضلال المبدع، وضلال المسؤول.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ضلال البداية والنهاية، وضلال المدبر عبثاً عظيماً في مستوى حجمها. لرأيت حينئذٍ أضخم سرف في صياغة أضخم غباء وعبث. إنك إذا آمنت بمنطقية العبث أو الغباء الضخم فإنك كبير في إيمانك بالعبث والغباء بقدر ضخامة ذلك العبث أو الغباء الذي آمنت بمنطقيته.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ما يساوي أن يؤخذ من كل المدن والطرق والمصانع والمعاهد والمعابد والبيوت كل أنوارها لتصنع منها شمعة واحدة كبيرة، كبيرة، لتعلق في الفضاء البعيد، البعيد، لكي تستدفىء بها النمال والفئران، ولكي ترى بها نفسها وترى بها الأشياء حولها، ولكي تقرأ على ضوئها كتبها وصلواتها وحضاراتها، ولكي تجد فيها عبقرية مبدعها وجماله وحكمته ورحمته.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت ما يساوي أن يؤخذ من الأرض كل ما فيها من مواد البناء والزخرفة والإضاءة ليصنع من كل ذلك أكبر تمثال لأكبر طاغية، ليضاء أضخم إضاءة، ليعلق في الفضاء حيث يراه كل الناس في كل مكان، أو حيث يراه كل سكان المدينة الواحدة، بعد أن يوضع فيه جهاز تدفئة، لكي يستدفىء بها الأطفال الفقراء ويقرأوا على ضوئها دروسهم ويلعبوا تحتها، ولكي يشغلوا عيونهم بالنظر إليها، يبهرهم الإعجاب والإيمان بالعبقرية كانبهار الأنبياء والمعلمين والفنانين والوعاظ والشعراء حينما ينظرون إلى جسد الشمس الذي لا مثيل له في قبح مستوياته وكثافة قسماته وضخامته المتوحشة البليدة بلا قياس.

إنك لو رأيت الشمس لرأيت شمعة في حجم الأرض تصنع وتعلق لتضيء وتدفىء وكر عصفور.

هل تطيق أن ترى هذا المنظر، أو هل ترى فيه جمالاً أو عبقرية أو ذكاء؟

هل تطيق أن ترى شمعة في حجم الشمس وفي أضوائها وحرارتها وفي بعدها وفي كل أوصافها وأساليبها لتكون سراجاً ودفئاً وأوقاتاً وجمالاً لكائنات تعيش تحتها، لكائنات لها وفيها كل خصائص البشر وحياتهم ومستوياتهم وبدايتهم ونهايتهم ومستقبلهم؟

هل تطيق رؤية هذا المنظر؟ هل تجد فيه عبقرية أو ذكاء أو جمالاً؟

هل ترى جمالاً أو عبقرية في الشمس حينما كانت وحدها، حينما كانت مصباحاً هائماً ضائعاً ضالاً في الفراغ الرهيب العقيم بلا إنسان، بلا كائنات صغيرة ذليلة كذابة جائعة منافقة في حجم البشر وفي جميع أوصافهم ومستوياتهم الذهنية والأخلاقية - ليقرأوا تحت ضوئها تعاليمهم وأكاذيبهم

وغباواتهم ـ ليقرأوا على ضوئها سير أربابهم وزعمائهم ومعلميهم... ليقرأوا مخاصمات ومكايدات ومشاتمات ومضاربات وحروب وأكاذيب وأحقاد هؤلاء الأرباب والزعماء والمعلمين؟

هل تطيق أن ترى شمعة في حجم الشمس وفي بعدها وفي كل أوصافها بلا إنسان؟ وهل تطيق أن ترى مثل هذه الشمعة لتكون مصباحاً ودفئاً وأوقاتاً ومنظراً رائعاً لكائنات في حجم وصفات ونماذج وظروف البشر؟

هل ترى في مثل هذه الصورة جمالاً أو عبقرية أو ذكاء؟

إنك لو رأيت الشمس لما رأيت عبقرية أو جمالاً أعظم من أن ترى كتلة من المادة أو صخرة شوهاء في حجم الشمس، محترقة مشتعلة متنقلة فوق كائنات مثل البشر، أو دائرة حولها كائنات مثل البشر. قد أشعلت من أجلهم أي من أجل هذه الكائنات التي هي مثل البشر، أو تخلقوا، أي تخلقت هذه الكائنات التي هي مثل البشر من حرارتها وجسدها قدراً وعبثاً غير مدبر أو مراد أو مفسر. إنك حينئذٍ لن ترى جمالاً أو عبقرية أعظم من أن ترى جمال وعبقرية حشرة في حجم الشمس وفي مكانها تموت محترقة صانعة باحتراقها ضوءاً وحرارة، متناثرة إلى قطع ومشاعل ولهب.

إنك لو رأيت هذا الكون لرأيت كوناً لن تتصور أن مهندساً صناعياً أو تجارياً أو جمالياً يقبل مهما كان مستواه الفني أو النفسي أو الأخلاقي أو الشعري أن يكون ـ أي الكون ـ من شعره أو تخطيطه أو تفكيره أو تصوراته. إنك حينئذٍ سوف ترى شيئاً لا بد أن يجد أي مهندس أن نسبته إليه، إلى فنه أو إلى شعره، أو إلى تفكيره أو إلى قدرته أو إلى إحساسه بالجمال وصياغاته ـ أسلوب عنيف من أساليب الهجاء والتحقير. إنك حينئذٍ سترى كوناً لا مثيل له في انحطاط مستوياته الفنية والجمالية. إنك حينئذٍ سترى كوناً لا مثيل له بين كل الأعمال الفنية والصناعية والتجارية والجمالية ـ لا مثيل له في دمامته وفوضاه.

إنك حينئذٍ سترى كوناً لا يشبه إلا نفسه. إنك سوف ترى حينئذٍ كوناً لا تساوي دمامته وفوضاه سوى دمامته وفوضاه.

إنه لا شيء يغطي قبح الكون وفوضاه، أو يغفر له قبحه وفوضاه، أو يعتذر له عن قبحه وفوضاه سوى أنه لا يوجد سواه. لقد أصبح تفرده أقوى اعتذار عنه وستر له. إنه لم يوجد نموذج غيره، لم يوجد نموذج يخضع له ويقاس عليه. لهذا فتنت بدمامته وفوضاه عيون لم تره، عيون وجدته وحده ولم تره. لهذا فتنت بدمامته وفوضاه عيون الشعراء والأنبياء والوعاظ والمعلمين والأطفال، كما فتنت بذلك عيون الحشرات والطيور التي ذهبت تغني له مبهورة بدمامته وفوضاه كانبهار الأطفال والأنبياء والشعراء والوعاظ والمصلين. لقد بهرت عيون الأطفال والأنبياء والوعاظ والشعراء وعيون الطيور والحشرات بدمامة الكون ووحشية تكوينه لأنها لم تره، ولأنها لم تجد سواه، ولأنها لم تتفوق عليه.

إنك لو رأيت الإنسان، لو رأيت كيف يجيء ويذهب، وكيف يهون ويجوع ويخاف ويضعف ويجبن ويتصاغر، وكيف يمارس هوانه وجوعه وخوفه وضعفه وجبنه وتصاغره..

إنك لو رأيت كيف يحسد ويبغض ويحقد ويشتهي ويريد ويتمنى، وكيف يمارس حسده وبغضه وشهواته وأمانيه وإرادته.

إنك لو رأيت كيف يكذب ويخدع وينافق ويتملق ويمدح ويمسح التراب، يمسح كل التراب، بكل جبهته وبكل هامته وبكل قامته، وبكل أربابه وأنبيائه ومذاهبه وأفكاره. حتى أربابه وأنبياؤه ومذاهبه وأديانه ـ حتى هذه كلها يمسحها بالتراب، ويلقي بها إلى التراب الذي يحتاج إلى أن يلقي بكل ذاته إليه.

إنك لو رأيت عينيه، لو رأيت ما في عينيه من التأكيد على الاستجابة إلى كل المستويات الرديئة والضعيفة تحت الظروف المطالبة والشروط المطلوبة، بل وغير المطلوبة، بل وبلا شروط. لو رأيت ما في عينيه من التأكيد على الاستجابة إلى كل نداء يدق أذنيه، دون أن يعرف أو يسأل: مَن مطلق النداء.

إنك لو رأيت ما في عينيه من الاحتمالات المتناقضة، من التهيؤ الدائم للاستجابة إلى فعل الشيء وفعل نقيضه: من الكبرياء والاتضاع، ومن الجبروت والضعف، ومن العدوان والجبن، ومن ممارسة الحرب بلا مستوى إنساني أو حضاري، ومن تقبل للهزيمة بلا أي قدر من الكرامة، ومن النفاق والبذاءة، ومن الصداقة بلا صدق، ومن العداوة بلا شرف، ومن العصيان الشرس والطاعة الذليلة، ومن الحسد للمتفوقين والعبادة للتافهين، ومن عمق الإيمان بالغباء، ومن الزندقة أمام كل ذكاء، ومن التصديق بكل بلاهة ورفض كل عبقرية.

إنك لو رأيت ما في عينيه من الاستعداد الدائم للانتقال من النقيض إلى النقيض بلا مناعة عقلية أو أخلاقية، وبلا كرامة عقلية أو أخلاقية، وبلا فتوى عقلية أو أخلاقية نعم، وبلا فتوى يصدرها العقل والأخلاق... إنك لو رأيت الإنسان كيف يتوزع على المذاهب والأديان والأرباب والنظم، وكيف يتنقل عليها وبينها كما يتنقل على قدميه، كما يتنقل بين الكراسي والغرف والأماكن.. إنك لو رأيت كيف تتنقل عليه المذاهب والأرباب والمعلمون والنظم والأديان، وكيف تتجمع عليه دون أن يرفض عقله أو كرامته أو أخلاقه، ودون أن يتدخل عقله أو كرامته أو أخلاقه، ودون أن يعلم بأنه من الجائز أن يتدخل عقله أو كرامته أو أخلاقه. لو رأيت ما في عينيه من الطاعة والاقتناع والحب، وطغاته وأربابه يسوقونه إلى الحروب والعداوات والآلام وإلى كل الحماقات. إنك لو رأيت ما في حياة الإنسان من احتمالات الموت والقتل ومن أسبابهما، وما في صحته من احتمالات المرض والضعف ومن أسبابهما، وما في شجاعته من مستويات الجبن ومن احتمالاته وأسبابه، وما في أمنه من أسباب الخوف ومستوياته واحتمالاته، وما في حبه وصداقته من احتمالات وأسباب البغض والعداوة، وما في شرفه من معاني ومستويات النذالة والخداع والبيع والاتضاع والتنازل، وما في كرامته من أشواق إلى السقوط ومن

صداقة للسقوط، وما في صدقه من حنين إلى الكذب ومن استجابة تاريخية للكذب ـ وما في صدقه من معاني الكذب، ومن نيات الكذب، ومن عراقة الكذب.

إنك لو رأيت ما في ذكاء الإنسان من معاني الغباء والخرافة ومن مستوياتهما وأسبابهما، وما في منطقه من معاني التضليل والضلال ونياتهما، وما في إيمانه وتدينه من أساليب النفاق والتجارة والكيد، وما في حضارته من بداوة وجاهلية وهمجية، وما في قامته من معاني الانحناء والقصر والتحطم، وما في جبهته وهامته من لغات السجود ومعاني التراب، وما في يديه ورجليه من بصمات الفسوق والعدوان والضياع والاعياء والضلال والعناء وضربات التاريخ بلا أجر مقبول متفق عليه، بلا أجر معلوم بالنطق أو بالتفاهم الروحي أو الأدبي، بلا أجر مضمون بأي أسلوب من أساليب الضمان ومستوياته.. لو رأيت ما في رجليه من عذاب التيه، من عذاب المسير الطويل في التيه..

إنك لو رأيت ما في كباره من أخلاق الصغار وضآلتهم وخوفهم وهوانهم وما في صغاره من كبرياء الكبار وغرورهم ووحشيتهم وادعائهم ولغاتهم ومشاعرهم وخطواتهم...

إنك لو رأيت ما في وجهه وتعبيراته من النزق والشراسة والشماتة والقسوة إذا انتصر، ومن الانكسار والانهيار والتقوى والتهذيب إذا انهزم.

إنك لو رأيته أسداً وأرنباً، لو رأيت كيف يصبح أسداً وأرنباً، كيف يصبح أسداً ثم يصبح أرنباً، وكيف يصبح أرنباً ثم أسداً، كيف يكون هذا وهذا معاً، وكيف ينتقل من أخلاق هذا وجلده ولغته إلى أخلاق ذاك وإلى جلده ولغته..

إنك لو رأيت ما في نظراته من لهفة وخوف وتطلع وحيرة وجوع وشهوة وافتراس، ومن آثار معارك لتاريخ حزين، ومن قراءات لمستقبل يخافه ويخطو إليه، يريده ويتوقع منه، يصنعه دون أن يختاره، يفاخر به ويمجده دون أن يفهمه، ودون أن يسعده أو يهبه تفسيراً يقنعه بمعنى وجوده.

إنك لو رأيت ما في نظراته من هزائم ومن جراح ومن ذنوب ومن فضائح ومن مظالم ومن أنين، ومن صراخ. إنك لو رأيت ما في قسماته من إهانات ومن تراكم الإهانات ومن تاريخ الإهانات ومن ذكريات الإهانات ومن تعبيرات الاهانات التي تغذت به، والتي تغذت بكل آبائه وتاريخه، وبكل القيم الإنسانية فيه. إنك لو رأيت قوافل الآلام الطويلة المتجمعة في عينيه والمتحركة في عينيه والباركة في عينيه. إنك لو رأيت في عينيه كل آبائه المرهقين وهم يعانون في تيه التاريخ الأعاصير والظلام والوحوش والبحث عن الآلهة المفترسة.

إنك لو رأيت ما في عينيه من دموع متجمدة متحجرة، ومن دموع صامتة، هامسة، هامسة، صارخة، صارخة، صارخة، أبداً صارخة. وهل توجد عيون ليست فيها دموع متجمدة أو صامتة أو هامسة أو صارخة، صارخة؟ هل توجد عيون ليس لها تاريخ من الدموع؟ هل توجد عيون ليس فيها

دموع منطلقة أو منتظرة؟ هل توجد عيون ليست فيها كل معاني الدموع وكل لغاتها وتفاسيرها وكل أخلاقها؟

إنك لو رأيت ما في عينيه..

لقد رأى الشعراء والعاشقون والمقلدون جمال العيون وتحدثوا عنه طويلاً، طويلاً، أحاديث كثيرة، كثيرة، أحاديث فيها كل فنون التهاويل والحماس اللفظي والنفسي..

ولكنهم لم يروا ـ بنفس الأسلوب أو قريباً منه ـ عذاب العيون وما فيها من تراكمات الانفعالات الضاجة الضارعة الباكية، ولم يتحدثوا عنها بنفس الأسلوب أو قريباً منه. لقد رأوا الجمال في العيون ولم يروا العذاب فيها. إنهم لم يروا الجمال ولا العذاب. لقد تحدثوا من أعضائهم إلى عيونهم. إنهم بهذا الأسلوب قد رأوا الجمال، وبهذا الأسلوب لم يروا العذاب.

إنك لو رأيت ما في عيون الإنسان من عذاب، من عذاب متراكم، من أصناف العذاب، من العذاب المختلف والمتعدد الجنسيات. وإنه لم يوجد من يستطيع أن يعيش خارج كل جنسيات العذاب. لقد توزعت كل جنسيات العذاب على البشر، وتوزع كل البشر على كل جنسيات العذاب. لقد كان توزعاً رديئاً غبياً عشوائياً.

إنك لو رأيت ما في العيون الضارعة المسترحمة ـ المسترحمة والضارعة خوفاً أو هواناً أو معاناة من مرض أو من حاجة أو من عذاب ما.

إنك لو رأيت ذلك لتحولت الشموس والأزهار والحقول وكل الأشياء الجميلة إلى عاهات ودمامات وفضائح، إلى ذنوب وهجاء. إذن لتحولت كل الأشياء إلى عار في الطبيعة التي أعطت كل هذه الشموس وكل هذه الأشياء الكبيرة الجميلة ثم لم تستطع أن تعطي عيوناً غير ضارعة وغير مسترحمة ثم لم تستطع أن تكف عن إعطاء العيون المحكوم عليها بأن تكون ضارعة مسترحمة، ولتحولت كل الأشياء إلى عار في عينيك لو استطاعت عيناك أن تريا شيئاً ـ أي شيء ـ غير العيون الضارعة المسترحمة تحت معاناة العذاب أو الهوان أو الخوف أو التحقير أو الحرمان.

إنك لو رأيت مثل هذه العيون، لو استطعت أن تراها، ثم لم تمت أو تصعق اشمئزازاً أو غضباً أو رفضاً أو خجلاً لما أمكن أن يكون عذابك أقل من عذاب أصحاب هذه العيون. إنه لمحتوم عليك حينئذٍ أن تخجل من أجل الطبيعة. هل عانيت الخجل من أجل الطبيعة؟ إنه لا شيء يستحق أن تخجل له أو أن تخجل من عاره مثل الطبيعة. إن كل الخجل لو تحول إلى خجل من الطبيعة ومن أجل الطبيعة لما كان خجلاً كافياً.

إن العيون المعذبة لن تكون أقسى عذاباً من العيون الرائية للعيون المعذبة لو وجدت العيون التي تستطيع أن ترى العذاب في العيون المعذبة ـ لو وجدت العيون التي تستطيع أن ترى العيون المعذبة

بكل عذابها، وبكل أحساسيها، وبكل نظراتها، وبكل ضراعاتها، وبكل احتجاجها وصراخها واستنجادها.

إن الرؤية للعذاب حمل للعذاب من طريق العيون. إن العيون هي أقوى أجهزة التوصيل للعذاب إلى الذات، إنها أقسى وأشمل أجهزة التوصيل. إننا بأعيننا أكبر وأوسع منا بذواتنا. إن عذابنا بعيوننا أشمل وأكبر من عذابنا بأجسامنا. إن الذين يتعذبون بواسطة عيونهم هم أشمل وأشد الناس عذاباً.

إنك قد تتعذب برؤية العذاب، برؤية الخوف والهوان والضراعة في المعذب الخائف المهان الذليل الضارع أكثر مما يتعذب من تراه فتتعذب له أو لرؤيته، أو لرؤيتك له.

إن الجمال هو العيون الشريرة التي ترى بها الدمامات. إنه لا توجد عيون أخرى لرؤية الدمامات غير الجمال.

إنك لو رأيت أعلى مستويات الجمال، لو رأيت أجمل وجه لرأيت فيه كل الدمامات في كل الوجوه الدميمة تعاني كل عذاب الغيرة والغضب والحسد والظلم وتحقير الذات وكرهها. إنك لو رأيت وجهاً جميلاً، فإنك لا تراه، لا ترى وجهاً جميلاً وإنما ترى مكاناً تتجمع فيه الوجوه الدميمة، تتجمع فيه جميع الدمامات غاضبة شاتمة كارهة حاقدة محتجة منكرة محسورة. إنك لو رأيت كل جمال الكون وكل ما فيه من ضياء متحولاً إلى وجه، لو رأيت كل ذلك متجمعاً ليكون جمالاً لوجه، إنك حينئذٍ لن ترى ذلك الجمال، ذلك الوجه الذي أصبح كل جمال الكون وكل ضوئه بعض ما فيه من جمال. إنك حينئذٍ سترى ذلك الجمال، ذلك الوجه قد أصبح منظراً منكراً، قد أصبح وجهاً دميماً جداً، وشيئاً دميماً جداً بقسوته وبعرضه الفاجع للوجوه الأخرى المضادة، بتحدياته الوحشية للوجوه الأخرى.

إن الوجه الجميل ليس إلا أسباباً للوجوه الأخرى، إنه إعلان متوحش عن الدمامات، إنه تذكير بها، إنه إشارة وقحة إليها. إن الوجه الجميل ليس إلا رؤية للوجوه الدميمة. إنه ليس وجهاً جميلاً ولكنه عيون إضافية، عيون أخرى جيدة تمنح قوة الرؤية وقسوتها للوجوه التي ليست جميلة. إن الوجه الجميل ليس إلا مرآة بذيئة، ترى بها جميع الوجوه الدميمة بأسلوب تموت فيه كل معاني الرحمة والتهذيب.

إنك لو كنت ترى لرأيت كل الوجوه الدميمة مطلة من الوجه الجميل الذي تراه، مطلة بذعر ويأس وارتجاف، بل لرأيت كل الوجوه الدميمة مشتومة مصلوبة فوق الوجه الجميل الذي تراه. إن الوجه الجميل ليس إلا صليباً للقسوة تصلب فوقه جميع مستويات الرأفة، تصلب فوقه كل معاني الإنسان. إنك حينئذٍ لن ترى إلا غطاءً هائلاً من الدمامات فوق هذا الوجه الذي تراه. إن ذلك الوجه الجميل سيصبح حينئذٍ أقبح شيء، سيصبح أكثر الأشياء دمامة. إن جميع الدمامات ستجتمع فيه، ستصبح له غطاء لا مثيل له في دمامته وكثافته وفي إثارته للحزن والرثاء. إن دمامات كل الوجوه الدميمة ليست إلا الرؤية الجيدة، إلا الرؤية الثانية المحدقة في جمال الوجوه الجميلة - ليست إلا الترجمة، إلا التفسير. إن الوجه الجميل ليس إلا مكاناً تعرض فيه جميع الدمامات بكل أساليب العرض وقسوته.

أما صاحب الوجه الجميل ـ لو كان يرى ـ فما أضخم شقاءه، فما أقسى وأدوم وأشمل أحزانه. إنه حينئذٍ سيرى وجهه، سيراه دائماً، سيراه أكثر وأعنف من كل الرائين الآخرين. إنه حينئذٍ سيرى كل الوجوه الدميمة مجتمعة مسحوقة مهانة فوق وجهه. سيراها جميعاً غطاء لوجهه. سيراها جميعاً مطلة من وجهه، من جمال وجهه. سيراها جميعاً شاتمة لوجهه، غاضبة حاقدة على وجهه، محتجة عليه، شاكية من وقاحته، ومن عدوانه عليها. سيرى وجهه حينئذٍ غريباً منبوذاً مضطهداً. إن أقسى الأشياء غربة هو وجهك الجميل بين الوجوه الدميمة. إنه فاجر، فاجر. إن وجهك الجميل بين الوجوه الدميمة ليس وجهاً، ليس وجهاً ولكنه أسلحة وقذائف وحجارة تقاتل وتتفجر وتتساقط وتخيف وتبارز وتتحدى بهمجية..

إنه حينئذٍ سيرى كل الوجوه الدميمة تلعنه وتكرهه وتخافه وتعاديه وتتمنى له كل التشويه والعذاب والموت. سيراها تتهمه وحده بإذلالها وتحقيرها وكشفها لنفسها ولكل الناظرين إليها. سيرى حتماً أنه ظالم وعدواني ووحشي، وأنه في ورطة، وأنه لا خلاص له من هذه الورطة بأي تدبير عقلي أو أخلاقي أو إنساني. سيرى أنه لا خلاص له من هذه الورطة إلا بالتخلص من ذاته، بالموت أو بتشويه جماله.

إن ذنبه حينئذٍ ليس ذنباً يعالج بالدين أو بالأخلاق أو بالتكفير. إنه ذنب لا يعالج إلا بالخروج من الذات، إلا بقتل الذات أو بإخفائها أو بتشويهها لتكون أكثر دمامة من أشد الوجوه دمامة. إن الجمال ذنب لا يمكن علاجه بالتوبة ولا بالاعتذار ولا بالتعويض ولا بالتهذيب ولا بالحب. إنه ذنب لا يعالج إلا بالموت. حتى الموت، إنه لن يكون علاجاً لذنب الجمال. إنه لا شيء يغفر للجمال عدوانه على الدمامة.

إنك لو كنت إلهاً وكنت قاسياً بلا أي مستوى من مستويات الرحمة، وبلا أي موقف من مواقف الرحمة، ثم أردت أن تعذب إنساناً أقسى عذاب تتصوره وتستطيعه لما وجدت أسلوباً لتعذيبه بمثل هذا الأسلوب أقوى من أن تهبه جمالاً بلا حدود، وتهبه قدرة على الرؤية بلا حدود. إن هذا هو العذاب الأكبر، إنه العذاب الذي لا تجرؤ عليه إلا قلوب الآلهة وأخلاقها.

إننا مهما تصورنا الإله قاسياً فإننا قد نعجز عن أن نتصور بأن قسوته قد ترتفع به إلى أن يهب إنساناً جمالاً ثم يهبه أي مستوى من مستويات القدرة على الرؤية. إن هذا الأسلوب من التعذيب الفظ الرهيب قد يعافه الإله نفسه، قد يرهبه الإله نفسه. إنه تعذيب وقسوة قد يرهب الإله تصورهما، وقد يعجز عن تصورهما، وقد يخجل من تصورهما، وقد يعذبه تصورهما. ولكن هل يمكن أن يعاني شيئاً أو يرهب شيئاً أو يخجل من شيء أو يعذبه تصور شيء من خلق هذا الكون؟

إن أشد الناس حاجة إلى ألا تكون له عينان، إلى العجز عن الرؤية هو من وهب أي مقدار من الجمال. إن من وهب جمالاً يجب أن يخلق أعمى، وأن يعيش أعمى، وأن يظل أبداً أعمى. إن هذا هو أقل مستويات الرحمة، إنه أقل أساليب التوحش. إن الجمال لن يكون مزية لمن يصاب به إلا بقدر ما يكون أعمى.

إنها لورطة لا حدود لها ـ أن توجد الوجوه الجميلة بين الوجوه الدميمة. إنها لورطة لا حدود لها، لا رحمة ولا عدل فيها أن يوجد الجمال مواجهاً معايشاً للدمامة. إنها لوحشية، لوقاحة، إنها لأعلى مستويات الدمامة. إنها لأشنع ألوان الدمامات أن يوجد أعظم الجمال في مواجهة أبشع الدمامات. إن ذلك لأشنع الدمامات، لأشنع دمامات الوجوه، ودمامات النفوس والعقول والأخلاق.

إنه لعذاب وورطة أن يوجد الجمال في مواجهة الدمامة وأن توجد الدمامة في مواجهة الجمال. إنهما لعذاب وورطة أن تكون أنت الجميل أو أن تكون أنت الدميم. إنهما عذاب وورطة للجميل وللدميم إن كانا يريان. إن الدمامة التي ترى ليست أكثر عذاباً وتورطاً وحرجاً من الجمال الذي يرى. إن الجمال الذي يرى هو أشد الخصمين وأشد النقيضين حملاً للإثم والحرج والعذاب، إنه أشدهما شعوراً بالإثم والعذاب والحرج. إن الجمال الذي يرى مذنب ومعذب، ولكن الدمامة التي ترى معذبة فقط. إن حامل الجمال مذنب يحمل ذنبه في وجهه ويحمله في الطرق العامة وفي عيون الناس ووجوههم.

إنك لو كنت إنساناً يرى كل الرؤية، بكل مستوياتها وتفاسيرها لما شككت في أيهما أشد تعذيباً وتوريطاً وتأثيماً لك: أن تكون جميلاً تعذب وتعاقب الدمامات حولك، وتتوقح عليها بجمالك، أم أن تكون دميماً يعذبك ويعاقبك ويتوقح عليك الجمال فيمن حولك. إن معاقبة الآخرين والعدوان عليهم ليسا دائماً سعادة، إنهما قد يكونان شقاء، قد يكونان أشد الشقاء. قد يكون تلقي العقاب والعدوان

طاعتنا هذه أفضل من منطق أو من خيار مثل هذا الحيوان المدرب على مقاتلة الحيوانات الأخرى والمدفوع إلى مقاتلها؟

إن من يصنعون الحروب والمغامرات ومن يقودون إليها ومن ينفذونها ويقاسونها ليسوا إلا جبناء هاربين. لقد هربوا إلى الموت والخراب والتشويه كما يهرب المتعب والمهموم والمدمن والمهزوم والمغصوب إلى ما يصنع له المزيد من ذلك. إن الإنسان لا يصنع الحرب أو المغامرة أو يريدها أو يقع فيها بقدر ما يكون جريئاً. كما أن المدمن ومتعاطي المخدرات لا يفعل ذلك أو لا يخضع لإدمانه ولتعاطيه بقدر ما يكون قوياً أو سوياً أو معافى.

إن الذين يقاتلون أو يقودون إلى القتال لن يكونوا شجعاناً إلا بقدر ما يكون من يغضبون أو يعادون أو يخاصمون أو يشاتمون أو يفاخرون أو يقاطعون أو يتهمون أو يحقدون أو يحسدون أو يغتابون شجعاناً؟

إن هؤلاء وهؤلاء ليسوا إلا هاربين على مستوى بذيء وأحمق وبليد، وبأسلوب فيه كل معاني وتفاسير الهمجية والهوان والدمامات.

* *

هل هم شجعان كل من يتعرضون لأسباب الموت والتشوهات والآلام، أو يصنعون هذه الأسباب؟ لو كان ذلك كذلك لكانوا شجعاناً كل من يتعاطون المخدرات وكل من يمارسون حياتهم وذواتهم ممارسات قتالة. وكذلك كل من يكيفون علاقاتهم مع الآخرين تكييفاً أحمق وصانعاً للغضب والحقد والبغضاء والخوف، وكذلك كل من يصنعون أي شيء يدني من الموت أو تعظم فيه احتمالات الخطر.

هل الشجاعة هي الدنو من المكان أو من الطريق الذي تتجمع فيه أو تمر منه مواكب الموت؟ هل الشجاعة هي أن تضع شفتيك على حافة الكأس التي يضع عليها الموت كل شفاهه؟ إذن فالمريض الذي يرفض الذهاب إلى الطبيب، أو يرفض الالتزام بأسباب الصحة والقوة وشروطهما هو من أشجع الشجعان.

وإذن فالذي يحقد ويحسد ويبغض ويغضب ويغار ويحزن ويخاصم ويعجز عن النوم أو يرفض النوم هو من أعظم الشجعان. وكذلك من يخاف من الموت ومن الحياة ومن الفقر والمرض والأعداء، ومن كل المخاطر والاحتمالات الرديئة والأليمة. لأن كل ذلك قد يقرب من الموت ومن العذاب، ويصنع أسبابهما. والشجاعة في هذا الافتراض هي التقرب إلى أسباب الخطر والموت والتشوه والعذاب.

هل يستطيع الناس أو هل استطاعوا أن يحددوا أنفسهم أو أن يفسروا مواقفهم أو نياتهم؟ هل خير لهم أن يستطيعوا ذلك ويفعلوه؟

هل عرفنا أننا قد نخاف من الهزيمة فنصنع الهزيمة ومن الأعداء فنوجد الأعداء، وأننا قد نحاول الخروج من مأزق لنقع في عديد من المآزق، كما قد نحاول الفرار من السقوط بالسقوط، ومن أن نكون متهمين بالجبن إلى أن نعيش كل معاني الجبن وأساليبه، وأننا قد نقدم على الخطر لأننا خائفون جداً وعاجزون عن مواجهته جداً، وأننا قد نبدو كمن لا يخافون لأنه لا يوجد من يخافون مثلنا؟

هل عرفنا أننا لم نفسر أنفسنا وأننا لا نستطيع ولا نريد أن نفسرها؟ هل عرفنا أننا هاربون من التفاسير مهما فسرنا؟

هل عرفنا من هم الشجعان ومن هم الجبناء؟ لقد عرفنا اللصوص والخونة والمفسدين والكذابين والمحتالين، وعرفنا أنهم هم الذين يفعلون ما ندعوه سرقة وخيانة وإفساداً وفساداً وكذباً واحتيالاً. ولكن هل عرفنا أن هؤلاء هم الشجعان دون من لا يفعلون ذلك لأنهم لا يجرؤون عليه؟

هل عرفنا ذلك إلا بقدر ما عرفنا أن الذين يتقبلون أن يقتلوا الآخرين وأن يقتلهم الآخرون، لأن السلطان أمرهم بذلك، هم الشجعان دون من يرفضون ذلك لأنهم لا يجرؤون عليه، أو لأنهم يخافونه، أو لأنهم لا يستطيعونه، أو لأنهم لا يملكون الشجاعة على فعله، أو لأنهم يجرؤون على عصيان السلطان؟ أيهما الشجاع: الذي يقتل أبناءه لأن السلطان أمره بقتلهم أم الذي يرفض ذلك؟ أيهما أشجع: الذي أطاع السلطان أم الذي عصاه؟

إذن هل يوجد شجعان وجبناء أم يوجد قوم يعيشون فوق الزلزال أو تحت الجبل المنهار، أو داخل المنجم المتفجر، فيموتون أو يصابون أو يتشوهون، دون أن يقصدوا ذلك أو يريدوه، ودون أن تكون لهم أية أخلاق أو أفكار متفوقة أو تقية، أو أن تكون فيهم أية مزايا مذهبية أو دينية أو ثورية أو وطنية أو إنسانية، بينما يوجد أقوام آخرون يعيشون في ظروف أخرى، فلا يواجهون حينئذٍ مثلما يواجه هؤلاء، أو لا يصابون بما يصاب به هؤلاء، وحينئذٍ تبدو المواقف وكأن بينها فروقاً؟ إن من يدعون شجعاناً ليسوا إلا قوماً وجدوا فوق الزلزال أو تحت الجبل المنهار أو داخل المنجم المتفجر فماتوا أو شوهوا دون أن تكون فيهم أية مزية.

أليس جميع الموجودين على جميع الجبهات وفي جميع المواقف هم دائماً قوماً يحتاجون ويريدون ويخافون ويتوقعون ويواجهون ظروفاً ومواقف مختلفة في تحريضاتها وإملاءاتها وتفاسيرها، وحينئذٍ يتصرفون ويشعرون وينوون، خاضعين لكل ذلك، ومحكومين به، فندعو بعضهم شجعاناً وأتقياء، وندعو بعضهم جبناء وفجاراً، خاضعين أي نحن لحساباتنا ولأهوائنا ومصالحنا وتقديراتنا ولظروفنا وتلقيناتنا، ولأحكامنا وتعريفاتنا السابقة والمملاة والمطروحة علينا طرحاً؟

هل سجان السلطان أو حارسه أو سيافه أو مستشاره أو شاعره ـ مع احتمالات الخطر القوية عليه ـ شجاع؟ هل القاتل المقتول بأمر السلطان أعظم شجاعة أو حرية أو ذكاء أو تديناً أو مذهبية من سياف السلطان أو من حارسه أو من مستشاره أو من شاعره؟

هل العامل في المنجم المميت الرهيب المهدد أبداً بالسقوط، لأن السلطان يريد منه ذلك ويدفعه إليه ـ هل هذا العامل شجاع؟

هل أي شجاع أنبل أو أتقى شجاعة من العامل في اسطبلات السلطان وعلى كلابه ووحوشه خوفاً من السلطان؟

ألسنا حينما نهتف للزعيم أو للقائد أو للبطل الذي يقودنا إلى المغامرات والحروب وإلى الموت والخراب والجنون، إنما نهتف لواحد من الهاربين القساة الجبناء الذين خافوا على مجدهم أو على حياتهم أو على طغيانهم أو على طموحهم أو على مكاسبهم أو على آثامهم، أو على عروشهم وبقائهم فوقها؟

ألسنا نهتف لأحد من جبنوا عن مواجهة الذكاء والوقار والتهذيب والحب والصمت والسلام، فساقونا إلى الجنون والغباء والوحشية والوقاحة والعداوة والحقد والبغضاء والضجيج، فساقونا إلى كل ما في الجحيم من أهوال؟ إن الصمت والوقار والتهذيب والذكاء والحب والسلام والاستقرار مخيف، مخيف جداً للزعماء والقادة والطغاة وللمعلمين أيضاً ولو أحياناً. إن ذلك يرهبهم ويفضحهم ويقتلهم.

إننا حينئذٍ إنما نهتف لقوم جبنوا وعجزوا عن مواجهة السلام، وعن مواجهة ظروفه وتكاليفه والتزاماته، وعن مواجهة أخلاقه وتبعاته. لقد أدركوا أن مواجهة السلام لا بد أن تحتاج إلى شجاعة وأخلاق وذكاء وصمت ووقار وتهذيب وتواضع وابتكار وتخط للذات ولما هو موجود أعظم وأغلى وأتقى وأنبل مما تحتاج الحروب والمغامرات والحماقات.

لقد أدركوا على نحو ما أن صناعة السلام الجيد تحتاج إلى أساليب ومستويات من العبقرية والفداء والابداع لا تحتاج إلى مثلها الحروب الجيدة. إنهم إذن ليذهبون يصنعون الحرب خوفاً من السلام وعجزاً عن مواجهته وعن دفع أثمانه. إن الحروب قد تكون هي التعويض الشرير الكاذب عما يجب أن نفعله للحياة أو في الحياة. إنها قد تكون هي الاعتذار الباهظ عن عجزنا وغبائنا ونذالتنا ووقاحتنا.

إن كثيراً من الرجال ليصنعون الحروب والعداوات والخصومات والأحقاد والبغضاء، ويفعلون ما يدعى شجاعة أو إقداماً، دون أن يريدوا شيئاً أو يبحثوا عن شيء أو يعنوا شيئاً غير أن يهربوا من الصمت والتهذيب والوقار والذكاء ومن الحب والصداقة والسلام. إن كثيراً من الرجال ليذهبون يقاتلون ويصنعون الحروب لأنهم لا يجدون شيئاً يفعلونه أو يتقنونه أو يغطون به تفاهاتهم سوى ذلك.

إنهم ليفعلون ما يحسب شجاعة أو جرأة أو إقداماً، دون أن يملكوا أي مستوى من مستويات الشجاعة، ودون أن ينووا امتلاك شيء من ذلك، ولكن فراراً وخوفاً من الالتزام بهذه المزايا الباهظة، أي فراراً وخوفاً من الصمت والذكاء والتهذيب والوقار والحب والصداقة والتواضع، ومن أخلاق السلام وتبعاته ومشاكله وحقوقه وتطلعاته، ومن فضح الاستقرار. كم يفضح الاستقرار الكثير من الرجال. إنهم ليفعلون ذلك فراراً من الافتضاح ومن أن يبدوا ويروا بكل مستوياتهم.

إن عيون السلام والاستقرار لتبدو أحياناً حادة ومحدقة ومخيفة. إنها سلاح يقتل ويشوه أي يفضح التشوه.

وما أقسى وأصعب على كثير من الرجال أن يكونوا صامتين ومهذبين ومتوقرين وأصدقاء وعقلاء وفضلاء وملتزمين بالسلام وبأخلاقه ومعانيه ما أشد حاجة هؤلاء الكثيرين من الرجال إلى أن يكونوا نقيض ذلك بسلوكهم ونياتهم وبتعاليمهم وقياداتهم. ما أقسى عذاب من يحاولون الالتزام بالتهذيب وبالذكاء وبالعقل. وهل يوجد من يستطيعون الالتزام بذلك أو يحاولون التزامه؟

إن الحروب هي أعلى مستويات الضجيج والوقاحات والعداوات والمخاصمات والبغضاء والتوتر والسباب والفحش والتعبير عن الخوف والهرب. لهذا كم يهرب إليها ويتداوى بها ويجد فيها أمنه وعزاءه ونشواته كثير من هؤلاء الرجال الفادحين. إن الهرب إلى الحروب هرب شامل. إنها العلاج لأفدح الرجال عاهات. إن أفدح الرجال عاهات ودمامات قد يجدون في الحروب والخصومات أقوى دواء لعاهاتهم ودماماتهم. أما السلام فإنه قد يبدو لهؤلاء الرجال وكأنه أعلى مستويات الوقار والتهذيب والصمت والتواضع والحب والخطر والالتزام والهدوء والذكاء والعقل والاختفاء في الظل. وهل يوجد عقاب لهم أقسى من هذا؟

لهذا كم يخافه وينكره ويرفضه ويعاديه هؤلاء الرجال الفادحون.

إن هؤلاء يريدون بخروجهم على السلام أن يهربوا من هذه الأخلاق الصعبة، أو من هذه القيود، أو من هذه الالتزامات النفسية والعقلية والأخلاقية. إنهم ليسوا إلا عاجزين وهاربين وخائفين.

إنهم ليسوا أبطالاً أو شجعاناً أو أجرياء القلوب أو الأخلاق. إنهم ليسوا إلا كالبذيء الغاضب الهمجي الذي يهرب من الصمت والتهذيب والاستتار إلى الفحش والصياح والافتضاح.

إن الإقدام والاحجام حركتان مثل سائر الحركات المنظورة أو المصادمة، المرفوضة أو المقبولة، المريحة أو المتعبة، أو غير المريحة وغير المتعبة. إنهما حركتان لا تختلفان في مشاهدتهما من الخارج، ولا في قطعهما للمسافات، ولا في قياسهما للأرض، ولا في بعدهما عنها، ولا ثقلهما عليها. كما لا تختلفان في تفاسيرهما أو في دوافعهما من الداخل.

إن الحركة المؤدية إلى اللذة والعقل والخير أي إلى السعادة هي حركة خيرة وذكية وشجاعة حتى ولو كانت إحجاماً، أي حتى ولو كانت فراراً من السير تحت راية السلطان، حتى ولو كانت خوفاً أو جبناً عن أن تكون قاتلاً أو مقتولاً أو قاتلاً مقتولاً كما يريد لك السلطان.

أما الحركة المؤدية إلى نقيض ذلك فإنها لا بد أن تحسب شريرة وغبية وجبانة حتى ولو كانت أجرأ مستويات وأساليب الإقدام، حتى ولو كانت موتاً وتشوهاً وقتلاً وتشويهاً لكل الأعداء والمخالفين والخصوم تحت رايات وقيادة جميع الأنبياء والقديسين، وجميع المذاهب والأديان والتعاليم والثورات والقوميات.

إن الشجاعة ليست إلا رفضاً للألم والجنون وهرباً منهما، حتى ولو كانت رفضاً لأن تقتل غيرك أو تشوهه أو تذله، أو يقتلك غيرك أو يشوهك أو يذلك تحت أية راية أو أية دعوى أو أية عقيدة أو مذهب أو سلطان أو نبي. إن قيمة الفكرة أو المذهب أو العقيدة والدعوى لا تتحول إلى قيمة في السلوك.

إن الشجاعة فكرة ومنطق وحساب واتزان وإعطاء لما هو أقوى وأفضل وأتقى وأذكى وإلا كانت جنوناً يدفع إليه الخوف والقنوط والبحث عن الافتضاح والعذاب، وعن الخراب والبغضاء والخصومات والضجيج القبيح، وعن الفحش والسباب والعداوات.

إن الشجاعة لا تساوي فقط الموت والتشوه أو القتل والتشويه. إنها أذكى من ذلك أو أكثر تعقيداً. إن أسهل الحيوانات والحشرات موتاً وأكثرها استسلاماً للقاتل ليست أكثرها شجاعة أو مجداً.

إنهم لكثيرون أولئك الذين يريدون أن يحولوا كل الناس أو أن يحولوا مجتمعاتهم إلى أدوات يعبرون بها عن حاجتهم إلى المخاصمة والمشاتمة والمعاداة والبغضاء والبذاءة والدوي والجنون، وإلى أدوات يهربون أو يتحررون ويتحللون بها من الوقار والأدب والسكوت والاستتار، ومن الالتزام بالعقل وبقيوده الكثيرة الشاقة وأن صانعي الحروب الشجعان ليسوا إلا قوماً يحاولون أن يحولوا كل الناس أو مجتمعاتهم إلى هذه الأدوات. إن أية حرب لم تكن بحثاً عن الحل لأية مشكلة من مشاكل الإنسان ولكنها في جميع أسبابها ليست إلا تعبيراً عن ألم أو عن طموح، وعن بذاءة أو عن هرب أحد الرجال.

وإنهم لكثيرون في كل التاريخ أولئك الذين يحاولون الانتحار بالسقوط فوق الآخرين. إن هذا السقوط، أو هذا الانتحار بالسقوط فن قديم مثير شهير. إنه فن فيه كل معاني الإغراء والغواية. إنه أحد الفنون العالمية التاريخية. إنه فن الأبطال المرضى، بل لعله فن الأبطال الأصحاء. ألا يثير فيك كل مشاعر الغواية أن تتصور أنك كائن ينتحر انتحاراً عالمياً، ينتحر فوق العالم أو بواسطة العالم، وينتحر بانتحاره كل العالم؟

ولعل كل أولئك الذين كانوا يعدون ولا يزالون يعدون أبطال التاريخ لم يكونوا إلا هاربين مهزومين خائفين، هربوا من أنفسهم ومن مواجهاتهم إلى الموت بالسقوط فوق العالم، فوق الشموس، في مواكب من ضجيج الآلام والأحزان والخراب والجنون، بينما كانت مشاعرهم تعيش في ضجيج من السعادة الآثمة التي تجعلهم لا يستطيعون أن يسمعوا أي ضجيج آخر. إن ضجيج انتحارك فوق العالم لا بد أن يقتل في سمعك كل ضجيج آخر.

إنه لمن أفدح المآسي وارداً حظوظ البشر أن يوجد بينهم دائماً من يريدون ويستطيعون الموت بالانتحار فوقهم وفوق كل شيء، فوق مدنهم ومعابدهم ومصانعهم وحقولهم، وفوق شيوخهم وأطفالهم، ليتحول انتحارهم إلى انتحار شامل لكل شيء ينتحرون فوقه لكي يهرب أولئك المنتحرون وفوقهم من أشباحهم ومخاوفهم، أو من تاريخهم، أو من عجزهم، أو من صمتهم ووقارهم، أو من آلامهم وطموحهم وتعبهم، أو من مواجهتهم لأنفسهم ولما فيها من تفاهات وعاهات، أو من التزامهم

بقيود العقل والتهذيب. ما أقسى قيود العقل والتهذيب، وما أقسى وحشية هذه القيود. وما أكثر الهاربين منها، الرافضين لها، العاجزين عن الالتزام بها.

إن الانتحار فوق السحاب هو أشهر وأخطر أنواع الجنون الذي قاسى منه كل البشر في كل التاريخ. إن جميع صانعي الحروب والخصومات والمغامرات الكبيرة والفادحة ليسوا إلا قوماً يريدون أن ينتحروا فوق السحاب أو يخطبوا فوق السحاب أو يشاتموا الناس من فوق السحاب.

إن إنساناً ما يريد أن يتحدث بأسلوب عالمي، أو أن يتحدث بواسطة كل العالم، عن نفسه وإليها، وعما فيها من أحقاد ومخاوف وهموم وعداوات وفحش وبذاءة وبغضاء ومجاعات، ومن تاريخ وذكريات ومواجهات رديئة ومخيفة ـ ويريد بأسلوب عالمي أو بواسطة كل العالم أيضاً أن يهرب من كل ذلك، ومن التعامل معه بذكاء وقوة وصمت وشجاعة.

إن هذا هو التفسير العالمي لكل من يصنعون الحروب والعداوات المتحاربة، ولكل من يقودون إليها. فهل هم شجعان؟ أو هل يوجد إذن شجعان؟

هل الشجاعة إنسان أم لغة إنسان؟ هل الإنسان يصنع الشجاعة أم يتحدث بها؟ هل يكونها أم يعرفها؟

هل الإنسان عادل أو عارف أو صادق في توزيع ووضع لغاته وتفاسيره وتسمياته وتصوراته.

* *

هل يوجد في البشر شجعان حتى على التفسير القديم للشجاعة؟

إن الذين يعدون أشجع الشجعان لأنهم يذهبون ليموتوا في الحروب وفي العداوات والمغامرات الحمقاء، وكأنهم أدوات تتحطم أو حشرات تتساقط ميتة بالغاز القاتل أو باللهب المحرق ـ إن هؤلاء الشجعان ليسوا إلا أجبن الجبناء، أي بالتفسير القديم لمعنى الشجاعة والجبن.

إن هؤلاء الذين يموتون بهذا الأسلوب كما تموت الحشرات المقتولة أو تتحطم الأدوات المتساقطة، ليسوا إلا قوماً قال لهم السلطان: موتوا أيها الجبناء.. موتوا بلا تفسير أو ثمن أو مقاومة أو شيء تنتظرونه أو تفهمونه أو تحترمونه أو تخافون عليه أو تدافعون عنه. موتوا لأني آمركم أن تموتوا.. موتوا.. موتوا بلا مذهب وبلا فكرة وبلا تفسير؟ ألست أنا الذي أضع لكم المذهب والفكرة والتفاسير وأضعكم فيها كما أضعكم في الحرب؟

إنهم يموتون لأنهم يؤمرون بالموت ويراد لهم أن يموتوا، دون أن يفهموا أو يطالبوا أن يفهموا، بل دون أن يراد لهم أن يفهموا أو يريدوا أن يفهموا أو يظن أن من المجاملة أو العزاء أو التحريض لهم أن يفهموا.

إن السلطان هو الذي يصنع موت الأبطال. ليست المذاهب أو الأديان أو الأوطان هي التي تصنع موتهم.

ولأنهم يموتون بأمر السلطان أو بأوامر السلاطين المتعددين المختلفين فإنهم يموتون على كل الجبهات وتحت جميع الشعارات والرايات والأوامر والدعايات والأديان والمذاهب المتناقضة والمتضادة والمتعادية والمتتابعة، وطاعة لجميع السلاطين المختلفين المتخاصمين المتناقضين. إن أحداً من هؤلاء الذين يموتون لم يقف ليحاسب نفسه، ليقول لها: إذا كنت تموتين فداء فكرة ما فلماذا تموتين باسم الفكرة ونقيضها؟

ولأنهم لا يموتون إلا بالأوامر لا بأي تفسير آخر فإنهم مستعدون دائماً أن يتنقلوا ويتعاقبوا ويتبادلوا في موتهم تحت السلاطين المتعددين المختلفين وتحت أوامرهم. إن الذين يموتون تحت هذا السلطان وبأوامره لمستعدون دائماً أن يموتوا بنفس الأسلوب والحماس والنخوة، أو بنفس الضعف والخوف والهوان تحت السلطان الآخر المعادي والمناقض، وبأوامره.

إن الذين يموتون بأمر السلطان الذي يصلي بهم إلى الكعبة لمستعدون دائماً وبنفس الهوان والخوف والطاعة أن يموتوا بأمر أي سلطان آخر يصلي بهم إلى كعبة أخرى، أو إلى أية كعبة، أو إلى كل كعبة، أو لا يصلي بهم إلى كعبة ما، أو ليصلي بهم ضد كل كعبة. إن الذين يموتون بأمر السلطان لا يحاسبونه أو يجادلونه في معانيه أو في سلوكه أو في تفاسيره. إنهم لا ينظرون إليه ليعرفوه أو يفهموه.

إن هؤلاء الذين يموتون تحت رايات جميع السلاطين المتناقضين والمتعادين لا يحاربون أو يموتون شجاعة أو شرفاً أو رفضاً أو ذكاء أو بحثاً عن شيء، أو غضباً من شيء، أو انتصاراً لشيء، أو إعجاباً بشيء، أو رؤية لشيء، أو دفاعاً عن أنفسهم أو عن حرياتهم، أو حتى عن سخافاتهم وأوهامهم، أو عن أي شيء يريدونه أو يعرفونه أو يتصورونه أو يتمنونه. ولكنهم يفعلون ذلك، أي يحاربون ويموتون خضوعاً وطاعة لأوامر سلاطينهم.

إن موقف هؤلاء لا يساوي أكثر من أن سلاطينهم يأمرونهم بالانتحار فينتحرون، ويأمرونهم بأن يفقأوا عيونهم ويقطعوا أيديهم وأرجلهم ويخصوا ذكورتهم، فيفعلون. إن قتل الذكورة فيمن يطيعون سلاطينهم حينما يلقون بهم إلى الحروب هو أحد الأشياء التي يفعلونها بأنفسهم.

إن كل الجنود، في كل العصور والمجتمعات وتحت جميع الآلهة والزعامات والمذاهب والدعايات والقيادات، ليسوا إلا قوماً مذعورين مسحوقين، يؤمرون بأن يقتلوا ذكورتهم ورجولتهم، وبأن يفقأوا عيونهم، وبأن يقطعوا أيديهم وأرجلهم، وبأن يتشوهوا وينتحروا، فيطيعون بكل مهانة وخوف وجبن وبلادة ومسكنة. إنهم موتى ومشوهون ومخصيون وقتلة ومنتحرون بالأوامر.

إن هؤلاء هم الجنود الشجعان في كل التاريخ، تحت جميع المستويات الحضارية والمذهبية المختلفة.

ولهذا فقد يكون أكثر الجنود موتاً في الحروب وأسرعهم إلى الموت وأرخصهم موتاً هم الجنود الذين يعيشون ويقاتلون تحت أقسى وأظلم وأقوى القادة والزعماء والحكام والأنبياء الذين يعلمون ويقودون أغبى وأعنف وأجهل وأطغى المذاهب والتعاليم والنظم والمعتقدات. لأن عبودية مثل هؤلاء

الجنود وجبنهم ومخاوفهم وطاعتهم تكون مخيفة ومذلة وساحقة أكثر، ولأن الضبط والقهر لا بد أن يكونا حينئذٍ أشد شراسة وشمولاً وطغياناً وإرهاباً.

إن جميع أساليب الموت في الحروب ليست إلا تعبيراً عن مستويات الضبط والقهر والشراسة والطغيان والإرهاب.

إنه إذن بقدر ما يكون المجتمع جباناً ومهزوماً وخائفاً خاضعاً ومحكوماً بالقهر والطغيان يكون تقبله للموت آخذاً له ومعطياً، أي يكون شجاعاً فيما تقول التعاليم والمنابر، وفيما يقول الزعماء والأنبياء والمنشدون بين أيديهم والمفسرون لحماقاتهم.

إن الجندي بقدر ما يكون جباناً وخائفاً يموت ويصنع الموت في الحروب وفي الخصومات والعداوات بين الأرباب الذين يطيعهم ويخافهم دون أن يحترمهم أو يؤمن بهم أو يفهم ماذا يريدون أو يساوون أو ينوون.

إن الجندي لا يطيع أربابه القتلة بقدر ما يحترمهم أو يفهمهم أو يفسرهم أو يفهم منطقهم ونياتهم، بل بقدر ما يعجز عن عصيانهم.

إن هؤلاء الذين يموتون في الحروب وفي أحقاد الأرباب المتخاصمين لو كانوا شجعاناً لقاتلوا أربابهم الذين يدفعون بهم إلى موت لا يريدونه ولا يعرفونه ولا يحترمونه ولا يؤمنون به، والذين يحولونهم إلى أعداء ومحاربين ومبغضين لأقوام آخرين لا يمكن أن يعادوهم أو يبغضوهم أو يحاربوهم لولاهم، أي لولا أربابهم. إنهم لا يطيعون أربابهم حينما يأمرونهم بأن يقتلوا ويكرهوا من ليسوا أعداءهم فقط، بل وحينما يأمرونهم بأن يقتنعوا بأنهم أعداؤهم وبأنهم يستحقون قتلهم وبغضاءهم.

إن الجنود الشجعان هم الذين يقاتلون أعداءهم. وهل للجنود في جميع الجبهات والحروب أعداء غير أربابهم المختلفين، أو لولا أربابهم المختلفون؟

إن الأرباب المختلفين هم الذين يحولون هذا الجندي إلى عدو وخصم ونقيض للجندي الآخر، ويحولون الجندي الآخر نفس التحويل. وهم الذين يضعون السلاح في يدي الجنديين معاً، ثم يلزمونهما معاً باستعمال السلاح، مصوباً منهما إليهما، بلا تفسير أو منطق أو سبب أو معنى معروف أو مطلوب لهما أو لأحدهما. إنهما يؤمران بذلك أمراً. إنهما عدوان وخصمان ونقيضان ومختلفان بالأمر، بالأمر يصدره إليهما السلطان بل السلاطين، والسلاطين موجودون في كل زمان ومكان مهما اختلفت ألقابهم.

إنه لا توجد أية عداوة أو خصومة أو تناقض أو خلاف أو مخاوف أو أحقاد بين الجنديين، ولكنها عداوات وخصومات وتناقضات وخلافات وأحقاد ومخاوف بين أربابهما المتعددين، ويزعمها ويعلمها أربابهما المختلفون.

إذن لن يوجد للبشر من البشر أعداء غير أربابهم أو لولا أربابهم. إن أربابهم هل كل أعدائهم من البشر، وكل صانعي أعدائهم.

إن الذين يجيئون ليحرسوهم من أعدائهم وليقاتلوا بهم أعداءهم، هم كل أعدائهم.

إذن هل يمكن أن يقاتل الجنود على جميع الجبهات غير أربابهم لو كانوا شجعاناً يقاتلون الأعداء. وكان محتوماً أن يقاتلوا أحداً، ومحتوماً أن يكون لهم أعداء؟

إنهم لو عصوا أربابهم عصياناً فقط لما احتاجوا إلى أن يقاتلوا أو أن يتقاتلوا لأنهم حينئذٍ لن يكون لهم أعداء. ولن يكونوا هم أعداء، لأن أربابهم المتعددين هم الذين يصنعونهم أعداء وهم الذين يصنعون لهم أعداء. إنك لن تكون عدواً لأي إنسان، ولن يكون أي إنسان عدواً لك عداء باسم مذهب أو دين أو نظام أو وطن أو قومية لو لم يكن لك أرباب من أي نوع.

إذن حتى العصيان الذي ينقذهم من العداوات والحروب والمخاطر قد جبنوا عنه، أي جبنوا عن أن يقولوا «لا» لمن يقولون لهم كونوا أعداء لمن ليس بينكم وبينهم أية عداوة أو احتمالات أو أسباب عداوة، وليكن أعداء لكم أولئك الذين ليس بينكم وبينهم أية عداوة أو أية احتمالات أو أسباب للعداوة لكي تتقاتلوا، ولكي تقتنعوا بأن عليكم أن تتقاتلوا، ولكي يقال لكم إن عليكم أن تتقاتلوا.

نعم، حتى هذا العصيان قد جبنوا عنه وهو لا يطالبهم إلا بأن يقولوا «لا».

إنهم قوم يقال لهم احملوا السلاح واضربوا به أنفسكم، يقول لهم ذلك من لا يملكون أية قدرة أو سلطان إلا بهم، فيرهبون أن يقولوا «لا». إنهم لا يجرؤون على أن يقولوا حرفاً ليس في قولهم له أي خطر عليهم، بل في قولهم له إنقاذ لهم من الخطر. إن البشر لو استطاعوا أن يقولوا «لا» لماتت جميع الأرباب.

إذن أي شجعان هؤلاء الشجعان!

إنه لو كان البشر شجعاناً لما وجدت حرب واحدة في التاريخ. إن جميع الحروب في التاريخ لم تكن إلا أقسى التعبيرات عن جبن البشر. إن أية حرب لم تكن إلا بياناً عالمياً عن خضوع الجبناء للآلهة العاجزين.

إن أية حرب لا تعني إلا الإعلان عن جبن الإنسان، لأن كل حرب لا تعني إلا أن يقال للإنسان خذ هذا السلاح واقتل أو اجرح أو شوه به نفسك، فيفعل لأنه لا يجرؤ أو لا يعرف أن يعصي. إنه لو كان كل مقاتل لا يقاتل إلا بأن يعرف لماذا يقاتل ويعرف بأنه حق وعلاج أن يقاتل لما قامت حرب واحدة في التاريخ ولما أمكن أن تقوم حرب واحدة في المستقبل.

وهل يوجد في جميع مستويات الجبن جبن يساوي أن تقتل أو تشوه نفسك وأنت لا تريد أن تفعل ذلك ولكنك تجبن عن أن تقول: لا؟ هل يوجد جبن يساوي أن تفعل ذلك دون أن تقتنع أو تبحث عن الاقتناع أو تتساءل أو تفهم أن عليك أن تقتنع أو أن تتساءل؟ إن الإنسان يموت في الحروب لأنه

يرهب أن يقول: لا لمن لا يستطيعون الانتصار عليه أو التخويف له أو توجيه الأوامر إليه إلا به.

إذن فهل يوجد أجبن من الإنسان؟ بل هل يوجد من يساويه في جبنه؟ وهل الإنسان شجاع أو جبان أم هو لا هذا ولا هذا، وإنما هو كائن يخضع لضغوط ذاته وظروفه عليه، ويعبر عن هذا الخضوع تعبيرات مختلفة؟ أليس الفرق بين الأسد والأرنب يساوي الفرق بينهما في أسلوب التعبير عن الخضوع للذات؟ أليسا مستوى واحداً من الشجاعة أو الجبن في تفاسيرهما الذاتية والنفسية؟

* *

نعم، ومع أن المفروض أن الجيوش لا تمارس جنونها إلا تحت شعار من الشعارات التي ليس محتوماً أن تكون مفهومة، بل التي يتحتم أن تكون غير مفهومة أو التي من الأفضل والأقوى والأذكى أن تكون غير مفهومة.

نعم، ومع أن ذلك هو المفروض الدائم فإن الشعارات ليست شرطاً محتوماً بل ولا شرطاً منشطاً في ممارسة هذا الجنون.

إن الجيوش تتقاتل بالمواجهة وبالأوامر وبمشاعر الالزام والتسخير كما تفعل الحيوانات، وكما كان يفعل السجانون والسيافون القدماء، وكما يفعل العبيد المسخرون في شق الطرق وفي أداء الأعمال الأخرى التسخيرية.

* *

أيها الإنسان.. أنت تعادي وتبغض وتقاتل من لا تعرف ومن لا تعادي ولا تبغض.. وأنت تقتل وتشوه نفسك بلا قضية إو اقتناع أو تفسير أو كرامة. إذن كم أنت شجاع وتقي وذكي وأبيّ.. كم أنت إذن مجد للأرباب وللمعلمين وللقادة. كم أنت مجد للمذاهب وللأديان وللتاريخ وللحضارات. كم أنت مجد لكبرياء الحشرات.

كم أنت مجد لنفسك أيها الإنسان. كم أنت مجد. أنت تقتل وتقتل وتشوه وتتشوه بأمر السلطان. كم أنت إذن شجاع. كم أنت مجد لعيون النجوم. كم أنت عزاء لأحزانها وتعويض عن ضياعها وعبثها.

كل جواب يُصبح سؤالاً بلا جواب

«.. إن كل مولود جديد قد يجيء محكوماً بعاهة أو بآفة وبيلة، أو مواجهاً لظروف فيها كل الإذلال والتحقير للشرف والكرامة والشجاعة. إذن أي وحش ذلك الذي يقبل أن يصنع الأطفال؟ إن صناعة الأطفال ليست أنانية، إنها ضد الأنانية، وإنها ليست تضحية، ليست تضحية من أجل الأطفال ولا من أجل الحشرات أو الجراثيم التي قد تتغذى بالأطفال. إن صناعة الأطفال شهوات افتراسية غبية عدوانية. إنها عدوان غير مقصود ولكنها أقسى من كل عدوان مقصود. إن الأمهات والآباء المصابين بالأدواء والنقائص الموروثة المتنقلة يصنعون الأطفال أيضاً ـــ إنهم يصنعونهم بشبق وبنشوة وقحة دون أن تموت أو تتكسر أسلحتهم البذيئة من الشعور بالجريمة والإثم والخوف من الاحتمالات النكراء. إذن هل يوجد أعداء للأبناء كالآباء؟ إنك يجب أن تحاكم وتعاقب كأظلم ظالم وأوقح معتد حينما تصنع طفلاً يوجد أضعف وأبعد احتمال بأنه قد يكون مصاباً بأية آفة أو نقيصة عقلية أو نفسية أو أخلاقية أو بدنية، أو مواجهاً لظروف مهينة تفرض الحقارة والهوان والخسة، أو تفرض الموت في إحدى مغامرات أحد الطغاة. إن صناعة الأبناء الذين قد تهبهم أمهاتهم أو آباؤهم ما فيهم من تشوهات أو آلام أو نقائص أو ضعف أو غباء أو عته أو شذوذ كئيب، لهو ذنب يستحق كل أسلوب من أساليب العقاب. إنه ذنب يظل عقابه أكبر من كل أساليب العقاب. إن الأمهات والآباء هم أخطر طريق يمر منه وفيه الأطفال، وأخطر وعاء يصنع ويعيش فيه الأطفال. أين هم الآباء والأمهات الذين يذهبون يستثيرون العلم ويسألونه: هل يصنعون أطفالاً، ويسألونه عما يحملون من النقائص والآلام واحتمالات الضعف والأمراض في أبدانهم أو في عقولهم أو في نفوسهم وأخلاقهم لأطفالهم الذين يريدون أن يصنعوهم قبل أن يصنعوهم؟ حتى الرجال الشرفاء والأتقياء والرحماء جداً لم يفعلوا ذلك».

«.. حتى الدعوة إلى ذلك، لم يوجد من دعا إليه. حتى الوعظ لم يوجد من يعظ به.. إنه ليس في العالم أجهزة انتاج يجب أن تفرض عليها دولياً أقسى وأذكى الشروط والقيود قبل أن يؤذن لها بالانتاج مثل الآباء والأمهات.. ولكن هل توجد أجهزة انتاجية معفاة من كل قيد وشرط غير هذه الأجهزة المنتجة للأطفال..»

إن معنى وجودك أيها الكون هو العدوان الشامل علي. إنه الخطر والتحدي والتعذيب الدائم الشامل لي. إنه النقيض الدائم الشامل والسباب والعقاب الدائمان الشاملان لوجودي. إنه الحرب الشاملة الدائمة عليّ. إنك العدوان الشامل الدائم. إن كل ما فيك عدوان على كل ما فيّ. إنك كل أساليب ومستويات العدوان عليّ. إنك عدوان لا مثيل له في شموله، وإني معتدى عليه لا مثيل له في شمول الاعتداء عليه.

إن معنى وجودك أيها الكون أن أصبح محكوماً عليّ بك ـ أن تصبح كل رؤاي وكل جهاتي والتفاتاتي وطرقي وتجاربي، وكل أساليب معاناتي مسدودة ومحروسة ومشتومة ومهددة بك.

إن معنى وجودك أيها الكون أن تملأ وتغلق جميع الجهات والمنافذ التي أرى وأسمع منها بشعراء ومنشدين لا عداد لهم ولا مثيل لهم في وقاحتهم ونذالتهم وبلادتهم، ليسمعوني بالديمومة وبلا أي مستوى من مستويات الشعر والغناء، أكثر القصائد والأغاني بذاءة وهمجية وبلادة ـ ليسمعوني بلا انقطاع أو وقار كل الخروج على كل مستويات الشعر والغناء، وكل الهجاء لكل الشعر والغناء، وكل السباب والتحقير لكل نماذجي الفنية والأخلاقية ـ ليسمعوني بالديمومة وبكل الضجيج والافتضاح كل فنون الوحشية والهمجية والغوايات ـ ليشتموا كل نماذجي الفنية والأخلاقية ـ ليعاقبوا ويلعنوا أنفسهم وأذني بكل اللغات وبكل الأصوات واللهجات بالديمومة والالحاح البذيء، البذيء.

إن معنى وجودك أيها الكون أن تملأ وتغلق جميع الجهات والمنافذ التي أرى وأسمع منها بشعراء ومغنين لا عداد لهم ولا مثيل لوقاحتهم ونذالتهم وبلادتهم ولا لافتضاحهم، ليسمعوني كل الوقت، بكل اللغات والأصوات واللهجات، كل الهجاء لكل نماذجي العقلية والفنية والأخلاقية ـ ليعذبوا مشاعري كل الوقت، بكل أساليب العذاب وبكل مستويات العذاب.

إن معنى وجودك أن تظل كل الوقت تنشدني وتتلو عليّ كل قبحك وفحشك وكل أخطائك وحماقاتك الخارجة على كل تفاسيري وأفكاري وأخلاقي وأماني واحتياجاتي، بكل أساليب الإنشاد،

وبكل وقاحاته وشموله. إن وجودك يتحول إلى إنشاد يدق مسامعي ورؤاي دقاً رهيباً عدوانياً شاملاً مستمراً.

* *

إن معنى وجودك أيها الكون أن تتحول كل وحدة من وحداتك، وكل حدث من أحداثك، وكل حركة من حركاتك، وكل موقف من مواقفك، وكل شيء فيك - أن يتحول إلى مفكر غبي ورديء وسخيف جداً، لا يستطيع أن يتفاهم مع تفكيري في أي موقف، ولا على أية قضية، ولا على أي تفسير.

لا يستطيع أن يسير مع تفكيري في أي اتجاه، أية خطوة، أية خطوات - لايستطيع أن يسير مع تفكيري أية مسيرة، إلى أية غاية.

لا ينتهي مع تفكيري إلى أي سلام، ولا إلى أية هدنة، ولا إلى أي تسامح في أية مبارزة، ولا في أية خصومة. لا تنتهي مواقف الرفض والشقاق والمخاصمة بينهما إلى أي أسلوب من أساليب التنازل أو التقارب أو التعايش المهذب أو الرفيق. إن ذلك يعني أن يتحول كل شيء فيك إلى مفكر لا يستطيع أن يفارق ولا أن يوافق ولا أن يسكت ولا أن يسالم أو يجامل أو يتهذب. إلى مفكر لا يفكر ولكن يشتم تفكيري.

إن معنى وجودك أن يتحول كل شيء فيك إلى مفكر بليد رديء سخيف جداً، ليصدم كل تفكيري، ويكذبه ويعذبه ويقاتله ويشوهه ويهجوه ويسخر منه ويلعنه ويناقضه، في جميع المستويات والاتجاهات، في جميع القضايا والأماني والاحتياجات، في جميع الأوقات والمواقف.

إن معنى وجودك أن ينطلق منك مفكرون يساوون في عددهم عددك وعدد أحداثك وحركاتك ومواقفك ومرائيك واتساعك، ليفكروا ضد التفكير، ضد كل تفكير. إن معناه أن يتحول كل شيء فيك إلى تفكير يقاوم ويرفض ويناقض كل تفكيري.

إن معنى وجودك أن تتحول كل ذراتك إلى حروب فكرية، لتهاجمني وتقاتلني بقدر ما أنت موجود، وبقدر ما تمارسك ذاتك، وبقدر ما تمارس ذاتك، وبقدر ما أنت فاعل، وبقدر ما أنت عاجز أن تفعل.

إنك أقسى عذاب فكري، أقسى معركة ضد الفكر. إن كل وجودك وممارساتك لوجودك معارك بذيئة ومتوحشة ضد كل تفكير. إن فكري يواجه بمواجهتك أقسى العذاب، أقسى المواجهات التي فيها كل معاني أقسى الحروب.

إن الكينونة الخارجة على المنطق المناقضة له هي عقاب له وعدوان عليه. إنها خروج على الإنسان وعدوان عليه.

إن وجودك هو أضخم عدوان على الفكر، إنك أضخم عدوان على فكري.

إن وجودك يعني أن تتحول إلى أفكار مساوية لعدد أفكاري، لتكون نقيضاً لكل أفكاري، وخروجاً عليها، ورفضاً لها، لتصنع لها الغضب والغيظ والاشمئزاز وكل معاني العذاب.

إن كل وجود مناقض لكل تفكير. إذن كل وجود لا بد أن يتحول إلى فكر مناقض لكل فكر. فالوجود لا يناقض وجودنا فقط بل ويناقض معناه الفكري بكل التفاسير كل مستوياتنا وأساليبنا الفكرية.

إن معنى وجودك أيها الكون أن تتحول كل صيغك وصورك، وأن تتحول كل مناظري ورؤاي إلى فنانين، كل فنهم أن يشوهوا ويلوثوا، كل فنهم أن يحدثوا ويصوغوا كل الدمامات والعاهات في كل صيغك وصورك، وفي كل مناظري ورؤاي وآفاقي وخيالي. إن كل صيغك وصورك عاهات ودمامات، وإنه ليست لي أية مناظر أو رؤى أو آفاق أو خيالات غير صيغك وصورك. إنك إذن كل الجاني، وإني إذن كل المجني عليه.

إن معنى وجودك أن تتحول كل صيغك وصورك إلى كل قبح التشويه وعذابه، وأن تتحول كل تحديقاتي وأحاسيسي إلى مكان عرض دائم لكل تشوهاتك وبشاعاتك الفنية والأخلاقية والنفسية. إن معنى ذلك أن تتحول ذاتي إلى مكان حزين رهيب، تتجمع فيه كل لوحاتك الباهظة البشاعة والقبح، وألا يكون لي أي منظر غير لوحاتك الباهظة البشاعة والقبح، وإلا يكون للوحاتك الباهظة البشاعة والقبح أي مكان غير نظراتي المحدقة، وغير أحاسيسي المحترقة، وألا يكون للوحاتك الباهظة البشاعة والقبح أي راء سواي. إني أنا وحدي الرائي لكل قبحك، وأني أنا وحدي المكان لكل قبحك. وإنه لا مرئي لي غير قبحك ولا موجود في غير قبحك.

إن معنى وجودك أن تعيش كل لوحاتك الباهظة في بشاعتها وقبحها في كل نظراتي وأحاسيسي، وألا يعيش في نظراتي وأحاسيسي سوى لوحاتك الباهظة في قبحها وبشاعاتها.

إن معنى وجودك أن تصبح أنت كل الفن، وأن أصبح أنا كل مكان العرض ـ أن تصبح أنت كل قبح الفن، وأن أصبح أنا كل المستقبلين لكل هذا القبح.

إن معنى أن تصبح أنت كل الفنانين المشوهين، وأن أصبح أنا وحدي المتعامل مع هؤلاء الفنانين المشوهين. إن معنى وجودك إذن أن تتحول ذاتي إلى أكبر مخزن للجحيم.

إنه لا يوجد سواي من يتعامل معك مهما وجد من يعيش فيك. إنك تعيش وجودك ويعيشك وجودك، دون أن تتعامل معه أو أن يتعامل معك. إني أنا وحدي المتعامل معك. إن تعاملي معك تعامل شامل، إنه شامل التعذيب لأنه شامل المناقضة لي والخروج علي

* *

أيها الكون، إن وجودك يعني أن أصبح محكوماً علي، محكوماً عليّ بأن أراك، وبألا أرى سواك، وبألا يراك سواي. إن ذلك يعني أن أصبح أنا وحدي أمامك وحدك. إنه يعني أن يصبح كل قبحك

يواجهني وحدي بلا أي أمل في أن يوجد من يشاركني في هذه المواجهة. إنها وحدانية الرعب والعذاب. إن الإنسان هو وحده الذي يعاني ويعيش هذه الوحدانية، وحدانية الرعب والعذاب.

إني أرهب هنا أن أفترض أنه قد يوجد في هذا الكون من قد يرى الكون، أو من قد يعانيه مثلما يراه ويعانيه الإنسان. إني أرهب هذا الافتراض، أرهبه لما فيه من وحشية، من وحشية فيمن يفترضه. إننا أحياناً لا نستطيع أن نفترض ألواناً من الافتراضات ما لم نصبح قساة إلى حد الوحشية. هل تستطيع أن تفترض أن إلهاً ما مسؤول عن كل آثام هذا الكون ما لم تصبح أكثر من كل الوحوش وحشية؟ أليس المفترضون لوجود إله هم أقسى من كل الوحوش؟

إني لا أستطيع أن أصبح وحشاً لكي أستطيع أن أفترض أنه قد يوجد من يستطيع أن يتعذب أو يشمئز، أو أن يرى القبح، أو الذنوب، أو الآلام، أو الغباء، أو التفاهات، أو العبث، أو الظلم، كما يستطيع الإنسان. لهذا أهرب من افتراض وجود إنسان آخر في هذا الكون، أي من افتراض أي كائن آخر يساوي الإنسان أو يشبهه في القدرة على معاناة الرؤية، وعلى معاناة الاشمئزاز، وعلى معاناة العذاب.

إن خيالي ليس متوحشاً جداً لكي أستطيع أو يستطيع أن أفترض أو أن يفترض احتمال وجود كائن آخر يساوي الإنسان أو يشابهه لكي يعاني تفوقه وهمومه أو لكي يعاني أحزانه ومسراته، هزائمه وانتصاراته، جماله وقبحه ـ لكي يعاني غضبه واشمئزازه. كما أن خيالي ليس متوحشاً أو وقحاً لكي يفترض فوق هذا الكون إلهاً ما أو مسؤولاً ما. إن الإيمان بالإله أو بالكائن الأعلى فوق هذا الكون أسلوب بذيء من أساليب الاتهام، وليس أسلوباً من أساليب الاحترام.

إن تفوق الإنسان يعني تفوقه في ممارسة الغضب والاشمئزاز والغيظ والأحزان، وفي مواجهة الدمامات ورؤيتها. إنه لا أحد يرى كالإنسان. إنه إذن لا أحد يرى الآلام والعاهات والتشوهات والعبث والسخف والغباء والأخطاء والمظالم مثله. إنه إذن لا أحد يعاني الآلام مثل الإنسان.

إن وجودك إذن أيها الكون يعني أن أصبح محكوماً علي بأن أراك، وبألا أرى سواك، وبألا يراك سواي. إني أراك. هذا عذاب فظيع. إني أراك فقط. إني لا أرى سواك. هذا عذاب ثان. إني وحدي الذي يراك، إن أي كائن آخر لا يراك هذا عذاب ثالث. وقد يكون هذا العذاب الثالث عزاء أو تخفيفاً للعذاب وليس عذاباً. إن انفرادي برؤيتك الباهظة التعذيب قد يكون، أو يجب أن يكون، أقل تعذيباً لي. إن المشاركة في العذاب ليست حتماً تخفيفاً أو تهويناً للعذاب. إن هذه المشاركة قد تكون، أو يجب أن تكون، تضخيماً وتعظيماً للعذاب.

إن عذابي وحدي أقل تعذيباً لي من عذاب يشاركني فيه الآخرون. أو يشاركني فيه من حولي، أو أقاربي، أو أصدقائي. إن احتراق بيتي أقل تعذيباً لي من احتراق بيتي وبيوت جيراني. إن فقدي أنا

وأهلي للرؤية لن يكون أكثر إسعاداً لي من فقدي أنا وحدي للرؤية. إن مرض كل العالم ليس أكثر مجاملة أو عزاء لك من مرضك وحدك.

إني أراك، إني أعيش بالرؤية الحادة الشاملة المستمرة كل ما فيك من تشوهات وعاهات ودمامات ومن ذنوب وأخطاء ومظالم - إني أعيش كل ذلك بالرؤية المحترقة الشاملة المستمرة. إني لا أعيش سواك.

إذن كم هو فظيع، كم هو فظيع إذن أن تكون موجوداً! إذن كم أنت فظيع، كم أنت عدوان عليّ؟

* *

إن وجودك أيها الكون يعني أن أصبح محكوماً علي بأن أفكرك، أي بأن أحولك إلى أفكار، وبأن أفهمك وأفسرك، بأن أحولك إلى أفكار وتفاسير لي، يعانيها عقلي ويعيشها ويحاول الخضوع لها والصلاة بها والتعلم منها.

إن وجودك يعني أن أصبح محكوماً علي بأن أحاول التلاؤم معك والتكيف بك والخضوع لكل ضروراتك وتفاهاتك وحماقاتك وغباواتك ولجميع إلزاماتك التي لا أحترمها ولا أقتنع بها. إن ذلك يعني الحكم علي بأن أطيع كل أوامرك وقهرك وضغوطك، وبأن أعاشرك وأعيشك، بل وبأن أريدك وأشتهيك وأجوع إليك كحشرة، كأقل من حشرة، مهما احتقرتك واشمأززت منك وبشرت ضدك - مهما تحولت إلى أشرس قديس، بل إلى أشرس نبي، للتشنيع عليك، ولتعديد ذنوبك وحقاراتك، وللتهوين من شأنك ومن مجدك الكوني أو الإلهي.

بل وبأن أبكي وأصرخ وأهون وأفقد كل وقاري وذكائي، اهتماماً بك، وحماساً لك، وخوفاً عليك، وخوفاً منك، وشوقاً إليك، ومخاصمة عليك.

نعم، وبأن أبكي وأصرخ وأهون وأخاصم وأعادي وأشاتم وأفقد كل توازني واحترامي لنفسي، استمساكاً بك، ودفاعاً عن هذا الاستمساك بك - وبأن أتنازل عن كل حرياتي وشرفي وكرامتي وصدقي ومنطقي. وعن كل احترامي وطاعتي لأربابي ومذاهبي وتعاليمي وكبريائي، احتفاظاً بك، وتملقاً لطغيانك، وإرضاءً لوحوشك، وجوعاً إلى تفاهاتك وعبثك.

إذن كم أنت إذلال وفضح لي.. كم أنت طغيان علي - كم أنت إذن أيها الكون قبيح، قبيح.

* *

إن وجودك يعني أن تحكم علي بأن أحولك إلى منطق، بل إلى كل المنطق، مع أنك لا يمكن أن تكون منطقاً، بل مع أنك في كل صيغك ومستوياتك وقراءاتك خروج على كل منطق وهجاء لكل منطق.

إنه يعني أن تحكم علي بأن أفهمك وأفسرك، بل بأن تصبح كل ما يمكن أن أفهم وأفسر، أي بألا

تكون لي أية أفكار أو منطق أو تفاسير، أو أية موضوعات لأفكاري ومنطقي وتفاسيري، سواك، بل مع أن فهمي وتفسيري لك يتحولان إلى أعظم عقاب لعقلي وأخلاقي وضميري، ولكل تعاليمي ونماذجي ومستوياتي، ولكل آلهتي ومذاهبي وأحلامي وضروراتي. حتى آلهتي ومذاهبي، إنها تعاقب وتحقر وتتشوه حينما أفهمك وأفسرك. إنه لن تبقى لآلهتي ومذاهبي أية فضيلة أو قيمة أو عزاء أو جمال أو صدق إلا بألا أفهمك وألا أفسرك. إن تفسيرك موت للآلهة.

إنه يعني أن تحكم عليّ بأن أتلاءم معك وأتكيف بك، أو بأن أحاول ذلك بلا خيار أو رحمة، ومع أن التلاؤم معك والتكيف بك - تنفيذاً أو محاولة - فيهما كل معاني وأساليب القهر والتعذيب والتشويه والهزيمة لي، ولكل احترامي وتوقيري لنفسي أو لمذهبي أو لأربابي أو لتعاليمي أو لدعاواي عن نفسي وعن مكانتي - بل ولكل احترامي وتوقيري للأشياء. إن التكيف والتلاؤم بالكون وبالجوع إليه وبالجوع به قتل لكل احتمالات الكبرياء في الأشياء وفي الإنسان، بل وفي الآلهة والمذاهب. إن جوع الأشياء إلى الأشياء قتل لكل كبرياء.

إنه يعني أن تحكم علي بالخضوع بلا وقار وبلا مستوى وبلا شروط لكل المجاعات والضرورات والتفاهات التي تفرضها - بلا نبل أو شهامة أو قياس أو منطق - على وجودي وحياتي، لتجعلني مفتضحاً ومتلوثاً وممارساً لكل معاني السقوط والعار، دون أن أتوقف لأسأل عما أفعل أو عما تفعل أنت. أو لأراجع أو أجادل أو أزجر سلوكي أو جوعي أو خضوعي. إنك بذلك تفرض علي المجاعات والضرورات ثم تفرض علي الاستسلام، بلا أية مقاومة أو غضب أو بكاء أو احترام، لهذه الضرورات والمجاعات.

إنه يعني أن تحكم علي بالطاعة والاستسلام والالتزام وبالجوع لكل معاني الاستبداد والإذلال والتحقير فيك، ولكل معاني السقوط والافتضاح والجبن فيّ، دون أن أفهم أو أحترم أو أقاوم أو أحاكم أو أخاصم، أو أتوقف لأحاسب نفسي ومواقفي، أو لأحاسبك على ما تفعل وتنوي وتعني، لأحاسبك على منطقك أو ما فيك من تفاسير مستترة أو ظاهرة.

إنه يعني أن تصنع مني أردأ وأصغر جبان، أعني أن تصنع مني أكبر وأفضل جبان. وأيهما أسوأ: الجبان الأكبر الأفضل، أم الجبان الأصغر الأردأ؟

أي الجبناء أفضل، أو أيهم أردأ: الجبناء الكبار أم الجبناء الصغار، الجبناء السيئون أم الجبناء المثاليون؟ وهل الذين يبحثون عن الجبناء في البشر يبحثون عن الجبناء الكبار أم عن الجبناء الصغار أم عن كل الجبناء؟ أي الجبناء أطيب مذاقاً في شهوات الطغاة والآلهة والمعلمين: الجبناء الصغار أم الكبار؟

إنه يعني أن تحكم علي بأن أعاشرك وأعيشك، في كل مستوياتك وأخلاقك، وبأن أسير معك فوق كل أوحالك وانحداراتك، دون انفكاك أو رفض أو غضب أو اشمئزاز، مهما لعنتك وتحدثت عن عارك، ومهما وضعت على ألسنة أربابي وأنبيائي التحقير لك والكبرياء والتفوق والانتصار عليك،

مهما أنزلت كتبي المقدسة في هجائك وفي تفضيلي عليك وفي قدرتي على الاستغناء عنك، وعلى صعودي الروحي فوق كل غواياتك وإغراءاتك وضغوطاتك وحضيضك.

إنه يعني أن أصبح عاشقاً لك، مستمسكاً بك، مقاتلاً دونك وبك، منافساً غائراً عليك، مسترقاً لكل إملاءاتك وبذاءاتك علي. إنه يعني أن تصبح أنت كل اهتماماتي وهمومي، وكل حماسي ومخاوفي، وكل حروبي وسلامي، وكل خصوماتي وملاعناتي أن تصبح كل أعصابي وانفعالي وكل زلازلي وبراكيني، وكل لغاتي وأصواتي، مهما كان منطقي وأحكامي العقلية عليك رفضاً لك، واشمئزازاً منك، وشموخاً فوق إملاءاتك وقوانينك وأوامرك.

إن هذا يعني كل النذالة في أخلاقي، وكل التحقير والهجاء لكل مستوياتي وتعاليمي وذكائي، ولكل مزاعمي عن نفسي متحدثاً إلى نفسي. إنه يعني كل معاني ومستويات وأساليب الهجاء والتحقير والإذلال والتشويه والتعذيب.

* *

إن معنى وجودك أيها الكون أن تعيش كل وجودك وذاتك داخل ذاتي ووجودي، بكل معاصيك ودماماتك وبذاءاتك ووحشيتك ونذالتك، وبكل أظفارك وأنيابك وجوعك وفسوقك، وبكل بلاداتك ووقاحاتك وتفاهاتك وأخطائك، وبكل أصواتك ولغاتك ولهجاتك وأزيائك، كل الوقت، تحت كل الظروف، وبكل الأساليب والتعبيرات، مقبلاً مدبراً، بادئاً عائداً، متكرراً، مسرعاً مبطئاً، كاراً فاراً، صارخاً لاعناً، مهدداً منذراً، متوقحاً معتدياً، كريهاً، كئيباً، غاضباً، قاذفاً بكل أوحالك وتشوهاتك وبذاءاتك داخل ذاتي وفوق أفكاري وأخلاقي.

إن معنى ذلك أن تصبح ذاتي ممرك الدائم، وممرك الوحيد، وممرك وحدك. إن معناه أن تمر من ذاتي، وأن تمر فيها، وأن تمر بها، وأن تمر إليها، بكل أهوالك ووقاحاتك وقبحك وبكل مواكبك الرهيبة المتوحشة الفاسقة.

إن معنى ذلك أن تستمر تمر وتمر وتمر بكل صيغك وأحداثك التي لا تبحث عن هدف ما لتتوقف عن المرور عنده، والتي لا تجد لها أي ممر آخر غير ذاتي، غير ذاتي التي لا تمتلىء منها أو بها، أي من صيغك وأحداثك، لكي ترفض المزيد منها ـ لكي ترفض استقباله ومروره فيها ومنها وبها وإليها.

إن معناه أن تستمر كل صيغك وأحداثك تمر في ذاتي وبها ومنها وإليها دون أن تستطيع التلاؤم معها أو الكف عن الاشمئزاز منها، أو عن معاناة العذاب بها، أو عن الإحساس بقبحها، أو عن الرؤية لدمامتها، أو عن الاقتناع بوحشية منطقها ووحشية تفسيرها ووحشية استمرارها واستقبالها وتقبلها.

إن معناه أن تستمر كل أهوالك ومواكبك الرهيبة، بكل صيغك وأحداثك، تمر في ذاتي، وتمر بها، وتمر منها، وتمر إليها، دون أن تجد لها ممراً غير ذاتي، ودون أن تجد ذاتي ماراً بها وفيها ومنها وإليها غير

أهوالك ومواكبك، بكل صيغها وأحداثها، متزاحمة، متكررة بادئة، مراجعة، كالحة، متوعدة، مهددة، مقاتلة، مضاربة مشاتمة، مخاصمة، غضبى أبداً.

إنك لا تعيش في ذاتك، ولا تمارس ذاتك داخل ذاتك. ولكنك تعيش في ذاتي، وتمارس ذاتك داخل ذاتي. إنك لا تمارس ذاتك وإنما تمارس ذاتي. إنك تعيش في ذاتي كأسلحة وكتفجرات وكأبالسة يتقاتلون ويتضاربون ويتشاتمون ويتناقضون ويتنافسون، ويمارسون كل الحماقات والتفاهات والغباء والفحش والعدوان وكل أساليب ومستويات الهمجية والضلال والمصارعات والمخاصمات والحروب المتوحشة في ذاتي دون أي احترام أو أية حقوق أو حدود لذاتي. إن الأشياء لا تعاني ذنوبها وأخطاءها ودماماتها، إني أنا الذي أعانيها وحدي.

إن معناه أن كل أجسامك تسقط في ذاتي، تسقط فيها أجسامك القريبة وأجسامك البعيدة. حتى أجسامك الكبيرة التي لا يحتويها شيء لأنها أكبر من كل شيء تسقط في ذاتي. إن أجسامك الكبيرة تسقط في ذاتي أكثر مما تسقط فيها أجسامك الصغيرة. إن أجسامك الكبيرة أكثر وأوقح تحدياً لمنطقي ولأخلاقي ولنماذجي من أجسامك الصغيرة. لهذا فإن أجسامك الكبيرة تسقط في ذاتي سقوط مقاتل مشاتم أكثر وأوقح مما تسقط فيها أجسامك الصغيرة.

إن كل أجسامك، أصغرها وأكبرها، أقربها وأبعدها، تسقط في ذاتي سقوطاً محارباً مستمراً. إنها تسقط فيها بكل عاهاتها وتشوهاتها، وبكل فجورها وتلوثاتها وكآباتها. إنها تسقط فيها سقوط مقاتل ومشاتم ومشوه ومعاقب ومناقض ومعاد. إنها تسقط فيها سقوطاً بذيئاً أليماً عدوانياً وقحاً لئيماً متحدياً.

إنه لا شيء تسقط فيه وعليه كل الأشياء بكل الوحشية والعذاب غير ذاتي، غير الإنسان، في إحدى صيغه.

إن جميع أجسامك تسقط في ذاتي وفوق ذاتي بلا قانون من أي نوع أو مستوى. إنها تسقط فيها وعليها دون التزام بقانون الابعاد أو الاحجام أو التزاحم أو الامتلاء. إن سقوط أجسامك في ذاتي وفوق ذاتي خروج على كل القوانين واختراق لها، وإن ممارسة ذاتي لعذابها لخروج أيضاً على كل القوانين واختراق لها.

إنه لا قانون لسقوط أجسامك في ذاتي وعليها، وإنه لا قانون لاستقبال ذاتي لها، أي لأجسامك. إنه لذلك لا قانون للآلام التي تستقبلها ذاتي والتي تتحملها ذاتي.

إني أستقبلك بلا قانون، وأتعذب بك بلا قانون. إن كل شيء فيك لا يستقبل ولا يعاني أو يتعذب إلا بقانون. إني أنا وحدي الخارج فيك على القانون، على هذا القانون ـ قانون الاستقبال وقانون الممارسة للعذاب ـ إني أنا وحدي الذي يستقبل ويتعذب ويعاني وتسقط عليه وفيه الأشياء بلا حدود وبلا قانون ـ تسقط عليه وفيه كل الأشياء بكل أحجامها وأعدادها وأبعادها وبكل ازدحامها

واصطدامها، دون حماية من أي قانون كوني طبيعي أو قانون أخلاقي إنساني، ودون حماية من أي إله في هذا الكون أو فوق هذا الكون.

إن أصغر وأبعد نجم ليسقط بكل آثامه وغبائه ودماماته وكآباته وهمومه، وبكل ضلاله وضياعه وحيرته ـ ليسقط في ذاتي وتستقبله ذاتي، دون أن يعوقه أو يضلله الزحام أو الاصطدام بالأكوان الأخرى المتزاحمة المتصادمة المتساقطة في ذاتي ـ كما يسقط فيها ـ أي في ذاتي ـ أصغر وأقرب حشرة تعيش معنا في هذه الأرض، تعيش معنا في بيوتنا وملابسنا وفي طعامنا وفي أجساد أطفالنا وفوق عيونهم، وداخل جراحهم، لتهاجم ببذاءة هائلة كل احترامنا لأربابنا ومذاهبنا، وكل إعجابنا بوجودنا وبنظافتنا وبمكانتنا في هذا الكون، وبمكانة هذا الكون في شهواتنا وتعاليمنا وفي شهوات وتعاليم أنبيائنا.

إن أية حشرة بذيئة لن تسقط في ذاتي، لتعذبها وتعاقبها ببذاءتها ودمامتها وهوانها وعبثها، أكثر أو أوقح مما يسقط فيها أي نجم شامخ متعال متكبر، ليعذبها ويعاقبها بشموخه وغروره وتعاليه، وبسفهه وغبائه وضلاله وضياعه، وبكبريائه التي لا تعني أي مجد ولا أي تفسير كبير أو مفهوم.

إن هوان الذبابة وضياعها لن يسقطا في ذاتي، ليعذباها ويتحدياها ويصنعا لها الغيظ والغضب والاشمئزاز والعجز عن الفهم والاقتناع بشرف الحياة ونظافتها وذكائها وكبريائها، أعمق أو أوقح مما تسقط فيها الشمس لتعذبها وتسخر منها وتتحدى كل قيمها العقلية والفنية والأخلاقية بضخامتها التافهة، وبضياعها الأليم الكبير، وبكلّ ما فيها من حماقة المنطق وتشويه وسفه التكوين.

إن الشمس ليست أقل تعذيباً لي بحماقة كينونتها من الذبابة بوضاعة وهوان كينونتها. إن ضعة الكينونة كحماقة الكينونة كلتاهما تعذيب لذاتي، وكلتاهما خروج أليم على نماذجي الفكرية والنفسية والفنية والأخلاقية. إن ضآلة الهباءة المتطايرة في وجوه الناس وعيونهم ليست أكثر تعذيباً لي أو عدواناً علي من ضخامة الجبل المتعالي المتحدي المغلق الطريق والحدود دون أن يكون فيه أي نفع أو أي منطق.

إن الكون كله وإن الأشياء كلها ليست إلا حماقة في الكينونة أو ضعة وهواناً في الكينونة، أو هما معاً. إنه لم يوجد شيء بريء من حماقة الكينونة ومن ضعة الكينونة.

إني إذن لن أواجه فيك أيها الكون أي شيء إلا ولا بد أن أواجه فيه حماقة الكينونة أو وضاعة الكينونة، أو الوضاعة والحماقة معاً. لهذا فأنت لست إلا تعذيباً لي في كل أحداثك وصيغك وأساليبك ومستوياتك وفي كل وجودك ووحداتك حتى في شمسك كما في ذبابك، حتى في أعلى مستويات جمالك كما في أعلى مستويات دماماتك. إنك حينما تهبني تناقضني وتخرج علي كما تناقضني وتخرج علي حينما تحرمني. إنك تتحدى الوجه الجميل والجسم السليم حينما تهبهما الصحة والجمال كما تتحدى الوجه الدميم والجسم العليل حينما تهبهما الدمامة والعلة ـ إنك تتحداني.

* *

إن معنى وجودك إذن أيها الكون أن تصبح ذاتي هي الوعاء والممر والمستقبل لكل أهوالك وتشوهاتك ولكل مواكبك الهمجية البليدة الضالة. إن مواكبك لا تنطلق إلا من ذاتي، ولا تتحرك إلا في ذاتي، ولا تتصادم إلا بذاتي، ولا تنتهي في رحلاتها إلا إلى ذاتي لأني أنا وحدي الذي يعاني انطلاقها وتحركاتها وتصادماتها وكل ضرباتها في رحلاتها التي لا تنتهي والتي لا تبحث عن شيء ولا تحقق شيئاً. إني أنا وحدي المعركة ومكانها وجيوشها وقتلاها وأحزانها وآلامها. إني أنا وحدي كل المتحاربين فيها.

إني أنا وحدي الوعاء والمعبر والمعاني لذاتي ولكل الكون والأشياء. إني أنا وحدي الوعاء والمعبر الكونيان. إني أنا وحدي المعاناة الكونية.

إني أنا وحدي الوعاء والمعبر والمعاناة لكل الاحتجاج والاشمئزاز، ولكل المشاعر المتعدية الأليمة، ولكل الرؤى الغاضبة المستفظعة المصدومة المستثارة، ولكل المنطق الرافض الناقد المكتشف المتسائل بعذاب وارتياع. إني أنا وحدي السائل دون انتظار أي جواب، ودون وجود أي مسؤول. إني أنا وحدي المواجه لنفسه بأسلوب المقاتل المخاصم.

إني أنا وحدي المكتشف الرائي لما في عيون الشمس من ظلام، ولما في فيضان الأنهار من جفاف وظمأ وجدب، ولكل ما في مرح الشباب وصحته وقوته من شيخوخة وعجز وضعف وفناء، ولكل ما في ضخامة الأشياء من تفاهة وضآلة، ولكل ما في جمال المدينة ونشاطها وحياتها من معاني المقبرة وتفاسيرها.

إن أجمل مدينة ليست إلا التفسير النهائي لأكثر المقابر دمامة وكآبة إن المدينة هي المقبرة في إحدى صيغتيها.

إني أنا وحدي الوعاء والمعبر لكل الآلام في كل الأشياء لأني أنا وحدي الرؤية والتفكير والخيال والسؤال والاستبشاع والاستفظاع والنقد والرفض ـ لأني أنا وحدي كل المشاعر الذاتية والمتعدية، لأني أنا وحدي الذي يتصور الجمال والعدل والذكاء والحب والمنطق في الأشياء، ويريد ذلك ويتمناه، ويحتاج إليه، ويطالب به، ويتحدث عنه، ويحوله إلى نموذج وفكرة ومستوى، بل وإلى أديان وآلهة وأنبياء.

لأني أنا وحدي الذي تروعه فظاعة الدمامات والآلام والغباء والظلم والعبث والتفاهة والحقارة والتلوث والأكاذيب والخروج على المنطق مهما كان مفروضاً علي أن أعيش هذه الدمامات والتفاهات والحقارات والغباوات والمظالم والعبث والآلام والتلوث والأكاذيب والخروج على كل منطق وذكاء، ومهما كان مفروضاً عليّ أن أصلي وأهتف لكل ذلك، وأن أموت دفاعاً عنه واستعباداً له.

إني أنا وحدي الذي يرى ويفكر ويشترط في وجود كل ما فيه هجاء وتعذيب للرؤية والتفكير والاشتراط.

إني وحدي الكائن الذي يستفظع ويشمئز ويخجل ويحتقر وينكر بينما يظل يفعل. إني أنا وحدي الذي يفكر ضد الشيء الذي يشتهيه ويخضع له ويمارسه ويجده كل طموحه وأمانيه وعبقريته ونضاله.

إني أنا وحدي الكائن الذي يفكر ضد نفسه، وضد حياته، وضد جوعه، وضروراته التي تنتصر دائماً على تفكيره ضدها، وعلى احتقاره لها، وعلى اشمئزازه منها. إني أنا وحدي الذي ينتصر دائماً ما يحتقره على تفكيره وعلى رأيه وعلى رؤيته.

إن موهبة الاشمئزاز في الإنسان موهبة لا حدود لقدرتها على التعذيب والتعبير والهجاء. إن الإنسان كائن يشمئز، إنه يشمئز بلا حدود. إنه إذن كائن يتعذب، إنه إذن كائن يتعذب بلا حدود، إنه كائن يتعذب أبعد من حدود ذاته وأبعد من كل حدود، من كل حدود الوجود.

إن الإنسان كائن مخصوص بالاشمئزاز، إنه لهذا كائن مخصوص بأقوى عذاب وبأوسع عذاب، وبأدوم عذاب وبأظلم عذاب وبأعجب عذاب. إنه كائن مخصوص.

إن الإنسان كائن مخصوص بالاشمئزاز، ومخصوص بالانتصار على اشمئزازه. إذن لماذا يشمئز إذا كان محتوماً أن يعصي اشمئزازه ـ إذا كان محتوماً أن يفعل وكأنه لا يشمئز من شيء، وكأنه يشمئز من الاشمئزاز؟

ولكن الإنسان المخصوص بالاشمئزاز لا يستطيع أن يشمئز كل مستويات الاشمئزاز وكل احتمالاته، من كل ما يصنع ويوجب الاشمئزاز، تحت كل ظروفه. إنه لو فعل ذلك لكان محتوماً ألا يكون، ولكان محتوماً أن يموت، ومحتوماً ألا يمارس الآخرين، بل وألا يمارس نفسه ولا شيئاً من نفسه، حتى ولا مسراته أو شهواته أو شيئاً من احتياجاته وضروراته، حتى ولا صلواته أو أربابه أو معلميه. إن الإنسان لو كان يستطيع أن يعيش كل اشمئزاز لكان محتوماً أن يقتله الاشمئزاز من آلهته وأنبيائه وزعمائه ومن جميع مقدساته

إنه لو كان يستطيع أن يفعل ذلك لكان مستحيلاً أن يستطيع مناجاة نياته، أو معايشة نفسه من داخلها، أو النظر إليها من داخلها إن الاشمئزاز قتل ورفض وتعيير لكل شيء.

ولكن الإنسان مهما اشمأز فإنه يقتحم اشمئزازه ويتخطاه، يتخطى أوامره وإملاءاته. إنه يعصي كل أوامر وتعاليم اشمئزازه، ويمارس ما يشمئز منه بأقوى شهوة وبأساليب فيها كل معاني الإعلان والبحث عن الدوي. إنه يشمئز بقوة، ويخرج على اشمئزازه بمثل هذه القوة. إن اشمئزازه لا يقاوم خروجه، وإن خروجه لا يقتل اشمئزازه أو إيمانه باشمئزازه.

إن الإنسان كائن كأنما أريد له، أو كأنما أراد هو لنفسه، أن يجمع بين الاشمئزاز والخروج عليه.

إنه لا مثيل للإنسان في اشمئزازه، ولا مثيل له في ممارسته وإرادته لما يصنع الاشمئزاز. إنه الممارس لما يصنع الاشمئزاز، والممارس للاشمئزاز، والعاصي لأوامر الاشمئزاز ولتعاليمه. إنه الكائن الذي

يحارب نفسه بالاشمئزاز، ويحاربها بممارسته وإرادته لما يشمئز منه، ويحارب اشمئزازه بعصيانه والخروج عليه.

إن الاشمئزاز لمن أكبر مزايا الإنسان، ولكنه أيضاً من أكبر وأقسى أعدائه.

لماذا يكون الاشمئزاز مزية؟ لماذا نفترضه مزية؟ ما هي المزية؟ ومن يفترضها، ويعرفها ويراها، ويشير إليها؟ لماذا نعد الاشمئزاز مزية؟ بل لماذا نعد شيئاً مزية وشيئاً آخر فقداً للمزية أو خروجاً عليها؟

لماذا؟ من قال؟ من رأى؟ من حكم؟ لماذا نصدق، لماذا نقتنع؟

ما الفرق بين المزية وبين نقيض المزية؟ من يضع هذا الفرق، ومن يعرفه؟ وكيف يضعه، وكيف يعرفه؟ وبأي منطق أو قانون يضع هذا الفرق ويعرفه؟

أليست كل مزية يمكن أن تراها نقيضاً للمزية؟ أليس كل نقيض للمزية يمكن أن تجد فيه، أو أن تراه كل المزية؟ لماذا هذا أفضل، أو أجمل، أو أنبل، أو أتقى أو أذكى؟ من حكم، من رأى، من وجد؟ لماذا نصدق ونقتنع؟ هل نحن الذين نرى لأنفسنا ونضع لأنفسنا؟ هل هناك من يرون لنا ويضعون لنا؟ وأولئك الذين يضعون ويرون لنا من يضع ويرى لهم هم؟ هل يجيء منطقنا وقبولنا ورفضنا وأحكامنا على الأشياء وأحاسيسنا إليها على مقاييس واحتياجات مفهومة أم كما يجيء وجودنا وصيغه وأجسامنا وصيغها مجيئاً عشوائياً؟

* *

إذن أيها الكون، إن معنى وجودك أن تصبح عدواناً شاملاً عليّ.. أن تصبح لي تهديداً ووعيداً وسباباً وعقاباً وخوفاً وخطراً وتعذيباً وتحدياً ونقيضاً وتشويهاً ورفضاً وجوعاً وسخرية وتسخيراً وتعبيراً.

إن معنى ذلك أن تصبح ذاتي ممراً ووعاء لكل عاهاتك وتشوهاتك ودماماتك، ولكل أهوالك مواكبك الهمجية البذيئة الضالة ـ أن تصبح ذاتي الوعاء والممر الكونيين، أن تصبح الوعاء والممر لكل ما في الكون ولكل ما ليس في الكون من ذنوب وأخطاء وأحزان وبلادات وحقارات ومن قبح وعبث وآلام وجنون وتشوه ـ أن تصبح ذاتي أضخم وأبشع جحيم، لا لتعذب من يعيشون فيها بل لتتعذب بمن يعيشون فيها. إنها جحيم بلا زنادقة أو فجار، إنها جحيم دون أن تكون جزاء.

إن معنى وجودك أن تصبح عدواناً عليّ لا مثيل له في شموله، وأن أصبح أنا معتدى عليه لا مثيل لشمول العدوان عليه ـ أن تصبح أنت أبشع ظالم، وأن أصبح أنا أبشع مظلوم. وهل يوجد مظلوم أو ظلم أبشع من أن تصبح وعاءً وممراً لكل الأخطاء والآلام والتشوهات التي يعيشها هذا الكون حتى التي تعيشها حشراته؟

* *

ولكن ماذا يعني وجودي دون وجودك؟ ماذا يمكن أن أكون، وماذا يمكن أن أجد، وماذا يمكن أن

يحدث لو كنت أنا موجوداً ولم تكن أنت موجوداً؟ وهل يمكن أن يحدث ذلك، أو أن يكون احتمالاً من الاحتمالات؟

إنها لتجربة في التصور قد تكون شائقة وبهيجة، وقد تكون شيئاً يكون أفضل منه كل ما يمكن أن يحدث. ما أقسى ما يحدث. ومع هذا فقد تكون هذه التجربة التصورية شيئاً أفضل من كل شيء قد حدث أو قد يحدث. قد يكون كل هذا العذاب أقل عذاباً ودمامة من تلك التجربة المتصورة.

لقد عرفنا عذابنا في معايشتنا ومواجهتنا لهذا الكون ولآفاته وحشراته، فهل نستطيع أن نعرف عذابنا لو كنا وحدنا؟

وهل محتوم أن وجودي يعني وجودك؟ وهل محتوم أن وجودك يعني وجودي؟

هل وجود أحدنا مفروض على وجود الآخر؟ هل كان مستحيلاً أن توجد دون أن أوجد، أو أن أوجد دون أن توجد؟ ولماذا يكون ذلك مستحيلاً؟ وإذا لم يكن مستحيلاً فلماذا لم يحدث هذا الذي ليس مستحيلاً؟

من هذا الذي فرض وجود أحدنا على وجود الآخر؟ وهل فرضه فارض؟ ولماذا فرضه؟ هل يستفيد هو من ذلك، أو هل يستفيد منه أحد؟ هل هذا الذي حدث هو أجمل ما يمكن أن يحدث؟ هل حدث أفضل وأنبل الاحتمالات؟ هل يوجد هنا أو هناك، بعيداً، بعيداً، من يمكن أن يغضب أو يهان أو يحقر أو يشتم أو يجوع لو وجد أحدنا دون الآخر؟ هل كان ضد الجمال أو التقوى أو الإيمان أو الأخلاق أن يكون هذا الكون موجوداً دون أن أكون أنا موجوداً، أو أن أكون أنا موجوداً دون أن يكون الكون موجوداً؟ لماذا لم يهيأ لنا أن نجرب وجودنا بدون وجود هذا الكون، أو يهيأ لهذا الكون أن يجرب وجوده بدون وجودنا؟

كيف حدث أن أصبح وجود أحدنا مفروضاً على وجود الآخر؟

أينا المظلوم بفرض وجود أحدنا على وجود الآخر، أم كلانا مظلوم؟ وأينا أصبح مظلوماً أكثر؟ أينا أكثر عشقاً للآخر؟

ولكن هذا سؤال، إنه سؤال بلا جواب. وهل لأي سؤال أي جواب ـ هل لأي سؤال أي جواب مهما كان له من جواب، ومهما وجب أن يكون له جواب، ومهما كان محتوماً أن يكون لكل سؤال أعداد هائلة من الأجوبة؟

إن أي جواب يتحول إلى سؤال دون أي جواب. إن كل جواب يصبح سؤالاً يحتاج إلى جواب لن يجده. وكل جواب يجده أي سؤال يصبح أي الجواب سؤالاً جديداً يطالب بالجواب.

إن أي جواب لن يكون جواباً أكثر من أي سؤال دون أي جواب. إن أي جواب يتحول إلى سؤال أعصى من أي سؤال، أو مثل أعصى أي سؤال، أو مثل أي سؤال في حاجته إلى الجواب، أو في وقوفه

أمام طريق مسدود لا يمكن اختراقه. إن أي جواب عن أي سؤال لا بد أن ينتهي إلى باب مغلق لا يمكن فتحه كما لا يمكن كسره، كما لا يمكن اقتحامه وتسوره.

إن كل أسئلة البشر، وكذا كل أجوبتهم، قد صمتت وهزمت ومات حماسها وانتصارها أمام الكلمة الخالدة الرهيبة المنتصرة في جميع معاركها ووقاحاتها - إن كل أسئلة البشر وأجوبتهم قد هزمت وصمتت وماتت كل انتصاراتها ومعاركها أمام هذه الكلمة الوقحة: لا جواب، لا جواب.

إن كلمة: لا جواب هي الجواب الصادق البذيء عن كل جواب وعن كل سؤال. إن كلمة: لا جواب هي جواب الطبيعة الأبدي عن كل أسئلة الإنسان وأجوبته. إن هذه الكلمة الوقحة العدوانية المذلة الهازمة لكل ذكاء الإنسان ولكل حماسه وأمانيه ومخاوفه وأشواقه وتطلعاته واحتياجاته، ولكل تقدمه وإبداعاته وحضاراته، ولكل آلهته وأنبيائه ومعلميه وطغاته وسفاحيه.

إن هذه الكلمة الهازمة المذلة للإنسان في كل أشواطه ومستوياته محفورة بجهامة ووحشية وعدوانية على كل شيء وعلى كل وجه: على وجه الشمس ووجه القمر، على وجه الحشرة ووجه الإنسان، على وجوه كل الآلهة والأنبياء والمعلمين، وعلى وجوه كل الأذكياء والأغبياء، على وجوه، كل العباقرة وكل المغفلين، على وجوه كل الزنادقة والمؤمنين، على كل الوجوه وكل الأشياء.

إن كلمة: لا جواب هي أقسى وأصدق كلمة مطبوعة ومحفورة على جلود ووجوه كل الأشياء. إن كلمة: لا جواب هي أوقح وأصدق كلمة تطل علينا من كل شيء. إنها تطل علينا بأوقح وأقسى أساليبها من المرآة حينما نحدق فيها بإعجاب ورضا، أو بارتجاف ويأس حينما نحدق في المرآة لنحدق في ضياعنا المحدق في أنها كلمة محفورة على جدران المعابد بقدر ما هي محفورة على شواهد القبور.

إن كلمة: لا جواب هي أعنف وأشمل هزيمة للحياة وللمذاهب ولكل التفاسير والمفسرين، ولكل الباحثين عن المنطق أو الحب أو التدبير في الأشياء. إن الأشياء والناس يعيشون وتعيش كلمة: لا جواب أكثر مما ينطقونها أو يفهمونها أو يفسرونها أو يشعرون بها أو يسمعونها من أفواههم أو من أفواه الأشياء.

إنه ليس صواباً أن نسأل لأنه ليس صواباً أن نجيب، وإنه ليس صواباً أن نجيب لأنه ليس صواباً أن نسأل. ولكن لا بد أن نسأل، ولا بد أن نجيب، إنه لا بد.

إن السؤال والجواب يعنيان أن الوجود، أي أن كل الأشياء قد وجدت ووضعت ودبرت بخطة وبفكرة وبإرادة، لتؤدي إلى هدف ما أو إلى غرض ما. لهذا نسأل ونجيب لأن ما وضع ودبر بالخطة والفكرة والإرادة وبالبحث عن الأغراض أو الأهداف المقصودة، المرادة، يمكن أن نسأل عنه، ويمكن، بل ويجب أن يكون له جواب، جواب يمكن أن يفهم أو يجب أن يفهم.

ولكن الأشياء أو الكائنات التي لم توجد ولم توضع ولم تدبر ولم ترد أو تقصد، أو لم توجد أو

توضع أو تدبر بأية خطة أو فكرة، لتحقق شيئاً أو توصل إلى شيء، كيف يمكن أن يسأل عنها أو يجاب، أي كيف يمكن أن تتحول إلى سؤال أو إلى جواب؟

إن الشيء الذي لم يضعه واضع، ولم يوجده موجد، ولم يدبره مدبر لا يمكن أن يصبح سؤالاً ولا أن يصبح جواباً. إنه لا بد أن يصبح صمتاً كالحاً شاتماً ساخراً. لهذا فإن كل شيء لا بد أن يظل أمامنا صمتاً، فيه كل الشماتة والهزء بتحديقاتنا ومساءلاتنا المتلهفة.

إن الوجود الذي لم يوضع هو وجود فقط، إنه لا يتحول إلى سؤال ولا إلى جواب. إن المصنع الذي وضع بخطة وتدبير ولغرض يصبح سؤالاً ويصبح جواباً، أي أنه يمكن أن يقال: لماذا أقيم، ثم يمكن، بل ثم يجب، أن يكون لهذا السؤال جواب مهما كان محتوماً أن ينتهي هذا الجواب إلى سؤال بلا جواب.

ولكن لا يمكن أن يتحول وجود الجبل أو الصحراء أو النهر إلى سؤال ولا إلى جواب بهذا المعنى أو بهذا القصد أو بهذا التفسير. نعم إن وجود الجبل والنهر والصحراء وكل الأشياء الكونية أي العبثية يتحول إلى سؤال وإلى جواب بمعنى آخر وقصد آخر مهما كان محتوماً أن ينتهي كل سؤال عن ذلك إلى جواب لا بد أن ينتهي أي ذلك الجواب إلى كلمة: لا جواب، لا جواب.

إننا قد نسأل: لماذا أنشيء هذا المصنع، ولماذا أنشيء في هذا المكان، بهذا الشكل وبهذه الضخامة والتكاليف. ولكننا لا نستطيع أن نسأل. لماذا أقيم هذا الجبل في هذا المكان، بهذه الهيئة، وبهذه الضخامة أو الضآلة، أو بهذا الامتداد، أو بهذا الارتفاع ـ إلا إذا كنا نعتقد أن إنساناً آخر هو أكبر من هذا الإنسان، غائباً عنا هو الذي أقام الجبل بالتدبير والخطة والضرورات التي يفعل بها ويخضع لها هذا الإنسان المقيم بيننا. وهل يمكن أن نؤمن بأن كائناً ما يدبر هذا الكون ويصوغه دون أن نؤمن بأن هذا الكائن ليس إلا إنساناً ما؟

إننا قد نسأل ـ ولكن على معنى آخر ـ: كيف وجد الجبل أو النهر؟ ولكن لا نسأل: لماذا وجد الجبل أو النهر ما لم نكن مؤمنين بأن للكون وللأشياء مدبراً وصانعاً مثل الإنسان في تدبيره وتفكيره واحتياجاته.

إن جميع الذين يحولون الوجوه إلى أسئلة وأجوبة وتفاسير إنما هم قوم يؤمنون بأن إنساناً آخر أكبر من هذا الإنسان هو الذي خلق الوجود.

إنه لا جواب ولا سؤال عن الوجود مجتمعاً ومتوحداً ومتسلسلاً، لهذا لا جواب ولا سؤال عنه مفرقاً ومقطعاً ومتناثراً وأجزاء. إنه لا جواب ولا سؤال عنه والداً، إذن لا جواب ولا سؤال عنه مولوداً أو عديداً من الأبناء. إن الكون كوجود واحد لا يمكن أن يصبح سؤالاً ولا جواباً. إذن كيف يمكن أن يكون سؤالاً أو جواباً كعديد من الوحدات التي لا يمكن إحصاؤها، أو كوجود متعدد؟

إننا لو سألنا: لماذا يزرع الناس القمح لجاء الجواب: لأنهم يتغذون به. إن هذا الجواب يبدو جواباً

نهائياً وحاسماً مسكتاً مشبعاً لكل تساؤل عن زراعة هذه الحبوب النبيلة. ولكنه مع ذلك جواب لن يصبح جواباً. إنه جواب لا بد أن يتحول إلى أسئلة لا جواب عن واحد منها، إنه جواب يفتتح مخازن الأسئلة دون أن يغلق منها واحداً. إن السؤال بلا جواب يظل سؤالاً ولكنه بعد أن يصبح جواباً أو بعد أن يصبح له جواب يصبح أكثر من سؤال. إن الشيء بلا سؤال يظل سؤالاً بلا سؤال، وبعد السؤال والجواب يصبح سؤالاً بلا جواب، وجواباً يتحول إلى سؤال.

لماذا أصبح القمح غذاءً للبشر. من دبر ذلك، ومن أراد له أن يكون كذلك، وكيف وجد، ولماذا وجد، هل وجد لأن البشر وجدوا، ووجدوا محتاجين إليه. هل وجد البشر لأن القمح قد وجد.

ولماذا وجد البشر الذين يتغذون بالقمح. وهل وجدوا لكي يتغذوا بالقمح.

ولماذا وجدوا محتاجين إلى التغذي - ولماذا يستجيبون لحاجتهم إلى التغذي. لماذا لا يرفضون الاستجابة لهذه الحاجة. لماذا لا يتكبرون عليها، لماذا يتعذبون لو رفضوا الاستجابة لهذه الحاجة، لماذا يتعذبون لو أصبحوا كباراً لا يستجيبون أو لا يخضعون لجوعهم. لماذا يتعذبون لو لم يهونوا ويذلوا لأوامر وإملاء جوعهم عليهم.. لماذا يتغذون لكي يستمروا يجوعون ويتغذون، يجوعون ويتغذون، أو يجوعون ولا يتغذون.. لماذا يتغذون اليوم ليجوعوا غداً وبعد غد. لماذا لا يقتلون جوعهم المتجدد المتكرر المذل بالتوقف عن التغذي. لماذا لا يتوقفون عن التغذي اليوم لئلا يجوعوا غداً ودائماً.

لماذا لا يموتون موتاً نبيلاً.. لماذا لا يموتون بالصمت عن التغذي وبالصمت عن الجوع..

أليس التغذي اليوم بحثاً عن الجوع غداً؟ أليس تقبل الهوان والافتضاح والعار اليوم بحثاً عن الاستمرار في هذا التقبل غداً ودائماً؟

لماذا جاء الإنسان جائعاً، وجاء يجوع باستمرار.. ولماذا جاء مستمسكاً بالبقاء مع جوعه العائم المتجدد الهازم الفاضح. لماذا وجد القمح الغذاء ووجد الإنسان الجائع المتغذي. لماذا وجدا.

لماذا لم يترك الإنسان والقمح يموتان معاً.. لماذا لم يترك أحدهما يموت ليبقى الآخر. هل خيف الضياع على من يبقى منهما. هل خيف عليه أن يحزن ويتعذب. هل خيف على القمح ألا يوجد من يأكله، فيعاني من الهموم ومن الشعور بالضياع. هل خيف على الإنسان ألا يجد شيئاً يأكله فيتخلى عن الصلاة لأربابه، وعن إعجابه بها وعن رضاه عنها وعن سخائها المهين. من الذي التزم هذا الالتزام للإنسان بأن يجد ما يأكله، وبأن يجد القمح الذي يأكله؟ من التزم للإنسان بألا يموت جوعاً؟ هل تكريم له بألا يموت جوعاً؟

ومن يكون هذا الخائف الرحيم التقي.. من هذا الخائف على القمح أو على الإنسان، أو عليهما معاً.. من هذا الخائف عليهما من الوحدة أو من الجوع أو من الضياع والأحزان.. من يكون هذا الخائف الرحيم التقي.

إنها أسئلة متوحشة، إنها أسئلة تغرق فيها كل الأجوبة والتفاسير التي عانى البشر ليبتكروها ويتوارثوها في كل تاريخهم المذعور الحزين. إنها أسئلة يغرق في أقل مستوياتها عمقاً كل ما لهم من أنبياء ومعلمين ومفسرين ووعاظ، ومن مكتب مقدسة ومذاهب وتعاليم خائفة حزينة. إن كل آلهة البشر ونبواتهم وتعاليمهم وأديانهم ومقدساتهم وفلسفاتهم ومذاهبهم لتصمت وتهون وتهزم وتتشوه وتموت أمام الذباب متحولاً إلى سؤال.

إنه لا جواب، لا جواب عن أي شيء، عن سؤال مهما كان محتوماً أن يجد كل سؤال جواباً. إنه لا سؤال مهما كان كل إنسان وكل شيء ليس إلا سؤالاً مطروحاً على نفسه وعلى كل شيء وعلى كل إنسان، بكل اللغات والأساليب والتعبيرات.

إنه لا سؤال ولا جواب مهما كان محتوماً أن يكون كل البشر سائلين وكلهم مجيبين، ومهما كان محتوماً أن ينتظروا ويريدوا معرفة كل شيء بالسؤال والجواب، يضعهما لهم، ويعلمهم إياهما، ويستعلي عليهم بهما المعلمون والماكرون والزعماء والمتعبون والأغبياء وكل صائدي البشر ومهما كان محتوماً ألا يتوقعوا وجود من قد يجرؤون على الشك أو التشكيك في قدرة السؤال والجواب على حل جميع الطلاسم التي لم يضعها أو يدبر لها أي ماكر في هذا الكون - في هذا الكون المملوء بالطلاسم التي لم يضعها أي واضع للطلاسم، لهذا لن يحلها أي حلال للطلاسم.

إن طلاسم الكون طلاسم لم يضعها أي واضع لبلادتها، وإنها لن يفسرها أي مفسر لوقاحتها وتفاهتها. إنها طلاسم لن يعقلها العقل، ولن تحترمها الأخلاق. إنها طلاسم معجزة ومهينة لتفاهتها وعقمها وعبثها، لا لما فيها من قوة أو عبقرية أو تعجيز. إنها معجزة بتفاهتها وعقمها. إن التفاهة والعقم هما أقوى وأكثر الأشياء إعجازاً وتعجيزاً.

إن طلاسم الكون محيرة ومرهبة للعقل والأخلاق لأنه لم يضعها العقل ولا الأخلاق، ولأنها خروج على كل العقول وعلى كل الأخلاق، ولأنها نقيض لها، لا لأنها أكبر أو أذكى أو أفضل منها. إن عبقرية الطبيعة تساوي خروجها على كل نموذج عقلي وأخلاقي. إن كل ما في الطبيعة من عبقرية خروج على هذا النموذج.

* *

إن كل العذاب والهول والضيق والهوان والتحقير والمخاطرة في معاناتي ومواجهتي وخضوعي لوجودي ولحياتي، ولأعضائي ولمشاعري ولخيالي، بل ولأفكاري وحماسي ونخوتي، ولكل ما في ذلك من التزامات رهيبة وحزينة وذليلة وترابية الأخلاق والمنطق والشهوات. إن ذواتنا تفرض علينا أعضاءنا، وإن أعضاءنا تفرض علينا همومها ومشاكلها وكل تفاهاتها ومجاعاتها. وهل يحقرنا ويعذبنا ويذلنا شيء مثل الالتزام بأعضائنا؟

إن ممارسة الذات والالتزام بها هما كل الخوف والتفاهة والسأم والخطر والعقاب والتوريط. إن في

ذلك كل هواننا وجوعنا وأحزاننا وتلوثنا وكل آلامنا ومخاوفنا وافتضاحنا. إن فرض ذواتنا علينا هو أقسى وأوقح طغيان مارسه هذا الكون، أو مارسته الآلهة ضدنا.

إن إعطاءك ذاتك هو شر منحة مارسها المجهول ضدك.

أيتها اللذات. يا ذاتي، من منحني إياك؟ كم في نيات وشهوات مانحك من العدوان والقسوة والهمجية؟

أيها الموجد المجهول. أيها الموجد الذي لم يأذن لمن أوجد بأن يلقوه أو يروه أو يتحدثوا إليه.

أيها الموجد الذي لا يمكن أن يرى أو يسمع أو يلقي أو يناقش أو يعلم أو يتغير أو يفهم ما يريد، أو يريد ما يوجد.

يا موجدي ـ يا موجدي المجهول الذي لم ألق ولم أسمع ولم أر ـ هل أوجدتني لأنك تحبني أم لأنك تحب ذاتك؟ هل وجدتني لتكرمني أم لتحقرني؟ هل لأنك تستفيد مني أم لأنك تتسلى بي وتسعد بعذابي؟ هل أوجدتني لأنك تحبني أم لأنك تكرهني؟ هل أوجدتني أم أنت المتهم الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟

أيها المتهم الصامت أبداً. يا أشهر مظلوم ومكذوب عليه ومكذوب باسمه ومكذوب له. يا أشهر محقر بما يقال عنه وبما يقال له..

هل صورتني أو تصورتني أو رأيتني فعشقتني فأوجدتني، أم ضربت بيدك في الظلام فأوجدتني؟ هل نبت في وجودك وإرادتك وذاتك كما تنبت الأعضاء والأحزان والعاهات في الكائنات، أم زرعتني كم يزرع البستاني الزهور والورود في البستان؟ هل خلقتني بتدبير ومنطق أم سقطت في يديك وعضلاتك كما تسقط الآلام والتشوهات في الأبدان وكما تسقط الأجنة في الأرحام؟

يا موجدي.. يا موجدي..

يا موجداً قد قال لي.. قد قلت لا.. قد قلت لا..

يا موجدي هل أوجدتني لأنك تريد أن أوجد، أم لأنك لا تستطيع إلا أن توجدني؟ هل أوجدتني بالخطة أم بالاندفاع؟ هل قرأت وفهمت حساباتك قبل أن توجدني؟ هل درست حساباتك فوجدت أن مكاسبك في إيجادي أعظم من خسائرك، وأن مسراتك وانتصاراتك بي ستكون مغطية لأحزانك وهزائمك؟ هل درست وفهمت نفسك وحاسبتها على ما تفعل؟

يا موجدي.. يا موجدي..

يا موجداً قد قال لي.. قد قلت: لا.. قد قلت.. لا.

يا موجدي هل أوجدتني لأنك تريد أن ترى من يطيعك ويؤمن بك ويشكرك ويرقص لك ويهون لكبريائك، ويتحدث إليك بصدق وذكاء، وفي الأكثر بكذب وغباء؟ هل أوجدتني لأنك تريد من

يكذب عليك ومن يكذب لك ومن يكذب باسمك ـ لأنك تريد من يظلم لك ومن يظلم بك، ومن يظلمك، ومن يحقرك بما يتحدث به إليك، وبما يتحدث به عنك ـ لأنك تريد أن ترى من يصلي لك بلا طهارة، ويتضرع إليك بلا عظمة أو كرامة، ويهتف لك بلا وقار أو فضيلة أو حبٌ ويؤمن بك بلا ذكاء؟ هل تخاف أو تكتئب أن تكون وحدك؟

هل كنت تشعر بالمجد أو التكريم أو بالأمان أو بالقوة والانتصار والتفوق أن يكون حولك من ينافقون ويهتفون ويكذبون؟

هل أوجدتني لأنك تريد أن ترى من يعصيك ويرفضك ويشاتمك ويبارزك ويرفض عطاياك؟ هل وثقت بي واطمأننت إلى ما سوف أكونه معك ولك، أم أنك قد خدعت بي؟ ومن الخادع حينذلك؟ ولماذا لا ترد على الخديعة حينئذٍ؟ لماذا لا تتمرد عليها وتخرج منها؟ لماذا لا تقاوم نفسك، لماذا لا تقاوم أخطاءك؟ لماذا لا تتحول إلى ناقد ومصلح لكينونتك ولتاريخك الحزين؟

هل جئت كما أردت وقدرت أن أجيء فازددت بذلك رضا عن نفسك وإعجاباً بموهبتك وتدبيرك، أم أني قد جئت خروجاً على إرادتك وتدبيرك وحساباتك، فأصبحت إغضاباً لك على نفسك، وهجاءً منك إليك؟ هل جئت بالأسلوب الذي وهبك الإيمان بنفسك، أم بالأسلوب الذي جعلك تحتقر موهبتك وذكاءك، وتشك في قدرتك على أن تدبر وتخطط، ولترضي طموحك وشهواتك؟

هل جاء أسلوب كينونتي هجاء لك أم مديحاً؟ هل أصبح أسلوب مجيئي ثناء منك على نفسك أم ذماً؟ هل حابيت نفسك بمجيئي؟ هل أثبت لنفسك بالأسلوب الذي صغتني به أنك فنان عظيم أم أنك عاجز عن كل مستويات الفن؟

يا موجدي.. يا موجدي..

هل أستطيع الحمد لك؟

هل تجرؤ على أن أحمدك؟ هل تجرؤ على تقبل حمدي لك؟ هل أنت جريء هكذا؟

يا موجدي هل أوجدتني بالشوق والحنين والحب وبالبحث عن الصداقة والأصدقاء، أم لأنك تبحث عن كائن يصنع لك الغضب والحزن والغيظ ويؤجج شهوة الانتقام فيك؟ هل أوجدتني لأنك حزين تبحث عن السرور والعزاء، أم لأنك مسرور تبحث عن مقاساة العبث واللعب؟ هل لأنك فارغ تبحث عن فعل أي شيء والتلهي بأي شيء، أم لأنك مشغول مرهق متزاحم الحركات والانفعالات، تنطلق منك وعنك الأشياء والمخلوقات بأسلوب الانفلات والارتجاف ـ تسقط منك وعنك الأشياء سقوطاً؟

هل أوجدتني لأنك متعب، تتحرك أعصابك وخطواتك وإراداتك بلا تدبير ولا حكمة بل وبلا

رؤية، أم لأنك مستريح تتحرك أشواقك وأحلامك بقيادة عقلك وحبك وخيالك الزاخر بالشعر والجمال وبشهوات الابداع والتحليق؟ هل وجودي تعبير عن تعبك أم عن غنائك لنفسك؟

هل أنا أنشودة في قلبك أم أنّه في أعصابك؟ هل أنا ومضة من عبقريتك أم غلطة من إرهاقك؟

هل أنا حزن من أحزانك أم مسرة في حياتك؟ هل أنا إحدى رقصاتك أم إحدى ارتجافاتك؟ هل أوجدتني وأنت تبكي أم أوجدتني وأنت تغني لقلبك الراقص؟

هل تنظر إلي لأصنع لك الابتسام والمسرات، أم تنظر إليّ لأصنع لك الكآبة والبكاء؟ هل تجد في جحيمك أم تجد في جنتك؟

هل أنت الآن راض عن نفسك ومبارك مهنئ لها لأنك قد أوجدتني؟ هل تجرؤ على تكرار هذه التجربة لو نجوت منها، لو خرجت من الحكم عليك بها؟ هل تجرؤ على إيجادي مرة أخرى، من جديد، لو أني هربت منك، أو لو أنك هربت مني؟ هل تراني ورطة في حياتك أم مجداً في تاريخك؟

ماذا تفعل لو أني انتحرت، وتلاشيت من يديك وضميرك ومن الحكم عليك بوجودي أو بإيجادي؟ ماذا تفعل لو أنك أصبحت حراً من كونك موجدي، ومن كوني موجوداً، موجوداً بك ولك؟ هل تكرر التجربة حينئذٍ؟ هل تحكم على نفسك بي مرة أخرى؟ هل تعود؟ أليس محتوماً أن تصبح تائباً؟

لماذا لا تتوب مني بالأسلوب الذي جعلك تتورط في؟ أليست توبة الموجد هي أعظم التوبات؟ أليس أنبل الموجدين هو الموجد التائب؟

وهل تتوب الأشياء أو يتوب الوجود أو تتوب الكائنات المجهولة؟ هل تتوب الآلهة؟ وهل يتوب شيء؟ هل توجد توبة؟ ما هي التوبة؟

هل يتوب النهر من جريانه، أو الشمس من طلوعها، أو الليل من مجيئه وظلامه، أو الإنسان من ضعفه وجوعه ونزقه وأخطائه، أو يتوب المجهول عن إيجادي، عن عبثه الدائم؟

هل توجد توبة؟ هل نتوب أو تتوب الأشياء من قوانينها أو من وظائفها أو من احتياجاتها وضروراتها أو من إراداتها؟

أليس أي سلوك نمارسه هو أما حاجة أو ضرورة أو وظيفة ذاتية أو إرادة أو عجز أو شهوة؟ وهل نستطيع التوبة من الحاجة أو الضرورة أو الوظيفة الطبيعية أو من الإرادة أو من العجز أو من الشهوة - هل نستطيع أن نتوب من ذواتنا وصفاتنا؟ أليست أية توبة ليست إلا توبة من الذات؟ وهل تتوب الأشياء من ذواتنا؟ أليس الذي يتوب من خطئه أو من إرادته أو من غبائه أو من شهوته أو من حماقته إنما يتوب من ذاته ووجوده؟

هل يتوب الوجود؟ هل تتوب الأشياء؟ هل يتوب المجهول؟

هل توجد توبة؟ ما هي التوبة؟

يا موجدي.. يا موجدي..

لا أستطيع الحمد لك.

ولو استطعت الحمد لك وفعلته فهل يسرك ذلك؟ هل تستطيع الاقتناع بأنك تستحق أن أحمدك، هل تستطيع؟

يا موجدي هل أوجدتني لأنك تعشق العار والافتضاح والذنوب والأنين والأحزان وكل أساليب العذاب والتحقير والتوريط والمشاكل التي لا تحل؟

هل أوجدتني لأنك تعشق أن ترى من يمرضون ويحزنون ويجوعون ويعانون ويهزمون ويبكون ويموتون؟ هل أوجدتني لأنك تتعزى بآلامي وسقوطي وهواني وتمزقي تحت أقدامك وتحت أقدام الطغاة المتكبرين والمرضى بالطموح وبالكبرياء وبالاستعلاء ـ لأنك تتعزى بقتلي وتشويهي في الحروب والمغامرات التي يصنعها لي ويلقي بي في أهوالها، ويدعوني إليها ويعلمني مزاياها زعمائي وأنبيائي وكل مجانيني وصانعي همومي وضلالي وغبائي وأحزاني وعدواني على نفسي؟

يا موجدي.. يا موجدي..

هل أستطيع الصفح عنك؟

يا موجدي، يا موجدي المجهول، هل من الأخلاق أن توجدني دون أن تستأذنني في إيجادي، وهل أقبل، ودون أن تسألني عن الصيغة التي تريد أن توجدني بها، وهل أوافق عليها، ودون أن تستأذن الكائنات الأخرى التي سوف أتعامل معها وعليها وبها، والتي سوف أتحول إلى عدوان عليها، أو إلى إيذاء واشمئزاز منها، أو إلى فريسة لها، أو إلى صديق مفروض عليها، أو إلى جراح وعاهات وهموم في أخلاقها وعواطفها وتاريخها؟

إن أي موجود لا بد أن يكون مفروضاً على الموجودات الأخرى، مفروضة عليه الموجودات الأخرى. إن شيئاً ما لا يكون وحده.

أيها الموجد المجهول هل من الأخلاق أو من الكرامة أو من الشرف لك أن توجد شيئاً، وأن توجد بغير الصيغة التي يستشار فيها، فيرضاها ويختارها؟ هل من الأخلاق أو الكرامة أو الشرف أن تكون موجداً؟ هل من الذكاء أن تكون موجداً؟

ماذا يعني أن تكون موجداً، أو أن يكون الشيء ما موجوداً أو موجداً؟ لماذا يكون الايجاد عملاً نبيلاً أو مريحاً أو سعيداً أو طيباً؟ ماذا يعني أن يكون الصرصار أو البرغوث أو الإنسان أو الجبل موجوداً؟

إن منطق إيجاد الإنسان هو منطق إيجاد الصرصار. إن أي إيجاد أو وجود لن يكون مفهوماً أو مفسراً أو مطلباً أو حاجة أو قيمة إلا إذا كان مداواة لوجود أو لإيجاد سابق، أو تداوياً منه. إن الايجاد والوجود اللذين ليسا تخلصاً من وجود أو إيجاد سابق، أو تخلصاً من آلامه أو من مشاكله أو من

همومه وضروراته وتوريطه، لن يكون لهما أي تفسير، ولن يكونا أية قيمة أو أية حاجة أو أية ضرورة. ولن يكونا أي مطلب من أي نوع، ولا على أي مستوى، ولا في أية حالة. إن الوجود والايجاد اللذين لا يكونان تخلصاً مما ذكر، ليسا إلا جنوناً، إلا جنوناً. إنهما أردأ وأسوأ من كل الجنون. إنهما جنون لا يستحق الغفران ولا الرثاء ولا الاعتذار. إن كل الوجود الذي نعانيه ونصنعه هو وجود مسبوق بوجود آخر. إن جميع عمليات الايجاد التي نمارسها ليست إلا ردوداً على وجود سابق، ومعالجة له ومنه.

البيت تفسير وقيمة للأبواب والجدران، والساكن تفسير وقيمة للبيت. ولكن الساكن تفسير أو قيمة لأي شيء؟ إنه الجنون الذي لا يستحق الرثاء أو الاعتذار أو الغفران. إنه الجنون الذي لا يفسر.

إن وجودي تفسير وقيمة لوجود أو لإيجاد الوجودات الأخرى التي أتعالج بها من وجودي، أو أتعالج بها لكوني موجوداً. ولكن أي شيء يمكن أن يحول وجودي إلى قيمة أو إلى تفسير؟

إن كل وجود أو إيجاد لا يكون تداوياً من وجود أو من إيجاد سابق، أو مداواة له، ليس إلا الجنون الذي لا يستحق الغفران ولا الاعتذار ولا الرثاء ولا الصفح. إنه الجنون الذي لا يمكن تفسيره.

يا موجدي.. يا موجدي..

لا أستطيع الصفح عنك.

ولو صفحت عنك فهل تتقبل ذلك؟ هل ترى أنك ممن يمكن الصفح عنهم أو يغفر الصفح عنهم؟

يا موجدي الذي لا أعرف ولا يعرف هو أنه يريد مني شيئاً أو أني أريد منه شيئاً لكي يحتمل أن يكون لإيجاده لي تفسير، أي تفسير - يا موجدي هذا الذي لا أطالبه بشيء، ولا يطالبني هو بشيء، ولم أتوقع بيننا أية صداقات ولا أية علاقات، ولا أية التزامات أو معاملات، وليس بيننا أي أسلوب من أساليب التلاؤم أو الاتفاق أو التعاطف أو التلاقي أو التعارف أو الاحتياج.

كيف حدث أن أوجدتني أو رغبت في إيجادي إذن؟ أليس ذلك أفظع مستويات الوقاحة والجنون؟

يا موجدي هذا، هل أوجدتني بالصيغة التي أوجدتني بها لأنها هي النموذج الذي تستطيعه، أم لأنها النموذج الذي تريده - لأنها النموذج الذي تختاره أم لأنها النموذج الذي لا تستطيع سواه؟ هل أنا الفن الذي تطمح إليه أم الفن الذي لا تستطيع تخطيه؟

هل أنا يا موجدي - هل أنا بصيغتي هذه إرادتك أم فنك، شهوتك أم قدرتك؟ هل أنا مستواك؟ إذن كم هو صغير مستواك؟ هل أنا خروج على مستواك، وقصور عنه وتشويه له؟

إذن كيف تصورتني، أو رأيتني، أو أردتني، أو اخترتني، أو دبرتني، أو صغت صيغتي؟ إذن كيف قبلت أن أكون تشويهاً لمستواك؟ كيف تقبل أن تصنع ما هو تشويه لمستواك؟ كيف يعطي مستواك ما هو هبوط به وهجاء له وإعلان مضاد عنه؟

هل هذا تواضع فيك؟ وهل الخروج على الكمال والذكاء والفن تواضع؟ وهل التشويه والتشوه تواضع؟ هل تشوه موهبتك وأعمالك ومخلوقاتك وتفرض عليها الضعف والعذاب والعجز لتكون متواضعاً؟

إذن حذار أن تكون متواضعاً. إذن كن متكبراً جداً ـ كن متكبراً ولا تكن مشوهاً أو متشوهاً.

يا موجدي.. يا موجدي..

هل أستطيع الصمت عنك؟

هل تستطيع آلامي وجراحي وآهاتي أن تصمت مهما صمت عقلي وأخلاقي وتديني ولساني؟

يا موجدي هل أوجدتني لأنك تريد من يحزن لك أحزانك، من يغنيها لك ـ لأنك تريد من يبكي لك دموعك، ومن يبكي معك وحولك وفيك عاهاتك؟ كأنك تريد من يعيش معك عاهاتك، كأن أحداً ما لا يستطيع ولا يريد أن يعيش معك عاهاته وحده. كأن كل أحد حتى الموجد المجهول يريد أن يعيش الآخرون عاهاته.

هل أوجدتني لأنك غاضب عاجز حاقد، تبحث عن أي كائن لتوقع به العذاب والعقاب والحرمان، أم لأنك مشحون بالرضا والحب والعطاء وبكل العواطف الواهبة، تبحث عن أي كائن لتحبه وتهبه وتسعده، وتطلق عليه كل شحناتك الراضية الواهبة؟

هل أوجدتني لأنك تبحث عمن يغني لك، وعمن يحزن من أجلك، وعمن تشكو إليه آلامك ومشاكلك وحيرتك وورطاتك الهائلة؟ هل أوجدتني لأنك تريد من يشاركك في همومك ومتاعبك، لأنك تريد أن ترى من يتعذبون ويحزنون ويتورطون ويبكون وينهزمون ويندمون ويتأرقون مثلك، لئلا تعاني وحدك، لئلا تعاني ورطة وجودك وحدك؟

هل أوجدتني بحثاً عن شريك لك في العذاب والتفاهة والتلوث والعبث والضياع؟ هل أوجدتني حسداً لي على ألا أكون موجوداً متورطاً مثلك؟ هل بحثت في إيجادي عن العزاء لك حين تجد مثيلاً لك في ورطتك العظمى؟ هل تريد أن تصنع متورطين تكفيراً عن ورطتك، أو عقاباً لورطتك؟ هل تعتذر عن ورطتك بأن توجد متورطين ـ بأن توجدني؟

من علمك أخلاقك وعواطفك هذه؟ من ركب فيك ذاتك؟ كم أنت مظلوم مشوهه.

يا موجدي.. يا موجدي..

لا أستطيع الصمت عنك.

وهل تغفر لي أن أصمت عنك؟ هل تغفر لمن يصمت عنك إن كان فيك شيء من الشهامة أو الغضب؟

يا موجدي هل أوجدتني لأنك طيب أم لأنك شرير، لأنك صديق أم لأنك محارب، لأنك تبتسم

أم لأنك تبكي، لأنك تعاقب أم لأنك تثيب، لأنك تعرف أم لأنك تجرب، لأنك تدبر أم لأنك تتحرك، لأنك تريد أم لأنك تتألم، لأنك ترى وتحسب أم لأنك تتخبط، لأنك تتداوى أم لأنك تداوي، لأنك تغني لنفسك من النشوة الروحية أم لأنك تصرخ من العذاب النفسي والذاتي والأخلاقي؟

يا موجدي.. يا موجدي..
يا موجداً قد قال لي.. قد قلت: لا.. قد قلت: لا..
لا أستطيع الحمد له..
لا أستطيع الصفح عنه..
لا أستطيع الصمت عنه..
قد باح لي عن سره..
عن كل ما في سره..
وقال لي لا تخفه..
فقلت إني فاعل...
ولتهو كل نجمة...
ولتمح كل نخوة..
أو كذبة أو خطبة
من رأس كل معلم.

* *

أيهما أكثر عدواناً عليك: من يوجدك أم من يعدمك؟ وهل يمكن إيجاد الشيء دون إعدامه؟ هل يمكن أن يكون كائن ما موجوداً دون أن يكون معدماً؟ أليس الموجد للشيء معدماً له حتماً؟ أليس كل من أوجد شيئاً فقد أعدمه؟ أليس الموجد هو كل المعدم؟

أليس الاعدام هو أحد ذنوب الايجاد؟ أليس جميع القتلة هم بعض عطايا الموجد وبعض صفاته؟ ألست إذا وجدت شيئاً فأنت حتماً قاتله؟ ألست إذا وجدت فإن إحدى صفاتك أنك قاتل. إنك حينئذٍ لست قاتلاً فقط، إن القتل حينئذٍ هو أحد الذنوب التي فعلت. إنك حينئذٍ قاتل وإنك حينئذٍ لأشياء أخرى مع كونك قاتلاً..

أليس كل والد هو قاتلاً، لأن كل والد هو موجد؟ أليس الآباء هم كل القتلة لأنهم هم كل الخالقين أو الموجدين، أو لأنهم موجدون خالقون؟

إن قتل الأبناء هو بعض هبات الآباء لهم، إنه بعض ما يصنعون لهم وبهم من ذنوب وعدوان. إن

الآباء هم الواهبون لأبنائهم كل الآلام والمشاكل والورطات والهزائم والإهانات وكل الموت بكل أساليبه وظروفه وأسبابه. إنك لن تموت لولا أبواك كما أنك لن تحزن أو تهزم أو تسقط لولاهما.

إن وضع كل الأبناء في أيدي كل الجلادين والقتلة، بكل مذاهبهم وأربابهم وبكل مستوياتهم وأخلاقهم وأسبابهم وعصورهم ومجتمعاتهم هو بعض عطايا الآباء للأبناء، وبعض برهم بهم وحبهم لهم.

إن أحداً، غير والدك، أو لولا والدك، لن يستطيع أن يقتلك أو أن يصيبك بأي سوء.

أيها الرجال لدوا، لدوا فإنكم قاتلون بعدد من تلدون - إنكم قاتلون كل من تلدون. إنكم أيها الوالدون لستم قاتلين فقط، إن القتل والتشويه والتجويع والاذلال والتوريط - إن ذلك هو بعض عطاياكم لمن تلدون، أيها الآباء البررة الواهبون كل حبهم وحنانهم لأبنائهم.

أيها المطالبون لأبنائهم بكل الحب والشكر والعطاء والاعتراف، جزاء على تفضل لا يستطاع جزاؤه.

أيها الآباء والأمهات.. إن كل القتلة ليسوا إلا سيافين وجلادين لكم، ليسوا إلا موظفين وعمالاً عندكم. إنكم أيها الآباء والأمهات الخالقون لكل قتلة أبنائكم، ولكل من يشوهون ويظلمون ويذلون أبناءكم، ولكل من يعتدون عليهم، ولكل من يصنعون لهم العار والهزائم والهوان والغيظ. أيها الآباء، أنتم كل الأعداء لأبنائكم - أنتم كل خالقي أعدائهم.

أيها الآباء أنتم لستم فقط آباء لأبنائكم، أنتم أيضاً آباء لأعداء أبنائكم. لقد ولدتم كل أعداء أبنائكم حينما ولدتم أبناءكم.

«أنت والد..» إن هذا يعني: أنت قاتل ومصيب بالتشويه وبالعار وبالجوع وبالشيخوخة وبالأمراض وبالأعداء وبكل ما هنا من آلام وهموم وأشياء أخرى.. إن هذا يعني أنك والد لكل هذه الآلام والشرور والقباحات.

* *

ولكن ماذا لو عرف الآباء أو الأبناء ذلك؟ ماذا يحدث لو عرف الآباء أنهم يصنعون كل ذلك لأبنائهم وبأبنائهم، أو لو عرف الأبناء أن آباءهم يفعلون بهم ولهم كل ذلك؟ هل يتغير الموقف أو العلاقات حينئذٍ بين الآباء والأبناء؟ هل يرحم الآباء حينئذٍ، أو يكفون، أو يخجلون، أو يهابون أو يكرهون أنفسهم؟ وهل يقاوم الأبناء حينئذٍ أو يعاقبون أو يحاربون أو يعادون أو يهربون؟ هل يتغير حينئذٍ تفسير البشر وفهمهم للأخلاق والقانون، أو توضع قوانين جديدة؟ وهل يفسر العدوان من جديد؟ وهل تشرع عقوبات ملائمة لأشد الأعداء عدواناً؟

وهل يفعل البشر - بأسلوب عالمي - شيئاً للقضاء على هؤلاء الأعداء وعلى هذا العدوان؟

* *

إن كل مولود جديد قد يجيء محكوماً بعاهة أو بآفة وبيلة، أو مواجهاً لظروف فيها كل معاني وأساليب وتفاسير التحقير والاذلال. إذن أي وحش ذلك الذي يقبل أن يصنع الأبناء؟ هل الذين يصنعون الأبناء يصنعونهم وهم يحسبون هذه الاحتمالات ويفكرون فيها، أم يصنعون دون أن يحسبوا أو يفكروا فيما يمكن أن يصيبهم أو فيما يمكن أن يصيبوهم به؟

إذن أية وحشية عدوانية، أو أية بلادة عقلية ونفسية يعيشها ويعيش فيها كل من يصنعون الأبناء؟ إنهم إما وحوش أعداء معتدون لا شبيه لوحشيتهم وعداوتهم وعدوانهم، وأما كائنات لا شبيه لها في البلادة وخمود الأحاسيس. إن صناعة الأبناء ليست أنانية، إنها ضد الأنانية، وإنها ليست تضحية. إنها شهوات افتراسية غبية. إنها عدوان غير مقصود أقسى من كل عدوان مقصود.

إن الآباء والأمهات المصابين بالأدواء والآلام الموروثة يصنعون الأبناء أيضاً ـ إنهم يصنعونهم بنشوة وشبق مرتجف، دون أن تموت أو تتكسر أسلحتهم خوفاً من الاحتمالات الشريرة المتنقلة. إذن هل يوجد أعداء للأبناء مثل الآباء؟ إنك إذا صنعت طفلاً فقد يصبح صانع حروب ومغامرات وعداوات وأكاذيب وتعاليم غبية حاقدة ـ أي فقد يصبح زعيماً أو قائداً أو ثائراً أو معلماً يغرق البشر والحياة بذنوبه.

إن جميع قوانين الطبيعة وجميع قوانين البشر ليجب أن تحاكمك وأن تعاقبك كظالم وأوقح معتد، حينما تصنع ابناً يوجد احتمال ما، يوجد أضعف احتمال، بأنه قد يجيء مصاباً بأية آفة عقلية أو نفسية أو أخلاقية أو بدنية، أو مواجهاً لظروف مهينة لا يستطيع الانتصار عليها أو الخروج منها، ولا يشرفه أو يكرمه أو يسعده أن يعيشها، بل ويعذبه أن يعيشها. إن صناعة الأبناء الذين قد يهبهم آباؤهم آلامهم وتشوهاتهم أو نقائصهم أو ضعفهم لذنب يصغر عنه كل أسلوب من أساليب العقاب. إذن هل يوجد والد أو والدة ـ إذن هل يوجد والد واحد لا يستحق هذه المحاكمة والمعاقبة؟ هل يوجد والد واحد لا يستحق كل أسلوب من أساليب العقاب ثم يظل عقابه أقل مما يستحق؟

إن كل والد ـ وكذا كل والدة ـ يحمل ويختزن في جسمه وفي عقله وفي نفسه وأخلاقه، وفي تاريخه وآبائه وولادته وظروفه أعداداً هائلة من الآفات والعاهات والأمراض ومن كل الاحتمالات الرديئة الأليمة، لينقلها إلى بعض أبنائه، أو لكل أبنائه أو لينقل بعضها إليهم جميعاً أو إلى بعضهم. إن الآباء والأمهات هم أخطر طريق يمر منه وفيه الأبناء، وأخطر وعاء يصنعون ويعيشون فيه. إن الأمهات والآباء هم أخطر مصنع يجب الاشتراط عليه وعلى الأسلوب والمستوى الذي يصوغ به انتاجه.

أين هم الآباء والأمهات، أو كم هم الآباء والأمهات الذين يذهبون يسألون العلم: هل يصنعون أبناء، ويسألونه عما يحملون من النقائص والآلام في أبدانهم أو في عقولهم أو في نفوسهم لهؤلاء الأبناء الذين يريدون أن يصنعوهم قبل أن يصنعوهم؟ أليس الخوف على الأبناء مما في ذوات الآباء أذكى وأتقى من أي خوف؟ وهل وجد آباء خافوا على أبنائهم مما في ذواتهم خوفاً ذكياً أو تقياً؟ هل وجد من فتشوا ذواتهم ـ بواسطة العلم ـ ليعرفوا ما فيها من الأخطار ليمنعوا أبناءهم من المجيء إليها أو

المرور بها أو أن يصاغوا داخلها؟ حتى الرجال الكبار والرحماء جداً لم يفعلوا ذلك. وهل دعوا إليه؟ حتى الدعوة إليه، هل وجد من دعا إليه؟ حتى الأنبياء والقديسون والعلماء، هل خافوا على أبنائهم مما في ذواتهم؟ هل اشترطوا لهم أية شروط؟

هذا العالم كيف يتصرف ـ كيف يتصرف دولة، دولة، وكيف يتصرف هيئاته ومؤتمراته الدولية وأممه المتحدة في أشكالها العديدة المختلفة؟ كيف يتصرف أمام مشاكله ومخاوفه وأخطائه؟

إنه يفكر في كل شيء، ويتحدث عن كل شيء، وعن محاولة العلاج لكل شيء، وعن الخوف من كل خطر موجود أو خطر محتمل أن يصبح موجوداً.

ولكن شيئاً هو أعظم الأشياء لا يفكر فيه العالم ولا يتحدث عنه ولا عن خطره أو عن الخوف منه، ولا عن العلاج أو الاشتراط له، ولا عما يجب أن يعمل من أجله ولا كيف يجب أن يكون.

إن العالم ـ دولة، دولة، وهيئات دولية ـ لا يفكر في الأوعية والأجهزة التي تصنع ويصنع فيها الإنسان. لهذا لا يتحدث عن هذه الأوعية والأجهزة، ولا يشترط لها أو فيها.

إن هذا العالم ـ بكل اهتماماته الضاجة العظيمة ـ لا يتحدث عن الأمهات والآباء كأجهزة وأوعية تصوغ البشر ويصاغ فيها البشر. إنه لا يشترط لهذه الأجهزة والأوعية، ولا يشترط فيها أية شروط لا صعبة جداً ولا سهلة جداً، لتكون ملزمة إلزاماً دولياً، ولتجعل هذه الأوعية والأجهزة التي تصنع وتصوغ الإنسان محرمة تحريماً دولياً، ومحرماً عليها أن تتحول إلى أجهزة وأوعية منتجة وواهبة، ما لم تكن محكومة بكل هذه الشروط الصعبة جداً أو السهلة جداً، وما لم تكن هناك رقابة علمية، محلية ودولية ليكون التحقق مضموناً من احتواء هذه الأجهزة والأوعية لكل هذه الشروط الصعبة أو السهلة التي يجب أن تحددها هذه الرقابة العلمية المحلية والدولية.

إنه لأعظم جنون، بل لأعظم عدوان، بل لأعظم إجرام عالمي أن تترك جميع الأمهات وجميع الآباء يتحولون إلى مصانع، ينتجون الإنسان، ويصبون فيه كل عاهاتهم ونقائصهم وآلامهم وصفاتهم الضعيفة العقلية والنفسية والبدنية والتاريخية دون أية رقابة من أي نوع وعلى أي مستوى، ودون أي اشتراط، بل دون أي استنكار أو استبشاع أو غضب أو مناداة عالمية أو حتى فردية لوضع أي شرط من الشروط البدنية أو العقلية أو النفسية أو الجمالية أو الأخلاقية على الأمهات والآباء المتحولين ـ بلا أي مستوى ـ إلى مصانع وأوعية لصياغة البشر وإنتاجهم.

إنه العجز والرهبة من محاسبة الذات ومحاكمتها والحكم عليها. إن هذه الرقابة والاشتراطات على الأمهات والآباء، مصانع الأبناء، محاكمة قاسية لذات كل إنسان وتفتيش مخيف داخلها وعلى مواهبها وعلى جميع محتوياتها وقيمها المادية والأدبية. لهذا خاف الإنسان خوفاً عالمياً هذه الرقابة والاشتراطات، لقد خاف حتى التفكير فيها والحديث عنها. إنه العجز والرهبة والنفاق هو الذي جعل

العالم كله يمارس هذا الجنون والعدوان والاجرام دون استنكار أو استبشاع أو غضب أو مناداة عالمية أو حتى فردية.

إن أقسى الشروط والقيود العلمية يجب أن تفرض على كل الرجال والنساء قبل أن يؤذن لأية امرأة ولا لأي رجل بأن تتحول أو يتحول إلى مصنع لإنتاج البشر. إن العالم ليجب أن يحاكم نفسه على ممارسته لهذه الوحشية التي لم يرتفع في مقاومته لها حتى ولا إلى مستوى الوعظ ضدها أو الشعور بها.

إن أي مجتمع، حتى أعظم المجتمعات اشتراطاً على الحياة وفهماً لها وإبداعاً فيها، لا يضع أية قيود بل ولا أية عظات على أية امرأة ولا على أي رجل يذهبان يصنعان الأطفال، مهما كان متوقعاً، بل مهما كان محتوماً أن ينقلا إلى الأطفال الذين يصنعانهم أفدح الآلام والأمراض والصفات الضعيفة والغبية. إنه لم يوجد مجتمع واحد قد اشترط على الأمهات أو الآباء أية شروط أو مستويات ذاتية قبل أن يأذن لهم بصناعة الأطفال.

إن هذا الإطلاق في كل المجتمعات لكل من يستطيعون أن يصنعوا الأطفال بأن يفعلوا ليس جناية على نفس الأطفال وحدهم، بل وعلى من يصنعونهم، وعلى المجتمعات التي يصنعونهم فيها، بل وعلى الحياة والتاريخ والمستقبل. إنها جناية غير عادلة في توزيعها لنتائجها ولضرباتها. إنها عادلة لأن العدل هو عقاب كل شيء وعقاب من لم يذنب. إن العدل هو عقاب الحقول التي لم تذنب بالقحط والزلزال والفيضان، وعقاب العضو الذي لم يفسق بالقطع والمرض وبالعاهة والتشويه.

إنه في كل المجتمعات يلقح الأطفال ضد الأمراض، ويناضل نضال عظيم ودائب لحمايتهم من الأمراض ومن الشذوذ والانحرافات، ومن الحروب والأخطار الأخرى المختلفة، ولتعليمهم وتربيتهم، ولإطعامهم، ولعلاجهم إذا مرضوا، ولإعطائهم شروطاً وظروفاً طيبة وملائمة كثيرة.

إن جميع المجتمعات تحاول ـ على درجات متفاوتة جداً ـ أن تحول كل التقدم الإنساني العظيم إلى اهتمام بالأطفال وعمل من أجلهم. إن هذه الحضارة العظيمة كأنما أبدعت في جميع المجتمعات لتتحول إلى إله عظيم طيب يصلي للأطفال ويهبهم كل ما يريدون من الصحة والطعام والمسرات واللعب المتحضرة.

إن الأطفال في المجتمعات الحديثة المتحضرة ليبدون وكأنما تجيء الشمس وتذهب بكل هذا الابتذال، وتتلألأ النجوم بكل هذه السذاجة والبداوة لتكون بعض لعبهم ومسراتهم الصغيرة ـ كما يبدون وكأنما أعطى جميع الموهوبين والعباقرة من كل البشر هذه الحضارة والتقدم والرخاء من أجل إسعادهم والاهتمام بهم وإلقاء الانبهار في أبصارهم ومشاعرهم. إن كل الناس في كل المجتمعات لا يتحولون إلى أطفال، إلى صغار ومجانين ووحوش وأغبياء جداً إلا في حبهم لأطفالهم وتعصبهم لهم وخوفهم عليهم وفي محاباتهم الهمجية لهم.

ولكن كل المجتمعات حتى التي تفعل كل ذلك من أجل الأطفال لا تفعل أي شيء حتى ولا بالكلام أو الوعظ أو الغضب أو الاشمئزاز لحمايتهم من أبشع الآلام والمخاطر والنقائص التي لا بد أن تنقلها إليهم ذوات أمهاتهم وآبائهم الذين تعيش فيهم كل احتمالات وشروط التوريث للأمراض والضعف والعاهات والدمامات والغباء والأحزان والتشوه والانحراف والعجز والأخلاق الرديئة المهزومة الذليلة، بل والبله والعته والجنون.

كيف يمكن أن نفهم هذا الإنسان حين نجده يرفض أن يستنبت أو يستولد النباتات والأشجار والحيوانات الضعيفة أو المشوهة أو المصابة بأية آفة من الآفات، أو التي لا تنقل إلى سلالاتها كل المزايا المطلوبة، ثم نجده لا يفعل ذلك في توالده هو؟ كيف يمكن أن نفهم هذا الإنسان حين نجده يشترط لحيواناته وبقوله ومزارعه وأرضه ما لا يشترط لنفسه ولأبنائه؟

كيف يشترط لاستنبات أرضه ثم لا يشترط لاستنبات ذاته؟

متى يثور الإنسان ضد نفسه؟ متى يشترط في تناسله بعض ما يشترط في تناسل حيواناته وزروعه؟ كيف لا يخاف من توريث أبنائه مثلما يخاف من توريث حيواناته وبقوله؟

* *

إن صناعة الأطفال سلسلة طويلة وشريرة من العدوان ومن صياغة المظالم والآلام.

إنك إذا صنعت طفلاً فقد فرضت عليه وأوقعت به أشياء كثيرة لم يستشر فيها ولم يرضها. وإنه حتماً لن يرضاها جميعاً أو لن يرضى شيئاً منها. وإنها حتماً لا بد أن تكون كلها أو بعضها مؤلمة أو مشوهة أو محقرة أو مذلة له أو غير ملائمة أو مريحة أو مسعدة أو مقبولة لو وضعت تحت اختياره.

إنك إذا صنعت طفلاً فقد فرضت عليه لونه وخطوط جسمه وأعضائه. وفرضت عليه جماله ودمامته، صحته ومرضه، قوته وضعفه، استواءه وتشوهاته، ذكاءه وغباءه. وفرضت عليه جهازه العصبي والنفسي وكل احتمالاتهما ومعاناتهما الرهيبة. ويلاه. كم في الجهاز العصبي والنفسي من احتمالات ومقاسات رهيبة. كم من الآلام والعدوان تفرض على من فرضت عليه أجهزته العصبية والنفسية.

وأيضاً فرضت عليه أبويه وأقاربه وأسرته وقبيلته أو عرقه أو شعبه أو أمته أو طائفته. وأي عدوان يساوي عدوان أن تفرض عليه ذلك؟ وهل يمكن أن يكون ذلك غير عدوان؟ هل يمكن أن يغفر هذا العدوان من يصاب به لو استطاع ألا يغفره؟

وأيضاً فرضت عليه مجتمعه وتاريخه وانتماءه ومستقبله والعصر والحضارة اللذين جاء فيهما وجاء فوجدهما.

وأيضاً فرضت عليه آلهته وأديانه وأنبياءه وزعماءه ومذاهبه وتعاليمه وعباداته وصلواته ومعابده وكتبه المقدسة ومخاوفه وجميع أوهامه.

وأيضاً فرضت عليه حبه وبغضه وعداواته وصداقاته وأعداءه وأصدقاءه وحروبه وسلامه. بل وفرضت عليه أخلاقه ومشاعره في مواجهته ومعاملته للناس وللأشياء. بل وفرضت عليه عينيه أي فرضت عليه رؤيته للآخرين وللأشياء وللكون والحياة. حتى عيناه إنك تفرض عليهما الرؤية وتعلمهما الرؤية وتلونها وتصوغها لهما. إنك تعلم عينيه قدرتهما وأخلاقهما وذكاءهما وخطأهما وصوابهما وحبهما وبغضهما.

وأيضاً فرضت عليه جميع الظروف الدولية والمحلية التي يجيء إليها أو تجيء إليه بكل احتمالاتها ومشاكلها وتعقيداتها الحمقاء.

نعم، إنك إذا صنعت طفلاً فقد فرضت عليه كل ذلك. بل إن كل ذلك هو بعض ما تفرض عليه.

ويلتاه، إذن كم في صناعة الأطفال من العدوان.

أيها الآباء هل تحطمون أسلحتكم التي تصنعون بها الأطفال لو عرفتم ذلك؟

أيهما الشجاع: الجبان أم الشجاع؟ أيهما الشجاع؟

إنك شجاع أحياناً لأنك لست شجاعاً على أن تكون جباناً. إن الشجاع هو إنسان أو كائن لم يملك شجاعة لكي يستطيع أن يكون جباناً. إنك لمحتاج لكي تستطيع أن تكون جباناً إلى مستوى من الشجاعة لن تحتاج أحياناً إلى مثله لكي تستطيع أن تكون شجاعاً. إنك لن تستطيع أن تقف موقفاً جباناً إلا لأنك تملك الشجاعة، أي تملك الجرأة على أن ترفض وتعصي وتقتحم ـ ترفض إملاء الظروف وطغيانها، وتقتحم الحواجز المحروسة بأشرس القوى والتفاسير والتعاليم المذلة لك، المنتصرة عليك، وتتفجر عصياناً في العيون والمشاعر الناظرة إليك، آمرة زاجرة غاضبة مهددة، رافعة في وجهك كل الأسلحة والمخاوف والتعاليم. إنك لهذا لن تستطيع أن تكون جباناً إلا إذا كنت تملك مستوى عظيماً من مستويات البطولة.

إني لا أستطيع أن أرفض الأبصار المحدقة فيّ، المشيرة إليّ، كما لا أستطيع أن أرفض المشاعر المتحدثة عني وفي، المصوبة إلي بلا لغة ولا صوت، بكل لغة وبكل صوت. لهذا لم أستطع أن أكون جباناً، لهذا لم أستطع أن أكون شجاعاً.

إني شجاع لأني لم أستطع أن أكون جباناً، إني جبان لأني لم أستطع أن أكون شجاعاً ـ لأني لم أستطع أن أكون شجاعاً على أن أكون جباناً.

إني جبان لأني شجاع، إني شجاع لأني جبان. إني جبان شجاع.

إني لست شجاعاً ولست جباناً. إني شهوة ورغبة وخوف وحب وبغضاء وقدرة وعجز وتقدم وتأخر وجوع ورفض للجوع وخطوات متناقضة متعاقبة. إني إذن لست شجاعاً ولا جباناً. إني

ضرورة. إني لو كنت شجاعاً لعصيت ورفضت كل شيء، حتى أعضائي ووجودي. إن أعظم مستويات الجبن أن أتقبل استبداد وجودي وأعضائي بي، وتحقيرها وإذلالها لي، وحكمها علي بأخلاقها ونذالتها، بكل جبروتها المهين. إن من يبتلع كل طغيان وإذلال في العالم لن يكون أكثر جبناً أو هواناً ممن يتقبلون معايشة أعضائهم. إن الأعضاء هي أبشع طغيان مذل للإنسان. إني لو كنت جباناً لما جرؤت وفعلت أي شيء حتى ولا ممارسة وجودي وأعضائي. إن أعلى مستويات الشجاعة أن أجرؤ على مواجهة ومعايشة وجودي المفترس. وعلى مواجهة ومعايشة أعضائي الهمجية ـ أن أجرؤ على الالتزام بمواجهة كل ما في أعضائي من وحشية وشراسة. إن الجرأة على مواجهة الأعضاء ومواجهة ضغوطها ووحوشها وإرهابها وكل تحدياتها الهمجية لهي أعلى مستويات البسالة.

إن الشجاعة قبول ورفض، طاعة وعصيان، وإن الجبن لكذلك. إذن ما هي الشجاعة، وما الجبن ـ ما الفرق بينهما، وهل توجد شجاعة ويوجد جبن، أم يوجد كائن يمارس وجوده وما حوله بالشيء ونقيضه، أو بالشيء الذي هو نقيضه، أو بالشيء الذي يسميه نقيضاً لشيء ليس نقيضاً؟

إذن هل الناس شجعان وجبناء، أم كلهم شجعان جبناء، أم هم لا شجعان ولا جبناء؟

إذا كنت شيخاً مريضاً كريهاً يائساً متألماً أبداً، وتقبلت أن تبقى، فهل أنت شجاع، فهل أنت جبان ـ وإذا رفضت البقاء وحطمت حياتك، فهل أنت شجاع، هل أنت جبان؟

وإذا ركبك عار أو افتضاح أو تحقير أو هوان أو موقف ذليل تشير إليه كل العيون والأصابع والرثاء والاشمئزاز وكل الشماتات، يسددها إليك كل من يرونك أو يسمعون بك أو يتحدثون عنك أو يتذكرون وجودك فهل أنت شجاع أو جبان لو صبرت على وجودك؟ وهل أنت شجاع أو جبان لو حطمت وجودك؟

وإذا أصابتك عاهة باهظة أو مرض خبيث لا تستطيع الشفاء منه أو منها، أو لا أمل في هذا الشفاء، فهل أنت شجاع أو جبان إذا استمسكت بحياتك؟ وهل أنت شجاع أو جبان إذا قتلت حياتك؟

وإذا جرؤت على أن تصنع أبناء، يعانون ويعيشون هذه الحياة، ويواجهون هذا الوجود، فهل أنت شجاع أو جبان؟ وإذا رفضت أن تصنع هؤلاء الأبناء، فهل أنت شجاع أو جبان؟

وإذا أطعت حاكمك أو زعيمك أو طاغيتك أو معلمك حينما يسوقك إلى الموت في حرب أو مغامرة لا تجد لها تفسيراً في حياتك أو في تفكيرك ولم تفكر فيها لتجد لها تفسيراً، أو لتعجز عن أن تجد لها تفسيراً ـ فهل أنت شجاع أو جبان؟ وإذا عصيت هذا الحاكم أو الزعيم أو الطاغية أو المعلم، وإذا خرجت عليه وثرت ضده، فقتلك أو قتلته، فهل أنت شجاع أو جبان؟ هل القاتل شجاع أو جبان ـ هل المقتول شجاع أو جبان؟ هل الإقدام على الحرب شجاعة أو جبن، هل الخوف من الحرب شجاعة أو جبن؟ هل القتال حتى الموت شجاعة أو جبن؟

وإذا أصبحت جندياً في جيش من اللصوص لتقتل وتقتل، ولتسرق أو تعجز عن السرقة، فهل أنت

شجاع أو جبان؟ وإذا كنت جندياً في جيش دولي، ليصنع السلام وليهزم اللصوص والعدوان، فهل أنت شجاع أو جبان؟

إذن هل أنت شجاع أحياناً وجبان أحياناً؟ أم أنت دائماً شجاع جبان؟ أم أنت دائماً لا شجاع ولا جبان؟

هل قلبك أو رئتاك أو أعضاؤك شجاعة أو جبانة، أو شجاعة وجبانة، أو لاشجاعة ولا جبانة، مهما كان سلوكها وممارساتها لنفسها؟

إن البشر كائنات تسمي وتصف نفسها. إنهم يصفون أنفسهم ـ مدحاً وذماً، وبقصد المدح والذم ـ كما يسمون أنفسهم. ولكن هل فيهم معنى أسمائهم وتسميتهم؟

هل فيهم من معاني صفاتهم أكثر أو أصدق أو أذكى مما فيهم من معاني أسمائهم؟ إن الفروق بين أوصافهم أو بين توزيع الأوصاف عليهم أو بين معانيها التفسيرية ليست فروقاً بين أخلاقهم. أو بين ذواتهم، أو بين نياتهم وحوافزهم، أو بين أربابهم ومذاهبهم، كما أن الفروق بين أسمائهم ليست كذلك فروقاً بينهم في هذه الأشياء أو في هذه المعاني.

إن الناس يتخاطبون بأسمائهم وأوصافهم، ولكنهم لا يعيشونها ولا يتعاملون بها ولا يفسرون أو يفهمون أنفسهم أو وجودهم أو حياتهم بها.

إنهم يقرؤون أوصافهم كما يقرؤون أسماءهم. إن أوصافهم كأسمائهم للقراءة فقط.

إن الناس لو حسبوا وسموا جباناً جداً من يحسبونه ويسمونه شجاعاً جداً، ثم حسبوا وسموا شجاعاً جداً من يحسبونه ويسمونه جباناً جداً، لقبلوا ذلك واقتنعوا به، كما يقبلون ويقتنعون لو سمي هذا باسم هذا، وهذا باسم هذا ـ لو سمي هذا الإنسان باسم هذا الإنسان الآخر. وسمي الإنسان الآخر باسم هذا الإنسان، أو لو سمي البغل باسم الحصان، والحصان باسم البغل، أو سمي الإنسان باسم الجمل، وسمي الجمل باسم الإنسان.

بل إنهم سيتقبلون ويقتنعون بهذا التبادل والتغيير في الأسماء والأوصاف وفي الحسبان والرؤية والحكم والإحساس والتعامل بالقوة والمنطق والأسلوب الذي رأوا به أربابهم وأديانهم ومذاهبهم وتعاليمهم هي الحق والصدق والذكاء والجمال، وأرباب الجيران وأديانهم ومذاهبهم وتعاليمهم هي الباطل والافتراء والغباء والدمامة.

نعم، هل الإنسان شجاع أم جبان، أم شجاع وجبان، أم لا شجاع ولا جبان، أم شجاع أحياناً وجبان أحياناً أخرى؟ هل الشجاع غير الجبان؟ وهل الجبان غير الشجاع؟ هل هما شيئان في الحافز أو في النتيجة أو في التفسير أو في الصيغة؟ هل الشجاعة والجبن موقفان وقضيتان وتفسيران ومنطقان، أم هما لغتان وتعبيران وحكمان؟

هل الزلزال أو الفيضان أو الأعصار أو البركان المتفجر شجاع أم جبان، أم لا شجاع ولا جبان، أم شجاع وجبان؟

ولكن من الذي يحكم هنا؟ ومن الذي يصدق الحكم أو يكذبه؟ وكيف يمكن أن تكون أسباب الحكم، وما هي، وكيف يكون الاقتناع بها، وكيف يمكن الاقتناع بها؟

كيف يمكن الاقتناع بالاقتناع، بأي اقتناع؟

كيف تقتنع بأنك قد اقتنعت، وتقتنع بأن اقتناعك مقنع؟

كيف؟ كيف..؟

اذا تقادمت المذاهب والأرباب

«إذا تقادمت المذاهب والأرباب والأوهام والأكاذيب وتقادم العمل بها والتجارب لها فقدت روعة سحرها وتحريضها، وفقدت القدرة على أن تصنع وتلهم الغوايات الباسلة، وعلى أن تؤجج وتلقي في قلوب وأخلاق وعقول وأعصاب أتباعها والمحشودين في محاريبها صلابة المغامرة والاقتحام وإغراءات الشوق والجنون والنزق المفتضح المثير القاتل. إنها حينئذٍ تتحول إلى خمول ووقار وإلى تلاؤم مع الأشياء، مع أردأ الأشياء وأكثرها دمامة وبلادة وعجزاً.

إن الإيمان القديم بالأرباب والمعلمين وبالمذاهب والغوايات القديمة يفقد وحشيته وفظاظته وجنونه. وحينئذٍ يفقد رغبته في الافتراس وقدرته عليه، أي على الافتراس. وحينئذٍ أيضاً يفقد قدرته على الانتصار والتألق والاغراء. إنه يصاب بالوقار العاجز.

إن الوقار هو أبشع ما يمكن أن تصاب به الأرباب والمذاهب والأوهام والأكاذيب. إنه شيخوختها القاتلة.

إن الذين يؤمنون هذا الإيمان يصبحون كالأسلحة التي فقدت ذخيرتها. إنها لا تقتل ولا تخيف، ولا تهب انتصاراً ما، بل ولا تطلق صوتاً قوياً».

إن الأتقياء الأوفياء الملتزمين المستقرين نفسياً وعقلياً، أولئك الذين يفقدون كل رغبة وقدرة على تغيير المذاهب والأرباب والأوهام والغوايات وعلى الاستبدال الدائم السريع بها وعلى التنقل بينها بلا روع أو رهبة أو بكاء على الأطلال ـ إن هؤلاء لن يستطيعوا مجاراة أو مباراة أو مبارزة الأشقياء الوقحاء الذين لا يملكون وفاء ولا تقوى ولا التزاماً ولا حناناً إلى أي طلل، أولئك المتغيرين المغيرين المتنقلين المستبدلين المبدلين لإيمانهم وصلواتهم أبداً.

أولئك الذين تتخطف أبصارهم ولهفاتهم وأشواقهم وتطلعاتهم وحماقاتهم دائماً أضواء وصرخات ومواكب الآلهة البازغة حديثة الولادة، مهما كانت ضئيلة المولد والكينونة والحسب والنسب والجمال.

إن الآلهة الوليدة هي أقوى وأعتى الآلهة وأكثرها شراسة وأقدرها على صناعة الغواية، وعلى تعليم الجنون والافتراس والوقاحات المتوثبة المهاجمة. إن مثل هذه الآلهة هي أقدر الآلهة وأجسرها على خوض معارك الجنون والعدوان. إنها أفضل جياد هذه المعارك.

إن في تجديد الإنسانية لإيمانها وفي تغييرها لأوثانها إيذاناً بخطوة جديدة من خطواتها الجديد القوية. إنه إعلان عن هذه الخطوة الجديدة. إن الإيمان الجديد يعني كينونة جديدة أو رغبة في كينوا جديدة أو بحثاً عنها، أو إحساساً بها أو إعلاناً عن قرب مجيئها.

إن الرفض للإله القديم أو للمذهب القديم أو للنبي القديم أو للزعيم القديم أو للإيمان القديم يعني الرفض للوجود القديم أو النقد له أو الاحتجاج عليه أو اليأس منه أو مقاتلته، أو ضعف الإحساس والاقتناع بقوته وقيمته ومستقبله، أو يعني ذلك الجرأة عليه، الجرأة التي فيها كل معاني التحقير والاستهزاء. إن هزيمة الإيمان القديم لن يكون بلا ثمن أو تفسير.

إن سقوط إلهك القديم لن يكون مع بقائك في وجودك أو في حماسك أو في مكانك أو في حبك القديم.

إنه ما من خطوة خطاها الإنسان على طريق تاريخه الطويل الحزين إلا وهي تؤرخ ميلاد إله جديد أو مذهب جديد أو غواية جديدة أو خيال جديد في تصوره.

إن أحدهما إعلان عن الآخر وتاريخ له بأسلوب ما. فالخطوة الجديدة إعلان عن الإيمان الجديد وتاريخ له. كما أن الإيمان الجديد إعلان عن الخطوة الجديدة وتاريخ لها.

إن حضارة الإنسان وحياته خطوات متجددة متبدلة متقاتلة متزاحمة كذلك هما آلهة وعقائد وأوهام متجددة متبدلة متعاقبة متخاصمة. لقد هدت الضرورة العشوائية البلهاء البشر إلى هذه الحقيقة. لقد هدتهم إليها بالسلوك وإن لم تهدهم إليها بالتفكير أو المنطق أو التدبير الذكي. ولقد كانوا لذلك ينزعون دائماً إلى خلع وإسقاط أربابهم ومذاهبهم وخيالاتهم وشعاراتهم ونبواتهم القديمة لكي ينصبوا مكانها أرباباً ومذاهب وخيالات وشعارات ونبوات وغوايات جديدة شابة شديدة البغضاء والإغراء والادعاء، لتجدد الشباب والطموح وروح القتال والتوثب والغرور والاصرار في مسيرتهم الضالة التي لا يجدون لها تفسيراً أو منطقاً أو هدفاً والتي لا يبحثون لها عن شيء من ذلك.

وكذلك لتوقد فيهم الشهوة والرغبة المتقحمة التي لا تستطيع أن ترى نفسها لتعاتبها أو تسائلها عن أي عار أو افتضاح تمارسه بكل أساليب الاعلان والهياج والتعري.

وأيضاً لتضرب على شجاعتهم ونخوتهم وحريتهم وكبريائهم وذكائهم مزيداً من القهر والاذلال والتسخير والسوق إلى المهالك والحماقات والبلاهات وإلى الآثام الكبرى المتدينة المفسرة لنفسها أجمل التفاسير وأتقاها. إنه لا بد من فقد الرؤية والنخوة والحرية والكبرياء والذكاء والشجاعة لكي يستطيع البشر أن يصنعوا خطواتهم وعارهم وفضائحهم وحماقاتهم ويسعدوا بها.

إنه لولا هذا التجديد المتواصل في إقامة وتنصيب الأرباب والمذاهب والأوهام وفي إسقاطها لما كان ممكناً أن يصنع الإنسان وجوده وتاريخه كما صنعهما، أو بالدوي والإثارة اللذين بهما صنع وجوده وتاريخه وحضاراته. ولما كان ممكناً أيضاً أن يكون مجنوناً على كل هذا المستوى المثير الضاج في إبداعاته وحماقاته، وفي قوته ونذالته، أو متقبلاً لفضائحه ولصغائره ولتفاهاته بكل هذا الأسلوب من النزق والضآلة.

إن في الإنسان احتياجاً دائماً وملحاً إلى أن يجلد نفسه. إنه لا بد أن يجلد نفسه لكيلا يتجمد ويسكن أو يموت، ولكيلا يذهب يحدق في وجوده، في معناه وتفسيره وهدفه، وفي وجوه الأشياء حوله، وفي أخلاق ونيات وحوافز ممارساته واحتياجاته، فيعلم ويرى ما في ذلك من تفاهة وضآلة وعبث وضياع وعذاب وضلال ومن تسخير أليم باهظ مذل.

إن الإنسان لمحتاج دائماً إلى من يهرب به من نفسه، وإلى من يفقأ له عينيه لئلا يذهب يحدق في وجوده أو في تفاسير وجوده أو في نهاية وجوده أو في بدايته أو في نياته. ما أتعس الإنسان لو لم يجد من يفقأون له عينيه.

لقد كان الإنسان محتاجاً دائماً إلى الهرب من تفسيره لنفسه، لسلوكه ومنطقه ومعناه، ولحوافزه وأهدافه. وإلى الهرب أيضاً من تفسيره للأشياء التي يتعامل بها ومعها، والتي يواجهها وتواجهه، والتي يجوع ويحتاج إليها، والتي يثمن ويقوّم نفسه بها، والتي يبيع نفسه لها، التي يبيع لها كل أخلاقه وتفكيره واهتماماته، بل كل آلهته ومذاهبه وأديانه وأنبيائه، بل وكل حياته.

لقد كان محتاجاً دائماً إلى الهرب من أي تفسير لأي شيء. لقد كان الهرب من التفاسير احتياجاً شاملاً في حياة الإنسان. إنه معنى كبير في حياته. إنه مجاملة لحياته ودفاع عنها وستر لعيوبها وعاهاتها.

إن كل قيمة الحياة وكل منطقها وكل كبريائها في ألا توضع تحت أي تفسير. إن تفسيرها يفضحها ويفقدها كل مجدها.

لذلك كان محتاجاً دائماً إلى أن يجلد نفسه. إن جلد الإنسان لنفسه يستهلكه ويستغرقه وينتزعه ويصرفه عن أن يفسر أو أن يفكر في التفاسير ـ عن أن يفكر في تفاسير نفسه أو في تفاسير الأشياء حوله أو الأشياء الغائبة والبعيدة عنه.

إن التفاسير عذاب وخوف وتشويه وتحقير وهجاء لكل شيء. إنها هجاء للمفسر وللمفسر.

إن التفاسير هجاء للمصلي وللإله، للهاتف وللزعيم، للقائد وللجنود، للمذاهب وللمعلم، للعيون المفتونة وللجمال الفاتن، للقمر الطالع وللنظرات المتطلعة.

إن جمال كل ذلك وكل شيء في ألا يكون له تفسير إن كل جمال إلهك ونبيك وزعيمك ومذاهبك في ألا تبحث له عن أي تفسير وفي ألا تحاسب أي تفسير يوضع له. إن كل جمال الوجه الجميل في ألا يكون له أي تفسير أو تنتظر له تفسيراً.

إن التفاسير المحدقة الرائية الناقدة المحاسبة هي كل ذلك. إن هذه التفاسير هي أبداً خصم الإنسان وخطره وخوفه وهجاؤه. إن الإنسان هارب دائماً من التفاسير أو إلى التفاسير المضادة.

إنه يرفض كل التفاسير ولا يقبل منها إلا التفاسير المضادة للتفاسير. إن كل قيمة أنبيائه ومعلميه أنهم يهبونه هذه التفاسير المضادة.

إن الإنسان محتاج دائماً، بل ومحكوم عليه أن يحيا ويتحرك ويمارس ويشتهي ويعادي ويضرب ويرضى عن نفسه وعن وجوده وعن آلهته ومذاهبه وزعمائه وأنبيائه، وعن أوهامه وغواياته وتفاهاته، بجنون ونزق وضجيج وإعلان وإعجاب، دون تفسير أو فهم أو مساءلة أو محاسبة أو تحديق في أي شيء أو في أي سلوك أو في أية نية أو في أية غاية.

إذن هو محتاج أبداً ومحكوم عليه أبداً أن يجلد نفسه لكي يستطيع أن يكون ما هو محتاج إليه وما حكم عليه به.

لهذا كان الإنسان دائماً يجلد نفسه بالأرباب والمذاهب والأكاذيب والأوهام والغوايات الجديدة العدوانية المقاتلة له. لقد كانت هذه هي وسيلته أو إحدى وسائله لجلده نفسه.

لقد كانت مذاهبه وأربابه وأديانه وأوهامه وغواياته وشعاراته وزعاماته ونبواته الجديدة المتوحشة في بغضائها وفي إغرائها وفي كبريائها وفي ضخامة ادعائها هي سياطه الممتازة المختارة التي ظل والتي لا يزال يجلد بها نفسه ـ يجلد بها أخلاقه وأفكاره وخيالاته وذكاءه وسلوكه، ويجلد بها محاربيه ومنابره وصلواته وتقواه وكرامته وشرفه وصدقه ووقاره. ويجلد بها أيضاً جماهيره المجلودة أبداً، والسعيدة بكونها مجلودة أبداً، والمصلية أبداً للسياط التي تجلدها أبداً. إنه ليس في هذا العالم جالد مجلود محتاج إلى أن يكون جالداً مجلوداً بكل السياط وبكل الأساليب وفي كل الأوقات مثل الإنسان. إن أشهر وأقوى سياطه هي الزعامات والنبوات والأديان والمذاهب الجديدة.

إن القوة أو التأثير القوي الذي يمارسه ضد أتباعه أو على أتباعه الزعيم الجديد أو الإله الجديد أو المذهب الجديد أو الدين الجديد أو الإيمان الجديد أو الأكذوبة الجديدة، ليس حتماً أن يكون سببه أي سبب هذا التأثير القوي مزية ما أو عديداً من المزايا في ذلك الجديد من الآلهة أو المذاهب أو الأديان أو الأوهام أو الأكاذيب.

ليس حتماً أن يكون سبب هذه القوة أو هذا التأثير القوي مزية أو مزايا موجودة في الجديد وليست موجودة أو موجوداً مثيلها في القديم. إن تأثير الأشياء أو قوتها ليست مساوية دائماً لقوتها. أو لما فيها من قدرة على التأثير. إن الانخداع أو التصديق لا يساوي دائماً قوة الخديعة أو الخادع أو ذكاء الأكذوبة..

إن من المحتمل جداً، بل من المحتمل كثيراً أن يكون في الجديد من الأرباب والزعماء والأنبياء والمذاهب والدعوات والأكاذيب والأوهام مزايا كبيرة وكثيرة، ليس منها شيء في القديم. كما أن من المحتمل العكس أيضاً، أي أن يكون في القديم مزايا ليست في الجديد. والبشر لا يملكون أجهزة أو عقولاً أو آلات حاسبة أو مقدرة يعرفون بها الفروق بين مزايا القديم والجديد أو بين مزايا أو رذائل ما يقبلون وما يرفضون.

ولكن مهما كان ذلك كذلك، أي مهما كان في الجديد من المزايا التي ليس في القديم منها شيء فلن تكون هذه المزايا هي التفسير المحتوم الدائم لقوة الجديد ولتفوقه في قوة التأثير والإغراء.

إن السوق التي تخضع لسلطان هذا التأثير وهذا الإغراء لا تستطيع أن تعي أو تعرف أو تحدد هذه المزايا المفترضة في زعيمها أو في نبيها أو في دينها أو في مذهبها أو في ربها أو في أية غواية أو أكذوبة جديدة تسير وراءها مسحورة أو مقهورة، أو مسحورة مقهورة،، أو مسحورة لأنها مقهورة، أو مقهورة لأنها مسحورة. وهل تكون مسحورة دون أن تكون مقهورة؟ وهل تكون مقهورة دون أن تكون مسحورة؟

إن الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة والمعلمين لا يعيشون أو يستقبلون في السوق بقدر ما يستحقون أو يساوون، كما لا يطردون من السوق أو يموتون فيها بقدر ما يساوون أو يستحقون. وكذلك المذاهب والأديان والأكاذيب والغوايات. إنها لا تساوي دائماً ما تستقبل به. إنها دائماً أغلى أو أرخص، أصغر أو أكبر. إنها لا تساوي دائماً نفسها.

إن أي إله أو مذهب أو دين أو زعيم أو معلم أو أي شيء لا يساوي في السوق مزاياه. إنه لا يساوي نفسه أو ذاته. إن السوق ليست جهازاً أخلاقياً أو علمياً أو عقلياً لا يخطىء ولا يكذب أو لا ينافق أو لا يغش أو لا يغدر.

إن الزعيم أو النبي أو الدين أو المذهب يساوي السوق التي يعرض فيها أكثر وأصدق مما يساوي نفسه أو مزاياه.

إن السوق ليست تقية العقل ولا الضمير ولا الأخلاق. إنها ليست تقية ولا ذكية.

إنها لا تهب نفسها بقدر ما يجب أو ينبغي أن تهب نفسها. إنه لا مثيل للسوق في سفه إعطائها لنفسها.

ولكن إذا كان للأوثان الجديدة كل هذا التفوق على الأوثان القديمة فإن للأوثان القديمة تفوقاً آخر أو مزايا أخرى لا تباريها فيها الأوثان الجديدة.

إن الأوثان القديمة من الأرباب والأنبياء والزعماء والمذاهب والأديان والأكاذيب تملك سلطان الرسوخ الرهيب. حتى أن التحرر منها، بل حتى أن إرادة التحرر منها تصبح شيئاً صعباً، صعباً جداً بل تصبح خطراً وخوفاً ومغامرة، بل تصبح قتلاً وجنوناً وخيانة عظمى.

لقد ظل التاريخ طويلاً، طويلاً يشيدها ويشيدها، ويقيم حولها الحراسات العاتية المتعصبة، ويحيط أمجادها ويحرسها بالمخاوف الطاغية، ويزينها بكل أفانين السحر والأكاذيب والسير الخارقة. لقد ظل التاريخ يقرؤها ويكررها ويكذب لها ويتحدث عنها ويصلي في محاريبها ويفسرها ويخطب بها ويعرضها ويخاف منها ويؤمن بها، ويراها وحدها، ويمدحها وحدها، ويعيشها وحدها، ويعجب به وحدها، ويتحدث إليها وحدها، ويتكلم لغتها وحدها، ويؤلف كل الأشياء على مقاساتها وحدها ـ على مقاساتها العقلية والأخلاقية والنفسية والدينية والذاتية. ويعشقها وحدها، ويروي أخبار عشقها وحدها، ويمارس المعصية معها وحدها، ويعجب بجمالها وبأمجادها وحدها. لقد ظل يعرفها وحدها، ويتلاءم معها وحدها ويخضع نفسه لها وحدها وينافقها وحدها، ويمارس شهواته وآثامه وكل حبه وكل جوعه معها وبها وفيها وحدها.

لقد ظل التاريخ طويلاً، طويلاً يفعل كل ذلك للأوثان القديمة حتى وهبها وصنع لها كل القوة والسلطان والجبروت والطغيان على الإنسان وعلى الحياة. حتى حولها إلى رسوخ لا يستطاع التخلص منه بل لا يراد التخلص منه إلا بمقاساة باهظة، باهظة جداً.

هل استطاع الإنسان في أي مكان من تاريخه أن يسقط أو يغادر أي وثن أو محراب من أوثانه ومحاريبه القديمة بدون أهوال وويلات؟

إن التكرار والعرض المستمر أو الطويل أسلوبان مشهوران من أساليب التاريخ الشهيرة لفرض الأشياء على الإنسان وعلى الحياة، وللاقناع بالأشياء، ولتحويلها إلى حقائق ورسوخ وقداسات.

إن التكرار والعرض الطويل أو المستمر يحولان أبشع وأصغر الأكاذيب والغباوات والتفاهات والتلوثات والآثام إلى أضخم وأقوى وأشهر النبوات والزعامات والمذاهب والعقائد والتعاليم والصدق والذكاء والمنطق والنظافة والحب.

إنه لا مزية لكثير من الرجال ومن المذاهب والتعاليم والمعتقدات والنظريات والمواقف المعدودة والمعدودين من أعظم أمجاد التاريخ وأمجاد الإنسان.

إنه لا مزية لكثير من هؤلاء الرجال ولكثير من هذه المذاهب والتعاليم والمعتقدات والنظريات والمواقف ـ إنه لا مزية لكثير من هؤلاء ولا لكثير من هذه سوى التكرار والعرض الطويل أو الدائم.

هل يمكن أن نتقبل أحداً من أربابنا أو أنبيائنا أو قديسينا هؤلاء الذين يملأون تاريخنا لو أنهم عرضوا علينا أو بيعوا لنا اليوم فقط أي دون أن يستمر التاريخ يكررهم علينا كما استمر يكررهم..؟

إن التكرار والعرض الطويل هما اللذان صنعا للبشر أطغى الآلهة وأطولها مقاماً في محاريبهم، وفي لغاتهم وتعاليمهم وعلى أفواههم. إن أي إله لا يساوي أكثر من عرضه وتكراره.

هل نجد لكثير من أوثاننا العاتية ـ سواء أكانت هذه الأوثان رجالاً أم أدياناً ومذاهب وتعاليم وعقائد ـ هل نجد لكثير من أوثاننا هذه التي نقتل على الخروج عنها، بل على الشك فيها، بل على التفكير فيها ـ بل نقتل على التحديق فيها، في نياتها أو في أخلاقها أو في ذكائها أو في نظافتها أو في تاريخها ـ بل نقتل على السؤال عن مولدها.

هل نجد لكثير من أوثاننا هذه أية مزية غير التكرار والعرض الطويل أو المستمر؟

هل وجد المؤمنون بها المقاتلون دونها أو عرفوا لها أية مزية غير تكرارها وعرضها الطويلين عليهم؟

إن التاريخ كائن مذنب وعدواني. إنه دائماً عدوان على الحياة وعلى الإنسان.

إنه المعتدي ولكنه أيضاً المعتدى عليه. إنه يعتدي بالعدوان الذي وقع عليه.

إن التاريخ هو الذي صنع للحياة وللإنسان أوثانهما العاتية المخيفة، وقيودهما القوية المشكورة المعبودة المحولة إلى آلهة وأنبياء وقديسين، وإلى أديان ومذاهب ومعابد ومنابر وصلوات، والمفسرة بأجمل وأتقى التفاسير. إن التاريخ مذنب عالمي. إنه لا يوجد من لم يذنب إليه التاريخ.

نعم، ولكن من الذي صنع للتاريخ أخلاقه وقوته المنتصرة؟ أليس التاريخ يلقي على الأبناء ما ألقى عليه الآباء؟

إن التاريخ لكذلك مهما صنع أو أعطى غير ذلك.

إني أعدد هنا آثام التاريخ، أما صالحاته فإنها ليست إلا أسلوباً من أساليب التفاوت أو التفاضل أو المماثلة أو الموازنة بين آثامه. إن كل مجد التاريخ وتفضله علينا ألا يكون كل ما يفعله أو ينقله إلينا إذلالاً أو استعباداً أو تحقيراً أو تعذيباً لنا.

* *

إنه إذا كان الحب الجديد يصوغ النفس ويهزها ويلقي فيها من الحماس والارتجاف والعنف والخيال والنشوة، بل والعدوان والتوحش والجنون أكثر أو أعظم مما يستطيع أن يفعل مثله الحب القديم - حتى ولو كان أي الحب القديم أعظم وأفضل وأنظف وأذكى من الحب الجديد، فكذلك العقائد والأرباب والمذاهب والأوهام والأكاذيب، جديدها يهز ويؤجج ويبعث ويخلق ويعلم الوحشية والعدوان المقتحم، والوقاحات الفعالة، ويدفع إلى الصعود فوق المخاطر الرائعة، وإلى القفز فوق كل الآثام المتدينة. أما قديمها، أي قديم العقائد والأرباب والمذاهب والأوهام والأكاذيب فإنه يعوق ويهزم ويضعف ويؤكد مزايا البلادة والخمول والاسترخاء والوقار العاجز الذليل. كما يعلم السمت المهادن المتواضع المستقر الخامد، وكما يعلم أيضاً التقاليد القوية الهازمة الباحثة عن الاستسلام إلى السلامة الضعيفة الهاربة.

ولعلنا نظلم جنون الأرباب والمذاهب والأديان والغوايات الجديدة حينما نجد شبهاً بينه وبين جنون الحب الجديد. إن الشبه بين الجنونين مفقود أو ضئيل جداً. إن قدرة الأرباب والمذاهب والأديان والأكاذيب والشعارات والزعامات الجديدة على ممارسة الجنون الفعال المتوثب المتوحش المقاتل لا تماثلها قدرة أخرى حتى ولا قدرة الحب الجديد. إن هذا الجنون هو أعظم جنون أبدعه الإنسان أو هو أعظم جنون أبدع الإنسان.

إن أغزر الناس نشاطاً وحماقات مبدعة أو مقاتلة أو ممارسة للعدوان والوقاحات هم أسرعهم إلى التجديد في أوثانهم وغواياتهم وأكاذيبهم وفي نماذجهم النفسية والعقلية والأخلاقية.

إن أضرار الإيمان القديم بالآلهة والمذاهب والغوايات والشعارات القديمة ليست في أنه لا يهب الحماس أو لا يعلمه أو لا يدعو إليه، بل إن أضرار هذا الإيمان في أنه يقتل الحماس ويسلبه وينهى عنه ويعلّم ضده. إنه ليس فقط قوة مفقودة بل إنه قوة مضادة.

إنه ليس نبياً قد مات أو ماتت نبوته ولكنه نبي يعلّم ضد النبوة.

إن الذين يؤمنون بالآلهة والعقائد وبالنماذج العقلية والمذهبية التاريخية يصبح إيمانهم قديماً مستكيناً ضعيفاً واهياً مسترخياً، لا يملك توقداً ولا جنوناً باسلاً. وحينئذٍ لا بد أن ينفصلوا في مواجهاتهم عن الظروف والأحداث والاحتمالات التي تواجههم وتهددهم وتصدمهم وتسد طرقهم وتقرع عليهم أبوابهم. إنهم يرفضون التخاطب والتحاور معها. إنهم لا يتفاعلون بها. إنهم يعجزون عن ذلك.

إن الضرورات لا تحركهم ولا تهزهم، وإن الآلام لا تفعل لهم أو بهم ذلك. إن الاشمئزاز الذي لا

نهاية ولا حصر لأسبابه ولا لأساليبه لا يصيب عقولهم أو أخلاقهم أو مشاعرهم أو تطلعاتهم بالارتجاف. إنهم لا يبصرون العالم الذي يعيشون فيه، ولا يهتزون أو يستجيبون لما فيه من قوة وجمال ومزايا ومسرات ورقصات أو من ضعف ودمامات ورذائل وذنوب وعذاب.

إنهم خامدون مسترخون متبلدون مع آلهتهم وعقائدهم ومذاهبهم وتعاليمهم وأوهامهم القديمة الخامدة المسترخية المستلقية في قبورها ومحاريبها ومعابدها ومثاويها القديمة المسترخية الخامدة الهامدة. إنهم مصروفون عما حولهم، إنهم يتثاءبون مع آلهتهم ومذاهبهم وعقائدهم وأوهامهم المتثائبة من التقادم والشيخوخة والهزال. إنهم مصروفون عما حولهم بالتثاؤب مع إيمانهم المتثائب من التقادم والخمول والضعف ـ الضعف الذي أصابته به الشيخوخة والمعاناة التافهة الطويلة الباهظة. إنهم مشغولون عن الآلام والتفاهات والتحديات والذنوب وعن كل المواجهات حولهم بالتحديق الأعمى ـ بالتحديق في وجوه آلهتهم وأوثانهم التي قد ماتت طويلاً، طويلاً جداً، والتي فقدت كل جمال وإيحاء وتحريض على الشهوة والحب والمغامرة.

إنهم مشغولون بالتحديق الأعمى في وجوه آلهتهم وأوثانهم التي قد ماتت طويلاً طويلاً. إن دمامات الشيخوخة والتشوهات في وجوه آلهتهم وأوثانهم والتي يحدقون فيها تحديقاً أعمى قد فقأت فيهم القدرة على أن يمارسوا أي قدر من مشاعر الإعجاب أو الاشمئزاز.

لقد ماتت مشاعرهم في تحديقاتهم التي قد ماتت، وماتت تحديقاتهم في وجوه آلهتهم وأوثانهم التي قد ماتت. وماتت تحركاتهم وخطواتهم وقفزاتهم لأن مشاعرهم وتحديقاتهم قد ماتت. لقد ماتوا لأن إيمانهم قد مات، لأن جنونهم قد مات.

إن موت أوثان الإنسان موت لجنونه، وموت جنونه موت لحماسه ولاقتحامه.

لقد مات إيمانهم من الشيخوخة والهزال. لقد أصابت الشيخوخة والهزال إيمانهم لطول ما تعامل مع الآلهة والأوثان التي أعجزتها وشوهتها آثام وهموم الشيخوخة والهزال. إن الإيمان بالآلهة والمذاهب التي أرهقتها وشوهتها الشيخوخة لن يتحول إلى إيمان مقتحم محلق مبارز منتصر.

إنك لن تكون مقتحماً ونفسك غير مقتحمة، وإن نفسك لن تكون مقتحمة إذا كانت مسكونة بالأرباب والمذاهب وبالأوهام والأكاذيب الخامدة الميتة.

إن آلهتنا وتقاليدنا ومذاهبنا وأكاذيبنا وأوهامنا لتهزم وتضعف وتموت من التقادم والاستعمال إن لم نجددها كما ترثّ وتتمزق ثيابنا وأدوات منازلنا. وإن إيماننا ليضعف ويموت ويفقد حماسه وتألقه وتوثبه كما تضعف وتموت وتفقد بريقها وجمالها وحماسها وشهواتها وأشواقها أجسامنا.

إننا نتحول إلى مقابر تثوي فيها آلهتنا وأنبياؤنا ومذاهبنا وتعاليمنا وأدياننا، أو هذه تتحول إلى مقابر لنا، تموت فيها أشواقنا واهتماماتنا وتطلعاتنا وآمالنا. إننا نتحول إلى مقابر كما تتحول هي أيضاً إلى

مقابر. إن كل مؤمن هو مقبرة للإله وللمذهب الذي يؤمن به وإن كل مذهب وإله هو مقبرة لمن يؤمن به.

إننا نصبح القبور والموتى، كما تصبح هي - أي آلهتنا وأدياننا ومذاهبنا وتعاليمنا وتقاليدنا وأنبياؤنا - كذلك، أي تصبح هي القبور وهي الموتى، هي القبور التي ندفن فيها وهي الموتى التي نصبح نحن قبورها لتدفن فينا.

إننا أبداً نحن وآلهتنا وأوثاننا موتى وقبور. إن كل إنسان يصبح مع إلهه ومذهبه ميتاً وقبراً، كما يصبح إلهه ومذهبه معه كذلك أي قبراً وميتاً.

إذن كم هي الجثث الثاوية في ذات كل إنسان، وكم هي القبور التي يثوي فيها كل إنسان. ما أكثر الإنسان إذن جثثاً وقبوراً.

إن كل إنسان هو ميت وقبر، أو هو ميت بقدر ما هو قبر، وقبر بقدر ما هو ميت.

إن كل شيء لكذلك. إن الإله والنبتة كذلك. إن الحشرة كذلك أيضاً وبنفس النسبة وبنفس التفسير.

إنه لا شيء في الحياة يحيا أو يتقدم، يوهب الحماس أو يهبه إلا بالتجديد والتغيير والاستبدال والصياغات الجديدة، حتى الآلهة والمذاهب والأديان والزعامات والنبوات والأكاذيب والحماقات، حتى التفاهات والسفاهات والشهوات والبذاءات.

حتى السفاهات والبذاءات والشهوات والفضائح محتاجة إلى التبديل والتجديد والتغيير.

حتى كل هذه لا تستطيع أن تحيا أو أن تتقدم أو أن توهب الحماس أو أن تهبه إلا بالتجديد والتغيير والاستبدال وبالصياغات الجديدة.

حتى نوع العار، لكي يكون نابضاً ومحركاً ومقتحماً ومسعوراً، محتاج إلى أن يتجدد ويتبدل وتتعاقب جنسياته وصيغه وتفاسيره. إنه لا حياة إلا وهي متجددة متغيرة متبدلة، وكذلك، إنه لا آلهة ولا مذاهب ولا نبوات ولا تعاليم ولا عقائد إلا وهي متجددة متغيرة متبدلة متحاربة، هازم بعضها بعضاً، طارد بعضها بعضاً، مذل بعضها بعضاً، شاتم بعضها بعضاً.

إن الأمل الباطل الذي يبعث فيك الحماس ويهبك النشوة والاقتحام لخير من الأمل والحق الذي يقتلك بالخمول والكآبة. وإن الأكذوبة التي تحولك إلى إبداع لأتقى من الصدق الذي يحولك إلى استسلام وعجز. وإن الإله المجنون الذي يعلمك القفز فوق أخطر القمم لهو أنبل وأذكى من أعقل إله يعلمك الانتظار المؤدب حتى الموت. وهل يوجد أردأ من الإله المؤدب العاقل المتوقر المسالم، أو يوجد أعظم من الإله المتوقح المهاجم المشاغب الأحمق المورط المتورط؟

إن صفات الشيء المادية هي التي تصنعه أو تعجز عن صنعه، وليست صفاته الأدبية أو الأخلاقية، بل أو العقلية. وإن إحساسنا نحو الشيء وبه واحتياجنا إليه هما اللذان يشدانا إليه ويربطاننا به، أو

يفصلاننا عنه ويحولانه إلى نسيان في حياتنا. وليس الذي يفعل ذلك هي نظرياتنا المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الإنسانية في ذلك الشيء.

وهل لأي شيء قيمة أدبية أو أخلاقية أو حتى عقلية غير قيمته المادية؟ بل هل له تفسير غير ذلك؟

إن علاقاتنا بالجنس وبالطعام وأحاسيسنا بهما وإليهما لا تساوي نظرياتنا فيهما وتعاليمنا عنهما، بل إن علاقتنا وأحاسيسنا بهما لا تتعلم من نظرياتنا فيهما، بل لا تتأثر بها. إننا قد نخاف أو نمتنع عن الممارسة أو نقيدها، ولكن علاقاتنا النفسية أو الطبيعية لا تتغير.

* *

نعم، إن التجديد في الإله، أو المذهب أو في الأكذوبة أو في الغواية أو في الوهم الذي تهبه إيمانك وافتراسك هو كالتجديد في الحب الذي تهبه كل أشواقك وافتتانك وكل قدرتك على الغواية وعلى التخلي عن كل احتمالات الوقار والرصانة فيك. إن كلا التجديدين يهبك النشوة المتحولة إلى مذهب أو تقوى، ويهبك اللذة المتوقحة المفترسة الشجاعة. ويهبك أيضاً القدرة على التغيير وعلى الفداء وعلى ممارسة كل مستويات وأفانين الغباء ـ الغباء الذي لا بد منه لكي تستطيع أن تمارس نفسك وتمارس الأشياء وتمارس الآخرين، وتمارس الإيمان بأربابك وزعمائك ومعلميك الخالدين.

إن كلا التجديدين يهبك الوقاحة، يهبك الوقاحة المبدعة المقتحمة المقاتلة التي تجعلك تخطو وتضرب وتصرخ وتهتف وتتعرى دون أن تستطيع الرؤية أو التفكير أو التساؤل أو النقد أو الاشمئزاز.

وهل يمكن أن نمارس عملاً كبيراً، أو أن نبدع شيئاً كبيراً، أو أن نكون كباراً بدون أن نصاب بالوقاحات الكبيرة المتقحمة الفاقدة لكل أساليب ومشاعر الوقار والاحترام للسلوك وللذكاء؟

هل بدون الوقاحة نجرؤ على شيء أو نمارس شيئاً أو نحب شيئاً أو نعجب بشيء أو نقاتل أو نعادي أو نخاصم بحثاً عن شيء أو دفاعاً عن شيء؟ هل بدون الوقاحة نستطيع أن نقتل أو نعادي أو نحتقر نكره أو ننهب إنساناً ما أو شعباً ما أو قوماً ما باسم الإله أو المذهب أو الحق أو العدل أو الحب أو ظافة أو التقوى؟

هل بدون الوقاحة تستطيع الحشرة أن تكون حشرة أو أن تمارس أخلاق ومستويات الحشرة، أو أن تحب نفسها، أو أن تدافع عن نفسها، أو أن تعرض نفسها بالأسلوب الذي تصنعه الحشرة؟

هل بدون الوقاحة ـ وقاحة الإيمان، أو وقاحة الحب والشهوة والجوع والضرورة والغباء، أو بدون الوقاحة المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الوطنية أو القومية ـ هل بدون هذه الوقاحة أو الوقاحات يستطيع أن يقبل الإنسان نفسه، أو أن يمارس نفسه، أو أن يعرض نفسه، أو أن يعجب بنفسه، أو أن يعلن عن نفسه، أو أن يبتسم أو أن يضحك بصوت ضاج منشد، أو أن يرقص قلبه ووجهه وجلده وصوته بينما العالم يتزاحم بالمشوهين والخائفين والمقهورين والمحتقرين والمطاردين والمظلومين واليائسين والجائعين وبكل أصناف المعذبين والعاجزين، وبالذين ماتوا وبالذين لا بد أن يموتوا، وبالذين يعلمون

أنهم لا بد أن يموتوا، وبالذين يخافون ويتوقعون أن يدق عليهم أبوابهم في أية لحظة هذا الصديق النبيل الوقح ـ هذا الطبيب العالمي الذي يشفي من كل الأمراض والعاهات والآلام والمشاكل ومن كل التفاهات والصغائر والذنوب والتلوثات ومع هذا يظلمه كل العالم، فيخافه ويتقيه ويحاربه ويكرهه كل العالم ـ هذا الموت الصديق النبيل، هذا الوقح الكريه.

هذا الموت الذي لا مثيل له في صداقته ، ولا مثيل له في الخوف والهرب منه والكره له.

نعم بينما العالم يتزاحم بكل هؤلاء، ويتزاحم أيضاً بالذين ينتظرون جنات الله ليعبثوا ويصغروا ويتعروا ويسترخوا ويمارسوا فيها كل الفضائح والممارسات المعروفة وغير المعروفة، ويتزاحم العالم أيضاً بالذين ينتظرون نيران الله وعذابه هناك، حيث تصور الأنبياء والقديسون، وحيث تحدثوا وهولوا وفظعوا وشوهوا وبالغوا، وبالغوا في تشويههم وتفظيعهم.

نعم، هل بدون هذه الوقاحات يستطيع أي إنسان أن يقبل ذلك أو أن يفعل ذلك أو أن يكون كذلك أو أن يغفر ذلك، أو يستطيع ألا يموت رفضاً أو ذعراً أو اشمئزازاً أو حزناً أو فراراً من العار؟

نعم، هل بدون كل فنون الوقاحة والنذالة والبذاءة تقبل أن تعيش في جنات الأنبياء لتمارس فيها شهواتك كما وصفها لك أنبياؤك، أو أن تعيش في هذه الجنات بينما آخرون يعيشون في نيران أنبيائك؟

هل بدون الوقاحات نستطيع أن نحيا أو أن نبقى أو أن نمارس ممارساتنا ـ أن نمارس أنفسنا أو أن نمارس مواجهاتنا وظروفنا وضروراتنا وأحزاننا ومسراتنا وشهواتنا ومخاوفنا وجبننا؟

هل بدون الوقاحة نستطيع أن نمارس حبنا أو بغضنا أو أحقادنا المختلفة التفاسير والأسباب؟

نعم، هل بدون الوقاحات نستطيع أن نعبد آلهتنا، أو أن نهتف لزعمائنا وقادتنا ونسير وراء حماقاتهم ومغامراتهم واستعراضاتهم، أو أن نستمع إلى معلمينا ونؤمن بهم ونركع على سيرهم ونصوصهم نقرؤها ونحفظها ونفسرها ونعجب بها وندعو العالم كله إليها ونعادي كل الناس من أجلها؟

هل بدون الوقاحات نستطيع أن نفعل ذلك إلا بقدر ما تستطيع الحشرات بدون أي قدر من الوقاحة أن تمارس أخلاقها أو ذكاءها أو حياءها، أو تمارس معايشتنا والتعري أمامنا، أو عرض نظافتها وكرامتها وشجاعتها وصداقتها في بيوتنا وفوق عيون وطعام أطفالنا؟

إذن أيتها الوقاحة كوني بذيئة وجريئة وشاملة لئلا نموت رفضاً لأنفسنا وبغضاً وخجلاً من مستوياتها ونظافاتها ونياتها.

إنه لا بد للحياة وللعبقرية وللابداع في الحياة من الوقاحة. وإنه لا بد للوقاحة من التجديد في الإيمان ومن التجديد في الآلهة والأنبياء والمذاهب والتعاليم والشعارات والزعامات. كما لا بد للحشرات لكي تقبل نفسها وتمارس ممارساتها وفنون حياتها من الوقاحة.

وكما قيل في السطور السالفة: فإننا نظلم وقاحة وجنون الإيمان الجديد بالأوثان والأكاذيب الجديدة إذا شبهناهما بجنون ووقاحة الحب الجديد.

* *

إن كل مذهب أو دعوة أو دين لا بد لها أو له من إله وشيطان، ومن جنة وجحيم. إن كل مذهب وكل دين وكل دعوة لا بد أن يكون لها أيضاً أنبياء وكتب مقدسة ومحاريب ومنابر.

إن جميع المذاهب والدعوات والأديان محتاجة أبداً إلى مواكب من الطغيان والأكاذيب والاستعراضات والدوي ومن الاذلال لذكاء الإنسان ولشرفه. إن الحياة، حياة البشر لا بد أن يشترك في بنائها وفي مواجهتها والتحمل لها والصبر عليها وفي الجنون بها وفي الجنون فيها، وفي تحريكها وتصعيدها ـ لا بد أن يشترك في ذلك الخوف والأمل، أو التخويف والتأميل، وأن يشترك الحب والبغضاء والاعجاب والاشمئزاز.

إن كل ذلك لا بد أن يشترك في تسويغها وتفسيرها وفي خلق الاهتمام والإيمان بها، وفي تحويلها إلى جمال أو إلى دمامة، أو إلى جمال ودمامة، وإلى مجد وتفاهة، وإلى تقوى وخروج على التقوى. إن الحياة، حياة البشر وحدهم لا تواجه نفسها ولا تفسر نفسها ولا تسوغ نفسها.

إنها محتاجة أبداً إلى مسوغات وإلى نبوات وإلى تفاسير وإلى إرهاب وأكاذيب وطغيان، وإلى جنات ونيران. إنها محتاجة إلى آلهة وأنبياء وإلى أبالسة وإلى سموات وغيب وإلى طغاة عقليين ومذهبيين.

إننا لهذا نجد الذين رفضوا آلهة الأنبياء وجناتهم، وأصبحوا لا يخافون نيرانهم ولا شياطينهم لم يستطيعوا أن يعيشوا الحياة أو أن يواجهوها أو أن يفسروها أو يتقبلوها ويغفروها، أو أن يروها جمالاً أو جداً أو شيئاً يمارس بلا آلهة وأنبياء وأبالسة وجنات ونيران جديدة، أقوى وأشد ترويعاً وإغراء وروعة إلهاماً وسوقاً إلى ممارسة أضخم الحماقات، وإلى الإيمان بأفظع الغباوات والجنون. لقد أدركوا وإن لم يعلموا أن الحياة لا يمكن أن تقبل أو تعقل أو تغفر أو تفسر أو أن تحمل دماماتها وتفاهاتها وحماقاتها وعبثها بدون المسوغات العدوانية الحادة البذيئة.

لقد ذهبوا يصنعون لأنفسهم آلهة وأنبياء وأبالسة وجنات ونيراناً وثواباً وعقاباً لكي يستطيعوا أن يلهبوا أنفسهم ويسوقوها ويتقبلوها ويفسروها، ولكي يسوغوا لها كل تفاهات وحماقات وعبث الحياة، وكل ممارساتهم ونياتهم وأهدافهم وحوافزهم التافهة الحمقاء العابثة، ولكي يقاتلوا ويعادوا ويشاتموا ويخاصموا بها جيرانهم وكل الآخرين تحت شعارات التقوى والإيمان والبطولة والنظافة والنبل.. وأيضاً لكي ينتظروا أو يؤملوا ويتوقعوا ويملكوا أمجاداً وجنات وسموات في الغيب. ولكي يحركوا ويغازلوا هممهم الخامدة أو الباحثة عن الخمود، ومشاعرهم التي لا يمكن فهمها. ولكي تتأجج فيهم رغبات وشهوات وحوافز العدوان والافتراس ومنطقهما، لكي تظل متلهبة فيهم ـ في عقولهم

وأخلاقهم وتعاليمهم وشعاراتهم ـ شهوات الجنون والادعاء والكبرياء والأكاذيب والاتهام للآخرين والعدوان عليهم والمخاصمة لهم والانكار لمزاياهم وذكائهم.

إن من أعظم مزايا الآلهة والنبوات والزعامات والثورات والمذاهب والمعتقدات القوية أنها تسوغ للناس ممارسة جوعهم الحاد القديم المتوحش إلى البذاءة والبغضاء، وإلى السباب والعداوة والتشنيع والغرور. إنها تسوغ لهم أن يمارسوا كل ذلك بابتهاج وتدين وبأسلوب إعلاني، أو بلا أي شعور بالعار أو الذنب أو الخطأ أو النذالة.

إن الآلهة والنبوات والزعامات والثورات والمعتقدات والمذاهب القوية العنيفة هي التشريع العالمي أو التسويغ العالمي للخروج على نظافة النفس والتفكير واللغة والأخلاق. إنها التسويغ والتشريع العالميان لتخطي كل مستويات ولغات وأساليب التهذيب.

إنها تجيء بأسلوب من يجيء ليعلمنا التهذيب لكي تعلمنا وتحلل وتشرع لنا الخروج على كل تهذيب.

إن جميع الناس محتاجون ولو أحياناً إلى شيء من النزق والتوحش وإسقاط الوقار والذكاء تحت شعارات مسوغة أو ممجدة ومادحة وهاتفة. وإن النبوات والزعامات والثورات والمذاهب والعقائد القوية هي أفضل وأقوى وأشمل ما يتحول إلى هذه الشعارات المسوغة أو الممجدة المادحة الهاتفة. وماذا يمكن أن يكن عطاؤها لنا لولا ذلك، أي لولا أنها تتحول إلى تسويغ لاحتياجنا إلى النزق والتوحش والبذاءة وإلى الخروج على الوقار والذكاء والتهذيب؟

لقد كانت الآلهة والمذاهب والمعتقدات والأديان في كل التاريخ وحتى اليوم نافعة جداً للزعماء وللأنبياء وللمعلمين والوعاظ وللسوق ولكل الناس، لأنهم باسمها يمارسون كل جوعهم وكل احتياجاتهم وأشواقهم إلى الفضائح والحماقات والوقاحات والفحش، وإلى شتم الآخرين واتهامهم وتحقيرهم والتطاول عليهم، في الميادين وفوق المنابر وبكل الأساليب الاستعراضية الاعلانية.

وهل يوجد مثل الأنبياء والزعماء والمعلمين والوعاظ احتياجاً إلى النزق والفحش والافتضاح وإلى الشتائم والتطاول.

ما أتقاك وأسخاك وأبرك أيتها الآلهة، أيتها النبوات والمذاهب والزعامات إني في احتياج ومجاعة إلى أن أكون بذيئاً وسفيهاً وسخيفاً وعدوانياً. ولكني أخشى لو فعلت ذلك أن أحاكم أو أعاتب أو أحاسب أو أعاقب أو أزجر نفسي وأخلاقي، أو ألا أمجد نفسي وأخلاقي، أو ألا أجد مسوغاً لأن أفعل ذلك، أو ألا يقبل مني الآخرون أن أفعل ذلك، أو ألا أجرؤ على إعلان ذلك أو على الافتخار به. إني لا بد أن أفعل كل هذا السوء. إني أتغذى وأتداوى به من تفاهاتي وآلامي ومن مجاعاتي وضياعي وهمومي ـ من تفسيري لوجودي. ولكني محتاج إلى مسوغات من نوع ما.

وأنت أيتها الآلهة، أيتها النبوات والزعامات والمذاهب والأديان تمنحينني كل المسوغات مع كل

الظروف المطلوبة والملائمة والجيدة جداً لكي أمارس كل احتياجاتي ومجاعاتي إلى أن أكون بذيئاً وسفيهاً وسخيفاً وعدوانياً، دون أن أرفض نفسي أو أنقذ نفسي أو ألوم نفسي، بل مع إعجابي المتوقح بما أفعل، بل مع إعلاني عن أمجادي وتقواي بما أفعل.

إذن كم أنت سخية وتقية ورحيمة وبارة، أيتها الآلهة والزعامات والنبوات والأديان والمذاهب ما أروع حنانك أيها الإله الطيب. إنك تتحول إلى تحليل وتشريع لكل بذاءاتي العدوانية، لكل توحشي التاريخي. ما أعظم وأشمل نبلك أيتها الآلهة.. أيتها الزعامات والنبوات والأديان والمذاهب. إن في لأشواقاً وحنيناً دائماً إلى أن أكون نزقاً ووقحاً، وإلى أن أشتم وأتهم وأعتدي وأعادي وأخاصم وألاعن. وأنت أيتها الآلهة والأديان والمذاهب والزعامات والنبوات تحللين لي ذلك، بل تأمرينني به أمراً، بل تلزمينني به كما تلزمينني بالصلاة والإيمان والهتاف والتمجيد لك وبك، بل تجعلين ذلك هو طريقي إلى الله، وإلى التقوى، وإلى المجد، وإلى حب الإنسانية وحمايتها من الأعداء والأبالسة والخصوم ومن كل الغوايات والبذاءات.

إنك تتحولين إلى تحليل بل إلى تشريع لكل السفه والإثم والعدوان والأحقاد اللئيمة المعبرة.

ما أتقاك وأحناك على احتياجي إلى أن أكون بذيئاً وسفيهاً وسخيفاً وعدوانياً ـ أيتها الآلهة والمذاهب والأديان والنبوات والزعامات. ما أتقاك وأحناك على ذنوبي ونقائصي وعلى مجاعاتي الخاطئة. لهذا أؤمن بك جداً، وأمجدك جداً، وأتعصب لك جداً.

إنك نافعة لي أكثر من نفعي لك، وإني محتاج إليك أكثر من احتياجك إلي. إني لا أعبدك أو أخدمك ولكني أستغلك.

هل ابتكر الناس الآلهة والنبوات والزعامات والمذاهب والأديان لكي يشتموا ويسفهوا ويعتدوا ويعادوا ويتوقحوا ويتكبروا باسمها، أم هم قد اضطروا إلى أن يتعلموا الشتائم والعدوان والعداوات والتوقح والسفه والكبرياء لأنهم قد آمنوا بالآلهة والنبوات والزعامات وبالأديان والمذاهب؟ أيهما الذي ىل الآخر؟ أيهما السبب وأيهما النتيجة؟ إذن كيف أمكن الإيمان بالآلهة والأنبياء والزعماء وبالمذاهب لأديان إن لم يكن من أجل تسويغ السفه والسباب والوقاحة والعدوان والكبرياء؟

هل الآلهة والنبوات والزعامات والمذاهب والأديان من أجل الجنون أم الجنون من أجلها؟

إن كان الجنون من أجلها فهي إذن من أجل ماذا؟

أيهما الثمن: هي أم الجنون، الآلهة والعقائد أم الوقاحات والعداوات باسمها؟

أيهما التفسير للآخر ـ أيهما الخالق؟ هل المؤمنون والمذهبيون والهاتفون للزعامات وقحون وبذيئون ومفتضحون وعدوانيون لأنهم يتداوون بذلك أم لأنهم يعبدون ويطيعون أربابهم وزعماءهم ومعلميهم.

* *

أجل، إن الأمر لكذلك.

أجل، إن الذين استغنوا عن آلهة الأنبياء وعن جناتهم وعن الخوف من شياطينهم ونيرانهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عن نماذج أخرى من الآلهة والجنات ومن النيران والأبالسة، يصنعون من أنيابها وأهوالها وأخطارها وتهديداتها ووقاحتها مزامير عنيفة عدوانية متعصبة بذيئة بليدة ضاجة، يتلونها برهبانية ووحشية وكبرياء وبذاءة وتهديد وارتجاف وذعر، كما كانت تتلى الكتب القديمة المقدسة، بل أكثر جنوناً وإيماناً وتعصباً. لكي يوقدوا بها الخوف والبغضاء والعنف والأحقاد والفحش والتوحش والخصومات والحروب الدينية أو المذهبية أو الوطنية أو الأخلاقية، ولكي يوقظوا ويعذبوا ويحركوا بها هممهم وجوانحهم لئلا تعيش أبداً تحت الثلوج والهزائم ـ ولكي يغازلوا بها آمالهم ورغباتهم لئلا تفقد كل تعبيرات وإيحاءات ومستويات النشوة، أو ليستهلكوا ويخادعوا ويغالطوا بها حماسهم وضياعهم اللذين يجب أن يكونا مصابين بالجنون والغليان. إن كل الناس محتاجون إلى أن يعيشوا تحت عوامل الإغراء والتهييج لكي يستطيعوا تسويغ أنفسهم وتسويغ حياتهم.

إنه لمحتوم أن يكون أشد الناس إنكاراً للأرباب والأبالسة وللجنات والنيران القديمة هم أشدهم إيماناً بالجديد من ذلك وتعصباً له، واحتياجاً ودعوة إليه، وتخويفاً به ومنه، وفحشاً وقتالاً وعداوة وعدواناً وكبراً ومخاصمة ومشاتمة باسمه، لأنهم قد جددوا أوثانهم وأربابهم ومخاوفهم وأمانيهم، أي جناتهم ونيرانهم وأبالستهم وملائكتهم.

ولعل الحوافز والاحتياجات والتفاسير التي صنعت إيمان القدماء المتعاملين مع السماء ومع كبريائها ووحوشها فيما يظنون هي نفس الحوافز والاحتياجات والتفاسير التي تصنع إيمان المنكرين لآلهة السماء ولأمجادها، المتعاملين مع آلام الأرض وهمومها وهوانها وهوامها وديدانها.

ولعل الفرق بين هؤلاء وهؤلاء في موضوع الفكرة لا في الفكرة. لعل الفرق في تفسير الإله أو في اسمه أو في مكانه أو في تاريخه، لا في قيمته أو في معناه أو في منطقه.

هل القيمة في الإله أم في تفسير الإله؟ هل القيمة في تفسير الإله أم فيما يفعله الإله؟ وهل تفسير الإله في الإله ـ في ذاته وأخلاقه وضميره وعبقريته وأعماله أم فيمن يفسرون الإله؟

هل تفسير الإله يساوي الإله أم يساوي من يفسرونه؟ وهل يفسرونه بذاته أم بذواتهم؟

هل الناس يفسرون الإله كما يرونه ويجدونه ويجربونه أم كما يريدونه ويخافونه ويروى لهم؟ كيف يمكن أن يفسر الإله أو النبي لو كان لا يفسر إلا كما يرى ويوجد ويجرب؟ وهل في أي تفسير أي شيء كما يرى ويوجد ويجرب؟ وهل في أي تفسير بهذا المستوى نفع لأحد، للمفسر أو للمفسر؟

هل المذهب يساوي المذهب أم يساوي من يؤمنون به؟ هل الإيمان بالمذهب يجيء مساوياً لما يستحقه المذهب أم لما يستطيعه ويريده المؤمنون به؟ هل العبقرية في المذهب أم في أصحاب المذهب؟ هل المنتصر والقوي هو المذهب أم أتباعه؟ هل الإعجاب في الشيء الذي نعجب به أم فينا؟ هل الإعجاب إعجاباً أم حاجة وإيمان وتلقين وتعليم ومجاملة ورثاء وحب وشهوة وتحد وكبرياء؟

هل صفات الإله أو النبي في الإله والنبي أم في المؤمنين بهما؟ هل الإله والنبي هما اللذان يدعوان إلى الإيمان بهما ويصنعان برهان الإيمان بهما وبرهان صدقهما، أم ذلك هو أنت وأنا؟

هل البشر يتفاوتون بقدر ما تتفاوت أربابهم وأنبيائهم ومذاهبهم وأديانهم؟ هل تتفاوت أربابهم وأنبياؤهم وأديانهم ومذاهبهم بقدر ما يتفاوتون هم؟ أم هم يتفاوتون بقدر ما يتفاوتون؟ أم تتفاوت أيضاً أربابهم وأنبياؤهم ومذاهبهم وأديانهم بقدر ما يتفاوتون؟

هل ذكاء الإنسان يساوي ذكاء إلهه أو ذكاء نبيه أو ذكاء مذهبه أو ذكاء دينه؟ هل ذكاء إلهه أو نبيه أو مذهبه أو دينه يساوي ذكاءه هو، أم ذكاؤه لا يساوي إلا ذكاءه؟

هل الإنسان رجعي وتافه وضعيف وبليد ومتخلف بقدر ما يكون إلهه أو نبيه أو مذهبه أو دينه كذلك؟ وهل هو تقدمي وعبقري وقوي وذكي بقدر ما يكون إلهه أو مذهبه أو دينه أو نبيه كذلك؟ أم الإنسان هو هذا أو هذا بقدر ما يستطيع أن يكون هذا أو هذا؟

هل الآلهة والمذاهب والأديان تصوغ الناس أم الناس هم الذين يصوغونها؟ هل الناس يصاغون أم يصوغون أنفسهم؟

إذن فالإنسان كيفما كان لا بد أن يكون له إله وشيطان، وجنة ونار، وأنبياء ومعلمون وقديسون. إنه لا بد أن يكون له ما يروعه ويغريه ويسلبه وقاره واتزانه وذكاءه وحريته وتهذيبه وشرفه. إنه لا بد أن يكون له ما يسلبه القدرة على التحديق في نفسه أو في أي شيء. إنه لا بد له إلى ما يصنع منه كائناً متوحشاً متوقحاً بذيئاً غبياً عدوانياً همجياً.

إنه لا بد للإنسان من جنون حاد يستطيع أن يمتص ذاته وأن يستهلكها استهلاكاً مشروعاً بل استهلاكاً ممجداً مفخوراً به. إنه لا بد له من جنون ديني أو مذهبي أو وطني أو أخلاقي أو فلسفي، لكي يسلب ذاته كل اتزانها ووقارها وعقلها، لكي يستمر يسير في التيه الأليم الأبدي الذي لا حدود له - في التيه الذي لا ينتهي إلا بالتيه - لكي يستمر يسير في طريق ليس فيه معنى الطريق أو تفسيره أو نهايته أو وظيفته.

لكي يستمر في طريق لا يطالب منه ولا يؤمل فيه أن يكون طريقاً - في طريق لا شيء ولا هدف ولا منطق ولا تفسير ولا ثمن ولا سرور فيه أو أمامه أو حوله أو وراءه أو له، يساوي معاناة السير فيه.

لكي يستمر يسير في هذا الطريق دون أن يغضب أو ينكر أو يرفض أو يطالب بشيء أو يشترط شيئاً، أو يسأل: لماذا، أو من أين، أو إلى أين، أو ما الثمن، أو ما النهاية، أو ما التفسير، أو من الفاعل، أو ثم ماذا.

إنه لا بد من كل ذلك للإنسان لكي يستطيع أن يتعامل مع وجوده ولكي يستطيع أن يواجه ويتقبل بل ويبتلع كل ما في وجوده من عبث وتفاهات وضآلة واستعباد وآلام وتحقير ومن خروج على كل منطق وكل تفسير.

إنه لا بد له من كل ذلك لكي يستطيع أن يمارس وجوده، ويمارس الآخرين، ويمارس الأشياء حوله، ويمارس ممارساته ـ لكي يستطيع أن يمارس ضميره ونياته ورغباته ومخاوفه وأنانيته وضآلته ومشاعره وأحقاده وكل ذنوبه ومستوياته النفسية والفكرية واللغوية والسلوكية.

ما أصعب وأقسى المواجهة والممارسة لولا العجز عن التحديق في النفس وفي الأشياء. ما أعظم نفعكم أيها القاتلون لموهبة التحديق في النفس وفي الآخرين وفي الأشياء وفي السماء.

هل يستطيع الإنسان أن يمارس أو أن يواجه شيئاً لولا آلهته ونبواته وأديانه وزعاماته ومذاهبه وتعاليمه وشعاراته التي تسلبه كل القدرة على التحديق في أية ممارسة أو مواجهة لأنها تقتل فيه كل احتمالات ومستويات التهذيب والوقار والحياء والاشمئزاز والرفض والحب والصداقة والعدل والذكاء والمنطق والمحاسبة للأشياء والحرية والكبرياء والغثيان؟

أجل، إن أقدر الآلهة والنبوات والزعامات والتعاليم والمذاهب والأديان على قتل هذه الاحتمالات وعلى هزيمتها وإخمادها في الإنسان هي النبوات والزعامات والآلهة والتعاليم والأديان والمذاهب الجديدة لأنها أقدر على الإغراء والإغواء والترويع وعلى الاقناع بالأكاذيب والحماقات وعلى قتل كل الاحتمالات المضادة والمقاومة في الإنسان.

لهذا كانت دائماً الوثنيات الجديدة البازغة هي أقدر الوثنيات على فضح البشر وعلى تصعيد ممارساتهم لأفظع وأضخم ألوان وأجناس العار. لقد كانت الوثنيات الجديدة تجيء دائماً كنوبات بأسلوب يشبه التدبير والقصد وكأنما كانت تجيء كذلك لئلا يفقد الناس الحماس والاشتهاء لعارهم، بل لئلا تضعف فيهم شهوة الاعلان عن عارهم والتباهي به. لقد كان الاعلان عن العار والتباهي به هما من أقوى وأصل وأشهر مواهب الانسان التي صاغت حياته وتاريخه ووجوده.

ولكن هل البشر يتغيرون ويتصاعدون في حياتهم وفي أساليب ومستويات القوة فيهم لأنهم يجددون في أربابهم ومعلميهم وزعاماتهم ومذاهبهم وفي كل نماذجهم العقلية والنفسية، أم هم يغيرون أو يجددون أربابهم وأنبياءهم ومعلميهم وزعاماتهم ومذاهبهم وجميع صيغهم النفسية والعقلية لأنهم يتغيرون ويتجددون، أو لأنهم يريدون أن يتغيروا أو يتجددوا، أو لأنهم قد تغيروا وتجددوا أو لأنهم قادرون على أن يتغيروا ويتجددوا، أو لأن الأشياء تحدث بلا تفسير؟

هل الناس يشيخون ويضعفون ويهزمون ويتبلدون لأنهم هكذا يكونون أم لأن أربابهم ومذاهبهم وأديانهم شاخت وضعفت وهزمت وتبلدت؟

هل الناس يغيرون أربابهم ومعلميهم ومذاهبهم وعقائدهم لأن هذا التغيير وسيلة إلى شيء، أم لأن كل شيء لا بد أن يتغير، لا بد أن يهزم ويموت ويفقد سحره وقدرته على الإغراء والإغواء؟ هل الناس يغيرون كينوناتهم ومستوياتهم لأنهم قد غيروا وثنياتهم أم لأنهم لا بد أن يتغيروا، لا بد أن يغيروا

كينوناتهم ومستوياتهم، لأن الكينونات والمستويات تموت وتتغير بالضرورة وبالقوانين الذاتية كما يموت ويتغير الإنسان وجميع الكائنات؟

هل العلاقة بين حياة الإنسان وأوثانه علاقة بين سبب ومسبب، وخالق ومخلوق، أم هي علاقة اقتران ومكان فقط؟ هل الإنسان ظاهرة وثنية أم الأوثان ظاهرة إنسانية؟ هل أوثان الإنسان تصوغ حياته وأفكاره ومشاعره أم حياته وأفكاره ومشاعره هي التي تصوغ أوثانه؟

هل الإنسان يبحث عن هذا الشيء أو يريده أو يفعله لأنه طريقه إلى ذلك الشيء الآخر، أم هو يبحث عن هذا وهذا، ويريد هذا وهذا، ويفعل هذا وهذا، دون أن يكون أحدهما طريقاً إلى الآخر؟

هل الإنسان يكون هذا لأنه قد كان ذاك، أم هو يكون هذا وذاك، أم هو يكون ذاك كما كان هذا؟

هل الإنسان يسمع أو يريد أن يسمع لأنه يرى أو لأنه يريد أن يرى، أم هو يسمع ويريد أن يسمع، ويرى ويريد أن يرى ـ أو هو كما يسمع ويريد أن يسمع يرى ويريد أن يرى؟

هل خلقت للإنسان يدان لأنه قد خلقت له رجلان؟ هل خلقت له رجلان لأنه قد خلقت له يدان؟ هل حكم على الإنسان بالشيخوخة لأنه قد حكم عليه بالآلام، أو حكم عليه بالآلام لأنه قد حكم عليه بالشيخوخة أم حكم عليه بهذا كما حكم عليه بهذا أو بقدر ما حكم عليه بهذا؟

هل الإنسان يأكل لأنه ينام؟ هل هو ينام لأنه يأكل، أم هو يأكل وينام دون أن يكون هذا تفسيراً لهذا، أو سبباً له أو نتيجة له، أو خالقاً له أو مخلوقاً له أو ملزماً به أو ملتزماً له؟

هل أنت تحب هذا لأنك تحب هذا، أم أنت تحب هذا وتحب هذا ـ أو تحب هذا كما تحب هذا؟

هل آمن الإنسان بالإله لأنه آمن بالشيطان أو آمن بالشيطان لأنه آمن بالإله أم آمن بهذا كما آمن بهذا؟

هل الإنسان يصاب بالسل لأنه يصاب بالسرطان، أو هل يصاب بالسرطان لأنه يصاب بالسل، أم هو يصاب بهذا وهذا، أم هو يصاب بهذا كما يصاب بهذا؟

هل الإله قد خلق الصرصار لأنه قد خلق البرغوث، أو هل خلق البرغوث لأنه قد خلق الصرصار ـ هل خلق أحدهما لأنه قد خلق الآخر أم خلق أحدهما كما خلق الآخر؟ هل الإله قد تورط في خلق واحد منهما لأنه قد تورط في خلق الآخر أم هو قد تورط في خلق هذا بالأسلوب الذي تورط به في خلق ذاك؟ هل أرادهما الإله كليهما أم أراد أحدهما لأنه قد أراد الآخر؟

هل الإله معجب بموهبته وبأخلاقه لأنه يحب نفسه أم هو معجب بموهبته وبأخلاقه كما يحب نفسه؟

هل الإله قد خلق الإنسان لأنه قد خلق الحشرة، أو هل خلق الحشرة لأنه قد خلق الإنسان، أم أنه قد اشتهى خلق الحشرة كما اشتهى خلق الإنسان، واشتاق إلى رؤيتها كما اشتاق إلى رؤيته، وتطلع

إلى المجد في خلقه للحشرة بقدر ما تطلع إلى المجد في خلقه للإنسان؟

هل الإنسان يحزن لأنه يسر، ويسر لأنه يحزن، أم هو يحزن ويسر لأنه محكوم عليه بأن يسر ويحزن، لأنه محكوم عليه بهذا كما حكم عليه بالنقيض؟ هل هو يجبن لأنه يبغض، أو يبغض لأنه يجبن، أم هو يبغض ويجبن، أم هو كما يجبن يبغض، وكما يبغض يجبن؟

هل يمرض لأنه يموت، أو هل يموت لأنه يمرض، أم هو يمرض ويموت، أو يمرض كما يموت أو لأنه يمرض ويموت؟

هل الإنسان يحب الله ويعبده لأنه يراه جمالاً وعدلاً ورحمة وعبقرية، أم هو يراه كذلك لأنه يحبه ويعبده، أو لأنه لا بد أن يحبه ويعبده، أم هو يحبه ويعبده ويراه عدلاً وجمالاً ورحمة وعبقرية، أو كما يراه كذلك ـ لأنه هكذا يفعل ـ لأنه هكذا ـ يحب الله ويعبده، ولأنه هكذا يراه عبقرية وجمالاً ورحمة وعدلاً؟ ولماذا يحبه ويعبده؟ سؤال يساوي: لماذا يراه عدلاً ورحمة وجمالاً وعبقرية. ولماذا يراه كذلك؟ سؤال يساوي: لماذا يحبه ويعبده.

لماذا يا أنا

«.. لماذا يعذبك ويغضبك حتى عار الحشرات وهوانها وتلوثها وعذابها. حتى ذنوب الحشرات وأخطاؤها تتحول إلى تعذيب وإغضاب لعقلك ولأخلاقك ولتحديقاتك ولاشتراطاتك. حتى هموم الحشرات وهزائمها تتحول إلى هموم وإلى هزائم لك.. حتى هموم الحشرات وهزائمها...

.. لماذا يا أنا لا تصاب بالغفلة والتصديق والاسترخاء وبالصفح عن الحقارات والبلادات والدمامات وعن الآلام والسخف والعبث؟ لماذا لا تمرض بالإغضاء، لماذا لا تمرض بهذا المرض النبيل؟ لماذا لا تمرض بالاعجاب بكل ما هو كائن، وبكل ما يعجب به الآخرون، وبكل ما تعجب به المنابر والمحاريب، بكل ما تعجب به الكتب المنزلة والمذاهب الموضوعة ـــ لماذا لا تمرض بهذا المرض الشهم؟ لماذا لا تمرض بمرض الإيمان بالآلهة والزعامات والتعاليم، وبالغفران لأخطائها وذنوبها وأكاذيبها وعجزها وفضائحها وبداواتها وأحقادها ومنافساتها. لماذا لا تمرض بهذا المرض السماوي العالمي الإنساني؟ لماذا لا تغفر للآلهة ولو بعض عدوانها على الأطفال والشيوخ، ولو بعض تشويهها لهم؟ لماذا تصر على أن ترى وتحاسب كل أحد وكل شيء؟ لماذا تصر على أن ترى حتى دمامات وتشوهات الآلهة، وأن تحاسب حتى ذنوب الآلهة؟ لماذا تصر على أن تشمئز حتى من عار الآلهة؟ لماذا تحدق في عار الآلهة والزعامات والمعلمين بأقوى وأدوم تحديقاتك؟ لماذا لا تسالم أو تغضي أو تغفر أو تصاب بجمال الرؤية أو بكذب الرؤية أو بخطأ الرؤية، أو برهبة الرؤية أو بانبهار الرؤية؟ لماذا لا تتقبل أو تعجب أو ترضى ولو عن بعض الأشياء تحت بعض الظروف؟ لماذا لا تنام ولو قليلاً من الليل؟ لماذا لا تكف ولو عن بعض الرؤية أمام بعض المناظر، أمام أي ألم أو أمام أية وقاحة أو تفاهة أو بذاءة، أو حقارة؟... لماذ، لماذا يا أنا؟ لماذا لا تصاب بالصمت عن الرؤية وعن التفكير والتفسير وعن المحاجة والمحاسبة للأشياء وعن الاشتراط عليها ولها؟».

قولوا عنه إنه لم يكن حياة، لم يكن إنساناً يحيا، لم يكن إنساناً يضحك ويسر، يغني ويلهو، يسترخي وينام، انتظاراً لصباح يتمناه، لصباح يجد فيه، انتظاراً لليل يتمناه، لليل يتعرى فيه، يصغر فيه، يمارس فيه ـ انتظاراً لليل يفتضح فيه.

ـ انتظاراً لليل يخاصم فيه الأرباب المتدينة، وينافس فيه الحشرات النظيفة على ممارساتها. قولوا عنه إنه لم يكن ينتظر الليل ليجرح فيه حياء الآلهة المصابة بالحياء أو ليتفوق على نظافة الحشرات.

قولوا عنه إنه لم يكن إنساناً يدق بقدميه الأرض فرحاً بشيء، أو استمتاعاً بشيء، أو لهفة على شيء، أو شوقاً إلى شيء، أو انتظاراً لشيء، أو اقتناعاً بشيء.

إنه لم يكن ينظر إلى السماء، إلى النجوم ليهتف لمجد العبث، لمجد العبث الصاعد، إنه لم يكن ينظر إلى الأرض، لم يكن ينظر إلى الإنسان ليهتف لمجد الموت والافتضاح والهوان، لمجد الهزائم والبلادة والعار، لمجد الأعضاء التي لا تستطيع أن تتنظف مهما اغتسلت وتوضأت وصلت.

إنه لم يكن حياة، لم يكن إنساناً يمارس حياته، ويمارس إملاءات جوعه وخوفه عليه بإعجاب وانبهار وكبرياء وبثناء مهيب على الإله الذي علم الأعضاء كيف تجوع، وكيف تفتضح، وكيف تنتصر على تعاليمه وعلى أنبيائه وعلى جنته وجحيمه، وعلى الخوف منه والطمع فيه، ولم يعلمها كيف تغتسل وتتنظف وتنتصر على أخلاق التراب.

* *

قولوا عنه لقد كان حريقاً. لقد كان حريقاً، كان من وقوده كل شيء. كان من وقوده كل المسرات واللذات وكل الأحزان والآلام. كان حريقاً، كان من وقوده كل المحيطات والأنهار، وكل الآلهة والمذاهب والزعماء والمعلمين، وكل الانتصارات والهزائم، وكل الأمجاد والتفاهات..

كان حريقاً، كان من وقوده الشموس. حتى الشموس، لقد كانت من وقوده، كانت الشموس

شيئاً من وقوده. لقد كانت الشموس تتحول إلى حرائق في عقله وفي رؤاه وفي نماذجه الأخلاقية والنفسية، وكانت هذه الحرائق تتحول إلى حرائق في ذاته. كانت أفكاره ورؤاه ونماذجه الإنسانية تحول كل شيء إلى حرائق في ذاته. حتى الشموس كانت تتحول إلى بعض هذه الحرائق في ذاته.

لقد كان حريقاً يسعره كل شيء، ولم يكن يطفئه شيء. لقد كان أقوى من كل أجهزة الإطفاء، ومن كل أعمال الإطفاء. لقد كانت كل أجهزة وأعمال الإطفاء تتحول في ذاته وفي فكره وفي مقاييسه الفنية والأدبية والنفسية إلى حرائق.

لقد كان منطقه أقوى جهاز لتوليد الحرائق، كان منطقه يولد الحرائق من كل شيء حتى من أجهزة الإطفاء. كان ما يطفىء به الآخرون حرائقهم يحوله هو إلى مولد للحرائق. كان كل ما فيه أجهزة توليد للحرائق.

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه لقد كان حريقاً، لقد كان جهازاً أليماً لتوليد الحرائق من كل شيء حتى من أجهزة الإطفاء ومواد الإطفاء ووسائل الإطفاء.

كانت الشموس بعض أجهزة التوليد للحرائق في ذاته.

قولوا عنه إنه لم يكن إنساناً يمارس جوعه وأعضاءه، ويمارس أربابه وزعماءه ومذاهبه ـ قولوا عنه إنه لم يكن يمارس شيئاً من ذلك بإعجاب وانبهار أو كبرياء أو غناء. لم يكن يمارس شيئاً من ذلك بتمجيد أو بصلاة للإله الذي يتحمل كل تكاليف الانفاق على ابتعاث الأنبياء وعلى إنزال الكتب الرهيبة لكي يضع ويعلم تعاليم يجعل الالتزام بها بالسلوك أو بالهوى شيئاً مستحيلاً، بل شيئاً رهيباً بذيئاً.

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوه عنه.

* *

قولوا عنه لقد كان دموعاً، لقد كان دموعاً جافة. كان دموعاً جافة لو أنها تحولت إلى دموع سائلة لحولت الكون كله إلى طوفان، ولأغرقت كل شيء، ولأطفأت كل الشموس وكل ما في النفوس وكل ما في المذاهب والزعامات والأديان والتاريخ من حرائق البغضاء والأحقاد والشهوات والعداوات، ولأطفأت كل ما في أخلاق الآلهة من شهوات الانتقام والتعذيب والتشويه والغضب.

لأطفأت كل حريق وكل جحيم شادته وزينته الآلهة لتعاقب به كل من حاولوا أن يسألوها عن سرها أو عن سرهم أو أن يقرأوا سرها أو سرهم أو أن يبصروها كما رأوها وكما يرونها أو أن يحاسبوها بالمنطق أو بالضمير الذي تحاسب هي به الآخرين، وتتحدث به هي إلى الآخرين.

أواه. ما أقسى حظوظ الآلهة لو أنها حوسبت بالمنطق وبالضمير وبالأخلاق والتعاليم التي تحاسب هي بها الآخرين.

لقد كان دموعاً جافة لو أنها تحولت إلى دموع سائلة لأغرقت كل البحار، ولأحالت كل الصحارى إلى بحار، ولأحالت كل وحدات الكون إلى غرق، إلى طوفان كوني.

إنك حينما تصبح دموعاً جافة تصبح كل الأشياء بعض دموعك، تصبح كل الأشياء بعض دموع فكرك وأعصابك واشمئزازك وأخلاقك.

قولوا عنه: لقد كان دموعاً جافة لو أنها تحولت إلى دموع سائلة لأطفأت كل ما في أخلاق النجوم وكل ما في مستوياتها وكل ما في نظرات وأعصاب ومشاعر الطبيعة والأشياء والناس من بلادة وهوان وركوع وانخفاض ومن صبر على العبث والتسخير والإيمان.

قولوا عنه: لقد كان دموعاً جافة، والدموع الجافة تأكل الذوات وتقرح العيون وتغرق الحياة أكثر وأسرع وأقسى مما تفعل ذلك الدموع السائلة.

إن الدموع الجافة أسلحة مغمدة في قاع العين، إنها عذاب وأهوال في ضمير العين. إن الدموع الجافة تتحول إلى ضمير يقاتل العين. إن ضمير العين هو أكثر الضمائر وحشية. كل رثائي لمن تصبح لعيونهم ضمائر. وهل يستطيع من لعينيه ضمير. أن يحدق في أي شيء؟

* *

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه.

قولوا عنه: لقد كان سؤالاً لا يجد جواباً، واحتجاجاً لا يجد اعتذاراً ورفضاً لا يستطيع التقبل؛ ومنطقاً لا يتحول إلى اقتناع، لا يجد تفسيراً، وشكاً لا يجد يقيناً، وقلقاً لا يجد هدوءاً. لقد كان تحديقاً تصغر أمامه وفيه كل المرائي والصور والضخامات. كان تحديقاً تموت وتتشوه فيه وأمامه كل الضخامات والمرائي والصور وتصاب بكل معاني الغباء. لقد كان تحديقاً يصيب أجساد النجوم والشموس بالفساد والارتجاف، ويصيب كبرياء الآلهة بالتواضع والهزائم، ويسقط عن عاهاتها وتشوهاتها المستورة كل أقنعتها الساترة.

لقد كان تحديقاً تخافه الشموس على مجدها الكوني. إن التحديق خصم لمجد الشموس.

لقد كان يسأل فتموت جميع الأجوبة والتفاسير التي عاشها البشر والتي عاشوا بها. ولقد كان يرفض فتموت جميع أسباب ومسوغات التقبل والرضا عن النفس وعن الأشياء وعن الآلهة والمذاهب، وعن جميع المعلمين والآباء وفضائل التاريخ ـ فتموت جميع الأسباب والمسوغات التي عاشها البشر وعاشوا بها، والتي عاشتها الآلهة والمذاهب والمعلمون والآباء ومفاخر التاريخ، والتي عاشت بها.

نعم، لقد ماتت الأجوبة والتفاسير والمسوغات التي عاشت بها جميع الأشياء. لقد قتلتها أسئلته ومحاوراته.

لقد كان يحتج فتموت جميع أساليب وحجج الدفاع والاعتذار التي ألفتها الحياة للبشر، والتي ألفها البشر للحياة. ولقد كان يحاور ويطالب بالاقتناع والفهم فتموت جميع التفاسير التي صاغها التاريخ، والتي عاش بها التاريخ، والتي زور بها التاريخ نفسه وزين بها ذنوبه ودماماته، وغطى بها وقاحات وعاهات وبلادات معلميه وآلهته البليدة الدميمة الآثمة المروعة التشوهات، ودافع بها عن

مجيئهم وعن بقائهم وعن الاقتناع بهم، بل وعن الجنون بهم، وعن السير معهم حينما يصابون بالجنون الذي لا بد أن يصابوا به، والذي لا بد أن يكون أضخم ما فيهم من عبقرية وذكاء.

قولوا عنه: لقد كان سؤالاً شاملاً، ورفضاً شاملاً، واحتجاجاً شاملاً، وحواراً شاملاً، وقلقاً شاملاً، وشكاً شاملاً، لقد كان عذاباً شاملاً لأنه كان رؤية شاملة محاسبة شاملة في محاسبتها.

قولوا عنه لقد كان هزيمة لكل الأجوبة والتفاسير الجاهزة والمبتكرة، الثورية والرجعية، القديمة والحديثة، التي كانت والتي سوف تكون والتي لن تكون.

لقد كان هزيمة لكل الأجوبة والتفاسير التي صنعتها النجوم والتي صنعتها الحشرات ـ التي صنعتها المذاهب والتي صنعتها المحاريب.

قولوا عنه لقد كان اصطداماً وتناقضاً وإرهاقاً وعذاباً وتحديقاً تموت فيه وأمامه كل الصور والمرائي والضخامات، وتتشوه وتتصاغر وتصاب بكل معاني الغباء والتفاهة والعار.

لقد كان تحديقاً يصيب أجساد الآلهة وأجساد النجوم والشموس بالارتجاف والفساد والانهزام والتشوه والضآلة.

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده.

* *

قولوا عنه لقد كان كالكفارة الباهظة وكالاعتذار الفاجع. لقد كان كالاعتذار وكالكفارة عن جميع الذنوب والآلام والأخطاء والعاهات. لقد كان يعاني ويتعذب بكل الأساليب والمستويات والتعبيرات والمعاني، عن كل الذوات والأشياء، وفي كل الذوات والأشياء. لقد كان كالكفارة وكالاعتذار عن كل الأخطاء والذنوب والآلام والأحزان والعاهات التي تمارسها أو تعانيها كل الأرباب، وكل البشر، وكل النجوم والأشياء، وكل الحشرات ـ التي تفعلها أو تعانيها كل الأشياء وكل الذوات.

وهل يستطيع أي شيء أن يكون كفارة واعتذاراً أو كالكفارة والاعتذار عن كل ذلك؟ هل يستطيع ذلك شيء أو أحد؟

لقد كان كل شيء يجيء، يجيء بالخطأ وبالخطيئة وبالعاهة وبالآلام، لكي يبقى، ولكي يمارس وجوده ومجيئه وبقاءه بالخطأ وبالخطيئة وبالعاهة وبالآلام، لكي يذهب وينفد ويموت بالخطأ وبالخطيئة وبالعاهة وبالآلام. لقد كانت كل الأشياء وكل الذوات خطايا وأخطاء وعاهات وآلاماً في مجيئها وفي بقائها وفي ذهابها وفي ممارساتها لمجيئها ولبقائها ولذهابها. لقد كانت كل الأشياء والذوات تجيء وتبقى وتذهب كما تجيء وتبقى وتذهب الأخطاء والخطايا والذنوب والآلام والعاهات.

لقد كان يعاني كل هذه الأخطاء والخطايا والذنوب والعاهات والآلام، لأنه كان كأنما يمارس التكفير والاعتذار عن كل الذوات والأشياء، وكأنما كان يعيش كل ما تعيشه كل الأشياء وكل

الذوات من ذنوب وآلام وعاهات وأخطاء وخطايا. لقد كان يتعذب كل العذاب وكأنه هو المذنب كل الذنوب، وكان يعاني كل العاهات وكأنه هو كل الموجودين وكل المصابين بالتشوهات.

قولوا عنه لقد كان يعاقب نفسه وكأنه كان يكفر أو يعتذر عن أي إنسان يعيش كل الهوان والغباء والأكاذيب والحقارات والتفاهات بابتهاج وبروعة وبإعلان وبمباهاة وبتمجيد للذات. لقد كان يعاقب نفسه وكأنه كان يعتذر أو يكفر عن كل إنسان يعيش ويعاني كل العاهات والآلام، وأفدح الآلام، والعاهات، مثنياً على حكمة الأرباب وعلى حكمة الكون وعلى حكمة المعلمين، دون أن يصرخ أو يرفض أو يشك أو يكره أو يسأل أو يغضب أو يهرب من كل المحاريب ومن كل المذاهب ومن كل المعلمين، ودون أن يحمل السلاح ليقاتل كل شيء وكل أحد ـ ليقاتل كل من يعلمونه الإيمان أو الصبر أو الطاعة أو التقبل أو الرضا عن أي شيء.

لقد كان يعيش كل العذاب كأنه كل الكفارة وكل الاعتذار عن كل الغباوات والتفاهات والتشوهات والآلام والأحزان التي يعيشها كل الأرباب والمعلمين وكل الناس وكل المذاهب والتاريخ وكل المجتمعات والمستويات وكل التافهين والعباقرة بانبهار وصلاة وتمجيد لعبقرية الطبيعة ولذكاء الإنسان، ولشجاعته، ولنظافته، ولذكاء الآلهة ولشجاعتها ولنظافتها.

لقد كان يعاني كل عذاب كل الكون وكل الناس وكل الحشرات كأنه وحده المسؤول عن كل ذنوب وأخطاء ووحشية كل الآلهة ـ كأنه وحده المعاقب المحاسب على كل ذلك ـ كأنه وحده الخالق لهذا الكون ـ كأنه الخالق للآلهة الخالق لمستوياتها كأنه قد فرض عليه أن يكون وحده المكفر المعتذر عن ذنوب الآلهة وضعفها.

قولوا عنه لقد كان يجد كل الناس يعيشون كل ظروف الرفض والاحتجاج. والغضب والاشمئزاز والنقد والتساؤل. لقد كان يريد من كل الناس أن يرفضوا ويحتجوا ويغضبوا ويشمئزوا وينقدوا ويسائلوا ويصرخوا، لأنهم يعيشون كل ذلك، كل أسبابه وظروفه وأساليبه ومعانيه. ولكنهم لا يفعلون، إنهم لا يفعلون ولا ينوون أن يفعلوا. إنهم لا ينوون. إنهم يقتلونه بصبرهم وبإيمانهم وبتحملهم وبصمتهم وبتقبلهم وبتنازلهم وبعجزهم. إن صبر البشر على ما يعانون ويمارسون شيء رهيب، رهيب.

إنهم يقتلونه، إنهم يقتلونه بمزاياهم المتواضعة المقهورة. إنهم يقتلونه بصبرهم وتقبلهم. إنهم يقتلونه بعدد مواقفهم ومواجهاتهم المؤمنة المستسلمة الراضية الصابرة. إذن كم يقتلونه؟ في اليوم الواحد؟

إنه لا مثيل للبشر في تنازلهم عن كبريائهم وعن مستوياتهم التي رأوها لأنفسهم والتي قوموا به وجودهم المتفوق. لقد كان إيمان البشر بذكاء الآلهة وبنظافتها وبشجاعتها وبعبقريتها وبعدلها هي القضية التي كانت تقتله، تقتله ـ التي كانت تقتله بكل الأسلحة وبكل معاني القتل وبكل لغاته وأساليبه.

إنه محكوم عليه بأقسى وأشمل أساليب العذاب. إنه محكوم عليه بأن يغضب ويحتج ويرفض ويشمئز وينقد ويسأل وينكر بدل كل الناس. إنه محكوم عليه بأن يكفر ويعتذر ويستغفر عن كل بلادة وعجز وسخف وتفاهة كل الناس. إنه محكوم عليه أن يتعذب تكفيراً واعتذاراً عن كل بلادة وعجز وسخف وتفاهة كل الناس. إنه محكوم عليه أن يتعذب تكفيراً واعتذاراً عن كل من يجب أن يتعذبوا فلم يتعذبوا، أي عن كل من يعيشون العذاب دون أن يعانوا العذاب، ودون أن يقتلوا ويرجموا كل من يصنعون لهم العذاب. إنك قد تتعذب أشد العذاب دون أن تقتنع بأنك تتعذب أي عذاب. إن حياتك قد تعاني كل العذاب دون أن يعلم عقلك أو أخلاقك أو حتى جسمك بذلك، إن رسالة المعلمين والزعماء أن يجعلوك كذلك.

إنه محكوم عليه أن يتعذب عن كل من يموتون بل أدوات وأساليب القتل والموت دون أن يصرخوا بكل الرفض والغضب.

إذاً لماذا جئنا، إذن لماذا نسمح بأن نجيء، إذن من الذي يدبر لنا المجيء هنا.

إنه محكوم عليه أن يتعذب عن كل من يموتون بكل أدوات وأساليب يسألوه بكل الغضب والاشمئزاز أمام كل منظر وكل شيء وكل حدث، أمام كل ألم وخطأ وعبث وحقارة وتفاهة ومرض وورطة وهوان وهزيمة: إذن أين نخوتك وحبك أيها الإله. يا إلهنا الكامل إذن أين نخوتك وحبك وأريحيتك ـ إذن أين كمالك يا إلهنا الكامل.

ولكن أليست أضيع المناشدات هي مناشدات الآلهة؟ إنه لا مثيل للآلهة في فقدها لحاسة السمع إلا البشر في عجزهم عن فهم هذه الحقيقة.

.... قولوا عنه إنه لم يكن يستطيع أن يغفر لمن يتعاملون مع الإله دون أن يصوغوا كل وجودهم وحياتهم ولغاتهم في سؤال واحد، يطلقونه جميعاً إطلاقاً مستمراً ملحاً صاعقاً قاهراً:

إذن أين كمالك يا إلهنا الكامل، إذن أين كمالك الذي حدثنا عنه أنبياؤك.

إنه سؤال مطبوع على وجوه جميع الأشياء، حتى على وجوه الحشرات: إذن أين كمالك الذي حدثنا عنه أنبياؤك.

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه: لقد كان كالكفارة الباهظة وكالاعتذار الفاجع عن كل آلام، وهوان وأخطاء وذنوب وعاهات وأحزان وبلادات كل الناس وكل المعلمين وكل الآلهة وكل الحشرات وكل الكون والأشياء، في كل الأوقات، وفي كل الأماكن، وتحت كل الظروف... نعم، حتى عن آلام وأحزان ودموع وهوان وهزائم الحشرات. ويلتاه كيف تتقبل الحشرات هوانها.

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده قولوا عنه.

* *

قولوا عنه لقد كان تجمعاً رهيباً. قولوا عنه لقد تجمع فيه كل ما كان يجب أن يقسم على كل الناس، وعانى كل ما كان يجب أن يعاني منه كل الناس. لقد كان يعاني كل ما كان يجب أن يعاني منه كل الناس.

لقد تجمع فيه كل الرفض والاحتجاج والغضب والاشمئزاز والنقد والحوار والشك والتساؤل والقلق الذي كان يجب أن يقسم على كل الناس، والذي كان يجب أن يتحمله كل الناس، وأن يتعذبوا به وأن يعانوا منه جميعاً، ليكونوا جميعاً معانين لكل العذاب، ولكل المعاناة، ولكل مستويات وظروف التحمل الرهيب.

قولوا عنه لقد كان تجمعاً بلا قياس وبلا نموذج وبلا مثال وبلا منطق لقد كان تجمعاً للعذاب، لكل العذاب.

قولوا عنه لقد كان يصلب نفسه عن كل الناس وبقدر عدد الناس، وبقدر عدد مواقف الناس، وبقدر عدد أخطاء الناس وآلامهم وأحزانهم وعاهاتهم وهزائمهم وكل ورطاتهم.

لقد كان يصلب نفسه على كل الصلبان. وكان كل إنسان يتحول إلى صليب ليصلب نفسه عليه لقد كانت صلبانه كل الناس وكل مواقفهم، وكل عجزهم وهوانهم وآلامهم وهمومهم وبلاداتهم ومشاكلهم. لقد كان كل الناس له صلباناً، وكان كل إنسان يتحول إلى أنواع من الصلبان ليصلب نفسه على كل واحد منها.

لقد كان يتعذب على كل صليب، على كل إنسان بقدر ما في كل إنسان من صلبان ومن احتمالات الصلبان ومعاني الصلبان. لقد كان يصلب على جبهة كل إنسان، على كل جبهة بعدد ما في كل جبهة من احتمالات الألم والهوان والكبرياء والظلم والسخف والتفاهة والموت والمرض والجنون والبلادة والعبث والضياع. لقد كان كل ما في الكون من احتمالات الصلبان تتجمع في كل جبهة لتصبح صلباناً ليموت فوق كل واحد منها. لقد كان يعاني فوق كل جبهة عذاباً يساوي عذابه لو أن كل ما في الطبيعة من احتمال قد صنع صلباناً ثم مات فوقها كلها ليس مرة واحدة فقط بل كل الوقت بعدد آهات الوقت.

لقد كان صليباً يتعذب عليه كل إنسان، وكان مسيحاً يصلب كل الوقت على كل جبهة بعدد ما فيها من معاني الصليب واحتمالاته ولغاته وتاريخه، إن فوق كل جبهة كل ألوان الصلبان وكل أنواعها وكل مستوياتها. إن كل الكون ليبدو في أشكال صلبان رهيبة متجمعة فوق كل جبهة ليراها وحده، وليعاني منها وحده.

لقد كان مسيحاً يصلب نفسه على كل شيء كل الأوقات بكل الأساليب لا ليكون كفارة عن الخطيئة، بل ليكون إعلاناً عن خطيئة لا يمكن تكفيرها، ليكون احتجاجاً على هذه الخطيئة لا تكفيراً عنها.

قولوا عنه: إنه لم يكن مسيحاً يتعذب ويموت ليعلن عن خطيئة الإنسان، أو ليعلن عن الإنسان مخطئاً أو عن الإنسان المخطىء، بل لقد كان مسيحاً يتعذب ويموت، أو يتعذب أقسى مما يموت، ليعلن خطيئة الوجود، أو خطيئة من فوق الوجود وفوق الإنسان أو خطيئة من قبل الوجود وقبل الإنسان ـ أي ليعلن عن الوجود أو عمن قبله أو عمن فوقه، مخطئاً.

لقد كان مسيحاً يتعذب ويموت، أو يتعذب أقسى مما يموت، ليعلن عن خطأ يقع على الإنسان وضد الإنسان، لا عن خطأ يقع من الإنسان. إنه إعلان عن الإنسان المخطأ عليه لا عن الإنسان المخطىء على الإله أو على شرف الإله أو كبرياء الإله أو أنانية الإله ـ أو المخطىء على نفسه أو على الطبيعة. إن الإنسان مهما كان مخطئاً فإنه لن يكون إلا مخطأ عليه. إن خطأه إعلان عن الخطأ عليه. إن المخطىء ليس إلا كائناً صنع مخطئاً كما صنع يمرض ويشيخ ويموت ويجوع وينام ويحزن.

لقد كان مسيحاً يدافع عن الإنسان مخطئاً كما يدافع عنه مظلوماً. إنه يراه مقهوراً ومظلوماً حينما يكون مخطئاً. إن الإنسان لا يفعل الخطأ، ولكن الخطأ يفعل الإنسان، أو يقع في الإنسان، أو يوقع الإنسان. إن الإنسان لا يكون مخطئاً، ولكنه يكون مصاباً بالخطأ.

قولوا عنه إنه لم يكن نبياً تعذبه خطيئة الإنسان، بل لقد كان إنساناً تعذبه آلام الإنسان، وتعذبه هموم الإنسان، وهزائم الإنسان، وورطات الإنسان، وتفاهات الإنسان. ما أقسى عذابك، ما أطول وأوسع عذابك إذا كنت إنساناً يعيش فيه كل إنسان ـ إذا كنت إنساناً لا زعيماً ولا نبياً ولا معلماً.

إنه لم يكن نبياً يبكيه عصيان الإنسان لأوامر وشهوات الرب. لقد كان إنساناً يبكيه عصيان الرب لحاجات الإنسان ولجوعه ولدموعه. لقد كان إنساناً يرى أن معاصي الآلهة هي أكبر المعاصي، بل هي وحدها المعاصي. إن الآلهة هم الذين يعصون، إنهم هم وحدهم العصاة. إن الآلهة هم العصاة للإنسان، إنهم هم الذين يعصون حاجات الإنسان وهمومه وجوعه وبكاءه وتضرعاته وشكاياته إليهم أي إلى الآلهة.

إن كل أساليب واحتمالات العقاب لن تكفي عقاباً للآلهة لو عوقبوا بها جزاء لهم على عصيانهم للإنسان وللحياة وللحشرات.

أما الإنسان فهو أبداً معصي وليس عاصياً مهما بدا عاصياً. إنه لا يعصي وإنما يفعل أو يوقع به العصيان. إن العصيان هجوم عليه وليس هجوماً منه. إنه ليس طغياناً أو عدواناً يبحث عنه، ولكنه آلام يعاني منها أو يحاول التخلص منها. إن عصيان الإنسان ليس إلا تعبيراً عن هزيمته أمام هجوم قد وقع عليه، وليس تعبيراً عن عدوان قد وقع منه.

إن الإنسان العاصي جداً هو الإنسان المقهور المعتدى عليه المجاع المعذب المظلوم جداً.

إن العصيان ليس لغة من لغات الانتصار أو السرور أو القوة أو التحدي أو اللذة، ولكنه لغة من لغات الهزيمة أو الضعف أو الاستسلام أو الألم أو الاكتئاب أو الخوف.

إن العصيان ليس مراقصة للقمر وإنما هو ابتلاع للتراب وارتجاف تحت توقيع الآلام. إنه معاناة أقسى من معاناة العبادة والإيمان. إن من يمارس كل ألوان ومستويات المعاصي البهيجة ليس أكثر عصياناً أو سعادة أو ابتهاجاً أو تحدياً ممن يمارس أعنف وأتقى ألوان الطاعات والعبادات.

إن من يعانق أو يناجي الجسد الحرام ليس أكثر عشقاً أو فسوقاً أو لذة ممن يناجي ويعانق جبروت الإله المتخفي وراء الآلام والمخاوف.

إن قاتل النبي ليس أكثر سروراً أو عصياناً للسماء أو للحياة أو للإنسان أو للتقوى والفضيلة أو للحب والتسامح والصداقة من نفس النبي.

إن النبي ليس أكثر تقوى أو معاناة للإله أو للتعامل معه أو للخضوع له وللإرادة لإرادته أكثر من قاتله.

قولوا عنه إنه إنسان يريد من الإله أن يكون للإنسان، ولا يريد من الإنسان أن يكون للإله. إنه إنسان يريد من النبي أن يكون نبي الإنسان إلى الرب، ولا يريد من النبي أن يكون نبي الرب إلى الإنسان. إن الإنسان هو الذي يجب أن يطالب الإله وأن يفرض عليه طاعته، وليس الإله هو الذي له أن يفعل ذلك.

إن الرب هو الذي يجب أن يبعث إليه بالأنبياء والمعلمين لكي يكون مطيعاً وخادماً ومغنياً للإنسان، وليس الإنسان هو الذي ينبغي أن يجيء إليه النبيون والمعلمون بمواكبهم وغزواتهم وتعاليمهم المتوحشة الرهيبة المذلة لكي يعلموه أن يفعل وأن يريد ما لا يفعلون وما لا يستطيعون وما لا يريدون، وما لا يفيد شيئاً أو أحداً أن يفعله أو يستطيعه أو يريده، ولكي يحرضوه على أن يزداد انقهاراً واستسلاماً وانهزاماً أمام الطبيعة وأمام نفسه وأمام القوة التي لا يعرفونها، التي يتحدثون عنها دون أن يعرفوها وأمام شهوتهم هم في الاستعباد له.

لقد كان نبياً يطالب الآلهة أن تصلي للبشر دون أن يطالب البشر بالصلاة للآلهة. لقد كانت نبوته أخذاً من الآلهة لحساب البشر، ولم تكن أخذاً من البشر لحساب الآلهة. لقد كانت نبوته منحازة للبشر ضد الآلهة، ولم تكن منحازة للآلهة ضد البشر.

إن أتقى وأصدق وأذكى النبوات هي النبوات التي تجيء لتحاكم الآلهة انتصاراً للبشر. إنها نبوات الحضارة والمستقبل.

لقد كانت نبوته ضد الطغيان والقوة مع الضعفاء، ولم تكن مع القوة والطغيان ضد الضعفاء. أما النبوات القديمة فكانت دائماً مع القوة والطغيان على الضعفاء.

لقد كان نبياً للإنسان، ولم يكن نبياً للآلهة. إن أنبياء الآلهة هم أنبياء الطغاة، هم أنبياء أطغى الطغاة. إنهم أنبياء ضد الإنسان، إنهم يجيئون لقهر عقله وأخلاقه ومقاومته للطغيان، إن أنبياء الآلهة هم أشمل جلادين لمصلحة أشمل طغيان يجيئون لفرضه على الإنسان ولتعليمه الإيمان به.

يا من ستظلون تتحدثون بعده قولوا عنه، قولوا عنه لقد كان تجمعاً رهيباً.

يا من ستظلون تتحدثون بعده قولوا عنه لقد كان غلطة، لقد كان غلطة عظمى. لقد غلطته الطبيعة ضد نفسها وضد سمعتها، وضد مجدها وتاريخها وضد كل مزاياها دون أن تعرف ماذا فعلت ودون أن تريد ما فعلت.

لقد كانت الطبيعة تملك مجداً. كان مجد الطبيعة هو كل المجد. وكان كل المجد مجدها.

لقد كان لها كل الذكاء والمنطق والجمال والحب والمثل التقية المهذبة.

لقد كان منطق الطبيعة وذكاؤها ومثلها وجمالها وأخلاقها هي كل الأخلاق والذكاء والمثل والمنطق والجمال. كانت الطبيعة هي كل الفنون والأفكار والتعاليم والشعر والموسيقى والغناء. كانت هي كل الفنانين والشعراء والمعلمين والمفكرين والمنشدين.

لقد كانت هي النبوة، وهي النبي، وكانت هي الوحي والموحي والموحى إليه والموحى به ومكان الوحي ولغته وأداته وحوافزه وأخلاقه. كانت هي الاحتلام والمحتلم والمحتكَم به وسبب الاحتلام وسريره وتفسيره. لقد كانت هي كل الموجود والوجود وكل قيمهما.

لقد كانت الطبيعة هي كل المستويات في أحد مستوياتها.

إن كل الأشياء وكل الناس بكل مستوياتهم واختلافاتهم وصيغهم ليسوا إلا صيغاً من صيغها، إنهم جميعاً يبحثون عن صيغ من صيغها، لكي يكونوا هذه الصيغ من صيغها.

إن جميع الأشياء وجميع الناس صيغ من صيغ الطبيعة، ويبحثون عن صيغ من صيغها.

لقد كانت الطبيعة هي العيون التي قالت للشاعر، وهي الشاعر الذي قال للعيون. وكانت هي الوجه الفاتن الذي علم منطق القصيدة. وكانت هي القلب المفتون الذي كتب القصيدة وغناها.

كانت الطبيعة هي عين الفنان ويده وريشته ولوحته ونبوته وزندقته وصلاته وعربدته. لقد كانت الطبيعة، لقد كانت.

لقد كان للطبيعة مجد، وكانت مجداً، لقد كانت كل المجد، وكان كل مجد من مجدها، لقد كان كل شيء من فضلها. لقد كان من مجدها الإله، كان الإله شيئاً من مجد الطبيعة.

حتى الإله كان بعض مجد الطبيعة، كان فنانها، إن الإله لم يكن سوى الطبيعة في إحدى صيغها، في كل صيغها وفي كل صيغه، في أجمل صيغه، إن الإله لم يكن أكثر أو أعظم من الطبيعة في جميع صيغه. إن الإله في جميع صيغه وفي أفضل صيغه ليس أجمل من الطبيعة في كل صيغها وفي أردأ صيغها.

لقد كانت الطبيعة هي صيغة الإله وصورته وقدرته ورؤيته ونموذجه وكل أحلامه عن نفسه ولنفسه. كانت هي الصورة التي كان يريد أن يرى بها نفسه وأن يراه بها الآخرون ـ الآخرون الذين

كان يعجبه ويسره أن يعرض عليهم ذاته في أجمل حلله وأجمل صوره.

لقد كانت الطبيعة هي كل ما تمناه الإله لنفسه: لعرض نفسه ولتجميلها ولإرضائها، ولإعطائها كل أمانيها وكل أشواقها وتطلعاتها. إن الإله لم يجد شيئاً غير الطبيعة يهبه نفسه ويرضيها به، ويجعله عرضاً لها ودليلاً عليها، ومجداً من أمجادها، وحديثاً عنها، وتشويقاً إليها، لقد كانت الطبيعة هي الإعلان العالمي والكوني الذي تصوره الإله واختاره ورضيه لكي يعلن به عن نفسه، لقد وجد فيها كل احتياجات الإله وشروطه في الإعلان عن نفسه.

لقد كانت الطبيعة هي كل بلاغة الإله في حديثه عن نفسه، وفي حديثه إلى نفسه، وفي إعلانه عنها. لقد كانت كل خياله وأمانيه. كانت هي كل فنه وموهبته وقدرته وطموحه في تصويره لمجده ولجماله ولعبقريته ولموهبته الشاعرة. لقد كانت كل فنه وقدرته وطموحه ولعبه الفاتنة.

لقد كانت الطبيعة كل طموح الإله، كل طموحه إلى المجد والشهرة والذكاء والجمال والكبرياء.

لقد كان المؤمنون يشاهدون في الطبيعة كل جمال الإله وكل رحمته وحبه وذكائه وسخائه وكل حكمته وقدرته. كانوا يجدون الله بكل أخلاقه ومستوياته وتعبيراته في الطبيعة، في كل وحداتها وأساليبها وأحداثها وحشراتها، كانوا يجدونه في الزلزال والبركان وفي المرض والعاهة والظلم والتشويه وفي الموت والقحط في أجمل صوره وأنبل مواقفه، فيهتفون ويصلون ويصعقون من الجمال الذي يرون، ومن الذكاء والعدل والحب والرحمة التي يمارسها الإله بهم ويمارسها لهم.

أما غير المؤمنين، أي كل الناس، فكانوا يرون في الطبيعة كل فضائل وعبقريات المادة، كانوا يرون فيها كل ذكائها وكل قوانينها ذات المستويات المتناهية في منطقها ونظامها وجمالها وإعجازها.

لقد كانوا يجدون فيها كل الصداقة والحب والرعاية والإخلاص لهم وللحياة، كانوا يجدون أعلى مستويات الجمال والفن والذكاء والإبداع والحب والشعر في كل حماقات الطبيعة وفي كل ضرباتها وغوغائياتها. كانوا يرون في الذباب - متنقلاً بين عيون اليتامى والبيئات الجرثومية - أتقى صلوات الطبيعة وأسخى عطاياها.

لقد كان كل الناس أمام الإيمان بمجد الطبيعة والانسحاق برهبتها وجمالها أما صوفية قد سحقهم الخوف والانقهار، وأما شعراء قد ملكهم وحلق بهم الاعجاب والانبهار.

لقد كان الناس جميعاً أمام الطبيعة صوفية وشعراء. كانوا جميعاً عبيداً مقهورين أمامها. كانوا جميعاً يغنون أو يصلون، أو يغنون ويصلون تمجيداً لمجدها، تمجيداً لكمالها المطلق ولذكائها المطلق، ولجمالها وحبها ونبلها المطلق - تمجيداً لكل نزواتها وبذاءاتها وعاهاتها وفضائحها.

إنها كل الدمامات والعاهات والبلادات والتفاهات التي تحولت إلى كل المجد والجمال والذكاء والحب والعبقرية والضخامة.

لقد كان البشر جميعاً صوفية وشعراء أمام الطبيعة. لقد كانت الطبيعة كل أشواق البشر، وكل

عشقهم وإعجابهم واحتلامهم وتفكيرهم ومنطقهم وخيالهم، وكل جوعهم وحرمانهم وخوفهم وعذابهم، كانت الطبيعة هي كل آلهة البشر وكل شياطينهم.

كانت الطبيعة جمالاً مطلقاً، وذكاءً مطلقاً، وحباً مطلقاً، وخيراً مطلقاً. كانت فناً وشعراً، وكان فنانها وشاعرها الأعظم هو الإله في أحد أساليب الامتداح لها، أو في أضعف أساليب هذا الامتداح للطبيعة، كان الإله شاعراً مفتتناً مفتضحاً في تغزله بالطبيعة. إن شاعراً ما لم يفتتن أو يفتضح في امتداحه لشيء مثل افتضاح الإله وافتتانه في امتداحه للطبيعة.

لقد كانت كل موهبة الإله أن يكون فنان الطبيعة وشاعرها. كان الإله يبالغ في الثناء على الطبيعة حينما يريد أن يبالغ في الثناء على نفسه. لقد كان يحتال لمدح نفسه فلم يكن يجد وسيلة لتنفيذ هذا الاحتيال غير أن يمدح الطبيعة. لقد كانت الطبيعة كل فنون الإله وكل أشعاره وكل حيله في تمجيده لنفسه وفي ثنائه على عبقريته. كان الإله أكبر مفتون في الكون، وكانت الطبيعة هي كل الفاتن. لقد كان افتتان الإله بالطبيعة وتغزله المفضوح بها هما كل رشوته للبشر لكي يروه عظيماً وكريماً وذكياً وعبقرياً ولكي يعبدوه.

لقد كانت الطبيعة كل الفن وكل الشعر. إن أي شاعر أو فنان لم يكن يجد غير الطبيعة لكي يجعلها فنه وشعره، ولكي يجعل منها فنه وشعره، ولكي يوجه إليها فنه وشعره، ولكي يجعلها تفسيراً لفنه وشعره، ويجعل فنه وشعره تفسيراً لها وتفسيراً بها.

حتى الإله لم يكن يجد غير الطبيعة حينما يريد أن يكون فناناً وشاعراً، وحينما يريد أن يمجد نفسه أو أن يخاطبها بالشعر أو الفن، أو حينما يريد أن يقنع نفسه أو يقنع من سواه بأنه عبقري وكبير وجواد وهاب بلا حدود.

* *

لقد كانت الطبيعة كل المجد وكل مستوياته، بل لقد كانت كل مجد الإله حتى غلطت غلطتها لكبرى، حتى غلطت غلطتها الكبرى ضد نفسها. إنها غلطة كبرى ضد النفس.

إن أحداً ما أو شيئاً ما لم يغلط ضد نفسه وضد مجده في ضخامة غلطة الطبيعة ضد نفسها وضد مجدها.

لقد غلطت الطبيعة ضد نفسها حينما خلقت وصاغت هذا النبي الشرير الضال، أو هذا الشرير الضال الذي ليس نبياً، أو هذا النبي المضاد، أو هذا النبي الذي ليس نبياً، أو هذا الإنسان الذي يريد مداواة الحياة والإنسان من النبوات، أو هذا الإنسان الذي يرفض كما لا يستطيع أن يكون نبياً لأنه يرفض كما لا يستطيع أن يكون معادياً ومحارباً للإنسان بكل هذه القسوة والحقد.

لقد كانت غلطة الطبيعة العظمى ضد نفسها في خلقها لهذا النبي الذي لا يملك إيمان الأنبياء ولا منطقهم السهل المتوحش، كما لا يملك سمواتهم المتزاحمة بالأشباح والتهاويل والأسرار الرهيبة،

وبالآلهة المحاربة أبداً، والغاضبة أبداً، والمهددة أبداً، والكالحة أبداً، والواعدة والموعدة أبداً.

وبالآلهة التي ليس لها من ممارسات أو مسرات أو ألعاب أو فنون أو طعام أو عزاء سوى الحروب والغضب والبغضاء وخلق الآلام والكوارث والتهديد بكل المخاوف المخاطر والهموم ـ وبالآلهة التي ليس لها من حماس أو شهوة أو غيرة أو وظيفة سوى التشهير بالضعف الذي صنعته هي، وبالعاهات التي أرادتها وأصابت وشوهت بها هي، وسوى الكشف والإعلان عن العورات المستترة كأنها عاشقة لها، كأنها عاشقة للافتضاح، معادية للاستتار. كأنها لا تجد في الافتضاح إلا كل الاستتار، ولا في الاستتار إلا كل الافتضاح.

لقد جاء هذا النبي المضاد، أو هذا الإنسان الذي يعالج من الأنبياء لقد جاء هذا النبي المضاد أو هذا الإنسان الذي لا يجرؤ على أن يكون نبياً ـ لقد جاء ليسترد من الطبيعة كل أمجادها التاريخية، وليعاقبها على جميع الأكاذيب التي كذبت لها غباء أو تعمداً، وليحول كل ذلك إلى ثمن باهظ يؤخذ منها.

لقد جاء هذا النبي الشرير، أو هذا الشرير الذي ليس نبياً، أو هذا الإنسان الذي يرفض أن يكون نبياً، لكي يحول كل أمجاد الطبيعة إلى عار، وكل جمالها إلى دمامة، وكل ذكائها إلى بلادة، وكل نظامها إلى آلية ليس فيها أي معنى خير أو ذكي، وكل حبها إلى عدوان وقسوة، وكل عطائها إلى سفه وتبديد وتوريط، وكل وجودها إلى تشوه وهوان وجوع وعقاب وتعقيد، وكل آلهتها إلى وحوش وحشرات وبراكين وزلازل وأوبئة وموت.

نعم، لقد جاء ليعلن ذلك، أو ليعلن أن ذلك كذلك. لقد جاء ليعلن الطبيعة كما ترى لا كما تعلم أو يعلم عنها.

لقد جاء ليعلن خروجها على جميع النماذج والمقاسات والمستويات المنطقية والأخلاقية والفنية ـ ليعلن خروجها على جميع معارج ومضارب الخيال والأماني والاحتياجات ـ ليعلن أنها قد جاءت وأنها أيضاً تبقى بأسلوب من يسقط لا بأسلوب من يجيء ـ ليعلن أنها قد سقطت سقوطاً وأنها لم تجيء مجيئاً ـ ليعلن أنها سقوط لا مجيء.

لقد جاء ليعلن أنها زندقة عقلية وأخلاقية ودينية وفنية وخيالية وإنسانية. ليعلن أنها زندقة ضد نفسها وضد الحياة وضد الإنسان وضد الآلهة أيضاً. ليعلن أنها زندقة وفجور، وليست إيماناً ولا تقوى ولا أخلاقاً بل ولا ذكاء أو فناً.

ليعلن أنه لا زندقة كزندقة الطبيعة ولا فجور مثل فجور الطبيعة.

لقد جاء ليعلن عار الطبيعة وهمجيتها، ليعلن أنها ذنب لا يمكن غفرانه، وعاهة لا يمكن علاجها، ودمامة لا يستطاع سترها، وحقارة لا يستطاع التسامي بها، ووقاحة لا تغفر بشاعتها. لقد جاء ليكون نبوة ضد الطبيعة، أو ليكون نبوة ضد النبوة وضد الطبيعة ـ ليقيم ديناً يكشف كفر الطبيعة بكل الآلهة

والأديان والقيم والتعاليم، وبالإنسان أعظم المتعاملين معها ـ ليقيم ديناً يكشف خروجها على جميع الافتراضات المطلوبة، على جميع افتراضات العقل والأخلاق والجمال والأماني.

لقد جاء ليقيم ديناً يعلن كفر الطبيعة الذي لا يتحول إلى شيء من الإيمان، وفسوقها الذي لا يتحول إلى شيء من الاستقامة ـ ليعلن أنها لا يمكن أن تؤمن أو أن تستقيم أو أن يشفي أي تشوه من تشوهاتها.

يا من ستظلون تتحدثون بعده قولوا عنه:

لقد كان غلطة كبرى، لقد غلطته الطبيعة ضد نفسها وضد مجدها. لقد غلطته ليكون عقاباً لها وإسقاطاً لمجدها، ليكون إعلاناً عقلياً وأخلاقياً وفنياً عن سقوطها وسقوط مجدها ـ ليعلن أنها عاهات أبدية لأنها عاهات ذاتية، لأن كونها عاهات يساوي كونها موجودة، ولأن كونها موجودة يساوي كونها عاهات ـ ليعلن أنها لن تشفى من عاهاتها إلا إذا شفيت من ذاتها، وأنها لن تشفى من ذاتها إلا إذا شفيت من وجودها وهل يمكن أن تشفى من وجودها؟ وهل يوجد أي شفاء أو هل لأي شيء شفاء، إلا الشفاء من الوجود؟

* *

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه.

لقد كان اسماً صغيراً ووجوداً صغيراً وذاتاً صغيرة وحياة صغيرة. ولكنه كان كوناً لا حدود له، كان كوناً أوسع وأعمق وأبعد من كل الكون ومن كل كون في عذابه وفي رؤاه الغاضبة.

لقد كان الكون، كل الكون بعض رؤاه وبعض غضبه وبعض احتجاجه الفكري والأخلاقي والفني.

قولوا عنه: لقد كان كوناً لا حدود له من الاحتجاج والرفض والمخاصمة العقلية والغضب المنطقي، ومن الارتجاف والاشمئزاز والتحديق والاشتراط الفكري والأخلاقي والإنساني.

قولوا عنه لقد كان كوناً رهيباً.

لقد كان وجوداً صغيراً يعيش فيه وجود كبير، وجود لا حدود له. لقد كان وجوداً صغيراً يعيش فيه ويتقاتل فيه ويقاتله، ويتحرك ويتزاحم فيه وجود بلا حدود، بل عوالم من الوجود ـ أكوان هائلة متوحشة رهيبة تعيش وتتحرك وتتزاحم وتتقاتل، وتمارس كل الفضائح والوقاحات والحماقات والبلادات والبذاءات والآلام والمظالم والسخافات والتناقضات والخصومات والعداوات في وجود صغير ضعيف مسالم جداً ـ في مساحة صغيرة حزينة من الوجود، قد ينسى الوجود أنها موجودة، أو قد يرفض الاعتراف بوجودها أو أن يقيم حساباته على افتراضها موجودة، أو أنها قد توجد، أو أنه قد يؤذن لها بأن توجد.

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه.

لقد كان وجوداً صغيراً حزيناً مسالماً، يعيش فيه وجود محارب هو أكبر من الكون الموجود، ومن الكون الذي قد يوجد، ومن الكون الذي لن يوجد. إن الإنسان هو الوجود الصغير الذي هو في احتجاجه ورفضه وغضبه وتحديقه وفي منطقه وعذابه وأحزانه أكبر وأعمق من كل الوجود. إن الإنسان هو ذلك وأكثر من ذلك في حدوده وفي مستوياته الرهيبة التي لا بد أن تكون أو التي قد تكون.

* *

قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه.

لقد كان قصة، لقد كان قصة عذاب. كان قصة عذاب رهيبة، فهل تستطيع الطبيعة، أو هل تجرؤ الطبيعة على أن تكررها، على أن تؤلفها مرة أخرى. هل تفجر الطبيعة لتعيد تأليفها، لتعيد قصة شهيدها.

هل تستطيع الطبيعة، أو هل تجرؤ الطبيعة، أو هل تفسق الطبيعة؟ قولوا عنه يا من ستظلون تتحدثون بعده ـ قولوا عنه:

لقد كان، لقد كان.

إنها كلمة، كلمة لن يتوقف شيء من الكون ليقرأها أو يفهمها أو يتعلمها أو ليستمع إليها، ولكن كم فيها من التعذيب والتوريط والظلم والعبث والتشويه، ومن التحقير والهجاء والإسقاط للكون؟ كم فيها من التساؤلات التي لا يستطيع كل ما في الكون أن يكون جواباً عن واحد منها، ومن الاحتجاج الذي لا يستطيع كل ما في الأشياء من ضخامة وجمال وقوة وإغراء أن يكون اعتذاراً عنه، ومن العدوان الذي لا يستطيع أي عطاء أو أي ثمن أو أي ابتسام تزوره الحياة أن يكون تكفيراً له؟

إنها كلمة لا يستطيع أي شيء في الكون أن يهرب منها أو أن يخفي عنها عاره أو دماماته أو ذنوبه أو أن يضللها بتفاسيره.

لماذا يا أنا؟

لماذا جئت، ولماذا جئت بهذا الأسلوب، ولماذا جئت بهذه الصفات، ولماذا جئت إلي، وإلي وحدي؟ لماذا لم تجيء إلى غيري، لماذا لم تتفرق على كل الناس، لماذا لا تتنقل بين كل الناس، لماذا لم تكن رحيماً أو عادلاً؟ لماذا لم تجيء بأي أسلوب آخر أو بأية أخلاق أخرى؟

من فرض عليك أن تكون كما كنت، وأن تجيء كما جئت؟

لماذا يا أنا؟

لماذا يا أنا؟ هل جئت إلي مخطئاً، هل جئت عامداً؟ هل جئت صديقاً، هل جئت محارباً؟ هل جئت عن حب، أم جئت منتقماً؟ هل جئت خائفاً، هل جئت لتخيف؟

هل تعرف لماذا جئت خائفاً، هل جئت لتخيف؟

هل تعرف لماذا جئت أو تعرف أنك جئت أو كيف جئت أو من دبر وأراد لك أن تجيء؟

لماذا يا أنا؟

لماذا اخترتني، وهل اخترتني؟ هل أكرهت علي؟ لماذا لم تختر غيري إن كنت قد اخترت؟ لماذا لم تكره على غيري إن كنت قد أكرهت؟ هل عرفتني فاخترتني، أم سقطت علي، أم أسقطت علي؟ هل اخترتك، هل أكرهت عليك؟ لماذا لم أكره على غيرك إن كنت مكرهاً، ولماذا لم أختر غيرك إن كنت مختاراً؟ هل عرفتك فاخترتك، أم سقطت عليك، أم أسقطت عليك؟

لماذا لم أشترط عليك أو لك؟ ولماذا لم تشترط لنفسك أو لي أو علي أو على نفسك؟

لماذا يا أنا؟

لماذا لم تجيء كما جاء الآخرون، لماذا لم يجيء الآخرون كما جئت؟ لماذا لم تتعلم من الآخرين. لماذا لم يتعلم منك الآخرون؟ لماذا يجيء الآخرون إلى ذواتهم، لماذا يعيشون مع ذواتهم وفي ذواتهم في سلام ومغازلة وعشق وإعجاب واقتناع وتوافق وتقبل؟ لماذا جئت أنت إلى ذاتك، إلى ذاتي، إلي؟ لماذا تعيش مع ذاتك وفي ذاتك، أي في ذاتي ومع ذاتي، في قتال وفي تصادم ورفض وعذاب واحتجاج ورهبة وفي تناقض؟ لماذا تناقضني، لماذا أناقضك، لماذا فرض التناقض علينا، ومن فرضه؟ من يستفيد من هذا التناقض والتصادم؟

وهل الآلام تحدث لأن أحداً أو شيئاً يستفيد منها؟ وهل يمكن أن يستفيد أحد أو شيء من الآلام؟

هل نقلت أنت إليّ صفاتك؟ هل نقلت أنا إليك صفاتي؟ ومن نقل إليك أو إلي هذه الصفات التي نقلها أحدنا إلى الآخر، أو التي قد يكون أحدنا قد نقلها إلى الآخر؟ من المظلوم، من الملوم هنا؟ وهل هنا ظالم أو ملوم؟ أليس كل من هنا ومن هناك مظلوماً، مظلوماً؟ وهل هناك مظلوم بلا ظالم؟ نعم، لأن هناك مخلوقاً بلا خالق، ومريضاً بلا ممرض، وضعيفاً بلا مضعف، وغبياً بلا مصيب بالغباء. إن الظالم كائن مصنوع فيه ظلمه، كما أن المريض أو الضعيف أو الغبي كائن مخلوق فيه ضعفه أو غباؤه أو مرضه، وليس خالقاً له. وخلقه له هو معنى خلقه فيه. كما أن الخالق مخلوق فيه أو موضوع فيه خالقه، أو مخلوقة أو موضوعة فيه خالقيّته. إن المخلوق ليس له خالق كما أن الخالق ليس له خالق وكما أن المريض ليس له ممرض وكما أن البليد ليس له من وضع فيه البلادة.

لماذا يا أنا لم تجيء إلي رفيقاً سمحاً كما يجيء الآخرون إلى ذواتهم لماذا جئت وحدك دون كل الآخرين بهذه الوحشية؟ هل تعمدت أن تكون وحشاً أم فرضت عليك وحشيتك؟ ولماذا فرض عليك وحدك أن تكون هذا الوحش؟ لماذا؟ لماذا فرض علي أن يكون لي هذا الوحش وحدي؟ لماذا جاء وحشي وحده بكل هذه الوحشية؟

لماذا يا أنا؟

لماذا يا أنا لا تتهذب؟ لماذا لا تتعلم نبالة الأخلاق ونبالة النفس؟ لماذا لا تتعلم أي قدر من الفضائل؟

لقد نزلت علي ضيفاً أو نزلت غازياً. لقد حللت في ذاتي كما يحل الضيف أو كما يحل الغازي بلا أي تشريع أو قانون أو عدل أو منطق أو تفسير أو استئذان، وبلا أية دعوة وجهت إليك، وبلا أي مستوى من مستويات التكافؤ بين النازل والذات، أو بين الغازي والمكان. لماذا لا تصوغ معاملتك لي صياغة رقيقة مهذبة؟ لماذا لا تكون ضيفاً أو غازياً كريماً؟ لماذا لا تسالم ولو أحياناً؟ لماذا لا تتحول إلى توافق ومجاملة وسلام مع الذات التي فرضت عليها أي مع ذاتي؟

لماذا يا أنا لا تصاب بالغفلة والتصديق والاسترخاء والتسامح عن الوقاحات والحقارات والدمامات والآلام والبلادات والعبث؟ لماذا لا تمرض بالإغضاء، لماذا لا تمرض بهذا المرض النبيل؟ لمذا لا تمرض بالإعجاب بما هو كائن، بما يعجب به الآخرون، لماذا لا تمرض بهذا المرض الشهم؟ لماذا لا تمرض بالإيمان بالآلهة وبالغفران لأخطائها وذنوبها وعجزها وبداوتها وقسوتها؟ لماذا لا تصاب بهذا المرض السماوي، بهذا المرض العالمي الإنساني؟ لماذا لا تغفر للآلهة ولو بعض عداوتها على الأطفال والشيوخ، ولو بعض تشويهها لهم؟ لماذا تصر على أن ترى وتحاسب حتى الآلهة؟ لماذا يا أنا لا تسالم أو تغضي أو تغفر أو تصاب بجمال الرؤية أو بخطأ الرؤية أو بكذب الرؤية ولو أحياناً؟ لماذا لا ترضى وتتقبل وتعجب ولو ببعض الأشياء تحت بعض الظروف؟ لماذا لا تنام ولو قليلاً من الليل؟ لماذا لا تكف عن بعض الرؤية، أمام بعض المناظر، أمام أي ألم، أو أية وقاحة أو تفاهة أو بذاءة أو حقارة؟

لماذا ليس لك مثيل في القسوة على نفسك وفي التعامل ضد نفسك؟ هل تجد في هذا التفرد بالعذاب لذة أو مزية؟ أية آلهة أو أقدار هي التي خصتك بأن تكون فريداً في عذابك العقلي والأخلاقي والإنساني؟

لماذا يا أنا؟

لماذا تصر على أن تكون كل العذاب لمن فرضت عليه، أو لمن فرضت نفسك عليه؟

لماذا تصر على أن تظل دائماً استيقاظاً ورؤية واشتراطاً ومحاسبة وشكاً ونقداً وحواراً وهجوماً عقلياً وأخلاقياً ونفسياً؟ لماذا تصر على أن تظل دائماً احتجاجاً ورفضاً ومساءلة وتوتراً وقتالاً واحتراقاً ومخاصمة وعقاباً ومواجهة وتحدياً؟ هل أنت بذلك تعاقب نفسك أم تعاقب الذات التي فرضت عليها أو فرضت نفسك عليها؟ هل أنت بذلك تمجد نفسك أم تحقرها؟

لماذا تصر على أن تظل دائماً وحشاً مفترساً، مفترساً لمن نزلت عليه ضيفاً أو غازياً؟

لماذا لا تهادن أو تصفح؟ لماذا لا تكف عن الرؤية والاشتراط، أو تعجز عنهما، أو تملهما، أو تهابهما؟ لماذا لا تتعلم أي قدر من كرم الأخلاق أو كرم النفس؟ لماذا لا ترق لاحتمالات من نزلت ضيفاً أو غازياً عليه؟ لماذا لا ترق لضعفه وعذابه ولقدرته على التحمل؟ لماذا لا ترى أو تقدر أو تحسب كم يستطيع أن يتحمل ويحمل من العذاب؟ لماذا، لماذا؟

من وهبك كل هذه الوحشية؟ ولماذا وهبك إياها وحدك؟ وهل وهبك ذلك واهب؟ لماذا؟ هل أرادت الآلهة أن تتعزى بعذابك الذي لا مثيل له هنا عن عذابها الذي لا مثيل له لا هنا ولا هناك؟

هل عجزت الآلهة أن تجد عملاً لعذابها الذي هو بلا مثيل إلا بأن تهبك عذاباً بلا مثيل؟

لماذا يا أنا؟

لماذا لا تحاول أن تتبادل الأماكن مع الآخرين؟ لماذا لا تحاول أن تنتقل إلى ذات أخرى، لكي ينتقل إليك صاحب تلك الذات الأخرى، لكي ينتقل إلى تلك الذات التي انتقلت منها ـ إلى الذات التي فرضت ذاتك عليها؟ لماذا لا تحاول أن تقسم عذابك؟ لماذا تصر على أن يكون كل عذابك لذات واحدة؟ لماذا تريد الوحدانية في التعذيب؟ لماذا لا تعدد فيمن تعذب؟ لماذا لا تجرب؟

لماذا لا تجرب فقد يكون التعذيب للذوات الأخرى شهياً أيضاً لديك، قد يكون أطيب مذاقاً، قد تجد فيه من النشوة أكثر مما تجد من ذلك في تعذيب هذه الذات الواحدة. قد يكون تعديد الذوات المعذبة تعديداً وتنويعاً وتضخيماً لنشوتك.

لماذا لا تجرب، فقد يكون تعديد الذوات المعذبة هو أجمل وأذكى وأشعر فنون التعذيب؟ لماذا لا تجرب، فقد تتفاوت الذوات التي توقع بها عذابك في منحها السعادة لك؟ قد يختلف مذاق السوط في يدك لاختلاف الظهور التي تتلقاه، وقد تختلف نشواتك الموسيقية لاختلاف الأنات التي يطلقها من توقع بهم الآلام. قد تكون الصرخات المتعددة المصادر والذوات أكثر إسعاداً أو تمجيداً أو تعظيماً لك.

لماذا يا أنا لا تمارس بعض الكرم أو بعض الرحمة أو بعض الذكاء؟ لماذا يا أنا؟

من أنت يا أنا؟ هل أنت أنا؟ هل يمكن أن تكون أنت أنا؟ إني أنا كائن مهادن مسالم، يبحث دائماً برغبة مرهقة ومذلة عن التوافق والتلاؤم والاتفاق مع كل الأشياء ومع كل الناس. إني كائن عاجز بالممارسة والإرادة والشهوة عن المخاصمة وعن القسوة وعن صناعة الألم وعن كل أساليب ومستويات المبارزات والعداوات والتحديات وعن كل فنون القتال والخلاف. إن أنا كائن لا يستطيع حمل السلاح أو السوط، بل لا يستطيع توزيعه أو رؤيته أو الغفران له. ولكنك أنت كائن مناقض لكل ذلك. إنك لست كائناً محارباً مبارزاً متحدياً رافضاً فقط، بل أنت أكثر جداً من ذلك، أنت مريد عاشق لكل ذلك. أنت مبتكر له، فنان فيه. أنت طاغية، دكتاتور. أنت أكثر من ذلك. أنت أقسى وأخطر.

أنت مجد لعبقرية الآلهة المتوحشة في وحشيتك. أنت في تعذيبك عزاء وقدوة ونموذج لها في تعذيبها.

أنت لا تحارب ولا تبارز ولا تتحدى ولا ترفض ـ أنت لست إلا حرباً وإلا مبارزة وإلا تحدياً وإلا رفضاً. أنت لا تحارب أو تبارز أو تتحدى أو ترفض بعض الأشياء أو بعض الناس، أنت تبارز وتحارب وتتحدى وترفض كل الأشياء وكل الناس. حتى الشموس ترفضها وتنكرها. حتى البطولات. حتى

البطولات والشموس.. أنت تفسرها حتى تتحول إلى نذالات وإلى ظلمات، إلى أكثر من ذلك عاراً وقبحاً.

أنت لا تحارب أو ترفض أخطاء الناس وأحزانهم، بل تحارب وترفض صواب الناس ومسراتهم. أنت تجد وترى عذاب الناس وهوانهم وهزائمهم وغباءهم وافتضاحهم وأحزانهم في صوابهم وفي مسراتهم وفي انتصاراتهم وفي ذكائهم، أي فيما يرونه ويعدونه كذلك.

أنت لا ترى الناس خطأ وصواباً، لذة وألماً ـ أنت تراهم أبداً خطأ وألماً، تراهم أبداً هزيمة وافتضاحاً. أنت لا ترى أن شيئاً يصلح أن يكون ثمناً لوجودهم، أو كفارة عن خطيئة وجودهم أو خطيئة إيجادهم. أنت لا ترى وجودهم خطيئة لأنه حتماً يصنع الخطايا. إنك ترى وجودهم خطيئة لأنه هو نفسه خطيئة. إن وجودهم خطيئة لكونه وجوداً أكثر من كونه خطيئة لأنه يصنع الخطايا.

أنت لا تحارب الناس، ولكنك تحارب الأشياء، تحارب الكون. أنت لا تحارب الكون أو ترفضه وجوداً أو موجوداً، أنت تحاربه وترفضه منطقاً وخيالاً، حافزاً وهدفاً. أنت ترفض الكون وتقاومه قصة ورواية وبلا صيغة وفي كل صيغة.

أنت ترفض الكون والآلهة وكل شيء من أجل الناس، غضباً لعذابهم وهوانهم ولورطاتهم، لحياتهم ولموتهم.

إنك لا تقاوم الكون أو ترفضه في أحد نماذجه، بل في كل نماذجه. إنك تراه في كل نماذجه مثلما تراه في بعض نماذجه. إنك لا ترفض الكون نماذج، بل ترفضه وجوداً وموجوداً. أنت تراه نموذجاً واحداً لأنك تراه منطقاً واحداً، ولأنك ترى منطق أي نموذج هو منطق كل نموذج، لأن في أي نموذج أخلاق كل نموذج.

أنت ترفض الكون منطقاً، لهذا أنت ترفضه كوناً. إنك ترفضه وجوداً وموجوداً لأنك ترفضه منطقاً وتفسيراً.

إن منطقه وتفسيره لا يختلفان أو يتفاوتان مهما اختلف وتفاوت وجوده وموجوداته.

إذن هل أنا أنت؟ هل يكون الشيء نقيض نفسه ـ هل أكون أنا هذا المحارب المبارز المتحدي الرافض؟ هل أكون أنا كل هذا الفارس الفنان في التحدي والقتال والمبارزة والرفض وفي الخلاف والتصادم والمخاصمة؟ هل أكون أنا كل هذا، هل يكون الشيء كل صفات نقيضه؟

إذن فهل أنت غيري ـ هل أنت كائن آخر ليس بيني وبينه من العلاقات أكثر أو أفضل مما بين العدو المحارب وعدوه المسالم، أو أكثر مما بين المكان والنازل فيه، أو مما بين الكائن المسالم لكل شيء الباحث عن التوافق مع كل شيء، المطيع لكل شيء، وبين الكائن المحارب لكل شيء الرافض لكل شيء، العاصي لكل شيء؟

أنت ترى الإنسان مظلوماً ومقهوراً ومأخوذاً منه وضالاً مخدوعاً مهما أخذ أو أعطى أو اهتدى أو

انتصر، ومهما جاء إليه الأنبياء والمعلمون والدعاة يحملون في أيديهم وأفواههم الألواح والتعاليم والآيات المنزلة. أنت الإنسان معذباً وحزيناً مهما غنى ورقص وصنع الشعر والموسيقى وأنشدهما وأستمع إليهما. إذن فهل أنت أنا؟

* *

يا أنا.. يا أنا.

إنك أقسى وأوقح وأعجب وأدوم عدوان أعاني منه وأجده وأتصوره. إنك العدوان المشروع الذي لا توجد ولن توجد أية قوانين أو أديان أو أخلاق أو تعاليم تحرمه أو تعاقبه أو تكفه أو تضعفه أو حتى تنهاه أو تعظ ضده. إنك العدوان الذي لا يتخلق له ضمير ولا نخوة أو شهامة أو وجدان زاجر. إنك العدوان الذي لا يستطيع أن يتهذب أو يتحضر أو أن تصوغه التقاليد أو الظروف الجيدة والمختلفة أية صياغة. إنك العدوان الذي لا يمكن أن توجه إليه تهمة العدوان.

إنك العدوان الذي لا تبعث إليه السماء بالأنبياء والتعاليم وبالكتب الرهيبة لتنصحه، أو لتلقنه الحلال والحرام وتفسر له معاني العدوان، أو لتهدده بالعذاب والجحيم، أو لتعرض عليه مباهج الجنة التي لن يستطيع أن يعمل لحسابها كجزاء لا بد أن يلقاه مهما آمن بوجودها - أو التي لا يجرؤ على أن يصدق وجودها، أو التي يخاف أن تكون موجودة مهما آمن بوجودها أو أعلن سروره بوجودها. وهل يوجد حقاً من يصدق بوجود جنة الأنبياء كما وصفها الأنبياء؟ وهل يوجد من لا يخاف من وجودها ودخولها وممارستها والعيش فيها؟ أليس الحديث عنها مثل الحديث عن الأساطير الرهيبة، لا تصدق ولا تراد أو تطاق مواجهتها مهما شاق الحديث عنها.

إنك العدوان الذي يسكن ذاتي، كل ذاتي، والذي لا يفارق أي مكان في ذاتي، والذي يقاتلني كل وقت، بكل الأسلحة، بكل الأساليب، دون أن أستطيع الإشارة إليه، ودون أن أستطيع مخاصمته أو مفارقته، ودون أن أريد مفارقته، ودون أن أطلب محاكمته أو معاقبته، أو أن أريد ذلك، ودون أن أكرهه، أو أن أريد له موتاً أو هزيمة أو ضعفاً.

إنك العدوان الذي لا يخاف أن يهزم أو يقاوم أو يرفض أو يكره أو يطرد.

إنك أعجب عدوان لأنك العدوان الذي لا يراه أحد ولا يعلم به أحد ولا يقاومه أحد ولا يعلم ضده أحد.

يا أنا، يا أقسى عدوان، وأوقح عدوان، وأقوى عدوان، وأدوم عدوان، وأعجب عدوان. أيها العدوان المشروع، أيها العدوان الذي لا يتهذب ولا يتحضر ولا يتخلق له ضمير ولا مشاعر رادعة أو واعظة.

أيها العدوان الذي لا توجد ضده قوانين أو تعاليم. أيها القاتل بلا قصاص، والمحارب بلا مقاومة،

والمعذب بلا إنقاذ أو محاولة للانقاذ. أيها المحارب بلا سلام وبلا هدنة، وبلا أية تقاليد من تقاليد المحاربين والمتحاربين.

أيها القاتل المحارب المعذب بلا استنكار وبلا قصاص وبلا مقاومة وبلا إنقاذ وبلا زجر أو تعاليم تنهاه أو تأمره. إن أفظع ما فيك يا أنا إنك مهما قسوت وفتكت واعتديت فلن تحاكم أو تعاقب أو تطرد أو يهرب منك. إنك الطغيان الذي لم توجد ولن توجد له مقاومة، بل ولن تراد أو تمكن مقاومته.

أيها الكائن الصغير الذي صنع طغياناً كبيراً..

يا أنا، يا أنا.

يا كلمة صغيرة تعني وجوداً صغيراً، تعني وجوداً صغيراً يعني وجوده الصغير كل الوجود الكبير، ويعني كل ما ليس وجوداً. إنك يا أنا لتتحول إلى وجود لن يكون وجوداً أو موجوداً لكي أقاسي منه.

يا كلمة صغيرة تعني كل العذاب الموجود، وكل العذاب الذي ليس موجوداً، وكل العذاب الذي لن يكون موجوداً. إنك يا أنا لتتحول إلى عذاب لي ليس موجوداً، ولن يكون موجوداً.

إنك لتعذبني بعذاب لم يتحول ولن يتحول إلى عذاب لأحد بل لم يصبح ولن يصبح منطق أو وسيلة أو أسلوب عذاب لأي شيء أو لأي أحد. بعذاب لن يجد فيه أحد عذاباً أو منطق عذاب.

يا كلمة صغيرة تعني وجوداً صغيراً.. يا كلمة صغيرة تعني تفسيراً كبيراً.

يا أنا، يا أنا..

يا كلمة صغيرة تعني عذاباً كبيراً. يا وجوداً صغيراً قد صنع طغياناً كبيراً.

يا أنا.

أيها الوحش الذي أرفض موته، وأرفض هزيمته، وأرفض فراقه. أيها الوحش الذي لا يفترس سوى ذاته، سواي. أيها الوحش في ممارسته لذاته، والملاك الوديع في ممارسته لعلاقته بكل أحد، وبكل شيء.

أيها الوحش في معاملته لنفسه، والملاك الطيب في معاملته لكل الوحوش وفي مشاعره إزاء كل الوحوش. يا أنا، يا أنا. يا أضعف وأطيب كائن في عضلاته وضرباته. ويا أقوى وأشرس وأفتك كائن في تحديقاته واحتجاجاته. يا أشمل وأدوم حرب داخل ذاتي. ويا أشمل وأدوم سلاح خارج ذاتي..

يا أنا، يا أنا..

أيها الوحش الملاك.. أيها الأنياب المصوبة إلى الداخل، إلى نفسها.. المصوبة إلي أنا.

يا كل أعدائي، يا كل أصدقائي. يا أنا.

يا كلمة صغيرة تعني عذاباً كبيراً، ويا وجوداً صغيراً يعيش فيه كل الوجود الكبير الأليم.

سبّ الشيطان عزاء لأحزان القديسين

«.. إن ذنب السباب أو القتال بالكلام ليس فقط في أنه بذاءة ونذالة وشيء لا ينفع ولا يقتل أو يهزم. إن ذنبه أكبر كثيرا من ذلك. إنه عملية تفريغ لذات الإنسان من نفسه. إنه عملية تفريغ باهظة وخاسرة ولئيمة. إن السباب صرف لذات الإنسان إلى عملات زائفة إنه عملية استفراغ للحماس والغضب وللطاقة النفسية. إن السباب ليس فقط عدواناً أو بذاءة على المسبوب ولكنه أيضاً سرقة للساب أو من الساب: إنه سرقة لاحتمالاته الجيدة. وأيهما المظلوم أكثر: الساب أم المسبوب؟ هل أنت تعرف ماذا تصنع حينما تسب»؟

«.. إنني ما سمعت زعيماً أو حاكماً أو نبياً أو خطيباً أو كاتباً يلعن الأعداء والأشرار، أو يلعن الأبالسة والآلام إلا تمنيت أن أصيح في وجهه لأقول له: ألا مهلاً أيها اللاعن الكبير.. أيها المحول لطاقاته ولطاقات جماهيره إلى تقايؤ لكي تتقأياه على أخلاقك وعلى دينك ومذهبك وإلهك وعلى أخلاق جماهيرك وعلى أديانهم ومذاهبهم وآلهتهم.. ألا مهلاً أيها اللاعن العظيم أنت لا تدري أنك لا تقاتل ولا تهزم ولا تضعف ولا تضرب عدواً. إنك لا تفعل إلا أن تفجر أسلحتك وأسلحة جماهيرك داخل ذاتك وداخل ذوات جماهيرك. إنك لا تفعل إلا أن تبدد طاقاتك وغضبك وحماسك، وطاقات وحماس وغضب جماهيرك تبديداً بليداً بذيئاً. إن السباب والصلاة والدعاء والبكاء محاولات لإسكات الغضب والاحتجاج من الدمامات والآلام والمظالم والأخطاء، وللتعجيز عن رؤيتها وعن الإصرار على مقاومتها..».

الحقد والغضب والغيظ والحنق والصراخ والبكاء تفاسير ومظاهر لطاقات الحياة، أو تعبيرات عنها، أو تحويل لها، أو احتجاج على العدوان الذي يقع عليها. إن كل ذلك أساليب مختلفة وضالة ورديئة من أساليب توزيع الحياة العاجزة أو المهزومة أو المصدومة أو الأليمة. وكل حياة لا بد أن تعاني شيئاً من ذلك، لهذا فكل حياة لا بد أن تحتاج إلى شيء من هذه الأساليب الضالة.

إنه لا بد من تحويل طاقات الحياة إلى تعبير أو إلى أسلوب ما. إنها لا تستطيع أن تظل طاقات كما لا تريد ذلك. إنها لا بد أن تخرج نفسها أي إخراج كيفما كانت صيغة هذا الإخراج الذي لا يمكن أن يتحدد في صيغة أو صورة واحدة محددة.

إن كل إنسان لا بد أن يتحول إلى مخرج لطاقات حياته. إن كل الناس لا بد أن يتحولوا إلى مخرجين حتى الذين لا يعرفون شيئاً من فنون الإخراج.

إن الاختلاف دائم وكبير ومثير في الأساليب والصيغ العديدة والمتفاوتة التي يعبر بها عن هذه الطاقات، أو التي تحول إليها هذه الطاقات وتتحول إليها. إنه لا حدود ولا قانون لاختلاف الناس وتفاوتهم في مستويات فنونهم وقدرتهم على إخراجهم لأنفسهم ولطاقات الحياة فيهم.

إنه لا يوجد أسلوب إنساني أو دولي واحد يتعامل به كل الناس على حسابات حياتهم أو مع طاقات حياتهم، أو يحولون إليه طاقات حياتهم.

إنه لا يوجد أسلوب واحد ليكون هو الأسلوب الدولي أو الإنساني أو المقرر أو المعترف به ليعبر عن الحياة وعن طاقاتها، وعن احتياجاتها واحتجاجاتها، وعن هزائمها، وعن بكائها وصراخها توجعاً من هزائمها أو بحثاً عن هزائمها أو صنعاً لهزائمها أو خوفاً من هزائمها أو إخفاء لهزائمها.

إنه شيء واحد في كل منطقه وتفاسيره ومادته واحتياجاته وقوانينه، ولكن التعبير عنه يجيء عديداً ومختلفاً ومتفاوتاً بل ومتضاداً متناقضاً.

إن الهزيمة أو الغضب أو الخوف أو الألم أو الحزن ليعبر عنه بشتى التعبيرات المتضادة والمتناقضة مع أنه شيء واحد.

إن ذاتك مثل ذات الإنسان الآخر في منطقها وتفسيرها وفي احتياجاتها وقوانينها وفي مادتها ـ وإن ما في ذاتك مثل ما في ذات الإنسان الآخر من جوع ولهفة وحاجة وإرادة وخوف وطاقة وتواضع وكبرياء وأنانية. ولكن كم تختلف التعبيرات عن ذلك، أو كم تختلفان أو تختلف ذاتاكما أو ما في ذاتيكما في عمليات الإخراج والتعبير عن الشيء الواحد، أو عن الأشياء العديدة المتماثلة أو المتشابهة أو المتقاربة، إن ذاتيكما لا تختلفان في تعبيراتهما بقدر اختلاف مواهبهما.

كما أن ذاتك الواحدة لا تختلف تعبيراتها عن الشيء الواحد أو عن الأشياء المتعددة بقدر اختلاف مواهبها.

وإن لك لذاتاً واحدة، وإن ذاتك الواحدة لتحكمها طبيعة واحدة خالدة. ولكن كم تعبر هذه الذات الواحدة عن الطبيعة الواحدة بالشيء وبالشيء الآخر المخالف جداً، بل بالشيء وبنقيضه.

إنه لا شيء يستطيع أن يجعل الذات الواحدة أو الطبيعة الإنسانية الواحدة تعبر عن الشيء الواحد تعبيراً واحداً.

إنه لشيء مستحيل أبداً أن تعبر الذات الواحدة عن الشيء الواحد تعبيراً واحداً دائماً.

إنه لا شيء يتناقض ويتضاد ويتفاوت جداً في تعبيراته عن نفسه مثل الإنسان، أو مثل حياة الإنسان، أو مثل الطاقة الإنسانية، أو مثل الاحتياجات والاحتجاجات الإنسانية. إنه لا شيء يختلف جداً في تعبيره عن الشيء الواحد مثل الإنسان.

إن الذي يصلي والذي يمارس أفجر الفجور، والذي يؤمن، والذي يلحد، والذي يطيع، والذي يعصي، والذي يقدم حتى الموت، والذي يهرب بلا أية مقاومة، والذي يحب، والذي يكره، والذي يذم، والذي يمدح، والذي يرى جمالاً، والذي يرى دمامة، في الشيء الواحد، أو الموقف الواحد، أو في المنظر الواحد.

إن هؤلاء جميعاً إنما يعبرون جميعاً عن طبيعة واحدة، وطاقة واحدة وعن ضرورة واحدة، وعن إرادة واحدة ونية واحدة، وعن منطق واحد.

إن هؤلاء إنما يعبرون جميعاً عن ورطة واحدة وعن قيمة واحدة. إنهم جميعاً تفسير لمعنى واحد.

إن الذي يصلي إنما هو إنسان يحتج على الصلاة بأسلوب آخر، وإن الذي يحتج على الصلاة ليس إلا إنساناً يصلي بلغة أخرى.

كثيرون هم أولئك الذين يسيئون جداً في اختيارهم لصرف حياتهم وللتعبير عن طاقاتهم ولإخراج هذه الطاقات، ولتحويلها وتوزيعها.

كثيرون هم أولئك الذين يتحولون إلى أردأ وأغبى مخرجين لحياتهم ولطاقاتهم بل هل في البشر من لا يخرج نفسه إخراجاً رديئاً أو بليداً أو مدمراً أو بذيئاً ولو أحياناً؟

إنهم كثيرون أولئك الذين يحولون طاقات حياتهم إلى أديان ومذاهب وصلوات وتعاليم وإلى أعمال شاقة ومتنوعة من الشتائم واللعنات والاتهام والوعيد والتحقير الذي يتحول وتتحول الرغبة فيه أحياناً أو دائماً إلى أديان ومذاهب وإلى أنبياء ومعلمين، ينصبون فوق منابر التاريخ وفي محاريبه الخالدة الباهظة التكاليف والحماقات. فوق كل مجد التاريخ.

إن أقوى الأديان والمذاهب قد تكون أساليب مختلفة من أساليب السباب ومن نياته ومن التعامل به. قد تكون الرغبة في السباب هي التي أعطت وصاغت أكبر الأديان والمذاهب، وهي التي صنعت أعظم الأنبياء والزعماء وأوحت إليهم بأن يجيئوا وبأن يجيئوا كما جاءوا، وبأن يكونوا أنبياء وزعماء، وبأن زعامتهم ونبواتهم كما كانت.

قد تكون الرغبة في السباب التي هي أحد التعبيرات الرديئة والأليمة والعاجزة عن طاقات الحياة وعن احتياجاتها واحتجاجاتها المرفوضة أو المفجوعة أو المهزومة أو المزجورة أو الخائفة ـ قد تكون هذه الرغبة هي المفسر الدائم لمجيء الأنبياء والمعلمين والزعماء، والمفسر الدائم لأخلاقهم ولتعاليمهم ولمذاهبهم ولأديانهم ولنياتهم ولغيرتهم الغاضبة الشاتمة المخاصمة.

كيف يمكن أن تجيء الأديان والمذاهب والتعاليم، أو أن يجيء الأنبياء والزعماء والمعلمون لولا الرغبة في السباب، ولولا نياته، ولولا محاولة التعبير عنه. ولولا الظروف والمشاعر التي أوحت به وصاغته وجعلته أحد الأساليب التي تتداوى بها الحياة من همومها وآلامها وهزائمها وورطاتها، والتي تفرغ بها الحياة نفسها من شحناتها وطاقاتها المحتاجة أبداً إلى التفريغ، والباحثة أبداً عن أساليب التفريغ، والمبتكرة أبداً لهذه الأساليب المفرغة أو المفرغ فيها أو المفرغ إليها أو المفرغ بها؟

كيف يمكن أن يتقبل الأنبياء والزعماء والمعلمون حياتهم أو يسعدوا بها لولا ممارساتهم للشتائم والأحقاد والاتهامات والوعيد؟

لقد كان ممكناً ـ ولو نظرياً ـ أن تحول جميع طاقات الحياة واحتجاجاتها إلى أساليب أخرى كبيرة أو نظيفة أو كريمة أو ذكية أو متوقرة لو لم تحول إلى الأساليب الأخرى القبيحة البذيئة الهمجية، أي لو لم تصرف هذه الطاقات إلى تفريغها في الشتائم وفي التعبيرات الأخرى التي هي تفسيرات ونيات للشتائم، أو التي الشتائم تفسيرات ونيات لها.

نعم، لقد كان ذلك ممكناً نظرياً، نظرياً فقط. أي إذا كان الممكن النظري يكون خروجاً على ما لا بد أن يكون واقعاً.

وهل يوجد من يستطيعون أن يستغنوا عن استهلاك حياتهم وطاقاتها، أو عن استهلاك بعض حياتهم وبعض طاقاتها هذا الاستهلاك البذيء الهمجي؟ هل يوجد من يستطيعون ألا ينفقوا شيئاً من

حياتهم في السباب والحقد والبغض والاتهام للآخرين وللأشياء، وفي لعنهم ولعنها؟ هل وجد أحد من هؤلاء، أو هل يمكن أن يوجد أحد منهم؟ لعل الحياة قد ابتكرت السباب والحقد والتوعد والاتهام لتدافع بذلك عن نفسها، لتغطي به قبحها وعبثها وتفاهاتها ودماماتها، لتشغل عن رؤية ذلك، لتصبح محتملة أو مقبولة أو مغفورة. لعل ابتكارها هذا من أعظم وأنفع وأذكى الابتكارات.

* *

إن الطبيعة لتظلمنا، وإن الأعداء ليفعلون بنا ذلك، فنذهب نبكي ونتألم ونعاني من الشعور بالظلم والهوان والتحقير، أو قد نفعل ذلك أو يفعله بعضنا، أو يفرض أن نفعله. وحينئذٍ قد نجد أن في داخلنا تمرداً أو تفجراً، أو أسلحة تريد أن تنطلق، أو أن في داخلنا جيوشاً غاضبة مستثارة تريد أن تحارب وتعاقب وتقاوم وتنتصر.. جيوشاً فيها كبرياء وجنون وغضب. والجيوش داخل النفس هي التي تصنع حرية الإنسان وقوته وانتصاراته.. أما الجيوش داخل الميدان فإنها تصنع خرابه وموته وأحزانه وهزائمه لتصنع أقبح وأوقح المجد والانتصارات لطغاته ولمجانينه ولقتلته عليه وعلى معاني الذكاء والكبرياء والشجاعة فيه.

ولكننا نذهب بذكاء، وقد يقال بغباء، وقد يقال بلا ذكاء ولا غباء، بل بهزيمة وبهرب وهوان أصيل، أو بانتصار وإقدام وكبرياء.

نعم، ولكننا نذهب نسرب هذا التمرد والتفجر، ونطلق هذه الأسلحة الباحثة عن الأهداف المعادية ونفجرها بلا أهداف، نفجرها داخل أنفسنا، أو نفسد ذخيرتها، أو نبطل أجهزة التفجير والتسديد فيها. كما نذهب نجرد تلك الجيوش الغاضبة المستثارة من غضبها واستثارتها ومن كبريائها، بل نذهب نعلمها الرضا والهوان وتقبل جميع الهزائم والمظالم والعدوان. بل نذهب نقاتلها ونطاردها ونجردها من جميع أسلحتها. وهل يوجد من لا يذهبون يفعلون ذلك؟ هل يمكن أن يوجد إنسان يستطيع ألا يذهب يفعل ذلك؟

إننا نذهب بكل حماس وتهيج وتوقح بذيء نوقع بالأحداث غير الملائمة لنا، وبالأعداء أقوى اللعنات والاتهامات والشتائم وأقوى أساليب التهديد والوعيد والتحقير. إننا نذهب نريق كل قطرات أنفسنا في بلاغة دينية أو مذهبية أو أخلاقية أو إنسانية من السباب المختار الأنيق، من السباب المعلم المنزل، من السباب المنزل على الأنبياء والقديسين، الذي يعلمه الأنبياء والمعلمون للمذاهب والنظم، والذي تعلمه الهزيمة والضعف وإرادة الهرب أكثر وأقوى مما يعلمه الأنبياء والزعماء والمعلمون للمذاهب والأخلاق. لقد اختلف المعلمون ولا يزالون يختلفون في تعاليمهم وفيما يعلمون. ولكن شيئاً واحداً لم يختلفوا فيه. لم يختلفوا في تعليمهم للسباب والحقد وفي تعاملهم بهما.

وهل يستطيع الزعماء أو الأنبياء أو المعلمون أن يعلمونا إلا ما نريد أن نعلمه لأنفسنا؟ ومن الذين علموا الزعماء والأنبياء وسائر المعلمين أديانهم ومذاهبهم ونظمهم؟ أليسوا هم الذين علموا أنفسهم، أو نحن الذين علمناهم كل ذلك ووضعنا لهم كل صيغه وتفاسيره وقيمه وممارساته؟

من الذي يعلم النبي أو المعلم نبوته أو تعاليمه؟ هل هي الطبيعة أم ذاته أم السوق أم السماء أم كل ذلك؟ هل الأنبياء والمعلمون يعلمون الجماهير بذاءاتها وضعفها ومشاعرها الهمجية أم هم يعلمونها لغة ذلك فقط؟ هل هم معلمو لغات أم معلمو أخلاق؟

إننا حينئذٍ قد نشعر أننا قد قاتلنا وناضلنا وانتصرنا واسترحنا، لأننا قد قتلنا وأسكتنا وهزمنا وحطمنا في داخلنا ذلك التمرد والتفجر، وتلك الأسلحة والجيوش الغاضبة المستثارة. لأننا قد تفجرنا شتائم فوق أعراض الأعداء وفوق رؤوسهم وتحصيناتهم، وفي وجه الطبيعة التي لا تستطيع أن تتهذب أو تتحضر. ما أروع الشتائم. إنها من أجمل الفنون الإنسانية، ولعلها أجمل الفنون. إنها إحدى مزايا الإنسان الكبرى. إنها إحدى مزايا الأنبياء والقديسين والزعماء.

لقد تفجرنا، لقد خرجنا من أنفسنا، لقد هزمناها. لقد فرغنا من ذواتنا. لقد فرغنا ذواتنا من تمردها وتفجرها ومن أسلحتها ومن جيوشها. وما أروع تفريغ ذواتنا من جميع أدوات القتال فيها. لقد جردنا عقولنا ومشاعرنا وأخلاقنا وتعاليمنا من كل أسباب وأسلحة المقاومة. لقد أصبحنا ميداناً كبيراً للهزائم ذات الأحجام والأوزان والأنواع المختلفة. لقد أصبحت نفوسنا مقابر بليدة صامتة لكل ما فينا من احتمالات المقاومة والغضب والاحتجاج.

إن الشتائم واللعنات سلاح قاتل أو مذل أو مفجر أو مضلل أو مضعف لأسلحة المقاومة النفسية. إن الشتائم واللعنات عملية تفريغ عالية لطاقات النفس. إن الشتائم ليست عمليات تفريغ للنفس فقط. إنها أكثر جداً من ذلك. إنها صلاة روحية تصليها آلام الإنسان وهزائمه لآلامه وهزائمه.

إن الزعماء والأنبياء والحكام والكتّاب والخطباء ليذهبون يحرقون سخطهم واحتجاجاتهم وسخط مجتمعاتهم واحتجاجاتها. إنهم ليذهبون يحولون ذلك إلى رماد ودخان وموت وهزائم وبذاءات. إنهم ليذهبون يحولونه إلى لعنات وشتائم مختارة، وإلى وعيد وتحقير واتهام، يوزعونه على كل الجبهات، وعلى كل الأعداء والمتفوقين، وعلى كل الأبالسة الكرام. نعم، الأبالسة الكرام. وهل يوجد أكرم أو أنبل من الأبالسة لصبرهم العظيم على كل ما يقال فيهم؟ أواه. هل يوجد أكرم أو أطهر نفوساً أو نيات أو سلوكاً أو احتياجاً أو أفكاراً من الأبالسة؟

هل وجد أو يوجد بين البشر، بين أنبيائهم أو بين زعمائهم وقادتهم، أو بين حكمائهم وأتقيائهم وفلاسفتهم من يصبرون أو يغفرون أو يتحملون مثلما تفعل الأبالسة؟

كل إعجابي واحترامي لكم أيها الأبالسة. كل احترامي وإعجابي بأخلاقكم وبوقاركم وبتقواكم. كل حيائي منكم أيها الأبالسة.

نعم، هل يوجد من يشبه الأبالسة في شهامتهم وصبرهم وغفرانهم وتحملهم وتقواهم؟ هل يوجد معتد وشاتم مثل الأنبياء والزعماء والمعلمين؟ وهل يوجد معتدى عليه ومشتوم مثل الأبالسة مع صبرهم وغفرانهم وتحملهم العظيم؟ هل يوجد متدينون مثل تدين الأبالسة؟

هل يوجد من يستطيعون أن يعلموا البشر الصبر والشهامة والغفران والتدين والكرم الأخلاقي مثل الأبالسة؟ هل يوجد مثل الأبالسة في التقوى والقداسة والفداء والصفح والطهارة؟ كيف لم يتعلم الأنبياء والقديسون من الأبالسة الجمال النفسي والأخلاقي واللغوي والصبر الجميل والنظافة؟

ليت أتقياء البشر وقديسيهم يتعلمون من الأبالسة معاني التقوى والقداسة والحب والتسامح والتسامي بكل معانيه. ليت آلهة البشر تتعلم كل معانيها من معاني الأبالسة.. ليت آلهة البشر وأنبياءهم وقديسيهم يتعلمون من أبالستهم كل معاني التقوى. ليتهم يتعلمون منهم كبرياء الغفران. هل غار البشر من الأبالسة واستصغروا أنفسهم محاسبة بهم واستصعبوا الاقتداء بهم فلم يحاولوا أن يتعلموا منهم فذهبوا يعاقبونهم بالشتائم والاتهامات وبالإلقاء عليهم؟

ليت الأبالسة ينشئون معاهد لتعليم الإنسان سمو الأخلاق وسماحتها. ليت الأبالسة ينشئون معاهد ليعلموا البشر سمو التقوى الدينية والمذهبية والقومية والوطنية. ليتهم يفعلون ذلك ليقتلوا في البشر وحشية الحقد والانتقام والغضب للذات ـ ليقتلوا فيهم عبادة الذات. الأبالسة يصنعون للإنسان اللذات ويهيئونها له ويحرضونه عليها دون أن يفعلوها هم. إذن هل يوجد أنبل أو أتقى منهم؟

إن أولئك الزعماء والأنبياء والحكام والخطباء والكتاب الذين يذهبون يحولون سخطهم وسخط مجتمعاتهم إلى شتائم ولعنات مختارة ـ إن أولئك ليذهبون حينئذٍ يحسون بالشفاء والراحة والنشوة والابتهاج وبكل مشاعر الانتصار.

إنهم حتماً يبحثون عن ذلك حتى وإن لم يفطنوا أو يدبروا أو يبلغوا ما يبحثون عنه.

لقد أحرقوا جميع آلامهم وغضبهم واحتجاجاتهم النفسية والعقلية والدينية والمذهبية والأخلاقية. لقد شفوا من كل ما يعانون ويواجهون ويرون ويعلنون. ولقد شفوا أيضاً جماهيرهم من كل ما تعاني وتواجه وترى وتعلم. وهل يمكن الشفاء من ذلك؟ نعم، لقد حاولوا ذلك، أو أن المفروض أنهم قد حاولوه. ولكن هل بلغوا ما حاولوا؟

ما أصعب الشفاء مما يواجه ويرى ويعلم ويعاني. هل يوجد من يمكن أن يشفى من كل آلام مواجهته ورؤيته ومعرفته ومعاناته؟ هل يمكن أن تواجه أو أن ترى أو أن تعرف وتعلم دون أن يعذبك ما تواجه وما ترى وما تعرف وتعلم؟ إن عليك إذن ألا تواجه أو ترى أو تعرف.

لقد كان مجيء الأنبياء والمعلمين والزعماء والوعاظ في جميع العصور لحماية الإنسان من المواجهة والرؤية والمعرفة والمعاناة، أي لقد جاءوا لكي يجعلوه لا يستطيع أن يواجه أو يرى أو يعرف، أي لكيلا يعاني ويتألم. لأن المواجهة والرؤية والمعرفة لا بد أن تصنع كل الآلام والمعاناة. إنها لا بد أن تصنع الغضب والرفض والاستنكار والاحتجاج. إن ما يواجه ويرى ويعرف ويعاني لا يمكن تسويغه أو غفرانه أو تفسيره بأي منطق أو بأي مستوى أخلاقي. لهذا يجيء الأنبياء والزعماء والمعلمون والوعاظ ليجعلوا هذا الذي لا يمكن ممكناً بل واقعاً ـ ليجعلوا ما لا يقبل مقبولاً، بل ليجعلوه مشكوراً ومعبوداً، بل

ليجعلوه وحده المشكور المعبود المعقول المقبول. إن أي نبي أو زعيم أو معلم أو واعظ لن يكون إلا تزويراً للأشياء في منطق الإنسان وفي أخلاقه وفي رؤاه وتفاسيره..

إنهم يجيئون ليكونوا دفاعاً عن الذنوب والأخطاء والعبث والمظالم والدمامات والتشوهات والغباوات، ليكونوا غطاء وتسويغاً وتفسيراً لها، ليكونوا محاباة لها ضد عقل الإنسان ومنطقه، وضد أخلاقه وضميره وعينيه. إنهم لا يجيئون ليقتلوا بتعاليمهم وعظاتهم المظالم والدمامات والبلادات والآلام والذنوب بل ليغفروها وليقتلوا الغضب عليها.

إنهم يجيئون ليقاتلوا الإنسان دفاعاً عن كل القبح والعبث والجنون والدمامات والبلادات والآلام.

إن شتائمهم ولعناتهم، وإن تحويلهم للشتائم واللعنات إلى أديان ومذاهب وأخلاق أو إلى لغات للأديان والمذاهب والأخلاق - إن هذا وهذا أسلوبان من أساليبهم العالمية في دفاعهم عن الذنوب والأخطاء والعبث والمظالم والدمامات والتشوهات والبلادات، وفي تسويغها وتفسيرها ومحاباتها ووضع الأغطية عليها لئلا تنكرها العيون أو العقول أو الأخلاق أو الضمائر أو التقوى الإنسانية. إن التقوى الدينية لا تعني أو لا يعنى بها إلا قتل التقوى الإنسانية. إن التقي دينياً لن يكون تقياً إنسانياً. إننا بقدر ما نتدين نحابي أعداء الإنسان على حساب الإنسان.

إن جميع الأنبياء والقادة والزعماء والقديسين والمعلمين في جميع العصور ليسوا إلا أجهزة محاباة للطبيعة أو للآلهة على حساب الإنسان - على حساب ذكائه وضميره وأخلاقه وعينيه، وعلى حساب حريته وكرامته وخلاصه وكبريائه ورفضه واستنكاره وعصيانه. وإنهم ليجيئون أساليب وصيغاً ومستويات مختلفة في التعبير عن هذه المحاباة وفي الأداء لها. وإن تفريغهم لطاقات الإنسان ولمشاعره ضد آلامه وأحزانه وهزائمه ومظالمه بتحويلها إلى سباب ولعنات لهو أحد أساليبهم في الأداء لهذه المحاباة وفي التعبير عنها. لقد قصدوا هذا التفريغ والتحويل، أو لقد فعلوهما دون أن يقصدوهما.

إن الأحرى أنهم فعلوهما دون أن يعرفوهما أو يقصدوهما. إن الإنسان وكذا كل شيء يفعل بالحركة أكثر وأقوى وأحياناً أذكى مما يفعل بالتدبير والقصد. إن الحياة والأشياء حركة لا تدبير ولا قصد حتى في تدبيرها وقصدها هي حركة وليست تدبيراً أو قصداً.

نعم وإنه ليس ذنب السباب أو القتل بالكلام أنه فقط بذاءة وضآلة وشيء لا يجدي. إن ذنبه أكبر من ذلك كثيراً. نعم، إنه ليس هذا فقط هو ذنب السباب والقتال بالكلام. إن للسباب وللقتال بالكلام لذنوباً أخرى كثيرة وكبيرة. إن ذنوب ذلك لا تحصى بأي أسلوب من أساليب الإحصاء.

أجل، إن السباب أو القتال بالكلام عملية تفريغ لذات الإنسان من نفسه. إنها عملية تفريغ باهظة وخاسرة. إن السباب صرف لذات الإنسان إلى عملات زائفة. إن السباب ليس عدواناً فقط على المسبوب بل وسرقة للساب. أيهما المظلوم أكثر: الساب أم المسبوب؟

إن الذين يحولون مشاعرهم المتوقدة الأليمة المظلومة المشحونة بالغضب والرفض والاحتجاج - إن

الذين يحولون مشاعرهم هذه إلى كلام جارح محقر لاعن ليسوا إلا قوماً يفرغون ذواتهم من طاقاتهم، من أسلحتها القتالية. إنهم يفجرون أنفسهم وأسلحتهم تفجيراً سخيفاً بليداً. إن تفريغ الذوات من طاقاتها ومن أسلحتها وتفجيرها في الفضاء فن قديم وخالد وعالمي من فنون الإنسان.

إنك إذا بالغت وأطلت في سب خصمك فلا بد أن تضعف رغبتك في مقاومته أو في قتله أو في هزيمته. وإنك إذا قتلته أو هزمته أو قاومته بانتصار وبسالة فلا بد أن تموت أو تضعف رغبتك في سبه وفي تحقيره وفي التوعد له. أليس المفروض أن الضعيف والمهزوم أكثر من القوي ومن المنتصر رغبة في سب الخصم أو العدو وفي الحقد عليه؟

إن هذه هي الافتراضات أو التفاسير المفهومة والصحيحة التي قد تتغير. إنها قد تتغير، فالإنسان مهما فسر، أو أمكن تفسيره فإنه يظل مع ذلك شيئاً يصعب تفسيره، أو شيئاً لم يفسر، أو يحتاج إلى تفسير، أو يخطأ في تفسيره، أو يختلف في تفسيره.

إن الإنسان لا يفسر بالسهولة أو بالضبط أو بالمنطق أو بالقوانين التي تفسر بها الأشياء. إنه أصعب من الأشياء في تفسيره لأنه أصعب منها في تكوينه وفي قوانينه. إن الإنسان هو أصعب الأشياء تفسيراً لأنه هو وحده التفسير لكل الأشياء.

إنها طاقة واحدة، أو طبيعة واحدة، أو حاجة واحدة. أو ذات واحدة، أو انفعالات واحتشادات واحتجاجات واحدة، فأما أن تحول إلى قتال بالكلام، أي إلى شتائم ولعنات، أو تحول إلى سلوك قوي، إلى مقاومة قتالية. أما تحويلها إلى الأسلوبين معاً بنفس القوة والحماس دون عدوان على أحدهما أو أخذ منه أو انتقاص أو إضعاف له فهذا هو الشيء الذي يحتاج إلى أن يفهم ويفسر بمنطق جديد، أو إلى أن يفهم ويفسر بلا أي منطق.

إن هذا يشبه أن تطلق أو تفجر ذخيرة السلاح الواحدة مرتين في اتجاهين. إن هذا يشبه أن تطلق الرصاصة الواحدة على هدفين متباعدين، أو في اتجاهين مختلفين في وقت واحد. إن معنى هذا أن لطاقة النفسية لا تستنفد أو تنقص بالاستعمال أو أن التعبير عنها ليس وسيلة استنفاد أو استهلاك. إذن لماذا جاءت الصلوات والتضرعات والصراخ والبكاء والكلام والأنين؟

إني ما سمعت زعيماً أو حاكماً أو كاتباً أو خطيباً أو نبياً يلعن الأعداء والأشرار والخصوم، أو يلعن الأبالسة والآلام والخطايا إلا صحت في وجهه دون أن أنطق أو أسمع صوتي أو يسمع هو صوتي:

ألا مهلاً أيها اللاعن الكبير الجليل.. إلا مهلاً أيها المحول لطاقاته ولطاقات جماهيره إلى تقايؤ، لكي تقيئه على أخلاقك وعلى أخلاق جماهيرك.

ألا مهلاً أيها اللاعن الجليل. أنت لا تدري أنك لا تقاتل أو تهزم أو تضعف أو تضرب عدواً. إنك لا تفعل إلا أن تفجر أسلحتك وأسلحة جماهيرك داخل ذاتك وداخل ذوات جماهيرك، وإلا أن تبذر طاقاتك وطاقات جماهيرك تبذيراً هداماً بليداً. إن القائد الشتام المعلم لجماهيره الشتائم المحول لها إلى

شتامة ليس إلا قائداً يحطم السلاح في أيدي جنوده ويسحب القوة من عضلاتهم ويفرغها من احتمالاتها الجيدة.

إنك أيها اللاعن الكبير لتحابي الأبالسة والأشرار والأعداء والفاسدين، وتحابي أيضاً الآلام والخطايا ـ إنك لتحابي هؤلاء وهذه، وتبحث عما يجعلك عاجزاً عن مقاومتهم ومقاومتها، أو راغباً عن هذه المقاومة، مصروفاً عنها، فاقداً لأسلحتها وأسلحة الانتصار فيها.

إنك أيها اللاعن الكبير الجليل لتفعل ذلك حينما تذهب تلعن وتتوعد وتحقر. إنك لتحابي من تشتم وتهدد لأنك بذلك تضعف أو تقتل قوة غضبك عليه ومقاومتك له.

إنك إذن لجندي نافع جداً من جنود الأعداء والأشرار والفاسدين ومن جنود الأبالسة لأنك تحطم السلاح الذي قد يوجه ضدهم أو تعطل أجهزة الإطلاق والتسديد فيه، أو تفسد ذخيرته، أو تطلقه داخل ذاتك وذوات جماهيرك بدل أن تطلقه عليهم أي على الأعداء والأشرار والفاسدين والأبالسة. بل إنك بذلك لتحابي الطبيعة، لأنك بالسباب تفرغ أو تضعف غضبك على أخطائها ومظالمها وعبثها، ورغبتك في تصحيحها وتغييرها، وإحساسك بقبحها..

إنك إذن لجندي مضاد لنفسك ولجماهيرك أيها الزعيم الشاتم أو الحاكم الشاتم أو الكاتب الشاتم أو الخطيب الشاتم أو النبي الشاتم ـ الشاتم للأعداء، أو للأشرار والفاسدين، أو للأبالسة، أو للآلام والخطايا. إن القادة والزعماء والأنبياء والكتاب والخطباء الذين يذهبون يسرفون في الشتائم واللعنات ليسوا إلا جنوداً يقاتلون تحت راية الأعداء. إنهم جنود يطلقون أسلحتهم على الصفوف التي يقفون فيها.

إنه لو تحتم علينا أن ننصح حاكماً أو طاغياً أو زوجاً أو والداً أو أي إنسان غاضب مستثار، لنصرفه عن الانتقام أو عن العدوان بالضرب أو القتل أو بأي أسلوب آخر عنيف، لكان من الصواب والذكاء، بل لكان من الواجب أن ننصحه بأن يشتم، ويشتم، ويشتم، وأن يتوعد ويحقر بكل أساليب الشتم والتحقير والتوعد.

.. لنصحناه أن يخطب بهياج وفصاحة وبغضب وتوتر ضد ذلك الذي استثاره..

إنه لواجب حينئذٍ أن ننصحه هذه النصيحة لكي يريق جميع قطرات غضبه وهياجه، محولاً هياجه وغضبه إلى كلمات شنيعة فضاحة، ولكنها غير قاتلة أو جارحة أو ضارة. إن الكلمات الشنيعة الفضاحة البذيئة العدوانية هي أرحم وأنبل الكلمات لأنها أبعد الكلمات عن أن تكون قاتلة أو جارحة أو ضاربة، ولأنها أقدر الكلمات على تفريغ السلاح من رصاصاته.

إذن أيها الزعماء والحكام والكتاب والوعاظ والخطباء والأنبياء.. إذن أيها الناس جميعاً. لا تسبوا الأعداء، ولا الأشرار والفاسدين، ولا الأبالسة، ولا الطغاة، ولا الظلمة، ولا الأحداث الأليمة ـ لا

تسبوا شيئاً من ذلك، لأن سبكم له يضعف من احتمالات مقاومتكم ورفضكم له وانتصاركم عليه ومن أحاسيسكم ضده ومن رؤيتكم لقبحه.

لا تسبوا فالسباب ليس سلاحاً وليس قوة وليس مجداً ولا تقوى ولا عبقرية ولا تكريماً للآلهة أو للأوطان أو للمذاهب.

ولكن بالغوا، وبالغوا، وبالغوا جداً في سب أصدقائكم وأقاربكم، وفي سب الناس الطيبين والأتقياء والأبرياء، إذا غضبتم عليهم وأوشكتم على الايقاع بهم والظلم لهم.. بالغوا، بالغوا في سب هؤلاء، وفي توعدهم، وفي اتهامهم، وفي العدوان عليهم بالكلام البذيء المجرح، ليكون ذلك هو البديل عن البطش بهم أو عن أي أسلوب آخر عنيف. ولكن من الأذكى والأتقى أن تفعلوا ذلك دون أن يسمعوا أو يعلموا، أن تفعلوه سراً وهمساً إن كان ممكناً. ولكن لا. فإن السب المهموس أو الهامس لا يستطيع أن يكون عملية تفريغ للنفس من شحناتها الرديئة والأليمة. إن أفضل السباب هو أكثره جهراً وإعلاناً وعدواناً وتوقحاً.

انفثوا ثورتكم وغضبكم على هؤلاء، وحولوهما إلى دخان بارد تطلقونه في الفراغ. إن ذلك قد يجعلكم ترضون وتصفحون، وقد يجعلكم أحياناً تحبون وتحترمون وتجدون فيمن سببتم وحقرتم وتوعدتم الروعة والجمال والمزايا التي لن تستطيعوا رؤيتها فيهم لولا سبكم وتحقيركم وتوعدكم لهم، أي لو لم تنفثوا ثورتكم وغضبكم، وتحولوهما إلى دخان بارد تطلقونه في الفراغ، إلى دخان مهدىء للأعصاب الثائرة الغاضبة.

نعم، إن السباب الجاهر المتوقح البذيء لمن أفضل العقاقير المهدئة للأعصاب، المفرغة لها من رصاصاتها القتالة. إنه عقار لم تصنعه الحضارة ولا العلم وإن اعترفا به وباركاه واستعملاه. إنه عقار حضاري وبدوي.

إن أحق الناس بالرثاء هم المظلومون الذين يحولون شتم ظالميهم إلى صلوات وعبادات، وإلى أديان ومذاهب وأخلاق وتعاليم، وإلى وظائف وأعمال ومزايا، تؤدى في كل الأوقات، بكل اللغات والتعبيرات، بكل الأماكن، بكل أساليب التهويل والصراخ والابتهال. إن كثيراً من الأديان والنبوات والمذاهب والتعاليم لتبدو وكأنها إنما جاءت لتعلم المظلومين كيف يشتمون ظالميهم ويقاتلونهم باللعنات.

ما أعظم حظوظ الظالمين الذين يتحول مظلوموهم إلى منابر ومحاريب، وإلى مهرجانات ضاجة حاشدة للانتقام منهم بالشتائم واللعنات وبصوغ التهم الشنيعة الكبيرة لمقاتلتهم بها. كم هو ذكاء في الأقوياء والظلمة والفاسدين السارقين أن يذهبوا يتكرون ويختارون أقوى الشتائم ليشتمهم بها الضعفاء والمقهورون المظلومون.

ما أعظم ذكاء هؤلاء إذا تركوا هؤلاء المظلومين يفعلون ذلك، ويتحولون إلى مثل هذه المنابر

والمحاريب والمهرجانات بل يحولونهم إليها. ما أعظم ذكاء ودهاء وخبث الظالم اللص الشرير إذا ذهب يهيىء الأسباب لكي يكون مشتوماً، مشتوماً بقسوة وهياج.

ليتنا نسبق العالم، كل العالم بهذا الشيء الواحد. ليتنا نسبق كل العالم ولو بهذا الشيء الواحد، أو نهب العالم ولو هذا الشيء الواحد. إنه لشيء واحد يهب المجد لمن وهبوه ولمن سبقوا إليه. إذن ليتنا نهبه أو نسبق إليه.

أجل، ليتنا نستطيع أن نسبق العالم بأن نصدر هذا القانون ثم نستطيع تطبيقه. ليتنا نصدر قانوناً نحرم به الشتائم واللعنات وجميع أساليب الهجاء والتحقير والتهديد، أو ليتنا نفعل ذلك بلا قانون بل بالذكاء أو بالأخلاق أو بالأنانية أو بالاحترام للنفس. إن السباب أسلوب حزين، حزين جداً من أساليب التحقير للنفس. إنه إبداع وعبقرية في الضآلة والحقارة.

ليتنا نفعل ذلك لنبقي على طاقاتنا النفسية وعلى احتجاجاتنا الغاضبة الرافضة المستنكرة المقاومة، لكي نحولها إلى أعمال كبيرة لقهر المظالم والآلام والدمامات والحقارات التي تواجهنا ونواجهها، والتي تعيشنا ونعيشها، والتي تتقبلنا ونتقبلها، دون أن نحارب أو أن نعيش حالة الحرب أو مشاعر الحرب. إننا نعيش كل السلام كل الوقت مع أننا نعيش ونواجه كل الظروف والأسباب التي تصنع كل الحرب.

لقد وجدنا أننا نغفر لهذه المظالم والآلام والدمامات والحقارات، ونفقد المشاعر المضادة لها كلما حولنا أنفسنا إلى سباب ولعنات، وإلى ضجيج من أساليب الوعيد والتهديد التي نقاتل بها والتي نحاول أن ندمر بها حصون وجبهات الآلام والشرور التي تعاني منها حياتنا، أو التي كأنما نحاول أن نفعل بها ذلك. وقد تقول إننا نغفر كل ذلك ونغفر له لأسباب أخرى وليس لأننا نشتمه. قد تقول ذلك وقد يقوله غيرك.

أجل، إن المعلمين والقادة والكتاب والقديسين ليظنون، بل ليزعمون أنهم إنما يؤدون أعمالاً دينية ومذهبية وأخلاقية ووطنية وإنسانية حينما يذهبون يصولون ويجولون سباً ولعناً وتحقيراً وتوعداً وهجوماً على أعراض وأخلاق وعقول ونيات الأعداء والخصوم والفاسدين والأبالسة وجميع الآخرين والمخالفين. وهل يعلمون أنهم بذلك لا يبددون أنفسهم وأسلحتهم الإنسانية فقط بل وأنفس وأسلحة جماهيرهم الهاتفة والمصلية والسائرة بورع وإيمان بليدين وراء كل إمام ومعلم فاسق منافق مخادع يصلي بها دون وضوء أو طهارة أو إيمان أو تقوى؟ نعم، هل يعلمون ذلك؟ إن كانوا يعلمون فما أنبلهم وأتقاهم، وإن لم يكونوا يعلمون فما أذكاهم؟ وهل يجوز وضع القادة والمعلمين والقديسين تحت مقاييس الذكاء والغباء، الفجور أو التقوى؟

إن هذه الجماهير لتغمرها مشاعر الراحة والرضا الجماعية كلما سمعت ورأت خصومها وأعداءها تتهاوى عليهم اللعنات والاتهامات والتهديدات في حشود جماهيرية وشعبية ضاجة بالهياج والجنون. حتى أنها لتوشك أن ترثي لهؤلاء الأعداء والخصوم ولجميع ظالميها لشدة الأهوال التي يلقون من هذه

اللعنات والشتائم والتهديدات. إن الجماهير لتشعر أنها تعاقب وتنتقم بأقسى الأساليب حينما تصلي وراء من يشتمون أعداءها وظالميها.

نعم، هل الزعماء والحكام والأنبياء وجميع المعلمين يعرفون هذه الحقيقة فيذهبون يحاولون الانتفاع بها ولو أحياناً، أم هم يصنعون ذلك ويخدمون مصالحهم عن غباء دون أن يعرفوا أو يقصدوا؟ ولكن هل يصح هذا التساؤل أو هل يجدي؟

إن السباب ليؤدي ما تؤديه العملية الجنسية من استرخاء واكتفاء وراحة. إن السباب إفراز وقذف بل ونشوة وارتجاف كالأعمال الجنسية.

فهل يفعلونه أي السباب بالتفكير والتدبير، أم كما يؤدون العملية الجنسية، كما يؤدونها بالنشوة والاندفاع، أو بالاحتراق والألم والتمزق وبالتفجر الباهظ العنيف البذيء بلا أي منطق؟ ولعله ظلم للسباب أن يسوى أو أن يشبه في مزاياه بالممارسات الجنسية. إن السباب يهب من النشوة والاسترخاء والراحة ومن مشاعر الانتصار وعرض الذات ما لا تستطيع أن تفعل مثله العملية الجنسية.

ولكن إذا كان السباب يهب هذه المزية العظيمة السعيدة أو هذا التمزق أو التفجر المزيج من الألم الباهظ العنيف ومن النشوة الراقصة الغامرة فلماذا يكون أي السباب شيئاً رديئاً أو مرفوضاً أو محرماً؟ وهل تطاق الحياة التي تمنع فيها الممارسات الجنسية؟ وهل يوجد ما يكفي أو ما يقبل أو ما يرضي أن يكون ثمناً لتحريم أو لمنع العلاقات الجنسية؟

لعل السباب هو أنبل تعاليم الأنبياء والقديسين والمعلمين وأكرم عطاياهم للمتألمين الذين لا يستطيعون تحمل آلامهم ولا يستطيعون التخلص منها.

لعل السباب قد داوى الناس من آلامهم أكثر مما داواهم منها كل حبهم وتهذيبهم ومصافحاتهم وصداقاتهم.

* *

ثم أليس ممكناً افتراض السباب محرضاً قوياً على مقاومة الأعداء والفاسدين، وعلى مقاومة الآلام والشرور، وعلى الرفض لها والنفور منها؟ أليس ممكناً افتراض السباب قائداً إلى المقاومة، أو نبياً يعلم المقاومة، أو شاعراً يغني للمقاومة، أو اعصاباً تهب المقاومة الحماس والغضب، أو قلباً يخفق بها ولها؟

أليس ممكناً افتراض السباب عبقرية إنسانية خص بها الإنسان لتتحول إلى عبقرية حضارية وأخلاقية واجتماعية؟

أليس ممكناً الافتراض بأن الذين يسبون أكثر يقاومون أكثر، وإنه لولا السباب وأنبياؤه ومعلموه ومنابره وأجهزته لماتت الرغبة في المقاومة للشرور والأشرار والآلام والدمامات والتفاهات، ولفقدت القدرة عليها أي على المقاومة؟ أليس ممكناً افتراض السباب جهاز مقاومة وتحريض لا جهاز تعجيز أو تثبيط؟ أليس ممكناً افتراض السباب أفضل وأقوى وقود ابتكره الإنسان لحياته، ابتكره له أنبياؤه وزعماؤه

وقديسوه، لكي يغضب ويرفض ويقاوم، لكيلا يتخلى عن الغضب والرفض والمقاومة؟

ألسنا نجد دائماً المتخاصمين والمتناقضين والمتعادين المتعاملين بحروب هي الأهوال والجنون يعدون أقوى الأجهزة الدعائية اللاعنة السابة المحقرة المتوعدة المشهرة المتهمة، ممارسين أقوى وأفجر الأساليب البلاغية، وأقوى وأفجر الألسنة المصابة بكل وقاحة وفجور وفحش الفصاحة، دون أن تخمد أو تموت الحروب أو العداوات بينهم، ودون أن تضعف فيهم الوحشية التي تدبر وتدير هذه الحروب؟ كيف استمر البشر في كل التاريخ يتحاربون ويتعادون بكل الوحشية والجنون، واستمروا مع ذلك يتشاتمون ويتلاعنون ويتهاجون بكل البذاءات والنذالة والافتضاح؟

إنه لو كان السباب يقتل أو ينفي أو يضعف أو ينافي العداوات والبغضاء وإرادة الحروب والقدرة عليها بين البشر وفي نفوسهم، ويحولهم إلى عجز عن ذلك، وإلى رفض له، لكان أي السباب هو أفضل وأتقى أخلاق الإنسان، بل لكان هو أفضل وأتقى أديانه ومذاهبه، أو ما جاءت به أديانه ومذاهبه، بل لكان أي السباب هو أنبل وأكرم وأنفع ما علمت الآلهة للحياة وللأنبياء وللناس من تعاليم وقيم. ما أنبلك وأتقاك أيتها الآلهة حينما علمت الناس الشتائم والبذاءات إن كانت الشتائم والبذاءات تقتل الحروب والعداوات والبغضاء.

إنه لممكن الافتراض بأن الكثير من البغضاء والأحقاد التاريخية أو الدينية أو الأخلاقية لم يكن لها من مدبر وخالق مبدع مخرج سوى السباب المثابر المكرر المخطوب به والمصلى به من فوق أتقى وأعلى المنابر والمحاريب. لهذا كانت جميع المنابر والمحاريب تتعبد بالسباب، وتتعبد بتعليمه للجماهير، لأن جميع المنابر والمحاريب تؤمن بالبغضاء وبالأحقاد وتعلمها وتبشر بها.

لعل السباب هو الذي وهب البغضاء والأحقاد القوية الفعالة المتحركة الخلود والقداسة بعد أن وهبها الشرعية والقانونية والمزايا الأخرى الكثيرة. هل يمكن أن تخلد أو تكون فعالة وقوية ومقبولة لولا تأجيجها؟

أليس السباب عملية تأجيج دائمة للبغضاء والأحقاد؟ أليس عملية إحياء وتنشيط لها؟

هل وجد إنسان واحد استطاع أن يرتفع عن جميع ألوان السباب واللعن والبذاءة اللغوية أو التعبيرية مهما كان مستواه الديني أو الأخلاقي أو الفكري أو الاجتماعي؟

لقد كان السباب بكل معانيه وتعبيراته المختلفة تفسيراً إنسانياً وقيمة إنسانية. لقد كان ديناً إنسانياً عالمياً. لقد كان مستوى إنسانياً رفيعاً.

لقد كان جميع الأنبياء والزعماء الكبار جداً، وجميع واضعي الفلسفات والنظريات الأخلاقية الداعية إلى ما لا يستطاع من الكمال والتطهر والصعود فوق جميع المستويات والاحتمالات ـ لقد كان جميع هؤلاء يعرفون بالممارسة وبالشهوة والهوى هذه اللغة، هذه الصلاة. لقد كانوا جميعاً يؤدونها بأسلوب التدين ومنطقه وجهره وافتضاحه، وبجماعيته وعالميته. بل لقد كان هؤلاء أبلغ وأبرع

وأجرأ على الافتضاح في ممارساتهم بالشهوة والهوى والسلوك لهذه اللغة أو لهذه الصلاة، أي للسباب.

لقد كان السباب هو أتقى صلوات الأنبياء والقديسين لأنبل وأعظم وأكبر الآلهة. لقد كان أعظم فنون النبوات.

لقد يوجد، أو قد يحتمل أن يوجد من يمكن استثناؤه من هذا التعميم. ولو وجد هذا الاستثناء لما ضعف أو أخطأ هذا التعميم. ولعل الذين يكفون عن السباب بألفاظهم هم أكثر الناس سباباً بمشاعرهم ونياتهم. لعل السباب الذي لا ينطق هو أقسى أساليب السباب وأقسى لغاته.

إذن فلعل السباب هو أحد الفنون الإنسانية العالمية الجميلة التي تحيا بها جميع مشاعر وأخلاق وأفكار جميع البشر، بل وجميع ظروفهم القاسية الوقحة، بل وجميع أديانهم ومذاهبهم وتقواهم. لعل السباب إذن جهاز لملء ذات الإنسان بالطاقات والمعاني ثم لتفجير هذه الطاقات والمعاني وتحويلها إلى شتى أساليب الإبداع والتعبيرات القوية.

لعل الحياة بدون شتائم وبذاءات كآبة لا تطاق. لعلها بدون ذلك تدين يقتل فينا الشعور المضاد للأشياء غير الملائمة لنا، ويقتل فينا التعبير عن هذا الشعور، بل ويقتل فينا إرادة هذا التعبير، وإرادة هذا الشعور المضاد للأشياء الرديئة أو الدميمة أو البليدة أو العدوانية. لعل البشر ظلوا يستنكرون أبداً، ويقبلون ويرفضون ويهاجمون ويدافعون، ويصادقون ويعادون أبداً لأنهم ظلوا يشتمون أبداً.

لعل السباب هو أحد أساليب التعبير القوية الحادة ضد الأشياء البليدة والرديئة والكريهة والقبيحة والبذيئة والتافهة. لعله هو القوة المضادة النبيلة التي جعلت الإنسان يختار أبداً ويترك أبداً ويتحرك أبداً بل ويحدق في الأشياء ويحيا فيها أبداً.

لعل السباب هو أحد الأساليب القتالية التي تفوق بها الإنسان على الأشياء ليقاوم بها الأشياء المضادة له، وليلعن بها رفضه لهذه الأشياء ومقاومته لها. لعل السباب هو الجهاز المنمي والمحرك والمفجر فينا لموهبة الرفض والاشمئزاز والغضب الفعال.

لعل السباب هو القوة الدعائية والإعلامية والتحريضية والتحذيرية في حياة الإنسان وفي ذاته.

ما أعظم النشوة الروحية التي تغمر الشاتم وتغمر سامع الشتيمة المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الوطنية. ما أعظم ذنب من يحاول أن يحرمنا من هذه النشوة.

ما أعظم النشوة التي يعيشها النبي، والتي يعيشها من يصلي وراءه حينما يطلق أي النبي شتائمه على الزنادقة والكافرين والفاسقين، وعلى الشياطين، وعلى جميع المتفوقين، وهو يتوجه إلى إلهه بصلواته ومدائحه وبهجائه لأعدائه.

لعل نشوة الشاتم وسامع الشتيمة أعظم من نشوة المنتصر في حرب أو الظافر بحب، أو من نشوة المكتشف لمنطق يرى أن في خلق الحشرات فضيلة دينية أو أخلاقية أو مذهبية أو إنسانية، أو تفوقاً في

عبقرية الإله وجماله ونظافته، أو في عبقرية الطبيعة وفي جمالها ونظافتها. هل توجد نشوة بين جميع النشوات مثل نشوة الشتيمة منطوقة ومسموعة؟ هل توجد نشوة كنشوة الشتيمة يعيشها كل البشر في كل أعمارهم ومقاماتهم وتحت كل ظروفهم واتجاهاتهم؟

لعل الصلاة قد فرضت من أجل شتم الشيطان وشتم الكفرة أكثر مما فرضت من أجل تمجيد الإله. لعل الشتم في الصلاة يصنع النشوة والسرور في قلب الإله وفي قلب المصلي أكثر مما يصنعهما التمجيد للإله. لعل الإله والمصلي له يريان في الشتم من الثناء على الإله أكثر مما في التوجه إليه بالصلوات والضراعات وبالدموع.

إن كل شيء في الكون والحياة وفي الناس شاتم ومشتوم ولكن اللغات تختلف. إن للشتم لغات كثيرة لا لغة واحدة. إن الشتم ليس لغة فقط وإن لغته ليست واحدة.

إن الكون الذي يمرضنا أو يقتلنا أو يصيبنا بالأحزان والعاهات والشيخوخة أو بالجوع أو بالعار أو بأي ألم أو تحقير أو تشويه أو تخويف أو هزيمة أو إذلال هو يشتمنا بلغة كونية، أي بلغة قتالية لا بلغة كلامية كما يفعل الإنسان حينما يمارس شتائمه الدينية أو المذهبية أو الوطنية أو الأخلاقية أو النفسية.

إن الكون هو كل الشتائم وكل معلمي الشتائم. إن الأنبياء والقادة الشتامين هم إحدى صيغه وتعاليمه.

إننا لنشتم الطبيعة والكون وجميع الأشياء حينما نحتج عليها بتغييرها وبالنضال ضدها، وبرفضها ورفض منطقها وسلوكها، وبالخروج عليها بتخطيها.

إن إبداعنا وتفوقنا اللذين يتحولان إلى رفض لما كان، وإلى خروج عليه، وإلى تجاوز له - إنهما أي إبداعنا وتفوقنا سباب للطبيعة والكون ولجميع الأشياء، بل سباب للآلهة المدبرة والمريدة والخالقة والمخرجة للطبيعة والكون والأشياء التي نرفضها ونخرج عليها ونتخطاها بإبداعنا وتفوقنا وبنضالنا ضدها.

إن الآلهة لا تشتم بأقوى أو أقسى من التصحيح عليها في هذا الكون ومن التدخل فيما فعلت ومن النضال ضده.

ولولا أننا نشتم الطبيعة والأشياء لما غيرناها، أو كرهناها أو تفوقنا عليها أو آمنا بجواز تغييرها أو كراهتها أو التفوق عليها أو بإمكان حدوث ذلك.

ولولا أننا نشتم الإله ونؤمن بجواز شتمه، بل ونتدين بشتمه لما جاوزنا أو رفضنا أو كرهنا أو عصينا أو شتمنا شيئاً مما أراد أو دبر أو خلق أو أخرج أو تقبل، ولما قلنا أو آمنا بشيء من ذلك أو بجواز شيء منه. إنه لا يوجد من لا يكرهون أو يرفضون أو من لا يلعنون ما كان، ويحاولون أو يتمنون الخروج عليه أو من لا يخرجون عليه. إنه إذن لا يوجد من لا يشتمون الإله والطبيعة والأشياء.

إن الذي ينكر أو يرفض أو يسفه أو يقاوم أو يدمر أو يلعن ما أردت أو ما رضيت. أو ما أبدعت، أو

ما دبرت وشيدت بعقلك واقتناعك وأخلاقك وحماسك لهو شاتم لك أكثر من الذي يشتمك بكلماته أو بصلواته. لهذا فإن أكثر الناس شتماً وهجاءً وتحقيراً للإله وللطبيعة هم الذين يصوغون الطبيعة والأشياء صياغات جديدة، أو يدعون إلى صياغاتها هذه الصياغات الجديدة، أو يتقبلون أن تصاغ هذه الصياغات، أو يتمنون ذلك، أو يؤمنون بجوازه. إن العبقرية المبدعة المغيرة للأشياء والصانعة للأشياء والمعالجة للأشياء من أخطائها ونقائصها وآلامها لن تكون إلا سباباً للآلهة وللكون.

إن أشد الناس سباً وهجاء وتحقيراً للإله وللطبيعة هم المزيلون للآلام أو للأخطاء أو للعاهات أو للأمراض أو للمجاعات، أو للوحشية والهمجية والبداوة المخلوقة في الطبيعة وفي الأشياء والمحكوم بها عليها.

إن السباب ليس إلا تعبيراً بالكلمة عن الرفض النفسي أو الفكري أو الأخلاقي. أما التغيير فإنه تعبير بالعبقرية وبالسلاح عن هذا الرفض النفسي أو الفكري أو الأخلاقي.

إن التفوق والتغيير مقاومة، والمقاومة شتم بالحركة أو بلغة الحركة وهي أقوى لغات الشتم. كما أن الشتم مقاومة باللغة أو بحركة اللغة، بل وبحركة النفس والفكر.

نعم، لهذا كان العباقرة هم أشتم الناس للآلهة وللطبيعة بل وللناس إنهم لا يكونون إلا شاتمين لكل شيء.

إن مقاومة الأشياء هو شتم لها بأسلوب هو أقوى من جميع الشتائم، وإن شتم الأشياء هو مقاومة لها بأقل مستويات المقاومة. إن من دمر ما رأيت واستحسنت وامتدحت ورضيت وشيدت ليصنع أفضل أو أعظم أو نقيضاً له ولو في ظنه لهو أعظم شاتم لك.

إن شتم الأشياء هو مقاومة لها بالنفس والإرادة والنية والشهوة وبالفكر أيضاً ولو أحياناً. فهل المقاومة بالنفس والإرادة والنية والشهوة والتفكير هي أقل مستويات المقاومة؟ هل توجد مقاومة خارج هذه المقاومة؟

هل يمكن أن نشتم أي شيء لا نقاومه بأية واحدة من هذه المقاومات؟ هل يشتم ما لا يقاوم؟

إنه لمن الصعب أن نعقل أو نتقبل أو نغفر سلوك البشر. إن جميع أديانهم ونبواتهم وتعاليمهم ومذاهبهم وعقائدهم وأخلاقهم المكتوبة والمتعلمة والمخطوب بها تنكر الشتائم وتحقرها وتهجوها وتشرع لها العقوبات، ولكن هذه الأديان والنبوات ،التعاليم والمذاهب والعقائد والأخلاق قد حولت الشتائم والبذاءات إلى تاريخ، وإلى خلود، وإلى دعوى مذهبية أو دينية أو أخلاقية، وإلى طقوس جماعية، تؤدى بالاعلان والافتضاح والدوي، تؤدى كأنبل وأتقى الأشياء، وتمجد وتسترضى وتنافق بها الآلهة والأنبياء والزعماء والمعلمون للمذاهب وللنظم. إنه لم يوجد دين ولا مذهب ولا نظام إلا وقد حول الشتائم إلى أفضل وأتقى صلاة لمعلم ذلك الدين أو المذهب أو النظام.

إن تعاليم البشر لتحاكم دائماً سلوكهم ونياتهم وشهواتهم، وتراها خطأ وغواية وفسوقاً. ولكن لعل

هذا السلوك وهذه النيات والشهوات هي الخطأ والفسوق والغواية التي لا بديل عنها في الأوان الذي تحدث فيه وبالصيغة التي تتحول إليها. إن أخطاء الإنسان وغواياته هي المنطق الطبيعي له ولحياته. إن استقامة الإنسان وصوابه ليسا أكثر منطقية أو تقوى من ضلاله وفسوقه. إن الطبيعة لا تتفاوت في منطقها أو تقواها.

* *

هل السباب اكتشاف واختراع، أم هو اختراع دون أن يكون اكتشافاً؟

هل اكتشف البشر مزايا السباب ثم اخترعوه أي لأنهم قد اكتشفوا مزاياه، أم هم قد اخترعوه ومارسوا هذه المزايا دون أن يكتشفوه أو يكتشفوا مزاياه؟

هل البشر يكتشفون مزايا الأشياء ثم يمارسونها أم يمارسونها لأنهم يمارسونها ويكتشفون مزاياها لأنهم يمارسونها؟

هل صنع البشر السباب ومارسوه كما صنعوا السفن ومارسوها، أم هم قد مارسوه فقط كما مارسوا العلاقات الجنسية؟ هل توصل الأنبياء والمعلمون إلى مزايا السباب بالأسلوب الذي توصل به العلماء إلى ما أعطوا واكتشفوا أم هم أي الأنبياء والمعلمون قد مارسوا السباب بالأسلوب الذي مارسوا به الأحزان والآلام؟

إن السباب هو صور الإنسان ومقاساته النفسية قد تحولت إلى كلمات. إنه هو أعضاؤه النفسية المحرمة والمحرم كشفها، والمخجول من كشفها، والمأمور بإخفائها. إنه هو هذه الأعضاء قد حولها إلى كلمات، وألقى عنها كل ملابسها، وذهب يطلقها فوق المنابر ومن فوقها، وفي الميادين والأسواق العامة، وفي المعابد ومن المعابد، وداخل عيون الناس وداخل آذانهم، وفي صلواتهم ونواديهم.

إن السباب هو أعضاء الإنسان المحرمة والمستورة والمأمور بسترها لوقاحتها، قد صورها كلمات، وألقى عنها كل ستر، وربطها فوق فمه، ونصبها فوق فمه، فوق عرش فمه، فوق عرش هو فمه. إن الإنسان ليس سوى فضيحة جالسة فوق عرش، فوق عرش هو لسانه. إن لسان الإنسان عرش يوزع من فوقه فضائحه ونذالاته.

إن السباب هو إنسان يعرض أعضاءه المحرمة المأمور بسترها - يعرض أعضاءه المصابة بالعاهات والتشوهات والوقاحة والبذاءة، يعرضها فوق لسانه، وفوق المنابر وفي الميادين والأسواق والنوادي والمعابد العامة، وفي الكتب المقدسة التي كتبتها الآلهة ونقلها عنهم الأنبياء. إن الأنبياء هم رواة شتائم الآلهة ومعلموها.

إن الأنبياء هم أقسى الرواة لأنهم هم الرواة عن الآلهة. هم رواة أخلاقها وشتائمها. إذن هل يوجد رواة كالأنبياء؟

إن السباب هو إنسان يعرض أعضاءه الداخلية الهمجية المهينة لدمامتها، يعرضها ويعلن عنها،

ويتحدث بها على لسان الإله وبواسطته، وعلى ألسنة الأنبياء وبواسطتهم. إن الأنبياء هم قوم يعرضون أعضاءهم النفسية والأخلاقية زاعمين أن الله هو الذي يعرضها بل زاعمين أنهم إنما يعرضون أعضاء الله النفسية والأخلاقية.

إن السباب هو الإنسان الصغير، الصغير جداً ـ إنه هو الإنسان الصغير الكبير قد تحول إلى إنسان صغير، صغير فقط، قد تحول إلى إنسان صغير وضعيف ومنهار وفضاح ومفتضح. قد تحول إلى كلمة هاوية، هاوية. قد تحول إلى حشرة بذيئة وصغيرة ودميمة ووقحة. قد تحول إلى هذه الحشرة، منتصبة شامخة فوق لسانه، معلنة عن كل بذاءتها وضآلتها ودمامتها ووقاحتها من فوق لسانه. إنه لا شيء يعتدى عليه ويظلم مثل لسان الإنسان. إنه الطريق الذي تمر منه جميع بذاءاته وتفاهاته وغباواته وأحقاده وشتائمه.

إن السباب هو الزعيم والقائد والمعلم والمفكر والفنان والقديس والنبي والإله، متحولاً إلى كائن، إلى أصغر كائن ـ متحولاً إلى لغة تمارسها وتتعامل وتتقاتل بها أصغر الأفواه.

حتى الإله إنه سباب. وهل يوجد سباب كالإله. ما أضخم وأنبل الإله متحولاً إلى سباب.. متحولاً إلى كتب مقدسة تقدس السباب وتعلمه وإلى أنبياء يصلون بالسباب ويصلون له ويعلمونه.

إن السباب هو الإنسان الكبير العظيم جداً قد تحول إلى ذات أو إلى نموذج من الكلمات الصغيرة جداً، قد تحول إلى صورة أو إلى أسلوب صغير وتافه وأليم جداً من البشر، من الكائنات الصغيرة المسماة بشراً.

إنه لا شيء يضع للإنسان حدوده ومقاييسه الحزينة الأليمة والصادقة مثل السباب.

إن السباب هو الإله أو النبي أو المعلم أو المفكر أو القديس قد تحول إلى كلمات تعاف الحشرات أن تتعامل، أو أن تتكلم بها. إن السباب هو أحد الأساليب أو أحد المستويات التي يتفوق بها الإنسان في تلوثه وبذاءته على جميع الحشرات.

إن السباب كائن ظالم جداً. إنه كائن يحول مستويات البشر المتفاوتة جداً إلى مستوى واحد من الضآلة والهبوط. إنه يسوي بين القمم والحضيض. إنه يدلل على أنه لا توجد قمم وحضيض. لا توجد حدود فاصلة بين القمم والحضيض. إن في القمة كل معاني وتفاسير الحضيض.. إن السباب هو الاعلان العالمي الرهيب الذي تفسيره: أن البشر جميعاً صغار، إنهم جميعاً صغار حتى الكبار، الكبار جداً هم صغار، صغار جداً. إن السباب يسوي بينهم في الضآلة والانخفاض. إن السباب هو الإنسان معبراً صادقاً. إنه هو الإنسان بلا ملابس ولا جدران ولا غرف ولا حراسة ولا زخرفة ولا عمليات تجميل أو تزييف أو إخفاء.

إن السباب هو الإنسان بلا أكاذيب. إنه هو الإنسان تحت كل جلوده وكل لغاته.

لقد حولت الشتائم والبذاءات البشر إلى ديدان ونمال في الضآلة وفي ضيق وتشابه الأحجام. لقد

حولتهم - مسوية بينهم - إلى حشرات بذيئة، تطلق كل أنواع السموم البذيئة من أفواهها الواسعة بإعلان ومباهاة، وبأساليب فيها جميع معاني التعبد وأحاسيسه وأساليبه في الافتضاح.

وهل وجد مذهب أو دين أو نظام لم يحول السباب إلى إيمان وعبادات وتقوى وإلى تمرد على الشيطان؟

أيها السباب.. إنك أنت الإعلان العالمي المضاد عن ضخامة الإنسان، وعن قدرته على الاستتار، وعن موهبة التهذيب والنظافة والحياء فيه. إنك أيها السباب.. أنت التدليل العالمي البذيء على أن الكبار جداً يستطيعون بسهولة وبلا أية معاناة فكرية أو نفسية أو أخلاقية، أن يكونوا صغاراً جداً صغاراً في لغاتهم وفي مشاعرهم وفي تفكيرهم، وفي خصوماتهم وعداواتهم وأحقادهم، ومن فوق منابرهم، وفي داخل معابدهم، وفي تحدثهم عن أربابهم، وعن أديانهم، وعن مذاهبهم، وعن تقواهم وغيرتهم. إنك أيها السباب، أنت الاعلان العالمي التاريخي على أن البشر سواء في وجود الإنسان الممارس للجوع والضآلة والتلوث والبذاءة داخل كل ذات من ذواتهم.

إنك أنت الاعلان العالمي عن عالمية الإنسان التي تعني أنه لا بد أن يكون ضئيلاً وصغيراً في محتواه وتعبيره أو في أحدهما، أي ولو في بعض معانيه وأخلاقه.

* *

هل كان من المستطاع أن يعيش الإنسان نفسه وحياته وعالمه بلا سباب وبلا أي نوع من البذاءة اللغوية والإنسانية؟ هل كان من المحتوم حينئذٍ أن يشقى ويعاني ويضيق بوجوده أكثر؟ هل محتوم حينئذٍ أن تكون مسراته أقل، وأحزانه أكثر، أو أن يكون تقدمه الحضاري أو الإنساني أبطأ، أو أن يكون غضب الآلهة عليه أشد لأنه لا يشتم باسم الاحترام والصلاة والغضب لها، ولأنه لا يضع الشتائم على لسانه وفي الكتب المنزلة التي ألفتها هي أي الآلهة؟

هل توجد نشوة تساوي نشوة الآلهة حينما توضع الشتائم على ألسنتها وفي كتبها وحينما يشتم كل شيء باسمها ومن أجلها؟

هل كان من الممكن أن تعجب الآلهة بالإنسان أو أن ترضى عنه بل أو أن ترى لوجوده قيمة أو تفسيراً لو أنه لم يتعلم الشتائم ويعلمها ويمارسها ويتعبد بها لها، ويدافع عنها بها - بل هل كان من الممكن حينئذٍ أن تتحدث إليه الآلهة؟

هل كان ممكناً أن تكون اللغات جميلة، ويكون الإنسان بليغاً، ويكون الكلام مقروءاً أو مسموعاً أو مثيراً أو مغرياً أو مؤثراً أو محركاً أو منزلاً على الأنبياء والمعلمين، وعلى الشعراء والخطباء، لو لم تكن الشتائم؟ أليست الشتائم هي الجمال والإغراء والحماس والشعر والسحر بل والمنطق والقوة والنشوة والتقوى في كل شيء؟

هل كان يمكن أن يجد النبي أو الزعيم أو الخطيب أو الواعظ أي إغراء له في أن يصعد المنبر، أو في

أن يخاطب التاريخ والجماهير، أو في أن يتخاطب مع الكلمات، لولا تدفق الشتائم على لسانه وقلبه وأخلاقه، ومن لسانه وقلبه وأخلاقه؟ هل كان يمكن أن يجد النبي أو الزعيم أو المعلم لإلهه أو لمذهبه أو لتعاليمه وأوامره مذاقاً في فمه أو في عقله أو في أعصابه أو في كبريائه لولا الشتائم؟

نعم، هل كان من الممكن أن يعيش الإنسان وجوده وحياته والعالم والأشياء والآخرين حوله بلا شتائم وبلا أي نوع من البذاءات اللغوية والنفسية والأخلاقية؟ وهل يكون ذلك أفضل له، أفضل لدينه أو لمسراته أو لحضارته أو لحياته، بل أو لأخلاقه، بل أو لتوافقه أو لصداقته مع الآخرين، لو أنه حدث؟ هل كان يمكن حينئذٍ أن يرى الإله أو الكون أو أي شيء جميلاً أو معقولاً أو سعيداً أو ذكياً، أي أفضل مما رآه ويراه الآن؟

إذن لماذا لم يفعل الإنسان هذا الأفضل له؟ لماذا اختار الأردأ له؟ هل قصد أم اندفع بلا قصد؟ وكيف يقصد أن يفعل الأردأ له؟ وهل يمكن أن يحدث هذا. وإذا كان قد اندفع بلا قصد أو تدبير فكيف اندفع إلى الأردأ ولم يندفع إلى الأفضل؟

أليس ما يحدث هو دائماً الأفضل والأنفع أي في الأوقات والظروف التي يحدث فيها وتحت إملائها، كما أنه أي ما يحدث هو دائماً الممكن والمستطاع والمعقول، أي في وقته وتحت ظروفه المعينة؟

إذا كان يمكن أو يستطاع أو يحتم أن يحدث في الأشياء أو في الطبيعة أو في حياة البشر وسلوكهم غير ما حدث، أو أفضل وأنفع مما حدث، أي في الوقت الذي حدث فيه، وتحت الظروف التي حدث تحتها، فلماذا لم يحدث ذلك الممكن والمستطاع والمحتوم أو المطلوب ـ ذلك الذي هو الأفضل والأنفع؟

وهل في الكون قوة من أي نوع تناضل لكي لا يحدث الأنفع الأفضل؟ ولماذا ترفض تلك القوة الأنفع الأفضل؟

هل يمكن أن يحدث الزلزال، أو ينزل المطر، أو يجيء الفيضان في الأوقات وتحت الظروف التي يمكن ألا يحدث فيها؟ وهل يمكن ألا يحدث أو ألا يجيء ذلك في الأوقات والظروف التي يحدث ويجيء فيها؟ لو كان ما يحدث يمكن ألا يحدث فكيف إذن حدث؟ ولو كان ما لم يحدث يمكن أن يحدث فكيف إذن لم يحدث؟

هل كان يمكن أن يجيء الإله في نموذجه أو في أخلاقه أو في عبقريته أو في نياته غير ما جاء أو أفضل مما جاء؟ هل كان يمكن أن يكون غير ما كان، أو أفضل مما كان؟ هل كان يمكن، أو كان يستطيع أن ينتصر على الشيطان، أو على شهوات الإنسان أو على ضعف الإنسان، أو على عصيانه، ليكون مطاعاً ومعبوداً أكثر وأقوى وأشمل مما أطيع وعبد؟ هل كان يمكن أن يكون حظه أي حظ الإله أفضل وأعظم مما كان؟

هل كان يمكن أن يكون أي الإله أكثر سروراً أو انتصاراً أو ذكاء أو قوة أو جمالاً أو صداقة وحباً للناس وللأشياء؟

هل يمكن أن يكون ذلك ممكناً، وأن يكون هو الأفضل، ثم لا يحدث؟

إن الإله لم يكن غير ما كان، ولم يكن حظه غير ما كان لأن ذلك لم يكن ممكناً أن يكون، أو لأن ما كان هو الأفضل والأنفع للإله وفي حساباته لنفسه وفي إرادته لنفسه. لو كان ممكناً أن يكون الإله أفضل مما كان لكان السؤال: لماذا لم يكن ذلك الشيء الذي هو أفضل؟ هل يمكن أن يوجد أي تفسير لرفضه أن يكون ذلك الذي هو الأفضل؟

إنه مهما كانت التصورات أو التفسيرات لأخلاق الإله أو لمنطقه أو لمذاهبه، أو لأهوائه النفسية والفنية فإنه لا يمكن التصور بأنه يستطيع أن يكون، أو أن يكون حظه، أفضل مما كان ثم لا يكون.

إن أقل مستويات الاحترام للإله هو الاقتناع بأنه لا يستطيع أن يكون أفضل أو أعظم حظاً مما كان. لا يستطيع أن يكون غير ما كان.

إذن فالله كما هو: أما أن يكون هو أقصى ما يمكن أو ما يستطيع أن يكون، أو أنه هو أجمل وأفضل ما يمكن وما يستطيع وما يريد أن يكون.

إن الله لا بد أن يكون هو أقصى القدرة أو أقصى الجمال والكمال ـ هو أقصى ما يمكن أو أقصى ما يراد.

إنني حين لا أكون فأنا لا أستطيع أو لا أريد وحين لا أريد فأنا لا أستطيع. إذن حين لا أكون هذا فأنا حتماً لا أستطيع أن أكونه: إما بالعجز المطلق أو بالعجز عن إرادته، إما بفقد الشهوة له وإما بالخوف منه أو من عواقبه أو من متاعبه وتبعاته ومعاناته.

إن من عجز عن إرادة الشيء أو عن الإقدام عليه وعن تحمل تبعاته والتزاماته فهو عاجز عنه مهما كان قادراً عليه.

وإذن فالإنسان لو كان يستطيع أن يصنع تاريخه بلا شتائم وبلا بذاءات فهل كان يمكن أن تتحول الشتائم والبذاءات في تاريخه إلى أديان ومذاهب ونبوات، بل إلى أخلاق آلهة وأنبياء وقديسين؟

هل تدين الإنسان في كل تاريخه بشيء مثل تدينه بالشتائم؟ وهل صلى لآلهته أو امتدح أنبياءه ومعلميه وزعمائه مثلما صلى لهم وامتدحهم بالشتائم؟ وهل وضع على ألسنتهم من التعاليم ومن الآيات المنزلة ومن الفنون والشعر مثلما وضع عليها أي على ألسنتهم من الشتائم؟ وهل اتهمهم بأية موهبة مثلما اتهمهم بموهبة الشتائم؟

إن عليك أن تكون حذراً. هل تستطيع أن تعلم بأن تألمك، أي إطلاقك لألمك وتعبيرك عنه بالصوت أو بالكلمة أو بالحركة أو بالصورة ـ هل تستطيع أن تعلم بأن ذلك ليس إلا سحباً من حسابات طاقتك ومقاومتك، ومن حسابات رغبتك في ذلك وقدرتك عليه؟

هل تستطيع فهم هذا أو تصديقه؟ هل تصدق أن تعبيرك عن انفعالك إضعاف لانفعالك، توزيع له، تبديد لقوته ولحماسه ولقدرته على المقاومة والانطلاق؟

إن التألم، أي إطلاق الألم والتعبير عنه بأي أسلوب من أساليب التعبير، نشاط مضاد، أو نشاط سارق مبدد للنشاط. إنه نشاط يسرق ويبدد ويستنفد طاقات الإنسان ويشغلها ويحولها ويلهيها مثلما يفعل العمل المجدي. ومثلما تفعل اللذة الممارسة. إني أعني بذلك تحويل الرفض والغضب والاحتجاجات الأليمة ضد الطبيعة وضد الآلهة والمذاهب والنظم والتاريخ والناس، وضد الذات، وضد كل ما يحدث أو يعلم تحويله إلى تعبيرات أليمة ضاجة مختلفة، إلى صلوات، وإلى تضرعات للآلهة، وإلى صرخات باكية، وإلى دموع حرى غزيرة، وإلى شتائم للسلطان وصلوات إلى الآلهة لتعاقبه.

إن التعبير بالأنين أو بالصراخ أو بالهتاف والدعاء للآلهة ـ إن التعبير بذلك عن الألم الفكري أو الأخلاقي أو الجسدي يضعفه ويسكته.

إن المتألمين أي المطلقين لآلامهم بالتعبيرات المختلفة يتحولون إلى ممارسة الألم، وإلى إتقانه، وإلى التعبد به وله، وإلى الفراغ له. إنهم يجدون في ذلك النشوة والراحة، وأحياناً يجدون فيه كل مشاعر الانتصار والكبرياء، بل مشاعر الانتقام للشرف المهان وللحق المسلوب، كما يجد العاملون السعداء الأقوياء في أداء أعمالهم وفي ممارستهم للذاتهم، بل كما يجد المنتصرون في انتصاراتهم الكبرى.

إن التألم أسلوب من أساليب المحاباة للألم ومن أساليب الاعتذار عنه والتخفيف من قبحه ومن الشعور ضده.

إنك إذا تألمت لأنك ظلمت أو قهرت أو أهنت فذهبت تصلي وتضرع إلى إلهك باكياً صارخاً مرتجفاً، تالياً لكلماته، مثنياً عليه، متحدثاً عن قوته وجبروته وعدله ـ إنك إذا فعلت ذلك فقد حابيت ألمك وظلمك وهوانك، أو حابيت من أوقعوا بك الألم والظلم والقهر والهوان. إن صلاتك ضد آلامك محاباة لآلامك، وإن تضرعاتك إلى إلهك لينتقم لك من طغاتك محاباة لطغاتك.

إن آلهتك إذن وعلاقاتك بهم كيفما كانت محاباة لطغاتك ولآلامك. إن آلهتك انتصار دائم لآلامك ولأعدائك.

إن صلاتك الباكية الضارعة بين يدي إلهك محاباة لطاغيتك. إن صلاتك هذه أسلوب من أساليب تنازلك عن مقاومته ومن أساليب الاضعاف لرغبتك في هذه المقاومة وقدرتك عليها، وإحساسك بطغيانه واستنكارك له. كما أن إلقاءك إلى الفضاء ببعض رصاصاتك التي يجب أن تطلقها كلها على عدوك أسلوب من أساليب المحاباة لذلك العدو الذي يواجهك، ومن أساليب العجز عن الانتصار عليه، ومن أساليب التمكين له. إن دعاءك لإلهك ضد أعدائك أسلوب من أساليب إطلاق سلاحك المعد لأعدائك على غير أعدائك.

إن كل الناس في كل المجتمعات ليشترون الألم، أي ليشترون تحويل الألم إلى تعبيرات؟ وإنهم ليغلون ثمنه بلا اندهاش أو ارتياب في قيمة أو في منطق ما يفعلون.

إنه ليس في البشر من لا يشتري بعض أنواع الألم أو البلادة أو الكذب أو الهوان ويدفع ثمن ذلك.

إن جميع الناس في جميع العصور والمجتمعات ليشترون إطلاق الألم وتحويله إلى غفران وتقبل، كما يشترون أصناف السلع. إن جميع الناس في كل التاريخ ليشترون الأنبياء والمعلمين والزعماء الذين يحولون آلامهم وعصبهم إلى غفران ونسيان وصفح جميل.

إن الذين يشترون كتاباً أو صحيفة أو نبياً أو واعظاً أو زعيماً يبكي ويتألم ويحول الآلام إلى صراخ وتعبيرات دينية أو مذهبية أو أخلاقية، شاتماً الأعداء والخصوم والمتفوقين، وشاتماً الأحداث والظروف الأليمة والرديئة بهياج سعيد ـ وإن الذين يجزون واعظاً أو معلماً أو زعيماً أو نبياً يبكي ويصرخ ويشتم ويحقر بحقد ومرارة متفجرين ضاجين، ويحول الآلام إلى تعبيرات بالصلوات والتضرعات والهتافات، وبالأنين والبكاء، وبالأساليب التعبيرية الأخرى.

نعم، إن الذين يفعلون ذلك ليسوا إلا قوماً يشترون ألماً ويدفعون ثمنه.

إنه إذا تألم غيرنا عنا، أي إذا عبروا عن آلامنا بالأساليب الإعلانية الجماعية الدينية أو المذهبية أو الوطنية أو الأخلاقية، أحسسنا بالراحة والارتواء والاسترخاء والاكتفاء، كالذين تألموا، كالذين مارسوا اللذات والشهوات بامتلاء ورخاء.

إن التعبير عن الآلام أي بأسلوب وتحت أي شعار يتحول أي التعبير عن الآلام إلى شهوات مقضية.

إننا لهذا نرحب ونعجب ونؤمن بالزعماء والأنبياء والوعاظ الذين يتقنون فنون التألم، ويتقنون فن تحويل الآلام إلى تعاليم وأديان ومذاهب وصلوات، وإلى فنون أخرى كثيرة يفرضونها علينا ويعلموننا إياها، ويمارسونها عنا وبنا ومعنا وضدنا. إننا نعجب بالأنبياء والوعاظ لأنهمْ يتألمون عنا بأساليبهم المعروفة وتألمهم عنا يضعف من شعورنا بآلامنا واحتجاجنا عليها ورغبتنا في مقاومتها.

إن ممارسة الألم أي التألم لتستبد بأكثر الناس أو بكل الناس، أو بقادة الناس وبزعمائهم وأنبيائهم ومعلميهم حتى لتستولي على الكثير من نشاطهم وحماسهم واهتماماتهم.

إن التألم أي التعبير عن الألم والدعوة إليه والتحريض عليه والتضخيم له والتخويف به هو فن جميع المعلمين والدعاة.

إنهم قد يصبحون متألمين فقط، لا يصنعون في الحياة سوى الألم، أي سوى التعبير عنه وسوى إطلاقه وتوزيعه، بكل الأساليب واللغات والمستويات وبكل الدوي والصراخ، وباسم مختلف المذاهب والأديان والنظريات والقوميات والأخلاق.

قد يكون الأديان والمذاهب والأخلاق والقوميات أساليب مختارة للتعبير عن التألم وليست مداواة للتألم أو محاولة للمداواة.

وهل يصنع أكثر الزعماء والأنبياء والوعاظ والقديسين غير هذا؟ وهل يراد من أكثرهم غير هذا؟ وهل لهؤلاء الأكثرين من قيمة أو من وظيفة في الحياة أو في حساب المجتمعات غير هذا؟ وهل لهم من مجد غير هذا أو أكبر من هذا؟ هل لأكثر الأنبياء والزعماء والقديسين من محد أكثر من أن يعبروا عن التألم ويطلقوه ويوزعوه ويعلموا إطلاقه وتوزيعه تحت شتى النظريات والشعارات؟

إن هؤلاء لا يعلمون إلا أنهم يؤدون أعمالاً نافعة وصحيحة بل أعمالاً بطولية، بل أعمالاً كلفتهم بها الآلهة والأديان والمذاهب والأخلاق والعقول والحضارات، بل كلفتهم بها الشموس والنجوم والأنهار والحقول، لكي يستطيعوا أن يصبحوا تفسيراً وثمناً وتسويغاً وتحية لمجيئها ولبقائها ولممارستها لنفسها ولوجودها، ولإعطائها ذاتها، كل ذاتها، للإنسان. نعم، هل يمكن أن يكون للشموس أو للنجوم أو للأنهار والحقول أي تفسير لولا هؤلاء الذين يجيئون ليفسروها ويسوغوها وليتحدثوا عن ذكائها وعن مجدها الفكري؟

إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا إلا أن عملهم هذا هو كل الانقاذ والتمجيد والتقويم والتصحيح وإعطاء السرور والذكاء والقوة والمنطق والتفسير للآلهة وللحياة، وللناس، ولكل الأشياء، ولأنفسهم أيضاً. كيف يمكن أن يقتنعوا بأن لمجيئهم تفسيراً أو منطقاً أو نفعاً لولا عملهم هذا، لولا تحويلهم لآلام الناس إلى أساليب قذف كاذب؟

إنهم لا يستطيعون ولا يريدون، ولا يسعدون إلا أن يكونوا صواغاً للآلام، أي إلا أن يحولوها إلى مذاهب وأديان وتعاليم وصلوات، وإلى كتب مقدسة، وإلى هموم كونية ووطنية وإنسانية، وإلى دموع آلهة وأخلاق آلهة.

إن جميع الأنبياء والوعاظ لا يجدون لهم أي مجد أو عمل سوى أن يتحولوا إلى دموع آلهة.

إنهم يحولون الإله إلى أضخم جهاز لإطلاق الألم وتفريغه من ذاته، لتفجيره باطلاً، لإفساد قوته، لامتصاص قوته لتحويلها إلى هباء وضعف وهزيمة، وإلى تقبل للهزيمة وإلى غفران لها.

لقد ظل الإله في كل التاريخ جهازاً جيداً لذلك. لقد ظل الإله أكبر وأشهر جهاز لاستفراغ الآلام ولاستفراغ مشاعر الغضب والرفض والاحتجاج.

إن البشر في كل تاريخهم لم يجدوا جهاز استفراغ يساوي الإله في جودته وضخامته وشموله.

إنه لافتراض له تاريخ إنه بقدر ما يكون الإنسان مصروفاً إلى التألم أي إلى إطلاق آلامه وإلى التعبير عنها بالأساليب المختلفة يشعر أنه بذلك يؤدي ذاته وحياته، ويؤدي حساباتهما، ويشعر أنه يلقي بهما في المعركة المطلوبة أو المفروضة، وأنه لم يبق منهما شيء ليلقي به في شيء آخر أو بأسلوب آخر. إن من يشغل بإطلاق آلامه وبالتعبير عنها بمختلف أساليب التألم لن يخشى عليه باتهام نفسه بأنه لا يؤدي أعمالاً جيدة أو أعمالاً هي كل الأعمال الجيدة.

لهذا فقد يبدو بعض الناس شيئاً شاذاً أو غريباً أو خروجاً على المعقول أو على المفروض أو على المنتظر حينما يستطيعون أن يجمعوا بين صناعة الآلام وأداء الأعمال الأخرى الكبيرة أو الصغيرة.

لقد علمتنا الطبيعة بأساليبها المختلفة أن المتألمين، أي المحولين لآلامهم، لغضبهم واحتجاجاتهم ورفضهم واستنكارهم، ولمضادة الأشياء لهم، أي لمنطقهم ولأمانيهم ولأخلاقهم ولاحتياجاتهم ـ لقد علمتنا الطبيعة أن المحولين لذلك إلى تعبيرات دينية أو مذهبية أو وطنية أو أخلاقية أو إنسانية يجيئون في المحتوم أو في الغالب أو في المفترض أعجز وأضعف وأكثر غفراناً وتقبلاً لما يواجهون ويعانون ويرون من آلام وأخطاء ومظالم وتفاهات ودمامات. إن الأطفال والشيوخ العاجزين قد يكونون هم أقوى وأشهر وأروع النماذج والأمثال لذلك وعلى ذلك. إنهم أكثر هذه الأساليب وأظهرها وأقواها.

ولكن كيف؟ هل الأطفال أشهر أو أظهر أو أقوى تدليلاً على هذه القضية من الأنبياء والزعماء والوعاظ وسائر المعلمين؟ أي الفريقين يستطيع أن يكون قائداً ومعلماً للفريق الآخر في هذه القضية؟ أيهم: الأطفال أم الأنبياء والزعماء والقديسون؟

إن الأطفال قد يبدون نماذج أو أعلى النماذج لذلك. إنهم ليبكون ويتضرعون ويصرخون ويشكون، ويضربون أنفسهم ويضربون الجدران والأرض وكل شيء. إنهم ليتألمون، أي يعبرون عن آلامهم بذلك أي بالبكاء والتضرع وبالشكوى والصراخ وبضرب الأشياء وتحطيمها، بأساليب كأن أحداً لا يستطيع أن يباريهم فيها ـ بأساليب كأنهم يبارون فيها ويتفوقون بها على جميع الأنبياء والزعماء والمعلمين وسائر من يعظون ـ كأنهم يريدون أو يكادون أو يطمعون أن ينافسوا هؤلاء، أي ينافسوا الأنبياء والزعماء والوعاظ والمعلمين. إن الأطفال ليفعلون ذلك وكأن أحداً لا يستطيع أن يتفوق عليهم أو يساويهم ما عدا الأنبياء والزعماء والوعاظ وسائر المعلمين.

إن هذه الأساليب في التألم هي أعظم ما يعمل الأطفال، وكذا الشيوخ العاجزون. وقد تكون هذه الأساليب هي كل ما يعملون ويستطيعون ويتقنون ويريدون.

ومن الذي علم الأطفال والشيوخ الضعفاء وكل العاجزين ذلك؟ كيف اهتدوا إليه وإلى ممارسته؟

إن الأطفال والشيوخ العاجزين هم أكثر الكائنات استفراغاً وتفريغاً للآلام والاحتجاجات، وللغضب، وللتناقض مع الأشياء، ولمواقف الاذلال والقهر والاهانات. إنهم أكثر الكائنات استفراغاً وتفريغاً لكل ذلك. إنهم أقدر الكائنات على تحويله إلى بكاء وصراخ وأنين وشكوى وتضرع، وإلى أساليب استفراغية أخرى كثيرة. هل لأنهم لا يستطيعون أن يعبروا بغير ذلك، أم لأنهم أقدر عليه، أم لأنه أسهل عليهم، أم لأسباب وحوافز أخرى؟ وقد يساوي الأطفال والشيوخ أو يتفوق عليهم في استفراغ الآلام وتفريغها الآلهة وليسوا الأنبياء والزعماء وحدهم. وهل يوجد من يساوي الآلهة في استفراغ آلامها وتفريغها؟

إن الحاجة إلى ممارسة أساليب التألم قد تكون حاجة أصيلة في الإنسان أو في كل نماذج الحياة

وصورها. قد تكون الحاجة إلى التألم بكل أساليبه المختلفة استجابة لتاريخ طويل يعيش داخل الإنسان، وداخل كل مستويات ونماذج الحياة والأحياء.

قد يهب التألم أي التعبير عن الألم النشوة العظمى. قد يكون ضرباً من الشعر والغناء والموسيقى، مؤداة ومسموعة. قد يكون التألم للآخرين أو مع الآخرين أو أمام الآخرين أو على مسمع من الآخرين أو باسم الآخرين ضرباً عالياً من الممارسات الجنسية. وهل الممارسات الجنسية إلا ممارسات للتألم؟ هل هي إلا استفراغ وتفريغ للألم من أجل الآخرين، أو مع الآخرين، أو بواسطة الآخرين، أو أمام الآخرين، أو باسم الآخرين أو على الآخرين؟

بل هل الممارسات الجنسية إلا أسلوب متوحش من الألم والتألم. من أداء الألم وصناعته واستفراغه؟

هل اللذة غير الألم؟ هل الألم غير اللذة؟ هل توجد لذة فقط أي من غير أن تكون ألماً أو من غير أن يكون فيها ألم؟ هل يوجد ألم فقط أي بلا لذة، أي دون أن يكون معنى من معاني اللذة؟ ما هي اللذة، وما هو الألم؟ هل هما شيئان؟ هل هما شيء واحد؟ هل هما الشيء ونقيضه، أو الشيء وأجزاءه أو الشيء ولغاته أو الشيء ومستوياته وتعبيراته أو الشيء ومثيله؟

هل توجد حدود فاصلة بين اللذة والألم؟ هل توجد حدود دولية أو محلية بينهما؟ هل توجد حدود أخلاقية أو علمية أو منطقية أو نفسية بين اللذة والألم؟ هل يوجد من يعرف هذه الحدود؟ هل يوجد من يستطيع أن يميز بينهما؟ هل يوجد من يستطيع ألا يتخطاها أو من لا يريد تخطيها؟

هل يستطيع من لا يتألم أن يتلذذ، أو من لا يتلذذ أن يتألم؟ هل يوجد من يريد أن يكون هذا دون هذا؟

هل الممارسة الجنسية ممارسة للذة أم ممارسة لنوع باهظ خادع من الألم؟ هل يوجد من يعرف ذلك أو من يستطيع أن يقدم جواباً؟

هل يستطيع ممارس الجنس أن يعرف. هل يمارس لذة أم يمارس ألماً رهيباً خداعاً؟ هل يستطيع القاتل أو الضارب أو الشاتم أو المعتدي أو الظالم أو الحاقد أن يعرف هل هو لذة أم ألماً؟

هل اللذات لذات أم آلام ـ أم آلام تمارس بنشوة أو بشهوة أو بحماس كما تمارس كذلك أفظع الآلام؟

هل الإنسان يبحث عن اللذة أم عن الألم في ممارساته ونياته وإراداته أم عنهما معاً، أم هو لا يبحث عن واحد منهما ولكنه يمارس نفسه ووجوده بالأسلوب العشوائي أو الفراري؟ هل ممارسة الموجود لوجوده لذة أم توريط فيه كل معاني التعذيب؟

هل نمارس ممارساتنا لأننا نحب ونختار أم لأننا لا نعرف، لأننا محكوم علينا؟ هل نختار اختيارنا وحبنا؟ لماذا؟

هل الإنسان حينما يصر على أن يوجد ويحيا ويبقى ويصنع الأبناء، وعلى أن يؤمن بالآلهة وبالزعماء وبالأنبياء والمعلمين، وبالأديان والمذاهب الشرسة العدوانية المتعصبة، وبالقوميات والوطنيات المحاربة والمعادية لجاراتها ولمثيلاتها، وعلى أن يخاصم ويشاتم ويكره ويظلم، بل وعلى أن يحب ويصادق ويشتهي ويعدل.

نعم، هل الإنسان حينما يصر على أن يصنع كل ذلك يبحث عن اللذة ويمارسها أم عن الألم ويمارسه؟

هل الذي يكذب ويتوقح ويتآمر ويفجر ويسقط ويتلوث ويقتل ويعادي ليكون زعيماً أو حاكماً أو طاغية أو نبياً أو معلماً أو قائداً ـ هل الذي يفعل كل هذا أو بعض هذا ليكون واحداً من هؤلاء يبحث عن اللذة أم عن الألم ـ وهل هو يمارس لذة أم يمارس ألماً حينما يصبح واحداً منهم فيذهب يمارس نفسه بالأسلوب والنية اللذين يمارس بهما الأنبياء والزعماء والقادة والحكام والطغاة أنفسهم؟ بل هل الإله يبحث عن اللذة أم عن الألم وهل يعرف الفرق بينهما حينما يصر على أن يوجد ويبقى ويتعامل مع البشر وبهم ويرسل إليهم الأنبياء والكتب ويطالبهم بأن يؤمنوا به ويعبدوه؟

هل الشيخ الفاني المتحول بدنه إلى أعجب وأعظم متحف ومعرض للأمراض والآلام والتشوهات والضعف والرفض للحياة ـ هل هو يمارس لذة أم ألماً، وهل يبحث عن اللذة أم عن الألم، حينما يتضرع ويتساقط تحت أقدام كل الأبالسة وكل الآلهة التي فعلت به كل هذا لكي تخلده في آلامه وهوانه وعاهاته وعجزه وهمومه، أو لكي تهبه كل اهتمامها وحماسها والتفاتها، فتبقي عليه ولو يوماً واحداً، ولو ساعة واحدة، لكي تستمتع أي الآلهة بالمزيد من المشاهدة لعبقريتها المعروضة لوحاتها فوق بدنه؟ بل هل الإله يعيش لذة أم ألماً حينما يبقي على هذا الشيخ الفاني وحينما يوقع به ذلك ليحدق في آلامه وليستمع إلى آهاته؟

هل مثل هذا الشيخ يعرف الحدود بين اللذة والألم، أو يعرف ما هي اللذة وما الألم، أو هل هو يبحث عن اللذة أم عن الألم مهما كان جاهلاً بهما وبالحدود بينهما؟

هل الحشرة في إصرارها على البقاء وفي ممارساتها تبحث عن اللذة أم عن الألم، وهل هي تعرف الفرق بينهما؟ هل الحشرة في مجيئها وفي نضالها لتبقى وفي ممارساتها لوجودها ولحياتها؟

وفي ممارساتها الجنسية ـ هل هي في ذلك تبحث عن اللذة والمجد وتمارسهما أم عن الألم والهوان وتمارسهما؟

وهل الناس، كل الناس، وأي الناس أفضل أو أذكى سلوكاً أو تفكيراً أو تدبيراً أو إرادة من أمثال هذا الشيخ وهذه الحشرة؟

هل هم يعرفون الحدود بين اللذة والألم، أو ما هي اللذة وما الألم ـ أو هل هم يبحثون عن اللذة أم عن الألم أكثر أو أفضل أو أذكى مما تفعل الحشرة؟

هل يستطيع الإنسان أن يضع حدوداً بين اللذة والألم أو تعريفاً لهما أكثر مما تستطيع ذلك أية حشرة؟

إذن هل الذين يمارسون الجنس يمارسون أعظم وأشهر اللذات كما يقولون ويظنون، أم هم يعانون حينما يمارسون الجنس أقسى الآلام الرهيبة الخادعة العالمية، الحضارية البدوية التاريخية الأبدية؟ هل الجنس هو أقسى الآلام العالمية الكونية أم هو أعمق النشوات الكونية العالمية؟ هل توجد في الجنس أعظم خدعة أو غلطة كونية عالمية؟

هل وجد، أو هل يوجد من يستطيع أن يدري أو من يريد أن يدري؟

هل الأفضل للإنسان أن يدري أم ألا يدري؟ أن يدري ما لا يدري أم ألا يدري ما يدري؟

هل يستطيع العلم أن يجعل الناس يدرون ذلك؟ هل يستطيع العلم أن يصنع أو يقيم حدوداً بين اللذات والآلام؟ هل يستطيع أن يجعل اللذات لذات فقط أي بلا آلام، وأن يجعل الآلام آلاماً فقط أي بلا لذات؟ هل يستطيع العلم أن يفعل ذلك؟ وهل من الخير أن يفعله؟

هل الناس يمارسون اللذات تلذذاً أم اضطراراً؟ هل يجوعون فيأكلون باللذة أم بالضرورة؟

هل يجيء الناس ويبقون ويمارسون أنفسهم ووجودهم كمن يستمتعون أم كمن يسقطون؟

وهل الذين يستمتعون يستمتعون أم يئنون ويتعذبون؟ هل يوجد من يستطيع أن يدري؟

* *

نعم، إن الباكين الداعين المتخشعين المصلين بارتجاف وهتاف في معابدهم وبين أيدي أربابهم، وإن الشاكين المستغيثين بزعمائهم وحكامهم وأنبيائهم، وإن الصارخين المولولين المنادين على آلامهم شاكلهم، كأنهم يريدون الإعلان عنها في براعة وإصرار - كأنهم يريدون أن يحاسبوا أو يعاقبوا بيها الكون والناس، أو أن يحولوا الإعلان عنها إلى اعتذار عن ذنوب الآلهة عن مواهب الآلهة، وأن المستمتعين والقارئين لمن يلعنون ويبكون ويشكون ويتألمون وينادون على آلامهم، وإن الزعماء والأنبياء والوعاظ والخطباء والكتاب الذين يذهبون ينوحون فوق جماهيرهم وأمامها وبها ومعها، خوفاً وحزناً عليها، وحباً واحتراماً لها، ودفاعاً عنها.

إن هؤلاء جميعاً وكذا أمثالهم هم من المستفرغين المفرغين لأنفسهم من غضبها ورفضها واحتجاجها ومن قدرتها على المقاومة ومن رغبتها فيها - إنهم من المفجرين لأسلحتهم تفجيراً كاذباً وبعيداً عن الأهداف، بل بلا أهداف.

إن هؤلاء جميعاً من دعاة الغفران للآلام والمظالم والبلادات، وللتعود على التقبل لها، والصفح عنها.

وهل في الأنبياء أو في الزعماء أو في المعلمين أو في الحكماء أو في رجال الدين من ليسوا من هؤلاء الدعاة للصفح والتقبل والغفران للآلام والمظالم والبلادات بل وللدمامات والذنوب والفضائح، بل ولتحويلها إلى مزايا باسم أية فكرة أو مذهب؟

لقد آمن الناس بالآلهة لكي يجعلوا منها غفراناً وتفسيراً وتقبلاً لما لا يمكن غفرانه أو تفسيره أو تقبله.

أجل، إن أكثر الناس أو كل الناس كلما ازدادت الآلام والمشاكل والمظالم فتكاً بهم ومواجهة لهم ازدادوا إلقاء بها خارج أنفسهم وفوق مجتمعاتهم، وحولوها إلى أساليب استفراغية، إلى أساليب تعبدية وشعرية وغنائية وبكائية. إلى أساليب استفراغية لا حدود ولا حصر لابتكاراتها وللتجديد فيها. إن أكثر الناس أو كل الناس لا يكتفون بأن يغفروا للآلام والمظالم والأخطاء والبلادات التي يواجهون بل يحولونها إلى شعر وغناء وهتاف وفنون.

إن أنين الجريح قد يضعف رغبته في المقاومة وقدرته عليها. إن أنينه قد يتحول إلى استرخاء في إرادته أو في غضبه أو في أعصاب يديه. إن الجريح الذي يبتلع أو يحتبس أنينه وعويله ولعناته قد يكون أقدر على الانتقام، وأكثر حماساً له والتزاماً به.

وهل أنين الجريح أو صراخه إلا تفريغ لغضبه ولتصميمه على الثأر وإلا فلماذا يفعل؟ لماذا يئن الجريح أو يصرخ أو يطلق دموعه إذا لم يكن يريد أن يفرغ غضبه وتصميمه على الانتقام؟

إن الشاكي إلى الله هوانه وعذابه قد يكون أقل مقاومة له وإحساساً به واشمئزازاً منه ـ أي قد يصبح كذلك. وقد يكون قاصداً بشكواه إلى الله ما أصابه من هوان وعذاب أن يجعل ذلك، أي شكواه بديلاً أو تعويضاً عن الرفض والمقاومة لذلك الهوان والعذاب.

قد تكون شكواك إلى الله إعلاناً لتنازلك عن المقاومة والغضب. إن شكواك إلى الله قد تكون نوعاً من مسامحته عما فعل بك ومن مسامحة ما تشكو منه إليه. قد تكون تعجيزاً عن الرؤية لأخطائه.

إنه قد يبارك لك عدوك الذي اعتدى عليك وبطش بك أن تذهب إلى الله لتشكوه إليه بصلواتك ولعناتك وتضرعاتك. أي أن عدوك قد يبارك لك أن تذهب إلى إلهك لتستفرغ عليه أي على إلهك غضبك وحقدك عليه أي على عدوك بأسلوب السباب له والصلاة ضده وبأسلوب المطالبة بالانتقام لك منه. إنه لن يرفض أن تشكوه إلى إلهك. بل إن عدوك لخليق أن يرشوك ويأجرك لكي تشكوه إلى إلهك وتطالبه بالانتقام لك منه وتصلي له أي لإلهك ضده.

إن هذه العملية استفراغية يريدها ويتمناها ويرضاها لك كل أعدائك وكل الظالمين والمدينين لك. وليست قيمة هذه العملية الاستفراغية في أنها تعني الإيمان بالله والاعتماد عليه ليؤدي هو بديلاً عنك ممارسة الانتقام لك من أعدائك وظالميك وقاهريك. إن كل هذا لا قيمة له، ولكن القيمة كلها لعملية

الاستفراغ النفسي. والله هنا ليس إلا وسيطاً في هذا الاستفراغ ومساعداً عليه، أو ليس إلا شيئاً جاء الاستفراغ باسمه.

إن الاستفراغ النفسي على الإله وباسمه سلوك بشري، كان يمارسه كل الناس في كل التاريخ. وإنه لا يزال يمارسه حتى اليوم الكثيرون من الناس.

رب قوم كانت أنفسهم تتزاحم وتغلي بالشحنات العظيمة المتوقدة من الاحتجاجات، ومن الغضب والرفض الأخلاقي والفكري والإنساني، ومن سائر الانفعالات الثمينة، ضد ما يمارسون ويواجهون ويجدون ويعرفون، ذهبوا إلى معبد من المعابد، أو إلى مهرجان من المهرجانات، ليخطب فيه زعيم أو قائد أو خطيب، يجيد فن البكاء والتألم وإراقة الانفعالات في أقوى الكلمات بلاغة وحماساً، فأراقوا تلك الشحنات النفسية الثمينة الغاضبة المتوهجة، وحولوها إلى آهات دموع وأنين، وإلى صلوات وتضرعات، وإلى شتائم جيدة، جيدة، منطلقة من كل الأعصاب والأخلاق والأفواه ومن كل الصفوف، وإلى كل أساليب التهديد والتحقير والتشنيع والارتجاف والاتهام.

نعم، رب قوم كانوا كذلك فعلوا كل هذا فرجعوا من مهرجانهم أو من معبدهم، من أمام إلههم أو من أمام زعيمهم أو قائدهم أو خطيبهم ـ رجعوا بلا أي غضب أو احتجاج أو رفض أو نية في المقاومة أو في الغضب أو في الرفض. رجعوا وقد أراقوا كل انفعالاتهم وغفروا كل شيء ونسوا كل شيء. رجعوا وكأنهم قد هزموا كل الآلام والمظالم والدمامات والبلادات والتفاهات والذنوب، وكل الأحداث والأشياء المضادة والقبيحة والمذنبة والمشوهة ـ وكأنهم قد فجروا كل أسلحتهم، وقتلوا كل أعدائهم وآلامهم، وقهروا كل أحداث ووحدات الطبيعة، وأملوا عليها صلحاً وشروطاً لتكون مسالمة ومسلمة لهم، لتكون كما يأمرون ويريدون، لا تعصي ولا تخالف ولا تخرج ولا تتحرك إلا إذا أمروها وأرادوها.

رجعوا وقد غفروا للآلهة كل أخطائها وذنوبها وعجزها ووحشيتها. وكم هي هبات ضخمة أن تجد ما يهبك القدرة على الغفران للآلهة.

وهل يمكن الغفران للآلهة؟ كيف استطاع الإنسان أن يغفر للآلهة؟ كيف استطاع؟

إنها لإحدى معجزات الإنسان العقلية والأخلاقية والنفسية أن يجد أن يفعل ما يجعله يستطيع أن يغفر لآلهته أخلاقها أو ذكاءها أو موهبتها أو حنانها أو عدالتها أو جدها أو صدقها أو نظافتها. لقد كان الإنسان بذلك عظيماً جاداً أو تافهاً جداً.

وفي كل التاريخ بل في كل المجتمعات كانت المنابر والمحاريب والمعابد هي أشهر وأضخم وأقوى الأجهزة العالمية التي تهب الإنسان قدرته الخارقة على أن يغفر ويصفح ويتقبل كل ما يهين ويذل ويحقر ويناقض عقله وأخلاقه وشجاعته وشرفه وذكائه. لقد كانت المنابر والمحاريب والمعابد هي أعظم ما ابتكره البشر محاباة ومجاملة للدمامات والمظالم والآلام والهوان والعبث والبلادة، ليس فقط ليكون

كل ذلك مغفوراً أو مسوغاً أو مقبولاً، بل ليكون معبوداً ومقدساً ومنطقاً نهائياً لا يمكن اختراقه أو التفوق عليه.

* *

إن المسألة قد تكون تعويداً وظروفاً ـ إنها قد تكون كذلك فقط.

إن تفسير المسألة قد يعني أن الذين عودوا أن يحولوا غضبهم وآلامهم واحتجاجهم على غباء ومظالم وبذاءات الكون والناس إلى بكاء وصلاة ـ مع وقوعهم في الظروف الملائمة لهذا التعويد أو الملزمة به ـ بكوا وصلوا ضد ما يشكون وينكرون ويرفضون، فاستفرغوا شكواهم وإنكارهم ورفضهم، فاستراحوا وابتهجوا وافتخروا، كمن عملوا وقاوموا وانتصروا. أما الذين عودوا أن يعملوا ويقاوموا ويرفضوا دون أن يصلوا ويبكوا ويلعنوا ـ أي دون أن يحولوا آلامهم إلى أساليب استفراغية من أساليب التألم ـ مع وجودهم في الظروف الملائمة أو الملزمة بأن يفعلوا ذلك ـ فقد عملوا وقاوموا ورفضوا، وأقلوا من أساليب التألم، أي من الأساليب الاستفراغية ـ أي أقلوا من تحويل آلامهم إلى أساليب تعويضية، يراد منها وبها أن تغني أو تلهي عن المقاومة والغضب والرفض، أو أن تستنفد الطاقة والحماس، أو أن ترخي من شد الأيدي لأصابعها.

يراد منها وبها أن تحطم السلاح وأن تفرغه من رصاصاته المحاربة.. أن تنسيه عمله التاريخي والرسمي والعالمي.

إنه النهر.. قد يسير في طريقه بكل قوته وحماسه وجنونه الغامض، يصنع الحياة ويروي الناس والنباتات والحشرات التي لم تضرع إليه أو ترد منه أن يفعل لها ذلك، والتي لا تدري لماذا يفعل لها، والتي لا تدري هل يستحق الشكر والثناء على هذا الذي يفعل أم يستحق العقاب والهجاء والتوبيخ ـ هل يفعل كصديق أم كعدو أم كعبث، أم يفعل دون أن يكون صديقاً أو عدواً أو عبثاً ـ أم يفعل لأنه لا يستطيع ألا يفعل، أن يحترم سلوكه.

إنه النهر قد يسير كذلك، كما قد يترك ليسير هائماً أو راشداً على قدميه الضالتين الخاطئتين ليصنع الأوحال والمستنقعات والموت والخراب والأحزان والدموع. وفي أي حالتيه يكون النهر أذكى أو أتقى أو أكثر صنعاً للآلام والأحزان والدموع بل والموت والخراب؟

إنه الشيء الواحد، قد يكون هذا وقد يكون نقيضه. وإنه الإنسان قد يحول تناقضه مع الأشياء وتحديها له، وخروجها على منطقه وأخلاقه وكبريائه ـ قد يحول ذلك إلى أساليب استفراغية ذليلة بذيئة، كما قد يحوله إلى نضال وقوة وانتصار ـ كما قد يحول ذلك إلى وقاحات وبذاءات وتفاهات منتصرة عظيمة.

* *

أيها الباكون المتألمون المظلومون المقهورون المحولون لآلامهم ومظالمهم وقهرهم إلى تضرعات

وصلوات ودموع، وإلى خطب فيها صراخ وسباب وبذاءات ـ أليس الذكاء والقوة والإبقاء على الرغبة في المقاومة وعلى القدرة عليها ألا تفعلوا شيئاً من ذلك؟

أليس من الذكاء ومن أساليب الإبقاء على قوتكم وعلى روح المقاومة فيكم ألا تتضرعوا أو تصلوا أو تخطبوا ضد أعدائكم وآلامكم لئلا تتساقط احتمالاتكم وقدراتكم وغضبكم ورفضكم وآلامكم دموعاً وزفرات وصلوات وتضرعات وشتائم؟

أليس من الذكاء ومن أساليب الابقاء على إرادة المقاومة والقدرة عليها ألا تستمعوا إلى من يفعلون لكم أو بكم أو باسمكم أو من أجلكم ذلك؟

احتسبوا كل طاقاتكم وتناقضاتكم وخصوماتكم وعداواتكم العقلية والنفسية والأخلاقية والسلوكية مع الطبيعة ومع الآخرين ومع أنفسكم ـ احتسبوها لتتفجر نضالاً ومقاومة ولذات وقحة حمقاء مقتحمة منتصرة مبدعة مقاتلة.

احتسبوها لتتحول إلى أكف ضاربة وإلى خطوات مقتحمة متجاوزة وإلى تحديقات غاضبة رافضة محاربة.

احتسبوها ولا تتركوها تتقاطر في المعابد وفي المحاريب وتحت المنابر ـ ولا تتركوها تتقاطر تحت أقدام الزعماء والأنبياء والوعاظ والقديسين ـ تتقاطر آهات ودموعاً وصلوات وتضرعات وتعاليم وخطباً وشتائم.. لا تبددوها هباء، هباء. لا تحولوها إلى أكذب نضال..

احتسبوها ولا تتركوا الأنبياء والزعماء والقديسين يسرقونها منكم. إن هؤلاء هم أبداً لصوص عقولكم وأخلاقكم وقدراتكم. إنهم لصوص غضبكم. ولكن لماذا يمكن الزعم بأن هذا هو الذكاء؟ ولماذا لا يكون هو الغباء؟ ما المقياس، وما المنطق الذي يعرف به الذكاء والغباء ويضع الفروق ويخطط الحدود بينهما؟ هل يوجد هذا المنطق أو هذا المقياس؟ هل وجد هذا المنطق وهذا المقياس أو عرفه من يتحدثون عن الذكاء وعن الغباء، ومن يحكمون بهما، أو يتعاملون ويعاملون عليهما وباسمهما؟

وإذا كان هذا هو الذكاء فلماذا لا يكون هو الذي يفعله ويختاره الناس؟

لماذا لا يفعل ويختار الناس هذا الذي هو الذكاء؟ ولماذا يختارون ويفعلون النقيض الذي هو الغباء؟ هل الغباء أفضل أو أنفع أو أكثر إغراء أو أكثر ملاءمة؟

هل الغباء أكثر ذكاء من الذكاء، وأكثر توافقاً مع الحياة ومع الكون ومع الناس.

هل الغباء كل ذلك؟ هل له كل هذه المزايا على الذكاء؟

إذن فليكن الغباء هو الذي يكون، وليكن الذكاء هو الذي لا يكون.

هل الناس هم الذين يختارون الذكاء والغباء، أم الذكاء والغباء هما اللذان يختاران الناس؟

ولكن ما الذكاء، وما الغباء؟ كيف عرفت أن هذا ذكاء وعرفت أن هذا غباء؟

كيف جرؤت أن تسمي هذا ذكاء وهذا غباء؟ ما المنطق، ما المقاييس التي عرفت وحكمت بها؟

كيف عرف الأذكياء أن هذا ذكاء وأن هذا غباء ـ وكيف عرف الأغبياء؟

ما هي الأدوات أو الأجهزة أو الوسائل أو القوانين أو التعاليم أو المذاهب أو الأديان التي عرفوا بها واطمأنوا إلى معرفتهم بها؟ هل عرفوا بلا وسائل معرفة؟ هل عرفوا بلا معرفة؟

كيف عرف الأنبياء أنهم أنبياء؟ كيف عرفوا أن الذي جاء إليهم ملاك وليس شيطاناً أو شيئاً آخر؟ كيف عرفوا أن الذي يسمعونه وسمعوه هو صوت الملاك أو صوت الإله وليس صوتاً آخر؟ ألا توجد في حسابهم أصوات أخرى؟ كيف عرفوا الفروق بين الأصوات؟ هل تعرف الأصوات الصادقة وكذا الأصوات الكاذبة بالأذن؟ وكيف تعرف الأذن أنها قد عرفت؟ كيف عرفوا أي الأنبياء أن التعاليم التي أوحيت إليهم هي تعاليم إله وليست أحلاماً أو تفاسير أحلام، بل وليست احتلاماً أو جوعاً إلى الاحتلام؟ كيف أبعدوا هذه الاحتمالات؟

أليس الأنبياء أيضاً يحلمون ويحتلمون؟ أليست أحلامهم واحتلاماتهم قد تكون غير نبوات وغير وحي؟

كيف عرفوا أنهم ليسوا حالمين أو محتلمين أو مفسرين للأحلام وللاحتلام؟

كيف صدقوا وتقبلوا وعرفوا؟ كيف لم يشكوا أو يتسائلوا أو يتحروا؟ كيف لم يطلبوا برهاناً أو شهادة أو أي شيء؟ كيف لم يعرفوا أنه ليس حتماً أن تكون أحلامهم وكل احتلاماتهم نبوات وأصوات آلهة أو أصوات ملائكة؟ كيف عرفوا أنهم تصوروا أنفسهم؟

كيف لم يموتوا أو يجنوا من الشك والرهبة ومن البحث والتساؤل؟

كيف وهبوا هذه السرعة في التصديق أو هذه الرغبة في التصديق أو هذا التظاهر بالتصديق؟

كيف تعرف أن الصوت الذي تسمعه هو الصوت الذي يذكر اسمه أو الصوت الذي تريده، أو الصوت الذي تثق به وتصدقه؟ كيف تصدق وتثق أن صوت الرعد الذي تسمعه هو صوت الإله أو صوت الملاك أو صوت النبي لو زعم لك ذلك، أو لو صمت عن هذا الزعم؟

كيف تصدق الصوت أو تصدق الصورة بأنها هي المطلوبة وبأنها كما تزعم لنفسها وعن نفسها؟

أليس تصديقك للصوت الذي يناديك لتكون نبياً أو ليزعم لك أنك قد أصبحت نبياً يساوي تصديقك بأن صوت الرعد أو صوت البركان أو صوت الاعصار ليس إلا مبايعة لك بالنبوة؟ وهل النبي إلا إنسان يقول له صوت الرعد أو البركان أو الإعصار: أنت نبي فيصدق ويعلن نفسه نبياً؟.

كيف تصدق أو تعرف لو جاء إليك أو لو ظهر لك من الجدار أو من سن قلمك من يزعم لك أنه هو الإله أو الملاك أو النبي؟ أليس التصديق بالنبوة يعني الاقتناع بأن الإله أو الملاك قد خرج من الجدار أو من سن القلم أو من بين الأظافر التي لم تقلم جيداً؟

كيف تصدق أنك تسمع صوت الإله أو صوت الطبيعة أو صوت الحقيقة لو سمعت صوتاً يناديك من الغمام أو من الظلام، يقول لك: لقد اخترناك زعيماً أو بطلاً أو نبياً أو قديساً أو منقذاً للعالم؟ كيف يصدق الإله أنه إله أو النبي أنه نبي أو الزعيم أنه زعيم أو القديس أنه قديس؟ أي صوت هتف لهم فصدقوا؟

كيف يصدق الناس يوم الدينونة، يوم يبعثون للجزاء ويمثلون بين يدي الديان الأعظم، بين يدي الإله، للحساب، للثواب وللعقاب ـ كيف يصدقون في ذلك اليوم، في ذلك الموقف أنهم حقاً أمام الإله، وأن الذي يدينهم ويقدمهم للدينونة هو الإله الموعود المتوعد الواعد الذي لم يسمعوا الحديث عن شيء مثلما سمعوا الحديث عنه، ولم يخوفوا بأحد أو بشيء مثلما خوفوا به، ولم تهن أو تجرح كبرياؤهم بشيء أو بأحد مثلما جرحت وأهينت بكبريائه، ولم تلعن وتشوه آذانهم وضمائرهم بصفات شيء أو بصفات أحد مثلما لعنت وشوهت بصفاته، ولم يعلموا أي نموذج خارج على جميع النماذج العقلية والنفسية والأخلاقية والذاتية مثلما علموا نموذجه.

نعم، كيف يصدقون هناك وحينذاك أنهم أمام الإله وليسوا أمام أحد الطغاة الذين جربوا وعانوا ورأوا منهم الكثير، الكثير فوق هذه الأرض المريضة بحب الطغاة وبإعطائهم كل أسباب التكاثر والقوة والانتصار والجنون وأسباب المجيء؟

كيف يصدقون؟ كيف يصدقون؟ وهل علم أنهم سوف يصدقون؟

هل يصدقون؟ هل يصدقون؟ هل حق ذلك؟ هل علم ذلك؟

وهل اقتنع أنك أنت وصديقك ستكونان ممن يصدقون؟ ألا يحتمل أي احتمال بل أقوى احتمال أن خدعة كبرى تعد للبشر في ذلك اليوم، يوم يزعم لهم أنهم أمام الله الذي لن يكونه؟

وإذا كنا نحن أبناء العروبة سنصدق أنه هو الإله وليس أحد الطغاة الجبارين الذين تعاقبوا على تاريخنا الجبان المهزوم الذليل الحزين فهل محتوم أو ممكن أن يصدق ذلك الآخرون؟ هل نستطيع أن نقتنع بأن أولئك الآخرين لن يكتشفوه ويرفضوه ويكذبوه ويقاوموه ويثبتوا له أنه ليس إياه؟ نعم، إن الإنسان العربي قد يصدق أنه أمام الإله في يوم الدينونة الرهيب حينما يسمع أصواتاً تقول ذلك كما صدق أنبياؤه أنهم يسمعون صوت الملاك.

أليس محتوماً أن يكتشفه ويسقطه أولئك الآخرون كما اكتشفوا وأسقطوا أضخم الأكاذيب والجهالات والخدع التي كانت تحكم كل التاريخ؟

وحينئذٍ ألا يمكن أن نستفيد نحن العرب من اكتشاف وإسقاط ورفض أولئك الآخرين في هذه القضية ـ قضية أنه ليس هو الإله الذي جمع له الناس وزعم أنه هو إياه، وإنما هو أحد الطغاة الذين جربت منهم الأرض كل الأهوال وكل الحماقات والموت والخراب ولا تزال تكرر تجاربها بنهم

وإعجاب وهوان وبداية. وحتماً، الفروق ليست كبيرة أو ليست واضحة أو محددة بين الطغاة وبين الآلهة في منطق أو في خيال المؤمنين.

نعم، ألا يمكن أن نستفيد حينئذٍ من مقاومة ورفض واكتشاف هؤلاء الآخرين في هذه القضية كما استفدنا من جميع اكتشافاتهم ومقاوماتهم ورفضهم، ومن انتصاراتهم وعبقرياتهم؟ إن غرورنا وكبرياءنا الأصيلين والدائمين لن يستطيعا أن يجعلانا نرفض الاستفادة من اكتشاف أولئك الآخرين في ذلك اليوم كما لم يستطيعا أن يجعلانا نرفض الاستفادة منهم هنا.

وقد يكون ما نستفيده من هؤلاء في هذه القضية هو أعظم وأنفع من جميع ما استفدناه منهم في جميع القضايا. إن ذلك سيكون إنقاذاً لا مثيل له.

إن طاغية لم يسبق له مثيل أو شبيه بين جميع الطغاة، يظهر لجميع البشر، ويحشر جميع البشر، زاعماً أنه إلههم، ليحاسبهم ويعاقبهم ثم يلقي بهم في الجحيم الذي تتحول أوصافه إلى تقايؤ على كل إله وعلى كل نبي وعلى كل قديس وعلى كل إنسان، كما تتحول أي صفاته إلى تحقير وتشويه لكل كينونة ولكل شيء، إلى تحقير وتشويه لكل خيال وذكاء وجمال وحب ووقار واتزان ـ كما تتحول أوصافه إلى أوصاف الجحيم إلى هجاء لكل عبقرية كل البشر لأن بعضهم قد آمن بوجوده أي بوجود الجحيم.

نعم، إن خدعة أو أكذوبة كونية وعالمية بهذا المستوى وبهذه الضخامة والوحشية قد ينقذ أبناء العروبة منها هؤلاء الذين وهبوا أبناء العروبة ووهبوا كل أبناء البشر كل هذه العطايا والمستويات الحضارية والعلمية والعقلية والإنسانية التي يتحول الثناء عليها والإحصاء لها والاعتراف بها أعظم عدوان عليها وتشويه لها لأنها أكبر من كل ثناء وإحصاء واعتراف.

إذن أليس إنقاذنا من هذه الخدعة أو من هذه الأكذوبة الكونية العالمية هو أعظم وأنفع من جميع ما أعطانا هؤلاء الآخرون من عطايا هي أكبر من الإحصاء ومن الثناء والاعتراف؟ إنهم يكتشفون لنا ذلك الطاغية الذي يجمع كل البشر زاعماً أنه الإله العالمي الكوني ليقضي فيهم قضاء نهائياً أبداً يحول كل شيء إلى أعلى مستويات العار والدمامة والجنون والسخف والتشوه والحقارة والتحقير.

إذن إن علينا نحن أبناء العروبة ألا نسارع في ذلك الموقف إلى التصديق بأننا أمام إله. إن علينا أن ننتظر ما يقوله ويكتشفه أولئك الآخرون. فلعلنا أمام طاغية لا أمام إله. لعلهم يكتشفون لنا ذلك كما اكتشفوا لنا نفطنا. وكما اكتشفوا لنا أيضاً ضعفنا وجهلنا.

نعم، إننا أبناء العروبة لن نعرف في ذلك اليوم، في ذلك الموقف، في ذلك الحشر ـ لن نعرف أننا أمام طاغية لا أمام إله. ولكن أولئك الآخرين قد يعرفون، أو لا بد أن يعرفوا كما عرفوا جميع الأشياء التي لم نعرفها نحن أبناء العروبة.

وحينئذٍ قد تنقذنا، أو لا بد أن تنقذنا معرفتهم من هذه الخدعة أو الأكذوبة العالمية الكونية التي

تحدث عنها كل البشر، والتي أرهبت كل البشر، والتي تنتظر كل البشر. لقد وهبنا أولئك الآخرون الحياة هنا فلعلهم يهبوننا الإنقاذ هناك. لقد أعطونا دائماً الأفضل والأذكى والأصدق.

كيف يعرف الإنسان؟ وكيف يعرف أنه يعرف، أو أنه قد عرف؟ وهل يعرف مهما عرف أنه يعرف؟ وهل المعرفة شرط في شيء، في أي شيء؟

هل المعرفة شرط في الاقتناع أو في الإرادة أو في الإعجاب أو في الإقدام أو في القوة أو في الابداع؟ بل هل المعرفة شرط في المعرفة؟ ألسنا نعرف كل شيء دون أن نعرف شيئاً أو لأننا لا نعرف شيئاً؟ أليس أقلنا معرفة هو أكثرنا معرفة؟

أليس أجرؤنا على أن يعلمنا هو أقلنا علماً بما يعلمنا؟ ولكن كيف نعرف أن هذا هو الذي يعرف وأن ذاك هو الذي لا يعرف؟

ماذا لو كان الإنسان لا يريد ولا يشتهي ولا يقدم ولا يفعل ولا يقتنع ولا يتحدث ولا يكون ولا يخاصم ولا يقاوم ولا يرفض ولا يعادي إلا إذا كان يعرف؟ ماذا لو كانت المعرفة شرطاً في الحياة أو في الوجود أو في الكينونة أو في الزعامة أو في النبوة أو في القيادة أو في التعليم أو في التصديق؟

ماذا لو كانت الطبيعة، أو لو كانت الحشرة لا تمارس أية كينونة من كينوناتها إلا إذا كانت تعرف؟ ماذا لو كانت الآلهة لا تريد ولا تدبر ولا تأمر ولا تعلم ولا تخلق إلا إذا كانت تعرف؟

ماذا لو كانت الآلهة تملك موهبة الشك وموهبة الاحترام للمنطق وللمعرفة أو موهبة الاحترام للذات؟

ماذا لو كان الإنسان يعرف؟ ماذا يحدث وماذا يكون حينئذٍ؟

ماذا لو كانت الطبيعة والأشياء تعرف؟ ماذا لو كانت الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة والمعلمون يعرفون، أو لا يفعلون ولا يريدون ولا يقولون إلا ما يعرفون؟

ولكن ما المعرفة، وماذا يعني القول بأن هذا الكائن أو هذا الإنسان عارف أو يعرف؟ وهل توجد معرفة أم كينونة فقط؟ أليس ما ندعوه معرفة ما هو إلا كينونة بأسلوب ما؟ أليست كل معرفة هي كينونة؟ وهل أية كينونة معرفة؟ وهل من الكينونات ما هو معرفة؟ هل تكون لأنك تعرف، أم تعرف وتكون لأنك تكون؟

ألست تكون دون أن تعرف؟ ولكن هل تعرف دون أن تكون؟

أليست المعرفة هي تفسير الكينونة ولغتها وحكمها وعطاءها؟ وهل تكون الكينونة عطاء المعرفة أو لغتها أو تفسيرها أو حكمها؟ أليست الكينونة مهما بدت في أحد الأساليب أنها معطاة أو محكومة أو معبر بها أو مفسر بها في كل الأساليب المعطية والحاكمة والتفسير والتعبير عن كل شيء، والبداية والنموذج والمنطق لكل شيء؟

إنها لو كانت مخلوقة لكانت حتماً هي الخالقة لخالقها، والواهبة لخالقها كل صفاته وأخلاقه وقواه وأفكاره.

إن المعرفة قد تصنع، ولكنها لا تصنع إلا بقوة الكينونة وبتحريضها وأوامرها، وباحتياجاتها وأساليبها، وعلى نموذجها، ولمصلحتها أي لمصلحة الكينونة، وبتعاليمها.

إن الكينونة لم تصنع المعرفة لأنها شرط فيها ولا لأنها شوق من أشواقها أو صلاة من صلواتها، أو حاجة من حاجاتها، أو تدبير من منطقها، أو لأنها جمال أو مجد لها أو فيها. ولكنها تصنع المعرفة بالأسلوب الذي تصنع به كل آفاقها ونقائصها وأخطائها وآلامها وبلاداتها وعبثها. إنها تصنع المعرفة لأنها لا تستطيع إلا أن تصنعها، لا لأنها تريدها أو تدبر لها أو تعرف مزاياها، ولا لأنها لا تستطيع أن تحترم نفسها أو تتقبلها إلا بها.

والإنسان لقد صنع معرفته ومنطقه وأرادهما واستطاعهما ووجدهما بالأسلوب الذي صنع وأراد واستطاع ووجد ودبر به صنع شعر رأسه ووجهه وإبطيه، وصنع حقده وغضبه وخوفه وجوعه وموته.

لقد اكتسب الإنسان طور الكائن الذي يعرف ويفكر بالأسلوب الذي اكتسب به نموذجه الذاتي... بالأسلوب الذي اكتسب به طور من يجوع ويمرض ويشيخ ويموت.

* *

إن القطرات المتحدرة من عيوننا في معبد، أو حين سماع عظة أو حين تذكر جبروت ووعيد إله جبار ـ وإن الأنات والصرخات المتفلتة من أعصابنا وأخلاقنا وأفواهنا، حين معاناتنا لألم أو لهوان أو لهزيمة أو لموقف ذليل أو لضعف ما ـ وإن صلواتنا وتوجهاتنا إلى إله أو إلى نبي أو إلى قديس، ندعو ونطالب ونتضرع ونلهث ونتساقط.

إن ذلك كله ليس إلا ضروراتنا وطاقاتنا واحتجاجاتنا وغضبنا واحتمالات المقاومة فينا قد تحولت إلى أسلحة فاسدة، وإلى مقاومة كاذبة، وإلى استفراغ على ذواتنا.

إن التعاليم والثقافات والعبادات والنبوات التي روضتنا طويلاً، طويلاً على أن نتحول إلى استفراغ على أنفسنا وعلى تاريخنا وعلى حياتنا، بين يدي أربابنا وأنبيائنا وزعمائنا ووعاظنا، وفي معابدنا ومحاريبنا وتحت منابرنا. إن هذه التعاليم والثقافات والنبوات والعبادات لهي أحد أعدائنا الشرسين العالميين. إن علينا أن نقاومها بالأسلوب والحماس اللذين نقاوم بهما أشرس الأعداء. إن كل صلاة وتضرع وصراخ وأنين وسباب ودمعة وتوجه إلى أي إله أو نبي أو قديس بالهتاف والدعاء والمناشدة ـ إن كل ذلك ليس إلا استفراغاً للذات على الذات.

إنه لحق علينا أن نحمي دموعنا وإهاناتنا وهزائمنا وضروراتنا وآلامنا ومشاعرنا الغضبى وأنيننا وصراخنا من التبديد والضياع والتفجير فوق المنابر، وفي المعابد والمحاريب، وفي الصلوات والضراعات والهتافات، وفي مناجاة الآلهة والأنبياء والقديسين، وبين أيديهم، وفي أفواه الزعماء والقادة والوعاظ

والشعراء والكتّاب الشاتمين المحقرين الصارخين المبددين المفجرين لنا على كل الاتجاهات، فوق جميع الكلمات.

نعم، إنه لحق علينا أن نحمي كل ذلك بقدر ما هو حق علينا أن نحمي شرفنا وكرامتنا ونظافتنا وشجاعتنا وذكاءنا وأوطاننا من جميع اللصوص والأعداء، أو بقدر ما هو حق علينا أن نحمي أسلحتنا من أن تفجر تفجيراً كاذباً.

* *

إننا نعني هنا تبديد الألم، أي تبديد قوته، وتبديد الإحساس به، والرفض له، والغضب عليه. إننا نعني استفراغه استفراغاً كاذباً، نعني إنفاقه إنفاقاً كاذباً أو إنفاقاً ضعيفاً. إننا نعني إنفاقه على الأنين والدموع والتضرعات والصلوات وفي الدعاء والهتاف ضده وضد أسبابه وموقعيه بنا. إننا نعني استفراغه في المعابد والمحاريب، وتحت المنابر، وبين أيدي الزعماء والقادة والأنبياء، وبأفواه الزعماء والقادة والأنبياء. إننا نعني تحويله إلى سلاح كاذب، أو سلاح نطلقه بلا أهداف، أو نطلقه على أنفسنا وبين صفوفنا ـ أو نعني التفريغ له لئلا يصبح سلاحاً.

إن الألم قوة، كقوة العقل والذكاء والعلم، وكقوة العضل والسلاح. إنه قوة على جميع الاتجاهات. وإنه ليمكن تبديده كما يمكن تبديد أية قوة.

إن البشر لم يبددوا شيئاً تبديداً كاذباً مثلما بددوا ويبددون آلامهم، أي مثلما خدعوا آلامهم، وخدعوا الشعور بها وخدعوا أساليب مقاومتها والرغبة في مقاومتها. إنهم ما خدعوا شيئاً في أنفسهم مثلما خدعوا فيها طاقة الألم والغضب والرفض والاشمئزاز والرؤية.

لقد ابتكر البشر ومارسوا من الأساليب والأدوات والأجهزة لتبديد قوة الألم وقوة الغضب منه والاحتجاج عليه ما لم يبتكروا ويمارسوا مثله لتبديد أية قوة أخرى من قواهم التي لا بد أن يناضلوا ويبتكروا لتبديدها. لقد كان محكوماً على البشر أن يحتاجوا إلى تبديد قواهم وأن يحولوا محاولات تبديدهم لقواهم إلى أجهزة وأدوات وأساليب متنوعة وكبيرة.

إن أي نبي أو معلم أو زعيم أو قديس قد جاء ليبدد قوى الإنسان وليقتلها بالتخدير والتنويم والتفريغ، لم يستطع أن يبدد، بل ولم يحاول أن يبدد أية قوة من قواه أي من قوى الإنسان مثلما استطاع أن يبدد وحاول أن يبدد فيه قوة الألم أو قوة الرفض للألم والاحتجاج عليه والاستنكار له. وإن أي نبي ومعلم وزعيم وقديس لا بد أن يكون أحد أجهزة وأدوات وأساليب التبديد لقوى الإنسان.

إن أي محراب وأي منبر وأي معبد وأي كتاب منزل وأي دين وأي وعد أو تفاؤل مذهبي ـ إن أي شيء من ذلك ليس سوى جهاز من أجهزة التبديد والتفريغ والتخدير والتنويم والمخادعة لقوة الألم في الإنسان وأيضاً لتبديد قواه الأخرى. إن أي مذهب أو دين أو نبي أو زعيم لا بد أن يكون في حسابه أو في محاولاته تبديد قوة الألم وخداع الألم في المجتمع الذي يجيء إليه.

لقد فرضت الآلام على الإنسان بوحشية، فلم يستطع التداوي أو التخلص منها، ولم يستطع كذلك تحملها. إذن فليحاول تبديدها، ليحاول خداعها وإسكاتها والاحتيال عليها بالمهادنة وبالتنويم والتخدير. إذن فليحولها إلى أساليب استفراغية. إذن فليأت المستفرغون عنه والمستفرغون عليه وفيه والمستفرغون له.

إذن فليأت الأنبياء والزعماء والقديسون وكل أصناف المعلمين ليصبحوا هم أجهزة وأدوات هذه الأساليب الاستفراغية. هل وجد الناس أو يجدون أية مزية للأنبياء والزعماء والقديسين تجعلهم يؤمنون بهم أعظم أو أنفع من هذه المزية، أي من مزية تبديدهم لقوة آلامهم وتحويلها إلى أساليب متنوعة من الاستفراغ؟

* *

إن كل ما نفعله ونهبه ليس إلا تعبيراً ما عن الألم، حتى الابداع والعبقرية والأفكار العظيمة، حتى اللذات والسرور والرقص والضحكات الضاجة من النشوة ـ إن جميع ذلك ليس إلا تعبيراً عن الألم، أو احتجاجاً عليه. إن جميع ذلك ليس إلا ألواناً من رقصات الألم ولغاته. إن اهتزازات وصيحات النشوة ليست سوى ارتجافات وآهات الألم جاءت بأسلوب أكثر خداعاً وعنفاً.

إن كل ذلك ليس سوى احتجاج وغضب قويين وفعالين على تفاهات الكون والحياة والناس، وعلى تفاهات الآلهة والطغاة والعقائد والمذاهب، وعلى المظالم والحقارات التي يواجهها ويعيشها ويصنعها ويتعامل بها الإنسان على أعلى مستوياته الدينية والأخلاقية والإنسانية حتى ليحولها في كبرياء إعلانية مثيرة إلى أديان ومذاهب وفلسفات، وإلى كرامة وطنية أو قومية.

إن كل ذلك ليس سوى تعبير عن الاحتجاج والغضب الحادين على ما في عيون الأشياء وعلى ما في عيون الآلهة من بلادة وغفلة واسترخاء ووحشية وضآلة ومن فضول بذيء. ما أقسى التطلع إلى عيون الآلهة وإلى عيون الأشياء. ما أقدر عيون الآلهة وعيون جميع الأشياء على إثارة الغيظ والغضب والاشمئزاز والكآبة العقلية والأخلاقية.

... إن كل ذلك لا بد أن يصنع آلاماً باهظة ودائمة للإنسان. إن كل ذلك لا بد أن يتحول إلى آلام تتحدى عقله وأخلاقه ورؤيته وتمنياته ومثله وحياته، بل تتحدى أديانه ومذاهبه. إنه حينئذٍ لا بد أن يذهب يرفض ويقاوم ويحتج بأعماله التي قد تعد طيبة والتي قد تعد رديئة. هل يكون إنساناً من لا يحتج؟ هل يكون إنساناً من لا يحتج على ذكاء الآلهة وعلى أخلاقها؟ هل يكون إنساناً من يرضى عن الآلهة؟

إن هذا هو الاحتجاج أو التعبير السوي والقوي. إنه التعبير عن الألم والاحتجاج عليه بالابداع والقوة. إنه الهرب إلى النقيض. إنه الغضب على ما في عيون الآلهة وعيون الطبيعة من بلادة وقسوة ودمامة وموت وفضول. إنه الغضب المقاوم الرافض. إنه الرفض المبدع المتجاوز.

.. أما الاحتجاج أو التعبير البائس أو العاجز أو الضعيف أو البليد، أو الذي يبدو لنا كذلك فهو التعبير عن الألم أو الاحتجاج عليه بالتألم، بتحويل الآلام إلى أساليب استفراغية، أو إلى أساليب قذف كاذب. وهل يوجد من لا يمارسون الأساليب الاستفراغية أو أساليب القذف الكاذب؟ أليست كل الممارسات أساليب مختلفة للاستفراغ أو للقذف الكاذب؟

أليست الصلاة والدعاء والهتاف وسب الشيطان نماذج رائعة لأساليب القذف الكاذب وللأساليب الاستفراغية؟ أليست جميع أعمالنا الأخرى هي نماذج رائعة لهذه الأساليب كالصلاة والدعاء والهتاف وسب الشيطان؟ أليس كذلك ولو في النية والمعنى؟

إن التألم أي التعبير عن الألم بأساليب القذف الكاذب، ليس علاجاً للألم، أي ليس رفضاً أو مقاومة له، وليس كذلك إضعافاً أو إبطالاً لأسبابه، وإنما هو استسلام وهزيمة له. إنه محاولة توقيع هدنة بالتسليم والتقبل والتوافق معه. إنه نوع من تصوف التقبل والاستسلام والرضا والتلاؤم مع كل ما هو كائن وكل ما يمكن أن يكون. إنه ترويض للعقل والأخلاق والنفس على تحويل ما يحدث ويسوء ويوجع ويقهر إلى عبادة. إنه محكوم على جميع البشر أن يمارسوا أساليب مختلفة من الترويض لعقولهم وأخلاقهم ونفوسهم. إن الحياة لمستحيلة وجنون بدون هذا الترويض.

إن التألم ليس إلا تحويلاً للألم إلى استجداء للنجوم البعيدة الغافلة المشغولة بأحزانها وآلامها وتفاهاتها وبمخاوفها وضياعها، ضاربة وضالة في آفاقها الواسعة الرهيبة، مربوطة إليها ومحكومة بها، دون أن تعرف لماذا، ولا إلى أين ولا إلى متى، ولا من الفاعل أو الرابح أو المدبر أو المريد. ودون أن تسأل عن رأيها أو عن مصلحتها أو عن قبولها ورفضها. ودون احترام لكرامتها أو لحريتها أو لمشاعرها ودون فكاك لها من هذه العبودية البائسة الحزينة الكئيبة المظلومة، المجهولة التفاسير.. وقد تكرر مرات أن المراد بالتألم هو التعبير عن الألم والإفراز له ليضعف الشعور به وتضعف الرغبة في مقاومته ويضعف ستقباحه.

إن المراد بالتألم هو البحث عن أسباب لغفران الآلام ولغفران أسبابها وصانعيها.

إن العبقرية والابداع علاج قوي للألم، أو احتجاج قوي عليه، أو رفض قوي له. إنهم أي العبقرية والابداع رد ذكي ملائم على الآلام ـ أو هما الرد الذي نتمناه ونتحدث عنه أحياناً بتعاليمنا ومذاهبنا ومثلنا المختارة المقررة المكتوبة. إننا لا بد أن نرى العبقرية والابداع كذلك لأننا لا بد أن نجد شيئاً نمتدحه ونرضاه ونجعله نموذجاً لسلوكنا وأمانينا.

أما أساليب الاستفراغ أو أساليب القذف الكاذب فإنها بحث عن الاستسلام للآلام وعن التوافق والتعايش معها وفيها بمحبة وطاعة وغفران وصفح، بل بتعبد ورهبانية، دون أن تكون علاجاً لها، بل دون أن يراد لها ذلك. ولكن أيهما أنفع للإنسان: أن يقاوم الآلام أم أن يتعلم معايشتها بسلام؟ من يستطيع أن يحكم أو يعرف؟

إن الأنين والصلاة أسلوبان من أساليب الاعتذار عن الآلام والمظالم والأخطاء والحقارات، من أساليب الإخفاء لها وأساليب الصرف عن رؤية دمامتها. إنهما أي الصلاة والأنين دعوة إلى التسامح مع الدمامات والأخطاء والآلام والحقارات والمظالم والضياع. ولماذا يختار الإنسان الاعتذار عن ذلك على مقاومته؟ أليس يبحث عن الراحة؟ وهل الذكاء إلا بحث عن الراحة؟ وهل العبقرية والنضال المميت إلا بحث عن الراحة؟

إن الصلاة للإله والتضرع إليه بحماس وحرارة وارتجاف تعبيران من تعبيرات الدعوة إلى التسامح والضعف في مقاومة وقاحات الذباب والطغيان والألم والمرض، وفي مقاومة كل وقاحات كل الطبيعة والأشياء. إنهما تعبيران من تعبيرات الدعوة إلى العجز عن رؤية ما في الطبيعة والآلهة والأشياء من قبح وبذاءة وبلادة ووحشية، وإلى العجز عن الإحساس بذلك والإحساس ضده، وعن الغضب عليه ومنه.

إن الصلاة للآلهة والتضرع إليها أسلوبان من أساليب الغفران لها والتعجيز عن رؤيتها والاحتجاج عليها. إنهما أي الصلاة والتضرع إلى الأرباب أو إلى الأنبياء والزعماء والقديسين - إنهما مقاومة لموهبة الاشمئزاز والغضب والرفض والتحديق في الإنسان. إنهما لغتان من لغات الإعلان عن الغفران للذباب والطغيان والألم والمرض، وللدمامات والتشوهات والمظالم، وللموت والهوان - أو هما لغتان من لغات الإعلان عن الرغبة في هذا الغفران، أو عن الرغبة في التخلي عن كل مقاومة باسلة، وعن كل غضب مقاتل، وعن كل رؤية رافضة أو مستنكرة أو مشمئزة أو حتى ناقدة. إن قيمة الصلاة والهتاف والتضرع للإله أو للزعيم أو للنبي أو للقديس ليست في تمجيده بل في الغفران لذنوبه وفي التعجيز عن رؤية تشوهاته وعاهاته وتفاهاته، وعن الإحساس ضدها، وعن الغضب عليها. إن العجز عن رؤية الإله لأفضل له من عبادته.

إن الإنسان هو أكثر الكائنات احتجاجاً على الطبيعة وعلى الأشياء المعادية المناقضة له المعتدية عليه. ولكنه أكثر هذه الكائنات ابتكاراً لأساليب الاعتذار والصفح عنها. بل إن الإنسان هو وحده الذي يفعل هذا وهذا دون جميع الكائنات.

فهل الإنسان إذن هو أذكى الكائنات وأفضلها وأشجعها أم هو أغباها وأردؤها وأجبنها؟ هل الأفضل للإنسان أن تكون له كل مزاياه ولذاته لتكون له كل رذائله وآلامه أم ألا تكون له هذه لئلا تكون له هذه؟

* *

ولكن حذار من المسارعة إلى تصديق هذه التفاسير للإنسان. فالإنسان كائن صعب تفسيره. إنه كائن يصعب ضبطه بالتفاسير. ونحن هنا نفترض للإنسان تفاسير ولكن يصعب فهمها أو ضبطها. وهل للإنسان حقاً تفاسير؟

إن الإنسان هو وحده الكائن الذي يصنع التفاسير لنفسه وللأشياء، وإنه كذلك هو وحده الكائن الذي لا يساويه أو يشبهه شيء في صعوبة تفسيره.

إنه هو وحده صانع التفاسير، وإنه هو وحده أكثر من يتعب ويضلل ويعجز التفاسير. إنه أكثر من يتعب ويضلل ويعجز التفاسير بمنطقه وبأخلاقه وبكينونته وبحياته، بل وبتفاسيره. إنه بتفاسيره يضلل ويتعب ويعجز التفاسير، كما يضللها ويعجزها ويتعبها بكل مستوياته ونياته وكينوناته وباختلافاته بل وباتفاقاته. وإن كان للإنسان حقاً تفاسير هي أصعب التفاسير فمن الذي يضع هذه التفاسير؟ ومن الذي يراها أو يجدها أو يعرفها أو يحددها أو يتحدث عنها؟

* *

هل يمكن أن يعرف أول من ابتكر السباب أو تعامل به أو تفجر فيه؟

وهل يمكن أن يكون لهذا أول؟

هل يمكن أن يكون هناك أول قد ابتكر الحقد أو الغضب أو الحزن أو الحسد أو الجوع أو النوم أو اللغة أو الصلاة أو التضرع أو الدعاء أو الهتاف أو البكاء أو الغيبة أو النميمة، أو تعامل بذلك، أو تفجر فيه ذلك؟ وهل هذه الآفات ابتكار أم انفجار؟

هل الناس يبتكرون انفعالاتهم وآلامهم والتعبير عنها أم هي تتفجر فيهم تفجراً؟

أليس السباب قد حدث أو جاء أو تخلق أو ابتكر أو تفجر في الناس أو تعاملوا به بالأسلوب الذي أصبح به الناس يحقدون ويغضبون ويحسدون ويحزنون ويجوعون وينامون ويتكلمون ويبكون ويصلون ويهتفون ويتضرعون ويدعون ويغتابون وينمون؟

وهل يمكن أن يكون لشيء من ذلك أول؟ إنها لكثيرة الأشياء التي ليس لها أول والتي لا يمكن أن يكون لها أول. هل الأحداث أو الأشياء أو الطبيعة أو الناس أو الآلام أو الأحزان أو الأخطاء أو البلادات أو التفاهات أو الأكاذيب أو الأخلاق أو المخاوف تجيء أفراداً أم تجيء جماعات؟ بالتعليم أم بالموهبة؟

هل يمكن أن يكون هناك أول من نبتت له عينان أو أذنان أو رجلان، أو أول من أصابته الشيخوخة أو الأمراض أو الموت أو أول من خلق فيه الاستعداد لذلك، أو أول من اقتنعوا بأن من الأذكى والأنفع والأستر لهم أن يمتدحوا الإله ويعصوه، وأن يذموا الشيطان ويطيعوه؟

وإنه لو كان قد وجد أول قد ابتكر السباب أو تعامل به أو تفجر في ذاته لكان ذلك الأول هو الطبيعة أو الآلهة أو الأنبياء والزعماء والقادة والكتّاب والفنانين. وأيهما المتهم الأول في ابتكار السباب وتعليمه: الطبيعة أم الآلهة أم الأنبياء والزعماء والقادة والكتّاب والفنانون أي إن كان يوجد متهم أول؟

وهل السباب يعلم أم فقط يوجه ويحرض ويشرع وتصاغ صيغته وتعلم لغته ووسائله ومكانه وزمانه ويحدد من يسدد إليه ويطلق عليه؟

هل في ضمير التطور الحضاري المتصاعد أن يتخطى الإنسان طور السباب؟ أي هل في نيات المستقبل واحتمالاته أن يصبح الإنسان كائناً لا يحقد ولا يبغض ولا يحسد ولا يحزن ولا يبكي ولا يصلي أو يتضرع أو يدعو أو يصرخ أو يهتف أو يئن أو يسب أو يتعذب بالرؤية والمواجهة والتنافر؟

أي هل يمكن أن يصبح كائناً لا يتناقض أو يتصادم مع الأشياء وبها ومع الآخرين وبهم بمنطقه أو بأخلاقه أو بأحاسيسه واحتياجاته أو بوجوده أو بذاته، أو ألا يعبر عن هذا التناقض والتصادم بأي أسلوب، أو أن يعبر عنه بأساليب أخرى؟ هل يمكن أن يصبح بلا شحنات نفسية وفكرية وأخلاقية، أو ألا يعبر عنها، أو أن يعبر عنها بلغات وصيغ أخرى؟

هل محتوم أن يكون لهذا السؤال جواب؟ وإذا كان له جواب فهل محتوم أو محتمل أن تستطاع معرفته؟ وهل من يعرفون الجواب ـ لو وجدوا ـ يعرفون أنهم قد عرفوه؟ وهل توجد وسائل لدى من يعرفون ليعرفوا بها أنهم قد عرفوا؟ وكيف يعرفون صدق هذه الوسائل لو وجدت؟

كيف يقتنعون بأنهم قد عرفوا مهما عرفوا، ومهما اقتنعوا بأنهم قد عرفوا؟

نعم، كيف يقتنع العارف بمعرفته ويثق بها؟ وكيف يعلن عنها؟

إن من لا يعرف قد يقتنع بأنه يعرف. إذن من يعرف كيف يثق بأنه يعرف؟ لماذا لا يكون ممن لا يعرفون ويظنون أنهم يعرفون؟ هل السباب لغة أم حالة؟ هل هو شعور ونية وموقف أم تعبير؟

هل الساب بحالته وبشعوره وبموقفه ونيته دون لغته وتعبيره ليس ساباً؟

أو هل الذي لا يسب بلسانه ليس ساباً مهما سب بأهوائه وبظروفه وبمصالحه وباتجاهاته وبمناقضاته وتصادماته؟

إذن هل يمكن أن يصبح الإنسان غير ساب بمعانيه وتفاسيره ومعاملاته وبكينوناته وتحديقاته؟

أي هل يستطيع الإنسان أن يكون غير ساب مهما أصبح غير ساب بلغاته وتعبيراته، من فوق منابره، وعلى ألسنة أنبيائه وزعمائه، أي لو استطاع أن يكون غير ساب بهذا الأسلوب وبهذه الأدوات العالمية السباب؟

وهل الذي يسب بوضعه دون أن يسب بقوله متدين أو مهذب؟ وهل هو أكثر تهذيباً أو تديناً ممن يسب بقوله دون أن يسب بوضعه، أو ممن يسب بقوله لأنه يسب بوضعه؟ وإنهم لكثيرون أولئك الذين يسبون بأقوالهم دون أن يسبوا بنفوسهم أو بقلوبهم. وإنهم لكثيرون أولئك الذين يسبون بنفوسهم وقلوبهم ونياتهم وأخلاقهم دون أن يسبوا بلغاتهم..

وهل من يسب بلغته أعظم ذنباً ممن يسب بعيونه أو بهمومه أو بأفكاره أو بقلبه؟

وهل يوجد أو وجد من لا يسب بعيونه وبهمومه وبأفكاره وبقلبه؟

وهل السباب سباب أو هل هو شيء رديء أو بذيء أو مكروه أو مرفوض أو مزعج إلا لأنه سباب بالعيون والهموم وبالأفكار وبالقلوب لا لأنه سباب باللغة؟

وهل يعتقد أنك تسبه من تسبه بلغتك دون أن تسبه بأفكارك أو بتحديقاتك أو بهمومك أو بقلبك؟

وهل يعتقد أنك لا تسبه من تسبه بأفكارك أو بتحديقاتك أو بهمومك أو بقلبك دون أن تسبه بلغتك، أو لأنك لا تسبه بلغتك؟

إذن هل يمكن أن يتخطى الإنسان طور السباب بمعانيه الصامتة والناطقة؟

وهل يمكن أن يوجد إنسان واحد لا يكون ساباً ومسبوباً بشيء من معاني وأساليب السباب الصامتة والناطقة، أو بكل معاني وأساليب هذا السباب أي الصامت منه والناطق؟

إذن أليس العظماء والفضلاء والأذكياء والشرفاء هم أكثر الناس سباباً، أي بمعاني السباب الصامتة، أي بأفكارهم وأخلاقهم وقلوبهم وبهمومهم وتحديقاتهم؟

ما أقسى هذا السباب، سباب العيون والأفكار والأخلاق والقلوب الذي يسبه العظماء والأذكياء والفضلاء والشرفاء. إن هؤلاء لا بد أن يكونوا أكثر الناس عذاباً لأنهم لا بد أن يكونوا أكثر الناس سباباً للأشياء بعيونهم وعقولهم وبأخلاقهم وقلوبهم.

إن هؤلاء لا بد أن يكونوا أكثر الناس تناقضاً مع الأشياء ومع الناس، وتصادماً بها وبهم، واحتجاجاً عليها وعليهم، ورفضاً لها ولهم. وأيضاً لا بد أن تكون الأشياء والناس كذلك أكثر تناقضاً وتصادماً واحتجاجاً ورفضاً في تعاملها وتعاملهم معهم أي مع العظماء والفضلاء والأذكياء والشرفاء وفي مواجهتهم وفي الإحصاء عليهم. إذن لا بد أن يكون هؤلاء هم أشد الناس عذاباً. نعم، لقد كان محتوماً ومعقولاً جداً أن يكون هؤلاء أي العظماء والفضلاء والأذكياء والشرفاء هم أكثر الناس سباباً صامتاً، أي بأفكارهم وأخلاقهم وهمومهم وتحديقاتهم وبقلوبهم وبتمنياتهم وشروطهم. إنه السباب الصامت الذي لا يوجد أعلى منه صوتاً... كما كان محتوماً ومعقولاً أن يكونوا هم أشد الناس عذاباً...

وهذا السباب هو أقسى وأقصى أساليب السباب. بل إن هذا هو كل تفاسير السباب وكل معانيه وأسبابه. إنه السباب الخالد الذي يعيشه ويمارسه كل شيء وكل أحد، منطلقاً منه ومنطلقاً إليه.

هل يمكن أن يكون الجمال أو الذكاء غير ساب للقبح أو للغباء، أو أن يكون الغباء أو القبح غير ساب للذكاء أو للجمال، أي سباباً صامتاً أو سباباً ناطقاً جداً وضاجاً جداً ولكن بلا لغة أو بلغة أخرى؟

أواه.. ما هي الحدود بين المعقول وغير المعقول.. بين الجيد والرديء.. بين النافع والضار.. بين التهذيب والهمجية.. بين ما ينبغي وما لا ينبغي.. بين ما هو مجد وما هو نذالة..؟

ما هي هذه الحدود؟ ومن يضعها أو يعرفها أو يحترمها أو يستمسك بها؟

وهل وجد أو هل يوجد هؤلاء الذين يضعون أو يعرفون أو يحترمون أو يلتزمون هذه الحدود؟

أواه.. أين أنت يا هذه الحدود؟ هل توجدين، وأين توجدين؟

أين الباحثون عنك.. أين هم؟ أين أنت منهم يا هذه الحدود؟

أواه أيتها الحدود.. بين المعقول وغير المعقول، وبين الجيد والرديء، وبين النافع والضار، وبين الحضارة والهمجية، وبين الذكاء والغباء.. وبين المجد والنذالة؟

هل أنت هاربة أو مهروب منك؟ هل الأفضل أن تكوني موجودة أم الأفضل أن تكوني مفقودة؟ هل يوجد من يدري، أو من يريد أن يدري، أو من ينفعه أن يدري؟

هل الناس يدرون لأنهم يدرون أم لأنهم لا يدرون؟ وكم هم الذين يدرون لأنهم لا يدرون.

وهل الذين يدرون يرون بأنهم يدرون أكثر مما يرى الذين لا يدرون بأنهم يدرون؟

* *

أواه أيتها الحدود المفقودة الموجودة.. الهاربة المهروب منها.. التي يتحدث عنها كل إنسان ولا يعرفها أي إنسان، والتي يمتدحها كل إنسان ولا ينوي أو يستطيع الالتزام بها أي إنسان.. أواه أيتها الحدود بين المعقول وغير المعقول.. بين الجيد والرديء.. بين الضار والنافع.. بين التهذيب والهمجية.. بين الذكاء والغباء.. بين المجد والنذالة.

أواه أيتها الحدود..

أيتها الحدود.. هل أنت موجودة؟ إذن لماذا لا يجدك الناس أو يعرفونك أو يلتزمون بك؟ هل أنت غير موجودة ولا يمكن أن تكوني موجودة؟ إذن لماذا يتحدثون عنك ويطالبون بك ويزعمونك ويزعمون أنهم يجدونك؟

هل الناس يريدونك ويستطيعونك؟ إذن لماذا لا يصنعونك؟

هل هم يخافونك ويرفضونك؟ إذن لماذا يمتدحونك؟

أواه أيتها الحدود...

أيتها الحدود بين المعقول وغير المعقول.. بين الجيد والرديء بين النافع والضار.. بين الذكاء والغباء.. بين التهذيب والهمجية.. بين المجد والنذالة.. بين الجمال والدمامة.. بين العظمة والتفاهة.. بين التهريج والبطولة.. بين الهوان والكبرياء.. بين الذكاء والغباء.. بين النبوة والادعاء.. بين النبي والدجال..

.. أواه أيتها الحدود. بين الشيء ونقيضه.

هل أنت موجودة؟ هل يمكن أن تكوني موجودة؟

هل يجدك أحد؟ هل يريدك أحد؟ هل يعرفك أحد؟

أيتها الحدود المكتوبة.. المقروءة.. المخطوب بها.. المنزلة في ألواح كل نبي وكل معلم وكل زعيم وكل خطيب.. وعلى لسان كل بذيء وكذاب وبليد، دون أن يعرفك أو يجدك، أو يريدك أحد..

أواه أيتها الحدود..

أيتها الحدود بين الأشياء وأضدادها...

* *

هل كان يمكن أن يكون الإنسان أذكى أو أفضل أو أكبر مما قد كان، أو هل يمكن أن يكون أذكى أو أفضل أو أكبر مما سوف يكون؟

إذن لماذا لم يكن ولماذا لن يكون هذا الأذكى الأفضل الأكبر؟

أي قانون أو إله أو كائن خير أو شرير يعيش هنا أو يعيش بعيداً قد اختار للإنسان وفرض عليه هذه الصيغة التي قد كانها والصيغ الأخرى التي سوف يكونها؟

.. أي قانون، أو أي إله أو أي كائن خير أو شرير، ذكي أو غبي، قوي أو ضعيف قد اختار وفرض ودبر ورضي ما قد كان وما لا بد أن يكون؟

غباء الإنسان تعويضٌ له عن قسوة الطبيعة عليه

«.. لقد ظل الإنسان في كل تاريخه وتحت كل مستوياته الحضارية والإنسانية والثقافية والنفسية يصوغ آلهته ومذاهبه وتعاليمه ونظرياته لتكون أقوى وأشمل الأجهزة على تبريد انفعالاته وذكائه وتلقين مشاعره كل معاني ومستويات الخمول والاسترخاء والبلادة والعجز عن الغضب والرفض والاحتجاج. لقد كان يصوغ آلهته بلا عيون ولا آذان ولا أعصاب ولا شهامة ولا نظافة لكي يعيش معها وأمامها دون ارتجاف أو تهذيب. لقد صنع لآلهته حواس ولكنه جعلها حواس بلا وظيفة. لقد صاغها بحيث لا تخيفه ولا تزجره ولا تأمره ولا تقلقه. لقد خلق حواس آلهته صماء. لقد كان الله في كل التاريخ هو أضخم وأشهر جهاز للتبريد عرفه الإنسان وحاول أن يقاوم به كل تحريضات واحتجاجات وحماس وذكاء الحياة فيه».

«.. لقد كان الله في كل التاريخ جهازاً ممتازاً أريد به أن يبرد فينا توقد واحتجاج اشمئزازنا العقلي والأخلاقي والنفسي والديني والمذهبي من الذباب من انتصار الذباب علينا. لقد أريد من الإله وبالإله أن يحمي الذباب من غضبنا واشمئزازنا ومن صراخنا استفظاعاً لانتصار الذباب على عبقريتنا وعلى مجدنا وكبريائنا ونظافتنا. لقد أريد من الإله وبالإله أن يحمينا من الغضب والاشمئزاز حينما نجد مجد الذباب قد تفوق على مجدنا ونجد بذاءته قد انتصرت على ذكائنا ونخوتنا وغرورنا وتقوانا وعلى صلواتنا وإيماننا وطهارتنا. لقد كان الذباب دائماً منتصراً علينا فكيف نخفي هذه الهزيمة أو هذا العار أو هذا الاذلال عن أنفسنا وعما ندعيه لأنفسنا من شجاعة ومن إيمان بالطهارة؟ لقد أردنا أن يكون الله هو جهاز الاخفاء. لقد جاء الإله ليكون قتلاً لعيوننا ولكل مشاعر النخوة فينا. لقد جاء الإله ليكون غطاء للذباب ولكل الحشرات لئلا نراها. إن رؤيتنا للذباب لا بد أن تتحول إلى رفض لصلاتنا ولإيماننا ولتحديقنا في أطفالنا وفي المرآة حامدين للمبدع الأعظم. إن الإيمان بالله يحمي عيوننا ومشاعرنا من الرؤية للذباب ومن الغضب والرفض له.. لقد آمنا بالإله لنحتمي به ثم لكي نحتمي منه تصورناه خامداً بطيئاً ساذجاً مخدوعاً يتقبل الرشوة والتوبة والاعتذار والصلاة والدعاء والامتداح جاعلاً الثمن أن يعفو ويغفر ويرضى ويجزي...».

إن منطق الإنسان لا يكون خارج الكون، إنه لا يكون شيئاً غير فهم الكون والأشياء وتفسيرها. إنه لا يوجد منطق أو تفكير خارج الكون، كما لا يوجد خطأ ولا صواب خارج الكون. إن المنطق والتفكير هما أخلاق الأشياء وقوانينها، محولة إلى تفاسير وصيغ عقلية وإنسانية. إن التفكير أو المنطق المصيب هو الذي يستطيع فهم الكون وتفسيره بلا خطأ أو عجز، وإن المنطق أو التفكير الخاطىء هو الذي يعجز عن هذا الفهم وعن هذا التفسير. إن الكون هو كل المنطق وكل الخطأ والصواب.

لقد كان الكون دائماً أكبر من عقل الإنسان، أي كانت أخلاق الكون وقوانينه دائماً أكبر وأبعد من منطق الإنسان ومن قدرته على التفكير والتفسير. كان الكون دائماً عدواناً على الإنسان وتعذيباً له، لأنه كان يفرض نفسه عليه أي على منطقه وتفكيره وحياته بقسوة وبلا عدل. كان الكون دائماً يفرض على منطق الإنسان مواجهة هي أكبر وأوسع منه كثيراً. وكان مفروضاً عليه معاناة هذه المواجهة وتقبلها، بل ومعايشتها، بل وتحديها، بل والتفوق عليها.

لهذا لم يكن من الممكن حتى اليوم أن يستطيع التفكير الإنساني تصحيح نفسه. كان تصحيحه لنفسه شيئاً فوق الاحتمال. إن تصحيح المنطق أو التفكير الإنساني لنفسه يعني أن يعي وأن يفسر بلا أي خطأ أو عجز كل أخلاق وقوانين واحتمالات كل الكون والأشياء، بكل ماضيها وحاضرها ومستقبلها وبكل إمكاناتها وأساليبها وصيغها ودروبها، وبكل لغاتها ونصوصها وطبعاتها. إذن لقد كان محكوماً على المنطق الإنساني بالعجز والخطأ لأنه قد حكم عليه بمواجهة ما لا يستطيع التكافؤ معه وما لا يستطيع الهرب منه، أو الكف عنه.

وهل ذنب أو تقصير في التفكير الإنساني أن يكون عاجزاً عن تصحيح نفسه، أي أن يكون عاجزاً عن فهم وتفسير كل أخلاق وقوانين كل الطبيعة، بكل احتمالاتها وإمكاناتها، وبكل أساليبها وصيغها ولغاتها ونصوصها وطبعاتها وتعبيراتها، وبكل ماضيها وحاضرها ومستقبلها؟ وهل يمكن أن يستطيع

كل ذلك في يوم مقبل؟ إنه لا شاهد لمنطقك بأنه خطأ أو صواب سوى الكون. إن الكون هو خصم منطقك وحكمه.

إن التفكير الإنساني لم يستطع على مستوى عالمي أن يتسامى إلى أن يعرف بأن الحياة ليست إلا حركة تحكمها وتوجهها وتصوغ أخلاقها ومنطقها الحاجة، وان الكون ليس إلا حرية تقيدها وتضبطها وتوزعها الضرورة الذاتية. إن التفكير الإنساني لم يستطع أن يتسامى إلى أن يعرف على مستوى عالمي أن الكون ليس إلا حرية فاقدة للحرية.

إن من التفكير الإنساني تفكيراً يؤله الكون والحياة. إنه يرى كل شيء إلهاً، أو يرى في كل شيء إلهاً، يرى في كل شيء منطق إله، وتعبير إله، وإرادة إله، وأخلاق إله، وشرف ورحمة وحب وضمير إله. إنه يرى، في كل شيء إلهاً قد جاء في صورة أخرى، قد تجسد شيئاً أو تجسد في شيء. إن كل الأشياء هي الله قد جاء في صيغ شتى، وإن الله في كل صيغه وتفاسيره وأخلاقه وذكائه ونظافته ومستوياته هو الأشياء متصوراً بصور أخرى.

إن كل شيء مدبر ومخطط ومراد وموضوع. حتى النظم الاجتماعية والاقتصادية والمذهبية، وحتى الأخلاق، وحتى الآلام والأمراض والعاهات والتشوهات وكل النقائص، وحتى الجراح في وجه القمر - حتى كل هذه منزلة ومدبرة ومخططة ومرادة وموضوعة. حتى بلاهة الشمس وكبرياؤها البليدة مدبرة ومحسوبة وموضوعة بحسابات وموهبة إله، حتى أحقر وأفجر طاغية.

إذن هي خالدة وذكية وجميلة وطيبة لأنها هي الإله في كل مستوياته وأساليبه وصوره، وفي كل ذكائه ومشيئته وطموحه وكبريائه، إنها هي الله في كل أمجاده. إنها هي عيناه ومرآته وشعره وموسيقاه وفنونه وحبه ونظافته ورحمته وبره وسخاؤه..

والكون المحيط بنا والبعيد جداً عنا، إنه مدبر تدبيراً نهائياً، وإنه مصوغ ومصبوب في نماذج ومستويات، وفي صور وأخلاق هي كل النظام والحكمة والحب والبراعة التي لا يمكن أن يتصور أو أن يكون ما هو أذكى أو أقوى أو أفضل منها.

إننا بهذا التفكير أو بهذا الاعتقاد نتحول إلى مناقضة وإلى هجاء واتهام وتحقير للإله ولمنطقه وعمله وأخلاقه، أي كلما فكرنا أو تصرفنا أو غضبنا من شيء أو لعنا شيئاً أو رفضنا شيئاً أو نقدنا شيئاً. لأن كل ذلك لن يكون حينئذٍ إلا خروجاً على الإله واحتجاجاً عليه، ولن يكون كذلك إلا محاولة لتصحيح سلوكه أو منطقه أو نياته. إنه لن يكون إلا أسلوباً من أساليب التخطئة للإله. لهذا لا بد أن نرى في فساد الكون والحياة وفي غبائهما ومظالمهما وفي جميع تشوهاتهما وعاهاتهما منطقاً لا أسمى ولا أذكى منه، كما لا بد أن نرى أيضاً في ذلك حكمة مقصودة يعبد الله ويمجد بالرضا والحديث عنها وبالشكر لها وعليها. أي لئلا نكون مخطئين للإله. إن تصحيح عملك أو نقضه لأكثر تخطئة واتهاماً لك من تخطئتك واتهامك ونقدك بالكلام. إذن فالذين يصححون أو ينقضون ما فعل الإله هم

أكثر نقداً واتهاماً له من الذين ينقدونه أو يتهمونه بالكلام. إنهم يخطئون الإله بأعنف أساليب التخطئة.

إننا لو كنا نسير على أي منطق والتزمنا بهذا المنطق وحافظنا على التلاؤم معه لكان محتوماً ألا نفعل وألا نغير شيئاً في هذا الكون، بل وألا ننقد شيئاً..

لقد كان محتوماً حينئذٍ ألا نقتل ذبابة، وألا نقاوم أو نكره مرضاً، وألا نربط بحراً ببحر، وألا نغير مجرى نهر، وألا نحول صحراء أو أرضاً ميتة إلى أرض حية. لأن كل ذلك، أي مجيء الذباب، والفصل بين البحرين، والمجرى القديم للنهر، وجفاف وموت الصحراء والأرض، إنما كان ودبر كله بمنطق وحكمة وأخلاقية إله. فتغييره، بل التدخل فيه بأي أسلوب لن يكون حينئذٍ إلا اعتداء على الإله، وإلا تحقيراً وتجهيلاً له بكل الأساليب والمستويات واللغات والتعبيرات.

وإنه لواجب حينئذٍ أن نرى أكفر الناس وأكثرهم عدواناً على الله هم الأذكياء والمبدعون اللذين هم أقدر الناس على أن يغيروا وينقضوا عمل الله، وعلى أن يحتجوا بشتى الأساليب على منطقه المبثوث في هذا الكون بمنطقهم المقاوم والرافض له. إن الإنسان حينئذٍ لا بد أن يكون معتدياً على الإله وخارجاً عليه ومحقراً له بقدر ما يكون مبدعاً وقوياً وعبقرياً. إن العلماء والأطباء والمهندسين لا بد أن يكونوا حينئذٍ هم أفظع من يعتدون على الإله وأفظع من يحقرونه ويفضحونه ويغيظونه.

إن من قتل ذبابة فقد قتل الله، أي فقد قتل أحد معانيه، بل فقد قتل الله في صورة أخرى، أي فقد قتل الله متجسداً في ذبابة. إن الذبابة بهذا المنطق جزء من التركيب أو من التصميم العقلي والأخلاقي والفني لذات الإله. بل إن الذبابة هي الله قد ظهر في صورة ذبابة. إن الذبابة هي أخلاق الله وعبقريته وكل مواهبه ومستوياته قد عرضت في ذات وأخلاق ومستوى ذبابة.

إن التفكير المؤمن يرى أن الحشرات ليست سوى عبقرية الإله وأخلاقه قد جاءت بأقوى وأذكى وأنظف وأرحم أساليبها.

لهذا كان تصميم الذات الإلهية - تصميمها الأخلاقي والمنطقي والنفسي والفني موجباً لخلق الذبابة، وملتزماً بخلقها. إذن فقتل الذبابة قتل لهذه الذات، أي للذات الإلهية.

إنه لو كانت ذات الإله الموجودة كاملة ومعقولة ومفهومة وجميلة بدون الذباب لما خلق الذباب. ولو أنها أي ذات الإله كانت غير موجودة أو غير حكيمة أو غير كاملة أو غير جميلة بدون الذباب لكان قتله أو رفضه أو الاشمئزاز منه أو استقباحه قتلاً لها أي لذات الإله ولكمالها وجمالها وحكمتها، ورفضاً لها، واستقباحاً واشمئزازاً منها.

إن قتل الذباب حينئذٍ قتل لذات الإله، قتل لكل بنائها المنطقي والأخلاقي والنفسي والفني. إنه لأعظم جنون وسفه أن يوجد الذباب إن كان الله أو الكون جميلاً أو كاملاً بدون الذباب، وإنه لأعظم عدوان وزندقة أن يقتل الذباب أو يموت إن لم يكن الله أو الكون جميلاً أو كاملاً إلا به.

إن الأسئلة لا بد أن تتهاوى علينا ومن حولنا هكذا، بل وبكل أسلوب آخر...

إن كان الإله معقولاً وكاملاً وراضياً عن نفسه وعن فنه ومجده وطموحه بدون الذباب فلماذا خلقه، وإن لم يكن ممكناً أن يكون معقولاً وكاملاً وراضياً عن عبقريته وعن وجوده إلا بأن يكون الذباب موجوداً، فلماذا إذن نقتله. إن قتله حينئذٍ قتل لكون الإله معقولاً وكاملاً وراضياً عن نفسه. إن قتل الذباب حينئذٍ قتل لكون الإله معقولاً، ولكونه عاقلاً، وقتل لافتراضه معقولاً أو عاقلاً. إن قتل الذباب حينئذٍ أضخم عدوان على الله وعلى عبقريته وعلى نظافته وعلى حبه للبشر.

هذا حينما نفترض الله هو خالق الذباب وخالقاً لكل شيء.

أما إذا لم يكن الله هو خالق الذباب، أي بأن يكون الذباب قد خلق بلا تدبير، أي أنه قد جاء مثل خراج نبت في وجه الكون أو في أخلاقه وفي ذكائه، وكتعبير عن خلل أو فساد أو مرض أصاب إحدى غدد الطبيعة، فأفرزته إفرازاً مرضياً ـ وهل توجد احتمالات أو افتراضات لمجيء الذباب غير هذين الرأيين: الذباب كمال وجمال للإله أو خراج وعاهة في وجه الكون.

نعم، أما إذا لم يكن الله هو الذي خلق الذباب وإنما ولدته الطبيعة كتشوه من تشوهاتها فإن غير الذباب كالإنسان وكالأشياء كلها يصبح حينئذٍ مثل الذباب، قد خلق بلا تدبير. إذن فالإله غير موجود أو فالذباب كمال فيه وجمال له. وحينئذٍ يصبح قتله أي قتل الذباب تشويهاً لجمال الإله والكمال..

إنه إذا كان ممكناً أن يوجد أي شيء بلا خالق كان ممكناً أن توجد كل الأشياء كذلك بلا خالق، إن القانون أو الخلل الذي يخلق الذباب أو يخلق به الذباب يستطيع أن يخلق الإنسان أو أن يخلق به الإنسان، وأن يخلق به كل شيء، أو أن يخلق كل شيء. إن المنطق الذي خلق الذباب أو خلق به الذباب هو المنطق الذي خلق الإنسان أو خلق به الإنسان، وخلق به كل شيء.

إنه إذا كان الإنسان قد خلق بمنطق أعلى فإن الذباب قد خلق حتماً بذلك المنطق الأعلى. إن الفرق بين الإنسان والذباب ليس فرقاً منطقياً، أو ليس فرقاً بين خالق وخالق، أو ليس فرقاً في منطق الخالق أو في مستويات منطقه. وإنه لا توجد فروق في الحوافز الأخلاقية التي أوجدت الذباب وأوجدت الإنسان، أي لو افترض أنه توجد حوافز أخلاقية من وراء إيجاد الأشياء. إنه لو كان ممكناً أن توجد هباءة واحدة بلا منطق أو بلا حوافز أخلاقية أو بلا خالق لكان ممكناً بنفس النسبة أن يوجد كل الكون كذلك. إنه إذا لم يكن هناك منطق لوجود الخراج في وجهك فلن يكون هناك منطق لوجود وجهك.

إنه لا بد من أحد افتراضين: أما أن كل شيء بتدبير، أو لا شيء بتدبير. إنه لو كان كل شيء بتدبير لكانت القضية قضية جنون وسقوط أخلاقي وعقلي ونفسي وفني لا قرار ولا شبيه له. ولكن لو أن كل الأشياء كانت بلا تدبير فإن القضية حينئذٍ تصبح قضية آلية وعشوائية لا يمكن تفسيرها ولا

الحكم عليها ـ لا يمكن تفسيرها ولا الحكم عليها بأنها جنون ولا بأنها عقل، ولا بأنها أخلاقية، ولا بأنها خروج على كل أساليب الأخلاقية. إنها حينئذٍ قد تكون مغفورة لأنها لا يمكن أن تكون مسؤولة. إنه لن يوجد حينئذٍ من ينقد أو يحاكم أو من يوجه إليه الغضب أو الاشمئزاز أو الاتهام.

إن القضية حينئذٍ عملية لا يمكن الحكم عليها ولا تفسيرها إلا بأنها هي ذاتها فقط. إنها ليست تعبيراً عن أي منطق ولا عن أية قضية أو موقف أو احتياج.

إن الحياة والوجود وكل الأشياء تستطيع أن تكون معقولة أو مقبولة أو مفهومة أو مفسرة أو مغفورة أو معتذراً عنها بدون إله أكثر من أن تكون كذلك مع وجود إله.

إن وجود الإله يعني أن أي شيء لا يمكن فهمه ولا الصفح عنه ولا التفسير له ولا الاقتناع به. إن الأشياء، إن كل الأشياء يمكن فهمها كعاهات وذنوب وأخطاء طبيعية أو كتشوهات في الطبيعة، ولكن من المستحيل أن يفهم أو أن يقبل أي شيء كأخلاق إله، أو كمنطق إله، أو كعبقرية إله. إننا قد نقبل الذباب كعاهة في وجه الطبيعة، ولكن هل يمكن أن نقبله كإله قد جاء في جسد ذباب؟

إن الإيمان بأن الكون من تدبير إله لا يعني إلا الإيمان بأن الذباب إله قد جاء في صورة ذباب. إن المؤمن الذي يقتل الذباب أو يهشه أو يحقره أو يسبه إنما هو إنسان يقتل الإله ويهشه ويحقره ويسبه.

* *

إن الإيمان بالكون المحكوم بالضرورة، وبالإنسانية المحكومة بالحاجة والضرورة هو المنطق السلوكي وأحياناً السلوكي والعقلي لكل حضارة. إن المنطق السلوكي ليس حتماً ملتزماً بالمنطق العقلي. إن صواب المنطق السلوكي لكي نكون ونحيا ونتقدم ونسعد هو المحتوم دون صواب المنطق العقلي.

إن الكون ليس صديقاً لنا يقصدنا بالخير والإحسان والمحبة، ويذرف الدموع حزيناً لآلامنا ومخاصماتنا وتفاهاتنا وهمومنا ولغباواتنا وموتنا. وإنه كذلك ليس عدواً لنا يقصدنا بالشر والإيذاء والسوء والبغضاء، ويرقص سروراً لما يصيبنا به ولما نصيب به أنفسنا من حماقات ومظالم وهوان وتشويه وعار. ليته كان لنا صديقاً أو كانَ لنا عدواً، أو كان لنا صديقاً وعدواً. أليس ذلك أفضل من أن نكون بلا أصدقاء وبلا أعداء؟ أليس الأفضل أن يوجد من نثير رضاه وسخطه، وحبه وخوفه؟ إن الكون غافل عنا منقاد لضروراته العقيمة العشوائية. إنه لا يريد لنا ولا يريد ضدنا. إنه لايفهم لغاتنا ولا احتياجاتنا ولا منطقنا. إنه لا يسمعنا ولا يفهمنا ولا يرانا ولا يبحث عنا. إنه لا يقرأ عنا ولا يقرؤنا ولا يقرأ لنا. إنه لا يبعث إلينا بالأنبياء والمعلمين، وفي أفواههم وأيديهم وقلوبهم وأحزانهم ومجاعاتهم الكتب والتعاليم والغضب واللعنات.

إن الكون لا يلد الأنبياء والمعلمين والكتب المنزلة. إنه لا يشيد المنابر والمحاريب. إنه لا يتكلم اللعنات والتهديدات باسم الآلهة والأنبياء وباسم التدين والتقوى والغضب للآلهة.

إن نضال الإنسان الدائم أن يقاوم الكون ويرفضه بأسلوبه هو ليكون بأسلوب الإنسان. إنه لا يوجد في أحشاء الكون أي جنين مغاير، أي جنين من نوع آخر.

إنه لا يوجد في أحشاء الكون أي إله ولا أية صفات لإله. إن أحشاء الكون وأخلاقه لا تحبل بالآلهة. إن الكون في كل تاريخه لم يلد إلهاً واحداً. إن الإنسان هو وحده والد الآلهة وواهبها كل أخلاقها وشراساتها وذنوبها وعاهاتها. لقد تعلمت الآلهة صفاتها وألوهيتها من الإنسان.

إن الإنسان هو والد الآلهة. إنه ليس ابن الآلهة، إنه والد الآلهة ومولدها وحاضنها ومعلمها وواهبها ومعاقبها وعاصيها.

إن كل نضال الإنسان أن يقاوم الآلهة التي لم يلدها الكون والتي ولدها هو.

إن كل نضال الإنسان أن يفرغ الكون من الآلهة التي ولدها هو في الكون، لكي يستطيع أن يسخر الكون الذي فرغه من كل الآلهة لاحتياجاته وضروراته ولطموحه، دون أن يخشاه أو يقدسه أو يجد فيه معنى أذكى أو أنبل أو أكبر منه، ودون أن يرى فيه تفسيراً أكثر أو أعمق من كونه كتلة أو جثة ضخمة غبية، أو لا ذكية ولا غبية، لأنها لا تعني شيئاً، ولأنه ليس لها أي تفسير ولا يمكن الحكم عليها بأي شيء.

إن تفسيرنا للكون وحكمنا عليه لا يعني إلا أن نفسر أنفسنا ونحكم عليها. أما الكون نفسه فإنه لا يمكن الحكم عليه ولا تفسيره لأنه لا معنى له سوى مجرد وجوده.

أجل، إن الكون صامت، لا يحاورنا ولا يفهمنا ولا يسمعنا ولا يرانا ولا يغضب لنا أو علينا. وما أفظع هذا. ما أفظع أن تكون كل مواجهاتنا صمتاً وبلادة وعجزاً عن التخاطب والتفاهم والمحاورة وصدوداً شاملاً.

إنه يوجد خطآن كبيران قامت عليه أخطاء هؤلاء الذين يتعصبون بجنون وبلا وقار أو ذكاء لكل ما لديهم أو لكل ما انتقل إليهم من مذاهب ونظم وسلوك وأفكار ومعتقدات، ومن أرباب ومعلمين، ومن صيغ ومستويات للحياة، ومن محاريب وصلوات ونماذج للهوان والعبودية التي يمارسون، أو التي تمارس فيهم وضدهم. وهل الناس يمارسون عقائدهم ومذاهبهم وأربابهم أم تمارس ضدهم، أم تمارسهم؟

أحد الخطئين الاقتناع بأزلية وأبدية كل ذلك. إذن فكل من يحاول الخروج على شيء منه، أو يحاول مخالفته، أو تغييره، أو لا يتعصب له كما يتعصبون، أو يشك في أزليته أو أبديته، فهو زنديق دينياً أو وطنياً أو قومياً أو مذهبياً أو أخلاقياً، يجب أن يموت غير شهيد. إن جميع الناس يجب أن يموتوا غير شهداء في حكم بعضهم على بعض، في رأي كل فريق في الفريق الآخر..

إنهم لهذا يشبون الحروب والبغضاء، بابتهاج ديني وعقلي وأخلاقي وإنساني وحضاري، على كل من يرى غير ما يرون، على كل من ورث غير ما ورثوا، من الآلهة أو الأنبياء أو المذاهب أو الأديان أو

التاريخ أو من المسلمات الأخرى. كيف تورث الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب؟ كم هو قبيح ومهين أن تورث؟ كيف ترضى الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب الموروثة عن نفسها؟ كيف تورث السماء؟ كيف يورث سكان السماء؟

لقد نصبوا فوق قمة هذا الخطأ راية عصيانهم وبداوتهم وتعصبهم وتخلفهم المثير. لقد تحولوا بهذا إلى أعداء للإنسان المخالف لهم، الذي لم يولد في الظروف التي فيها ولدوا، أو الذي لم يلقن ما لقنوا، أو الذي استعبد بأسلوب مخالف للأسلوب الذي به استعبدوا، أو الذي لم يستعبد مثلما استعبدوا، أو الذي لا يصلي في المحاريب التي فيها يصلون، للآلهة التي لها يصلون. إنهم يعادون المخالف لهم لأن ذكاءه وكبرياءه قد صلبا في محاريب غير المحاريب التي صلب فيها ذكاؤهم وكبرياؤهم هم. إنهم يعادون ويبغضون من فرضت عليه أوثان غير أوثانهم.

لقد انشطروا عن الإنسان المخالف لهم. إنهم لا يلقونه أو يتعاملون معه أو ينظرون إليه أو يفكرون فيه إلا بالعداوة والازدراء والبغضاء. إنهم لهذا لا يستطيعون أن يأخذوا عنه شيئاً من مزاياه أو من تفوقه، بل إنهم لا يستطيعون أن يروا مزاياه أو تفوقه، بل لا يستطيعون أن يفترضوا فيه أية مزايا أو أي تفوق. هل أنت ممن يقرأون الخصوم أو المخالفين لأنه قد توجد فيهم أية مزية ولأن تسامحك قد يأذن لك بتعلم هذه المزية أو برؤيتها؟ هل تعرف من يفعلون مثل ذلك أو من يغفرون لفاعله؟

إنهم إذا أخذوا عنه، أو وجدوا أو رأوا فيه أو له، أو توافقوا معه فبإلحاح الضرورة وحتمها وخداعها وبإملائها الذي لا يستطاع الانتصار عليه مهما أريد الانتصار عليه. إنهم لا يفعلون ذلك اعترافاً له أي للمخالف لهم بمزية أو بتفوق أو بموهبة، ولا اعترافاً له بحق المخالفة لهم بمثل ما لهم من حق المخالفة له.

هل تعرف في الناس من ليسوا كذلك؟ هل هم كثيرون؟ هل تتعامل معهم، هل التعامل معهم شيء رائع؟

إن الأزلية والأبدية في التفكير والاعتقاد والسلوك تتحول إلى همجية وتخلف وتعصب وجه وعدوان وبغضاء. إنها تقاوم التقدم والحب والتسامح. إنها تمنع الرؤية والفهم، وتقاوم الاستج للظروف، وترفض النظر إلى الأسباب المختلفة التي تجعل الناس يختلفون دون أن يكونوا عصاة أو ضالين أو أغبياء أو أعداء، أو مخلوقين للجحيم،أو طعاماً ممتازاً لغضب الأرباب ولبغضائها، أو لسباب الأنبياء والمعلمين القادمين من أعماق البداوة الجائعة إلى السباب وإلى البغضاء.

وأما الخطأ الثاني فهو عجزهم عن تصور الإنسانية المشاعة. إنهم لا يؤمنون بالعدالة في الاختيار والكينونة. إنهم يرفضون الإيمان بالمساواة بين البشر. إنهم يرفضون أن يكون لعيون البشر أو لعقولهم أو لغبائهم أو لذكائهم أو لضعفهم أو لأهوائهم أو لظروفهم حقوق متساوية.

إنهم يهبون غباءهم من الحقوق ما لا يهبون ذكاء الآخرين أو غباء الآخرين مثله أو شيئاً منه.

إنهم يرفضون أن تكون هناك عدالة أو مساواة بين الناس في تفكيرهم وعقائدهم ومذاهبهم، أو في

خضوعهم لأفكارهم ولعقائدهم ومذاهبهم، أو في تفسيرهم لأربابهم وأنبيائهم ومعلميهم أو في خوفهم منهم أو في تصورهم لهم ولنماذجهم وذواتهم وأخلاقهم.

إنهم لا يؤمنون بالمساواة بين ضعف الناس وهوانهم وغبائهم. إنهم لا يرون لضعف الآخرين ولهوانهم وغبائهم مثل الذي لضعفهم ولهوانهم ولغبائهم هم من المجد والتفوق والخلود. إن كل فريق لا بد أن يفترض أن غباءه قائد كل غباء بل قائد كل ذكاء. إن غباءه هو القائد العالمي الخالد.

ولأنهم كذلك فإنهم لا يحترمون ضعف أو غباء أو سقوط أو هوان أو هزائم أو ظروف أو أفكار أو مذاهب أو آلهة أو حريات الآخرين مثلما يحترمون ضعفهم هم وغباءهم وسقوطهم وهوانهم وهزائمهم وظروفهم وأفكارهم ومذاهبهم وآلهتهم وحرياتهم.

إنهم لا يرون للآخرين أية حرية ولا أية حقوق. إن كل الحقوق والحريات لهم وحدهم ولأربابهم وأنبيائهم وأديانهم ومذاهبهم ومواقفهم وأهوائهم. إن لأربابهم وأنبيائهم وأديانهم ومذاهبهم ومواقفهم وأهوائهم كل الحق وكل الحرية في أن تكون دميمة ومتوقحة وبليدة ومنتصرة وصارخة وعدوانية ومقاتلة. ولكن ليس شيء من ذلك لآلهة الآخرين أو لأنبيائهم أو لأديانهم أو لمذاهبهم أو لمواقفهم أو لشهواتهم. إن كل المجد لغبائهم وهوانهم هم، أما هوان الآخرين وغباؤهم فلا شيء من المجد لهما. إن كل النظافة لتلوثهم هم، وإن كل التلوث لصلاة الآخرين. إن كل الشرف لأوثانهم هم، أما أوثان الآخرين فلها كل العار.

إن البشر أو العبيد كما يقول تعبيرهم المتدين أمام حقائق جاهزة أزلية أبدية منزلة مطلقة مقدسة مصنوعة بعيداً، بعيداً، تؤخذ بالتلقين والإيمان والأوامر، تؤخذ من الكتب والنصوص والمحاريب ومن فوق المنابر، وتلقى من فوق النجوم. إنها حقائق تسقط على الناس كما تسقط عليهم النيازك والشهب.

إن البشر ليسوا أمام معاناة بشرية، ليسوا أمام تجارب وأفكار وممارسات تدرك وتواجه بالمصادفات والضرورات وبالخوف والجوع والعجز والأنانية والهوى وبمصادقة الشيطان واتباعه، وبالدأب بالباهظ المفروض بلا خيار أو شروط أو ملاءمة، وبالسير في طريق لم تفتحه أو تخططه أو تسر فيه أو تدل عليه أو تحرسه الآلهة البدوية التي لا تتحضر إلا إذا ماتت، إلا إذا صلبها عبيدها الأتقياء.

نعم، إن كل الآلهة لا تتحضر إلا إذا ماتت. لأن الإله المتحضر لا يمكن أن يعيش بل ولا أن يوجد. إنه لا يولد إله متحضر. إن كل الآلهة تولد بدوية غير متحضرة. ولأنهم عاجزون عن تصور أو إدراك معنى الإنسانية المتساوية، ذات الحقوق المتساوية في حق الكينونة والاختيار، وفي حق الاقتناع بالخطأ والصواب، وفي حق الممارسة للضعف والغباء والأكاذيب والنذالات، فإنهم لا يأذنون لغيرهم، أي لمخالفيهم وخصومهم، أن يروا أو يعتقدوا أو يرفضوا أو ينقدوا أو يؤمنوا، أو أن يجدوا في آلهتهم ومعلميهم وفي أديانهم ومذاهبهم مثلما يجدون هم في آلهتهم ومعلميهم وفي أديانهم ومذاهبهم في

كل سخافاتهم وحماقاتهم. إنهم لا يأذنون للآخرين أن يجهلوا أو يسخفوا مثلما يأذنون لأنفسهم، أو ببعض ما يأذنون به لأنفسهم.

إنه لا احتمال لأن يكونوا هم مخطئين أو غير مهذبين، ولا احتمال لأن يكون المخالفون أو الخصوم لهم مصيبين أو مهذبين. إن الحق والذكاء دائماً منحازان إليهم، وإن الباطل والغباء منحازان دائماً إلى مخالفيهم وخصومهم. إن الله لا يوزع نفسه بعدل. إنه دائماً يهب كل ذاته وأهوائه لفريق واحد، أو لأحد فريقين، أو لفريق واحد دون كل البشر. إن الله موحد في حبه بقدر ما يريد أن يكون معبوداً وحده إنه لا يستطيع أن يوزع أهواءه كما يرفض أن توزع الأهواء بينه وبين أي ند أو كائن آخر.

إن الله لا يستطيع أن يعيش في مكانين أو أن يصادق فريقين في وقت واحد. إن الله وحداني الهوى والتعامل والاهتمام بقدر ما هو وحداني الذات.

إن الحق والصدق كذلك وحدانيان مثل الإله. إنهما أي الحق والصدق لا يكونان في مذهبين أو دينين أو نظامين أو إلهين أو معلمين في وقت واحد. إنهما دائماً في مكان واحد.

إن الصدق والحق لا بد أن يكونا في مذهب أو دين أو نظام واحد، ولدى إله أو معلم واحد. إنهما لا يتوزعان بعدل وصداقة بين جميع المذاهب والأديان والآلهة والمعلمين. إنهما لا يتوزعان حتى ولا بدون عدل وحتى بدون مساواة في الصداقة والحب.

ولكن كيف حدث ذلك؟ كيف ولدت هذه الغفلة الحزينة في عقل أو ضمير إنسان ما؟ كيف تعلمها الناس؟ كيف علمها المعلمون وعلمتها الآلهة للناس؟ كيف وجد من يتصورها أو ينطق بها أو يؤمن بها أو يتعامل عليها؟ هل هذا أعلى مستويات الجنون والغباء أم أعلى مستويات البذاءة والوقاحة؟ كيف تستطيع النجوم أن تحدق في البشر أو أن تعود إليهم مرة أخرى؟ كيف لا تقتلها رؤية عارهم؟

كيف لم يوجد من يتساءلون أو يتناهون عن هذه الغفلة المهينة؟ حتى التساؤل، إنهم لا يتساءلون عن هذه الغفلة المهينة التي يعيشها جميع البشر في كل مستوياتهم.

كيف استطاع البشر أن يبتلعوا هذه الغفلة بعقولهم أو أخلاقهم دون أن يموتوا غصصاً؟ كيف لا تغص عقولهم أو أخلاقهم بأية بلاهة ولا بأي هوان؟

كيف لم يدروا أو يتساءلوا: لماذا كانت آلهتهم وأنبياؤهم وكتبهم ومذاهبهم ونظمهم وأديانهم الموروثة أو الملفتة أو المفروضة أو المجلوبة هي العدل والحق والذكاء والصدق والخلود والمنطق دون آلهة وأنبياء وأديان ومذاهب ونظم وكتب المخالفين أو الأعداء الموروثة أو الملقنة أو المفروضة أو المجلوبة أيضاً؟ كيف لا يدركون ما في هذا من السخف والنزق والظلم ومن الضآلة العقلية والنفسية؟ كيف استطاع البشر جميعاً أن يمارسوا كل هذا العار في كل تاريخهم، في كل مجتمعاتهم؟

ما أقدر البشر على تقبل أنفسهم، على تقبل عارهم وعاهاتهم..

ما أكرم البشر في غفرانهم لأنفسهم وفي إغضائهم عن عاهاتهم وذنوبها؟ ما أكرمهم في محاباتهم

لصغائرهم؟ ما أكذب عيون البشر حينما يرون بها تشوهاتهم؟ ما أقوى البشر في حملهم للعار. ما أقوى شهيتهم العقلية والأخلاقية على التغذي بالتفاهات والأكاذيب.

هل تقبل آلهة أي مجتمع، أو تقبل أديانه أو أنبياؤه أو كتبه أو مذاهبه أن يزعم لها أو أن تزعم هي لنفسها بأنها هي وحدها الصدق والحق والعدل والذكاء دون كل الآلهة والأنبياء والمذاهب والأديان والكتب، أو أكثر من كل الآلهة والأنبياء والمذاهب والأديان والكتب الأخرى المساوية لها في نسبها وولادتها وفي تخلقها وتسلطها وتنقلها وفي فرضها وتوريثها بالقهر والتلقين والتعويد والاستمرار وبالجهل بها؟

وحتى لو قبلت ذلك في ضميرها ومنطقها فكيف لا تخفي هذا الذي قبلت، كيف لا تخفيه تأدباً وحياءً؟

إذن أي عار عارها، وأي سخف سخفها، وأي جهل جهلها؟

ولكن لو رفضت فكم يكون غضبها ورفضها واحتقارها وخجلها على اتباعها الذين يزعمون لها ذلك، ولأتباعها، ومن أتباعها، وعلى نفسها، ولنفسها ومن نفسها؟ كم يكون حينئذٍ غضبها ورفضها واحتقارها وخجلها؟

ما أحوج الآلهة والمعلمين والزعماء والقادة والأديان والمذاهب إلى الخجل والغضب والاشمئزاز من نفسها وعلى نفسها، ومن أتباعها وعلى أتباعها؟

ما أحوج المذاهب والأديان والآلهة والمعلمين والزعماء والقادة إلى ما لا يعرفون وما لا يريدون وما لا يستطيعون وما لا يتعلمون؟ ما أحوجهم إلى البكاء على ما يفعلون ويعلمون، وعلى ما يعلم ويفعل بهم وضدهم ولهم؟ ما أحوجهم إلى البكاء على ما يشاهدون؟

إن كل الآلهة والأنبياء والمذاهب والأديان والنظم تعيش ويعيشون هذا الافتضاح، وتتقبله ويتقبلونه، تنادي به وينادون به.

إن جميع الآلهة والأنبياء والأديان والمذاهب هي كل الصدق والحق والعدل والذكاء، وهي أيضاً كل الكذب والباطل والظلم والغباء ـ إنها كل ذلك في وقت واحد، أي في رأي واقتناع جميع المعتقدين والمتبعين لها، أي في اعتقاد وقول جميع من فرضت عليهم بالارهاب أو بالتلقين أو بالتوريث والاستمرار.

إن هذا الإله أو هذا النبي أو هذا الدين أو هذا المذهب أو هذا النظام هو حق وباطل، صدق وكذب، ذكاء وغباء، عدالة وجور، خلود وزوال، أي في رأي واقتناع المتبعين أو الخاضعين له، وفي رأي واقتناع المتبعين أو الخاضعين لنقيضه.

إن كل دين وكل مذهب وكل نظام وكل إله وكل نبي وكل كتاب منزل هو هكذا، هو كل هذا في وقت واحد ـ أي هو في وقت واحد، وفي اعتقاد جميع المعتقدين، كل الصدق والكذب والحق

والباطل والعدل والجور والذكاء والغباء. إن كل إله ونبي وقديس ومعلم في العالم أو في التاريخ يستحق الصلب هنا بينما يستحق العبادة هناك. يستحق أن يتحول كل البشر إلى فداء له وإلى أعداء ومقاتلين له.

إذن أيتها النجوم لا تتفجري، لا تتساقطي حزناً أو اشمئزازاً أو غضباً على الإنسان ومن الإنسان. لا تتفجري أو تتساقطي من تحديقك في الإنسان.

إذن أيتها البحار والأنهار لا تموتي أو تجفي اشمئزازاً أو غضباً أو حزناً على ذكاء الإنسان، وعلى أخلاقه، وعلى احترامه لنفسه.

إذن أيتها الحشرات لا يقتلك الزهو والغرور بذكائك ومجدك وكبريائك أمام غباء الإنسان، وأمام هزائمه وهوانه وضآلته النفسية والأخلاقية والعقلية.

لا تقتلك أيتها الحشرات الكبرياء على الإنسان المسكين المغرور المهزوم، الصاعد بلا شجاعة، والمغتسل بلا طهارة، والمصلي بلا تقوى، والعبقري بلا ذكاء، والمحب بلا صداقة، والمصادق بلا محبة، والمؤمن بلا معرفة أو صفاء.

* *

إن الغباء هو إحدى منح الإنسان العظيمة لنفسه. إنه إحدى منح الطبيعة للإنسان. إنه مجاملة واعتذار من الإنسان إلى نفسه، ومن الطبيعة إلى الإنسان وإلى نفسها.

إن الغباء هو إحدى عبقريات الإنسان التي لا مثيل لها في محاباتها وفي نفعها له.

إن الطبيعة لتذهب دائماً تساعد الإنسان على أن يهب نفسه مزيداً من الغباء. إنها بذلك كأنما تحاول أن تكفر عن قسوتها عليه، وأن تنافقه لكيلا يرى كل دماماتها وتفاهاتها وغبائها.

إنها لتذهب تهبه الغباء بلا حساب وكأنها تريد بذلك أن تفقأ عينيه لئلا يراها أو ليراها رؤية مزورة.

إن الطبيعة لم تمنح للإنسان منحة تقصد بها الثناء على نفسها والاعتذار إلى ضميرها والمساعدة له - تقصد بها الإحسان إلى الإنسان والرفق به ومعاونته على أن يستمتع بالتفاهات وبالرضا عن نفسه وعن الأشياء وعن وقاحات الطبيعة وعنْ آلهته ومذاهبه وأديانه وتشوهاته وتفاهاته وآلامه بلا حدود أو قيود أو شروط مثلما فعلت حينما ذهبت تمنحه الغباء بكل سخاء. إننا لن نجد الطبيعة رحيمة ومهذبة وذكية مثلما نجدها كذلك حينما ذهبت تهب الإنسان الغباء بإغداق.

لقد كانت أساليب الطبيعة في قسوتها على الإنسان فظيعة، فظيعة. لقد كانت هذه الأساليب في القسوة بلا أي مستوى من الشفقة أو الشهامة. ولكنها أي الطبيعة كأنما أرادت أن تعتذر وأن تكفر عن قسوتها، أو أن تخفف من هذه القسوة التي لا تفسير لها كأنما أرادت ذلك حينما ذهبت تهبه الغباء بلا حدود أو قيود من الذكاء أو الوقار. كأنها إنما أرادت ذلك حينما ذهبت تمنحه القدرة الخارقة على ابتكار التفاسير الغبية الكئيبة التي يفسر بها نفسه ويفسر بها لنفسه، ويفسر بها الأشياء حوله، ويفسر

بها الأشياء التي تتعامل معه وبه، والتي يتعامل معها وبها، والتي لا يستطيع الهرب منها، ولا الرضا عنها، ولا الاقتناع بها، ولا الغفران لها، ولا الغفران لنفسه لتعامله معها وجوعه إليها وخضوعه لها، لولا هذه التفاسير الغبية الحزينة التي كأنما منحها لتكون تعويضاً وتكفيراً واعتذاراً إليه وعليه وله. لقد كان غباء الإنسان تعويضاً له عن قسوة الطبيعة عليه. إن هذا التفسير لغباء الإنسان أسلوب من أساليب الدفاع عن الطبيعة. فهل يجوز الدفاع عن الطبيعة؟

إذن لقد جاء غباء الإنسان ضخماً، ضخماً. وكأنما جاء غباؤه كذلك ليكون محاولة من محاولاته البحث عن أي مستوى من مستويات العدل لقد جاءت الطبيعة في أعتى مستويات الوحشية في قسوتها على الإنسان، لهذا جاءت في أعلى مستويات السخاء في منحها له الغباء.

لقد جاءت في أعلى مستويات الكرم لأنها قد جاءت في أعتى مستويات القسوة. لقد كان الغباء محاولة للتكفير والتعويض والاعتذار عن القسوة.

فهل كانت الطبيعة بذلك عادلة أو ذكية أو رحيمة أو مكفرة عن نفسها؟

ما أعظم الهول لو أن الطبيعة قد قست على الإنسان كل هذه القسوة دون أن تعتذر إليه بأن تهبه كل هذا الغباء ليكون كالتعويض أو التكفير أو التوبة أو الصلاة أمام الخطيئة العظمى ـ ليكون كالتخفيف من الهول العظيم. ما أعظم الهول لو أن الإنسان واجه نفسه وواجه الطبيعة وواجه كل ممارساته ومواجهاته بكل احتمالات الذكاء والرؤية فيه.

إن الاسراف في منح الغباء لمن يقاسي مثل ظروف الإنسان، ويواجه مثل مواجهاته لهو أشمل وأنبل أساليب التفضل عليه، والرفق به، والتخفيف عنه، والتعويض عن آلامه وورطاته ودماماته.

كيف يستطيع الإنسان أن يتحمل أو يتقبل أو أن يغفر أو أن يواجه، بل أو أن يضحك أو يغني أو يسر أو يعجب بنفسه أو بجوعه أو باحتياجه أو بأي شيء، لولا غباؤه العظيم الذي أعطاه كل هذه التفاسير والمسوغات، والذي أعطاه أيضاً كل هؤلاء الأنبياء والزعماء والوعاظ الباكين في المحاريب وفوق المنابر وفوق الكلمات، والذي أعطاه كذلك جميع هؤلاء الآلهة والمذاهب والاعتقادات، وكل هذا الصبر، وكل هذا الذهول، وكل هذا العجز عن الغضب والاشمئزاز والغثيان والرفض، وكل هذا العجز عن الفهم للدمامات والتفاهات والحقارات، والعجز عن رؤيتها، وكل هذا الهوان؟

لعل الطبيعة لم تجامل البشر بشيء مثلما جاملتهم بما وهبتهم من القدرة على تفسير الأشياء الرديئة تفاسير جميلة ما أعجب وأفظع تاريخ التفاسير في حياة الإنسان. ما أوسع المجد الوبيل الذي شاده الإنسان للتفاسير. ما أعظم ما أعطت التفاسير للإنسان وما أعطى الإنسان للتفاسير. هل كان ممكناً أن يحيا الإنسان وجوده بلا تفاسير؟

لقد وهب الإنسان القدرة بلا حدود على أن يضع لأصغر وأتفه الأشياء أكبر وأعظم التفاسير. لقد وهب قدرة لا حدود لها على أن يفسر ما لا تفسير له بأضخم وأكثر التفاسير.

إن عبقرية الإنسان لم تصعد كل القمة مثلما صعدتها في ابتكارها للتفاسير. إنه لم يكن عبقرياً مثلما كان في صياغة التفاسير.

لقد جاءت موهبة الإنسان على ابتكار التفاسير موهبة فيها كل المحاباة لنفسه وللآلهة وللطبيعة وللأديان والمذاهب والمعلمين ولجميع الأشياء التافهة والشريرة والعقيمة.

ماذا لو أن الإنسان لم يوهب القدرة على أن يفسر الأشياء ويفسر نفسه بنقيض ما يراها ويجدها ويقاسيها ويقرؤها ويعلمها؟

ماذا لو أن الإنسان رأى نفسه ومارسها، ورأى الأشياء ومارسها بلا تفاسير؟

ماذا لو أن الإنسان لم يوهب موهبة التفسير لكل شيء، لكل ما لا تفسير له؟

لقد كانت قدرة الإنسان غير المحدودة وغير المتوقرة على ابتكار التفاسير هي الغطاء الجميل والشامل الذي ستر به عن رؤيته وعن عقله وعن أخلاقه كل ما في وجوده وما في نفسه وما في ممارساته وما في مذاهبه وعقائده وأربابه ومعلميه وما في الطبيعة والحياة والأشياء حوله من قبح وتشوه وتفاهة وعبث وضآلة.. لقد كانت تفاسير الإنسان للأشياء التي لا يمكن أن تكون لها تفاسير هي أنقى وأقوى وأشهر أكاذيبه على نفسه، وأكاذيبه لنفسه. أليس في الأكاذيب تقوى أكثر وأشمل من تقوى الصدق؟

ولكن هل الإنسان يتقبل الأشياء لأنه يستطيع أن يفسرها، أم يفسرها لأنه لا بد أن يتقبلها؟ هل نحن نفسر أنفسنا ونفسر الأشياء ثم نتقبلها، أم نتقبلها ثم نفسرها؟

هل نتقبل لأننا نفسر؟ هل نفسر لأننا نتقبل، أم نحن نتقبل ونفسر، ونفسر ونتقبل، دون أن يكون أحدهما أي التفسير والتقبل نتيجة أو سبباً أو انطلاقاً عن الآخر؟

هل البشر يفسرون الأشياء لأنهم لا بد أن يتقبلوها، أم هم يفسرونها لأنهم يفسرونها أي لأنهم كائنات مفسرة، أي لأنهم كائنات في مستوى التفسير، كائنات لا بد أن تفسر الأشياء وتحاول تفسيرها حتى ولو لم تتقبلها أو تكن محتاجة إليها، حتى ولو لم يكن للتفاسير أي معنى، حتى ولو لم يكن للتفاسير أي تفسير؟

أليس التفسير طوراً أو مستوى إنسانياً وليس احتياجاً إنسانياً؟

أليس الإنسان كائناً مفسراً حتى ولو كانت تفاسيره ضد نفسه وضد احتياجاته وضد تقبله؟

هل الحشرات تتقبل حياتها وذواتها وتتقبل الأشياء لأنها تستطيع تفسيرها أم لأنها تجوع إليها؟ أليس الإنسان في جوعه إلى الأشياء وإلى نفسه وإلى تقبلها مثل الحشرات؟

أليس البشر يتقبلون حياتهم وممارساتهم ويتقبلون الأشياء بجوع الحشرة وتقبلها لا بتفاسير الإنسان ولا بمنطقه؟

أليس الإنسان يأكل وينام ويجوع لأنه يأكل وينام ويجوع لا لأنه يفهم أو يفسر أو يتقبل أو يرضى؟

أليس البشر يسعدون بالأشياء ويتبسمون لها بالأسلوب الذي يسعد ويتبسم به الصرصار للأشياء؟ أليسوا يسعدون ويتبسمون ويتقبلون بأعضائهم لا بموهبة القدرة فيهم على ابتكار التفاسير والأكاذيب والمسوغات وجميع أساليب الاعتذار عن النفس وعن ممارسة التفاهات والحقارات والصغائر؟

هل الناس يسعدون ويتقبلون ويتبسمون للأشياء ولأنفسهم ولممارساتهم الصغيرة لأن لهم مذاهب وأدياناً وأنبياء ومعلمين وزعماء يبتكرون لهم التفاسير والتسويغات والأساليب الاعتذارية غير المتوقرة أو المحدودة، أم هم يسعدون ويتقبلون ويتبسمون لأن لهم أعضاء تجوع وتتغذى وتسعد وتتقبل وتبتسم؟

هل التفاسير والتعاليم التي علمنا إياها أنبياؤنا وكهنة مذاهبنا هي التي جعلتنا نمارس تفاهاتنا وجوعنا بتعبد أم هي أعضاؤنا؟ إن أعضاءنا بلا تفاسير ولا تعاليم هي أقوى من كل أنبيائنا وتعاليمنا بكل ما ابتكروا لنا من تفاسير وتعاليم.

إن هؤلاء الذين يمنحون أنفسهم أعلى مستويات الغباء لا يستطيعون أن يعرفوا بل ولا أن يسألوا: لماذا يريدون أن يلزموا كل الآخرين أو كل المخالفين بأفكارهم ومعتقداتهم ومذاهبهم وبكل ترهاتهم وأهوائهم وضعفهم دون أن يلزموا أنفسهم بما عند الآخرين والمخالفين من ذلك. أية موهبة خارقة جداً أو سخيفة وبذيئة جداً أقنعتهم بأن كل الآخرين أو كل المخالفين أو كل العالم والناس يجب أن يكونوا أتباعاً لهم ورعايا بعقولهم وأخلاقهم ومواقفهم وبكل اقتناعاتهم ورؤاهم للأشياء وحكمهم عليها؟ أية موهبة أقنعتهم بأن أخلاقهم وعقولهم وعقائدهم هي القائدة والمعلمة والزعيمة لكل ما في العالم من أخلاق وعقول وعقائد؟ كيف اقتنعوا بأن إلههم أو نبيهم هو أجمل الآلهة أو الأنبياء؟ أية موهبة أو وقاحة أقنعتهم بأنهم هم المركز الكوني الدائم لكل عيون العالم، ولكل أفكاره وأخلاقه وعواطفه، لكل حماقاته وتفاهاته وبذاءاته وغباواته، ولكل جوعه وضعفه، ولكل مصالحه واحتياجاته وضروراته، كل أربابه ومذاهبه وأديانه وغواياته؟

أية موهبة أو وقاحة يتعامل بها الناس ويعاملون بها أنفسهم ويواجهون بها الأشياء ويفهمون بها الأشياء ويفسرون بها الأشياء؟

أية موهبة أو وقاحة تعيش في عقول الناس، وفي عواطفهم، وفي أخلاقهم، وفي حياتهم، وفي تقويمهم وتفسيرهم لأنفسهم وللآخرين وللأشياء؟

إن جميع الناس مفتضحون في إعجابهم وإيمانهم واقتناعهم وفي انحيازهم لأنفسهم ولتفاهاتهم.

إنهم لا يدرون أنهم مقومون بما فيهم من معاني الإنسان ومن ضروراته وضعفه وجوعه وسخفه، ومن بطولاته ونذالاته، وإن وعاء هذه كلها هم البشر جميعاً.

إنهم ليسوا هم وحدهم الوعاء ـ ليسوا هم وحدهم وعاء الإنسانية كل وعائها، كما أن المخالفين

لهم ليسوا هم وحدهم كل هذا الوعاء. إنك لست وحدك وعاء كل الذكاء والصدق والنظافة، وأن المخالف لك ليس هو وحده وعاء كل الغباء والكذب والتلوث. وحينما تؤمن بأن الأمر كذلك أو تتصرف وكأنك تؤمن بأنه كذلك فكيف يمكن فهمك؟

إن المتحضرين يدركون، أو عليهم أن يدركوا، أو يتوقع منهم أن يدركوا حاجات الإنسان المتساوية أو المتشابهة، وأن يدركوا همومه وظروفه وضروراته وضعفه وحقوقه إدراكاً متساوياً لا انحياز فيه. إنهم لا يتركزون في أنفسهم فقط، وأن عليهم ألا يتركزوا فيها. إنهم يدركون أنه لا يمكن بل ولا ينبغي أن تكون كل العبقرية والنظافة لهم وحدهم، وأن يكون كل الغباء والتلوث لخصومهم أو لمخالفيهم وحدهم.

إنهم حتماً يعيشون ويسكنون في أنفسهم وحدها، ولكنهم من داخل أنفسهم يرون الآخرين والمخالفين، ويفهمونهم، ويشعرون بهم، ويشعرون لهم، ويدركون ويقدرون المعاني والضرورات والتفاهات والظروف الأليمة المشتركة بينهم وبين أولئك الآخرين والمخالفين، ويدركون مساواتهم لهم في الخضوع لها وفي العجز عن الانتصار عليها أو الاستغناء عنها. إنهم يدركون أنه كما لا بد أن يجوع الآخرون وأن يبكوا ويخافوا ويكذبوا وينافقوا فإنهم هم لا بد أن يمارسوا كل ذلك بنفس النسبة والمنطق. إنهم يعرفون الآخرين والمخالفين والخصوم، ويشعرون بهم ولهم، ويتلفتون إليهم، بل ويعايشونهم من داخلهم، بقدر ما يعرفون أنفسهم، وبقدر ما يشعرون بها ويعايشونها وبقدر ما يتلفتون إليها ـ أو لأنهم يفعلون ذلك بأنفسهم ولأنفسهم وإلى أنفسهم.

إنهم يعرفون كل الخصوم والأعداء، ويشعرون بهم ولهم، ويرونهم، ويتلفتون إليهم، ويفسرونهم بإشفاق وحنان واعتذار مثلما يفعلون مع أنفسهم ـ أو أن عليهم أن يفعلوا كل ذلك بمثل هذا المستوى من الشمول والعدل. إن الإنسان هو وحده الكائن الذي يستطيع أن يعيش جميع الآخرين، وجميع الأشياء، وأن يعانيها ويعانيهم، وأن يشاهدها ويشاهدهم من خلال ذاته ومن خلال تعامله مع ذاته.

إن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يدرك غيره، وأن يراه، وأن يعرف ضروراته وهمومه وآلامه ومشاكله واحتياجاته، وأن يقرأ آهاته وجراحه وبكاءه بلا حروف ولا كلمات مثلما يستطيع أن يدرك وأن يرى وأن يعرف وأن يقرأ كل ذلك في نفسه ومن نفسه، أو لأنه يستطيع أن يدرك ويرى ويقرأ ويعرف كل ذلك في نفسه ومن نفسه.

إن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يبكي وأن يرى وأن يتألم وأن يرتجف وأن يحزن وأن يشمئز وأن يغضب وأن يجوع وأن يمرض وأن يشيخ وأن يفتضح بعيون الآخرين، بعيون كل الآخرين، وبأعصابهم، وبمشاعرهم، وبأخلاقهم، وبمنطقهم، وبهمومهم، وبآلامهم وبأعضائهم، وبكبريائهم.

إن الإنسان هو وحده الذي يستطيع أو يحتم عليه أن يعاني من فقدان الشرف والحرية لأن كائناً آخر قد فقد ذلك.

إن الإنسان أي في مستواه الأعلى هو وحده الذي يستطيع أن يعيش كل الكون وأن يعيشه كل الكون، أي أحاسيسه ورؤيته وتفكيره وتصوره، وبانتشاره النفسي والأخلاقي. إن الإنسان كائن منتشر، منتشر بمقاساته وبمسراته وبتفاسيره ورؤاه. إنه لا حدود لانتشار الإنسان.

إنه لا كائن سوى الإنسان يستطيع أن يدرك هموم الآخرين وآلامهم ومشاكلهم ومخاوفهم وضروراتهم وجوعهم وأحزانهم وضعفهم وصغائرهم المحتومة بالعمق أو بالمستوى أو بالشمول أو بالإلحاح الذي يدرك به كل ذلك من نفسه وفي نفسه. إنه لا كائن يتعذب بلا حدود سوى الإنسان، لأنه لا كائن يرى ويفهم ويشعر ويتصور ويتخيل وينتشر نفسياً وأخلاقياً بلا حدود غير الإنسان.

إن الإنسان هو وحده الكائن الذي يتعامل مع الأشياء ومع الآخرين بحدود الأشياء وبحدود الآخرين، لا بحدوده هو فقط، أي في نموذجه الأعلى. إنه يتعامل مع الأشياء ومع الآخرين بلا حدود، أي بأبعد وأوسع من حدود الأشياء ومن حدود الآخرين.

إن انتشار الإنسان النفسي والفكري والعاطفي والأخلاقي والتصوري لأوسع وأبعد من كل الوجود ومن كل الموجودين، من كل الحدود الموجودة ومن كل الحدود التي لم توجد.

إن الذين يهينون أفكار المخالفين أو مشاعرهم أو احتياجاتهم، أو همومهم أو غباءهم أو حماقاتهم أو نزقهم، أو ضعفهم أو فضائحهم أو سقوطهم، إنما يهينون كل ذلك في أنفسهم هم، أي إنما يهينون حينئذٍ أنفسهم. أليس الذين يحقرون أو يتهمون من يجوعون أو من يأكلون أو من يخافون أو يحزنون أو يبكون أو يكذبون هم حتماً يحقرون ويتهمون أنفسهم؟

أليس الذي يلعن ضعف الآخرين أو أنانيتهم أو غباءهم أو هوانهم أو سقوطهم أو افتضاحهم إنما هو إنسان يلعن نفسه؟ إنه إنسان يلعن الإنسان في كل معانيه وتفاسيره. يلعن وجود الإنسان ويلعن كل مستوياته ونماذجه وصيغه الموجودة فيه والموجودة في كل خصومه ومخالفيه.. إن خصومه ومخالفيه موجودون فيه بقدر ما هو موجود فيهم.

إنك أنت كل إنسان وإن كل إنسان هو أنت.

إن هذا الحق بقدر ما هو حق:

إن هذه الحشرة هي كل الحشرات وإن كل الحشرات هي هذه الحشرة.

لهذا فإن الحشرة التي تحتقر حشرة أخرى إنما تحتقر نفسها لأن فيها كل معنى الحشرة الأخرى.

لهذا فإن الإنسان الذي يحتقر الإنسان المخالف له إنما يحتقر نفسه لأن فيه كل المعنى الذي يحتقره في مخالفه أو يحتقر مخالفه من أجله. إنه لا يمكن أن تكون أية حشرة موجودة في كل حشرة أكثر من وجود أي إنسان في كل إنسان.

إن إنساناً ما لو استطاع ألا يحتقر أو يبغض أو يعير أو يعاقب على معنى يعيشه هو، يعيشه بالواقع أو بالاستعداد والاحتمال، أو بالشهوة والرغبة، أو بالموهبة، أو بالانتظار والتمني والتوقع أو بتجمع

الظروف والأسباب، لما أمكن أو لما استطاع أن يحتقر أو أن يبغض أو أن يعير أو أن يعاقب إنساناً ما على أي معنى من معانيه أو على أي موقف من مواقفه. إن كل إنسان يعيش بالواقع أو بالاحتمال والموهبة والقدرة كل المعاني، كل الذنوب والأكاذيب والأنانيات والتلوثات التي يعيشها الآخرون. إن كل إنسان يعيش كل ذلك ولو بالرغبة والتمني. إنه حينئذٍ لن يستطيع أن يكره أو يحقر أو يلعن أو يتهم أي مخالف أو نقيض له، أو أي خصم أو عدو من خصومه وأعدائه.

إن كل الناس يسبون ويتهمون ويهجون معانيهم ومواقفهم وكل أخلاقهم ونياتهم هم بأسلوب سبهم وهجائهم واتهامهم لمعاني ومواقف وأخلاق ونيات خصومهم ومخالفيهم وأعدائهم.

إن كل الناس يهجون ويسبون ويتهمون أنفسهم بالتفسير الذي يهجون ويسبون ويتهمون به أعداءهم ومخالفيهم وخصومهم.

إن كل الناس حتى أتقاهم وأشدهم ورعاً وتديناً ليهدمون ويذمون ويهاجمون آلهتهم وأنبياءهم وقادتهم ومعلميهم ومذاهبهم وأديانهم بالتفسير وبالمنطق اللذين يهدمون ويهاجمون ويذمون بهما آلهة وأنبياء وقادة وأديان ومذاهب ومعلمي خصومهم وأعدائهم ومخالفيهم.

إن الذين لا يهجون بما في أربابهم وأنبيائهم ومعلميهم وقادتهم، وبما في أديانهم ومذاهبهم لن يهجوا إله أي قوم ولا نبي أي قوم ولا قائد أي قوم ولا مذهب أو دين أي قوم مهما كانوا مخالفين أو خصوماً أو أعداء لهم، ومهما كانت ذنوب وخطايا ودمامات أولئك القوم. إن الذين يغفرون الذنوب والنقائص والعاهات التي تعيشها أو تعيش مثلها أربابهم وأخلاقهم ومذاهبهم فلا بد أن يغفروا لكل الأرباب والأخلاق والمذاهب كل عيوبها وممارساتها.

* *

إنه لشيء تحت جميع مستويات الإنسان المنتظر أو المطلوب ـ تحت جميع مستوياته العقلية والنفسية والأخلاقية والحضارية والإنسانية ـ أن ترى نفسك أو أن تشعر بها أو أن تغضب لها، أو أن تفهم همومها ومشاكلها وضروراتها واحتياجاتها وحقوقها، أو أن تسمع آهاتها وهمساتها، أو أن تقرأ دموعها المعتقلة في أعصابها، ووقارها وحيائها، أو أن تتحمس لأشواقها ومسراتها ونداءاتها، أو أن تعتذر عن تفاهاتها وزلاتها، أو أن تدافع عن مواقفها واقتناعاتها واجداً لها كل التفاسير والمحللات، أو أن تغفر لها أخطاءها وصغائرها وافتضاحاتها وعارها وجميع أساليب ضعفها وجوعها وسقوطها وهوانها.

نعم، إنه لشيء تحت جميع مستويات الإنسان المنتظر أو المطلوب أن تفعل ذلك لنفسك ومع نفسك وفي معاملتك لنفسك أكثر أو أعمق أو أصدق مما تفعل مثله لجارك أو لعدوك أو لمخالفك.

إنه لشيء تحت مستوى الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه أن تحدق حزيناً أليماً في آلام طفلك المتألم، أو في هزائم إلهك أو نبيك أو دينك أو مذهبك المهزوم أكثر أو أعمق أو أصدق مما تحدق،

حزيناً أليماً في آلام طفل جارك أو خصمك أو عدوك، أو في هزائم إله أو نبي أو مذهب أو دين جارك أو خصمك أو عدوك المهزوم.

إنه لشيء تحت جميع مستويات الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه أن تحب إلهك أو نبيك أو مذهبك أو دينك، أو أن ترى جماله ونظافته، أو أن تقتنع بصدقه أو بذكائه أو بأية مزية من مزاياه أكثر أو أقوى مما تفعل ذلك مع إله أو نبي أو دين أو مذهب جارك أو عدوك أو خصمك أو المخالف لك.

ولكن هل يوجد إنسان واحد ليس تحت جميع مستويات الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه؟ هل يوجد إنسان واحد لا يفعل هذا الذي هو تحت جميع مستويات الإنسان العقلية والنفسية والأخلاقية والحضارية والإنسانية؟ هل يوجد إنسان واحد ليس تحت جميع المستويات الإنسانية المكتوبة أو المعلمة أو المطلوبة أو المنتظر مجيئها أو التي تحدث عنها المعلمون في كتبهم وتعاليمهم وفي قصائدهم وأغانيهم؟

هل يوجد إنسان واحد ليس كذلك؟ هل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان؟ هل تستطيع الآلهة أن تبدع مثله، أو أن يبدع هو نفسه مثل هذا الإنسان المطلوب أو المنتظر مجيئه؟

هل جاء إنسان واحد ليس تحت جميع المستويات الإنسانية المقررة أو المخطوب بها أو المدعو إليها أو المنزلة على المعلمين السماويين أو على المعلمين المذهبيين أو المزعومة مستويات للأنبياء ولسكان السماء؟

هل يستطيع إنسان واحد أن يجيء مساوياً لنموذجه النفسي والفكري والأخلاقي والعاطفي والإنساني؟ هل يمكن أن يوجد إنسان واحد يستطيع أن يتعلم من إلهه أو من نبيه أو من معلمه أو من قائده أو من دينه أو من مذهبه أو من تفكيره سلوكه النفسي أو العاطفي أو الأخلاقي بل أو حتى سلوكه اللغوي؟ هل يمكن أن يوجد إنسان واحد يستطيع ذلك؟

* *

إنه ما من نموذج يكون عليه المجتمع أو الفرد ـ حتى النماذج الفكرية والأخلاقية ـ إلا وهو تعبير اضطراري عن نموذج اعتقادي. وأريد بالاعتقاد هنا ما هو أكثر وأشمل من الاعتقاد الديني أو المذهبي أو السياسي. إني أعني بالاعتقاد هنا ما يعني أيضاً الحالة النفسية وكذلك المستوى البشري. إن النموذج الاعتقادي هو دائماً نموذج نفسي، إنه مستوى بشري. إن النموذج البشري لا بد أن يصوغ النموذج الاعتقادي. إنه لا بد أن يصوغ أو يكيف جميع النماذج: النماذج النفسية والفكرية والاعتقادية والحضارية بل وحتى النماذج اللغوية.

والنموذج الاعتقادي ـ وهو دائماً وكما ذكر نموذج نفسي وبشري ـ نعم، النموذج الاعتقادي الذي لم يصنع في زمن قد مضى إلا نماذج ومستويات معينة من صيغ الحياة والأفكار والأخلاق، والسلوك والحضارات والاتجاهات، كيف يستطيع أن يصنع في الزمن الحاضر أو المقبل غير هذه النماذج والمستويات؟ كيف يستطيع أن يصنع أقوى أو أكبر أو أفضل منها، أي لو كان من الممكن أن

تعيش حالة نفسية أو بشرية أو اعتقادية واحدة في فترتين من الزمن دون أن تتغير؟

إن الحالة النفسية البشرية الاعتقادية وعاء تتخلق فيه كل أفكار الإنسان ورؤاه ونشاطاته وخطواته وتحليقاته. إنها أي الحالة النفسية الاعتقادية البشرية جهاز يصوغ حضارات الإنسان كما يصوغ بداوته وعجزه. إنها جهاز يصوغ رؤية الإنسان للأشياء ولنفسه. حتى الرؤية للأشياء وللذات إنما تصوغها الحالة النفسية الاعتقادية البشرية ـ حتى الرؤية لوقاحات وبذاءات وتشوهات الطبيعة والآلهة والمعلمين والزعماء والاعتقادات والمذاهب. إن النماذج البشرية المختلفة لن تصنع رؤية للآلهة أو للأنبياء أو للزعماء أو للأديان والمذاهب متفقة أو موحدة أو متساوية.

إن جميع التغيرات والقفزات والغضبات البشرية العظمى ما كان ممكناً أن تحدث لولا أن تغيرات وتجمعات نفسية واعتقادية وبشرية قد هزت المجتمعات الراكدة المسترخية بعنف وجبروت فهزمت وطردت جميع أساليبها وصيغها ومعتقداتها وأفكارها القديمة، وألقت بجميع الأرائك المزخرفة بصور الآلهة والآباء التي كان يضطجع عليها تاريخها المسحور، محدقاً إلى السماء أو إلى القبور ـ ألقت بها إلى التراب والحضيض.

إن الذي يصوغ حضارات البشر، ويصوغ قوتهم وضعفهم، انطلاقهم وخمودهم، هو مستوياتهم النفسية والبشرية والاعتقادية. وليست مذاهبهم أو عقائدهم أو تعاليمهم أو أفكارهم أو ظروفهم القوية أو الضعيفة هي تصوغ ذلك.

وحتى المذاهب والأفكار والعقائد والتعاليم والظروف القوية أو الضعيفة إنما يصوغها المستوى البشري النفسي.

إن مستوى الاعتقاد يبعث ويحرك ويلهم، ولكن نوع الاعتقاد أو نوع المذهب أو نوع الإله أو النبي أو الزعيم لا يفعل شيئاً. إن نبيك أو إلهك أو مذهبك أو زعيمك لا يساوي إلا حماسك له أو باسمه، وإن حماسك له أو باسمه لا يساوي مزاياه، وإنما يساوي ذاتك ومستواك البشري والنفسي.

إن الأقوياء المقتحمين هم أناس يملكون مستويات بشرية ونفسية واعتقادية قوية، وليسوا أناساً يملكون مذاهب أو تعاليم أو نظماً أو زعامات أو آلهة أو عقائد قوية.

إن الفروق بين إنسان وإنسان، أو بين مجتمع ومجتمع هي فروق بين مستويات بشرية ونفسية لا بين مذاهب أو تعاليم أو زعامات أو قيادات أو نظم أو آلهة، أو بين ظروف قوية مؤاتية وأخرى ضعيفة مضادة. إنها فروق بين مستويات اعتقاد لا بين أنواع عقائد أو صفات معتقدين، وبين مستويات بشر أو بين صفات بشر لا بين صفات ومستويات معتقدين. إنها فروق بين صيغ وحالات نفسية صاغتها وكيفتها صيغ أو حالات بشرية.

إن الفرق بين إنسان وإنسان لا يساوي الفرق بين إله وإله، أو بين مذهب ومذهب، أو بين فكرة وفكرة، أو بين نظام ونظام، أو بين قائد أو نبي وقائد أو نبي. ولكنه فرق يساوي الفرق بين إنسان

وإنسان، إنه يساوي الفرق بين مستويين بشريين نفسيين، بين معتقدين لا بين عقيدتين. إن كل القيمة لذاتك لا لإيمانك، لإيمانك لا لما تؤمن به.

إن العقيدة ـ أية عقيدة، إنها لا تساوي المذهب أو الإله أو الفكرة أو النبي أو الزعيم، ولكنها تساوي الإنسان المعتقد، إنها تساوي حالته النفسية ومستواه البشري. إن إلهك أو نبيك أو دينك أو مذهبك لا يساوي ذاته أو نفسه وإنما يساويك أنت، يساوي نموذجك.

إن الاتجاه إلى الإيمان بالتغيير وإلى الرفض والتجاوز للذات ولكل ما هو موجود ومفروض ومنقول إن الاتجاه إلى إخضاع الحياة والآلهة والمذاهب والتعاليم والتاريخ وكل شيء للضرورة والمنطق والإرادة وللرغبة في الافتراض والتحدي، وللحساب والعقاب.

نعم، إن الاتجاه إلى الإيمان بالنماذج التي لم تخططها أو تتحدث عنها الآلهة، وإلى ابتكار النماذج التي لم يخطب بها ولم يعلمها الأنبياء ولا المعلمون ـ وإن الاتجاه إلى الاستسلام والتقبل والعجز. والإيمان بكل ما تطرحه المنابر والمحاريب والأسواق.

نعم، إن الاتجاه إلى هذا أو هذا، أو إلى هذا بعد هذا، أو إلى هذا وهذا ليس سوى تعبير عن نماذجنا النفسية والاعتقادية وعن تبدل هذه النماذج وعن مستوياتها. إنها تعبير عن نماذجنا النفسية والاعتقادية التي هي تعبير عن نماذجنا البشرية.

إن الاعتقاد، وأعني به دائماً التحفز نحو الشيء والحماس له والإحساس به إحساساً متوقداً مقاتلاً، قوة لا بد أن تطلق قوى الإنسان وأن تحركها وأن تلهمها وأن تصوغها وتهبها الحماس والتوقد وموهبة القتال والانتصار والاقتحام والتجاوز والغضب والرفض.

إن الإنسان دائماً إما في حالة أو صيغة تنويم، وإما في حالة أو صيغة إيقاظ. إنه إما خامد وإما منبعث، إنه إما توقد وتوهج وإما استرخاء. إن الإنسان دائماً هو أحد نقيضين. إنه إما تفجر وإما موت. إن صيغته أو حالته النفسية والاعتقادية أي والبشرية هي التي تجعله أحد النقيضين، هي التي تجعله إما هذا وإما هذا. إن مستوى ونشاط هذه الصيغة أو هذه الحالة هما اللذان يصنعان أحد النقيضين، هما اللذان يحولان الإنسان إلى توقد أو إلى خمود.

إنه ليعيش في ذات كل إنسان احتمالان لنقيضين متباعدين جداً. إن الذوات التي لا تختلف في أطوالها ولا في أوزانها المادية لتحتوي على أبعد الأبعاد الإنسانية تباعداً وتناقضاً. إنها لتختلف وتتباعد جداً في أطوالها وفي أوزانها البشرية أي النفسية والاعتقادية، أي في نشاطها وخمودها.

إن من نماذجنا الاعتقادية والنفسية أعني والبشرية ما يحرم على العقل أن يسأل أو يفهم أو يرفض أو يحاسب، وما يحرم على البصر أن يحدق أو يبصر، وما يحرم على الأعضاء أن تجوع وتشتهي وتتمنى، وما يحرم على الزهرة أن تتفتح أو أن تطلق عطورها وأنفاسها، وما يحرم على القلب أن يخفق أو أن يفرح أو يرتجف، وما يحرم على اللسان أن يبوح ويغني ويهتف فرحاً أوحزناً، تحية أو استبشاعاً،

وما يحرم على الأخلاق أن تغضب أو تشمئز أو تمرض من الغثيان وممارسة العار. وإن منها أي من نماذجنا النفسية والاعتقادية أي والبشرية ما يجادل ويشكك في ضخامة الشمس، وفي جهارة ضيائها، وفي نظافة أعضائها وما يرفض أن تكون أي الشمس أسلوباً جمالياً أو عطاء ذكياً، أو عدل إله أو فن إله أو ذكاء إله، أو عرض إله، أو لوحة فنان أو قصيدة شاعر أو ضمير مؤمن.

وإني لأريد لك ومنك كما أتمنى أن تكون النموذج الأخير.

وهل يمكن أن يتساوى تأثير النموذجين؟

ولكن من الذي يصنع النموذجين أو يهبهما أو يعلمهما أو يدل عليهما؟ كيف يأتيان؟ من أين يأتيان؟ من يهبك هذا النموذج أو نقيضه؟ ولماذا يهبك أحد النموذجين دون النموذج الآخر المناقض؟ ولماذا يوهب الإنسان الآخر النموذج المناقض للنموذج الذي وهبته أنت؟

كيف يحدث كل هذا؟ وبأي منطق أو تدبير يحدث؟

هل في هذا الذي يحدث بحث عن الجمال أو عن المنطق أو عن العدل أو عن النظام؟

إن الإنسان لم يصنع مستوياته الجديدة، ولم يتخط نماذجه القديمة، إلا بعد أن تخطى نماذجه النفسية والاعتقادية، وبعد أن انتصر على مخاوفه ومنابره ومحاريبه، وعلى قداساته ومقدساته، وعلى جميع نماذجه المفروضة أبدية ونهائية، وإلا بعد أن تخلت عنه الآلهة التي كانت كل عبقرياتها واهتماماتها وفنونها وعزائها وتملقها لنفسها أن تتحدث عنه وإليه، وأن تدعوه بضراعة وبيكاء وبافتضاح وبنفاق مهين لها إلى الإيمان بها، وأن تتهيأ وتتجمل وتنتظر لقدومه وللقائه في مغازلة ذليلة فقدت كل وقارها وهانت في كل لغاتها وتعبيراتها. هل وجد في كل تاريخ النفاق والتضرع المستكين تضرع أو نفاق مثل تضرع الآلهة ونفاقها وهي تطالب الإنسان بكل المسكنة والملق أن يهبها شيئاً من صلواته واهتماماته وإيمانه؟

إنه لو قيل:

أيهما الخالق لحضارات الإنسان ولكل أساليب قوته وإبداعه: العقل أم الاعتقاد أي أم النموذج النفسي أي أم الصيغة النفسية، لكان الجواب: إن العقل هو خالق حضاراته وكل قواه وإبداعاته، أما الاعتقاد أي الحالة النفسية أو النموذج النفسي فهو الخالق للعقل، أي المحرك والموجه والمحرض له. إن النموذج النفسي أي والبشري هو إذن خالق الخالق وخالق ما خلق وما يخلق الخالق.

* *

يحاول أو يتمنى أكثر الناس أو كل الناس، كل الوقت أو بعض الوقت، في كل المواقف أو في بعض المواقف، أن يتغيروا دون أسباب التغيير، أن يكونوا أقوى وأفضل دون أن يملكوا أو يفعلوا ما يمكن أن يجعلهم كذلك.

إن الناس جميعاً يعلمون ويعظون ويخطبون ويأمرون وينهون ثم ينتظرون جميعاً النتائج والتبدلات أو التغيرات الكبرى.

إنهم يريدون أن يغيروا النتائج الرديئة دون أن تتغير الأسباب التي تصنعها وتحتمها، أو دون أسباب ملائمة. إنهم يريدون نتائج جديدة بدون أسباب جديدة.

إن البشر جميعاً يؤمنون بالسحر ويعيشونه، بل ويتعالجون به حتى أشدهم لعناً للسحرة وإيماناً بالعلم وتفوقاً فيه. إنهم جميعاً يطالبون بالسحر وبالسحرة للتداوي بهم من الطبيعة ومن أخلاقها وقوانينها، بل للتداوي بهم من أنفسهم ومن أخلاقهم وجوعهم ومن غبائهم وضعفهم. إنهم جميعاً يريدون وينتظرون أن تتغير حياتهم دون أن يتغيروا هم، أو أن يتغيروا هم دون أن تتغير فيهم أجهزة التغيير. إنهم يريدون أن تتغير حياتهم وأن يتغيروا هم دون أن تتغير صيغهم ونماذجهم ومستوياتهم النفسية والاعتقادية والبشرية.

إنهم يريدون أن يتغير الخلق دون أن يتغير الخالق، وأن يتغير الخالق دون أن يصاب بأسباب التغيير أو بأسباب الغضب على نفسه وبأسباب الرفض لها والاشمئزاز منها.

إن كل الناس إذن يؤمنون بالخرافة ويتداوون بها وينتظرون نتائجها الباهرة حتى أشدهم تشنيعاً عليها ومقاومة لها، وحتى أقواهم إيماناً بالمنطق واحتراماً له، ومناداة به، وأصالة فيه.

إنهم في كل المجتمعات يعلمون ويعظون ضد الضعف والغباء والتخلف والهوان والتلوث والسقوط، ويدعون إلى نقيض ذلك ويعظون بهذا النقيض ويحرضون عليه، ثم يذهبون ينتظرون ويعتقدون أنهم يفعلون شيئاً كبيراً.. ثم يذهبون يعتقدون أنهم يصوغون الإنسان والحياة صياغات جديدة.

إنهم يرون أنهم بذلك يقتلون الشيطان، وإنهم بذلك أيضاً يحررون يدي الإله وضميره وموهبته وكل أخلاقه من قيودها القديمة، ومن عجزها وأخطائها الفادحة الدائمة.

إن ضعف الإنسان وقوته، فساده واستقامته، ذكاءه وغباءه، حماسه وخموله وكل أساليب سلوكه ونياته تتوالد توالداً قانونياً محتوماً عن مستوياته النفسية والاعتقادية والبشرية. إنها تتوالد توالداً طبيعياً وقانونياً محتوماً عن أسبابها وظروفها. إن ظروفها وأسبابها لا بد أن تكون ظروفاً وأسباباً ذاتية بشرية.

إن ذات الإنسان لتلد طاقاتها بالمنطق الذي تلد به الطبيعة طاقاتها مع الاختلاف في الأسلوب إنها لحتمية هنا وهنا تحت الظروف الملائمة أو الظروف الموجبة.

إنه لا يمكن تغيير حالتي الضعف والعجز، أو حالتي الفكر بين الاقتحام والتهيب، أو بين التوقد والاحتجاج والغضب والرفض وبين الخمول والتقبل والرضا والاستسلام ـ إنه لا يمكن ذلك بدون تغيير الوعاء البشري، أي بدون مستوى نفسي واعتقادي ملائم.

إن الفكر لن يكون مقتحماً أو فعالاً ما لم يغضب ويفجع.

إن سلوكنا الجيد والرديء، وإن نشاطنا الفكري وكذا خمودنا الفكري ـ إن ذلك يحدث عنا وفينا، لنا وضدنا، بالأسلوب الذي به نجوع ونحتاج إلى النوم، والذي به نحزن ونسر، والذي نجيء به أقوياء الأعضاء وضعافها، والذي به تطلع الشمس وتغيب، تحدث الزلازل والأعاصير، أو تتوقف وتتوقر. إن كل ذلك لا يكون إلا تعبيراً عن حالة.

إننا كما نضحك ونبكي، نخاف ونرفض الخوف ـ إننا كما نفعل ذلك بالضرورة وبالمستوى الذاتي والبشري، من غير أن نكون طيبين أو رديئين، ومن غير أن نكون منفذين أو مريدين وقاصدين أن ننفذ أوامر ووصايا مذاهبنا أو أديان أو خطب زعمائنا، كذلك تنشط عقولنا وتخمد، تقاوم وتقبل، وكذلك أيضاً نفعل سلوكنا الطيب والرديء

إننا كما لا نحزن أو نسر، نجوع أو نظمأ بالمذهب أو بالدين كذلك لا ينشط أو يخمد تفكيرنا بالدين أو بالمذهب أو بالتحريض والوعظ. إن السلوك أو العمل الرديء تحت ظروفه الموجبة والملائمة هو السلوك المعقول أو العمل المعقول، مثل السلوك أو العمل الطيب تحت ظروفه الموجبة والملائمة.

إن من مارس الصدق والأمانة والشجاعة تحت الظروف الموجبة والملائمة للصدق والشجاعة والأمانة ليس معقولاً أو عاقلاً أو فاضلاً أو مناضلاً أكثر ممن يمارس الكذب والجبن والغدر تحت الظروف الموجبة والملائمة لذلك.

إنك لو عملت الفضيلة والقوة تحت الظروف المنافية والمضادة ـ لو كان ذلك ممكناً أن يحدث ـ لكنت شاذاً وخارجاً وعاصياً وبذيئاً. وإنك لكذلك لو عملت الرذيلة والضعف تحت الظروف المضادة والمنافية ـ لو كان ممكناً أن تفعل مثل ذلك. إن كل الظروف تسقط في ذلك ليحكمها ويصوغها ويكيفها مستواك النفسي والاعتقادي أي البشري. إنك دائماً لا تساوي سوى ذاتك.

إن استجابات الإنسان المختلفة والمتناقضة، وكذلك اتجاهاته المتعاقبة والمتعارضة والمتقاطعة ـ إن ذلك قانون من قوانين الحياة والطبيعة، لا حيلة فيه، وليس فضيلة ولا رذيلة، وليس طاعة للتعاليم أو للآلهة أو للمذاهب والأديان، ولا خروجاً عليها.

إنه ليس حباً ولا بغضاً، ليس تقوى ولا عصياناً، ليس إيماناً ولا زندقة. إنه حالة نفسية واعتقادية، ذاتية وبشرية. إنه مستوى ذات، ذات من الطبيعة. إنه الطبيعة في أحد تعبيراتها.

إنه لا يحتمل أن نصبح أقوياء وفضلاء، متوقدة عقولنا ومقاتلة، أو خامدة مهزومة مسلمة ـ إننا لا يمكن أن نصبح هكذا، أن نصبح هذا أو هذا لأننا قد اقتنعنا أو علمنا بأن القوة والفضيلة، وبأن نشاط العقل وقتاله للأشياء مستويات أو مزايا جيدة أو واجبة، أو رديئة ومنهي عنها، أو بأن الأديان أو المذاهب أو الزعامات أو النبوات التي نؤمن بها ونحترمها ونهتف بالمجد لها تأمرنا بذلك وتلعننا إذا لم نستجب لأوامرها.

إننا لن نكون غير حالتنا النفسية والاعتقادية والبشرية. إننا لن نكون غير مستوانا البشري والذاتي.

لن نكون أفضل أو أردأ، أقوى أو أضعف. إننا لن نحاول أو لن نريد أن نكون. إننا لن نكون أكبر أو أصغر من أنفسنا، أذكى أو أغبى، أفضل أو أردأ منها أي من أنفسنا. إننا لن نكون بل ولن نريد أو نحاول أن نكون شيئاً من ذلك.

إن جميع زعاماتنا وقياداتنا ونبواتنا ومذاهبنا وتعاليمنا وظروفنا الجيدة جداً لن تستطيع أن تجعلنا أكبر من أنفسنا.

إننا لن نكون أكبر أو أصغر، أذكى أو أغبى، أنبل أو أتفه من أنفسنا أو من مستوانا البشري مهما كانت مذاهبنا أو أدياننا أو زعاماتنا أو آلهتنا أو نبواتنا أكبر أو أصغر، أذكى أو أغبى، أنبل أو أحقر ـ مهما كانت الشمس التي نتعامل عليها والتي تواجهنا ونواجهها أكبر وأذكى وأنبل، أو أصغر وأغبى وأحقر. إننا لن نكون بنظافة الشمس مهما عشقناها وحدقنا فيها.

لقد كانت محاولات البشر ـ وكل البشر يحاولون ذلك ـ لقد كانت محاولات كل البشر لإيجاد الذكاء أو الاستقامة أو الشموخ أو القوة أو الشجاعة أو النظافة أو موهبة الرفض أو الصلب كل مستويات ونماذج الخوف والتفاهات والحقارات والتلوث والأنانية والقصر والضآلة والبلادة والخمول من كل النفوس والعقول والأخلاق والقامات والهامات.

نعم لقد كانت جميع هذه المحاولات التي يحاولها كل البشر بالمواعظ والتعاليم والوصايا والأوامر والنواهي المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الإنسانية أو الثورية أو الخطابية.

نعم، كانت جميع هذه المحاولات العالمية الأبدية تشبه وعظ وتعليم الموتى ـ تشبه وعظ الأعضاء وتعليمها بألا تجوع أو تتألم أو تمرض أو تضعف أو تشيخ.

إن جميع الأنبياء والمعلمين والوعاظ لم يكونوا إلا قوماً يعلمون الأعضاء ألا تجوع أو تمرض أو تضعف أو تموت.

لقد كانت هذه المحاولات العالمية الأبدية تشبه محاولات تلميع النجوم بالصلوات أو إطفاء الحرائق المشتعلة في جسم الشمس بقراءة آيات من الكتاب الكريم. إن جميع الأنبياء والمعلمين والوعاظ لم يكن عمل أحد منهم سوى تلميع النجوم وإطفاء حرائق الشمس بالصلوات وبتلاوة الآيات.

إن صاحب الثورة أو المذهب أو صاحب التعاليم الأخلاقية الذي يذهب يخاطب أتباعه والمؤمنين به، أو يخاطب كل البشر، طالباً منهم أن يكونوا أذكياء أو أقوياء أو مصابين بالحماس والتوقد الذهني والنفسي أو بموهبة الرفض والشجاعة والنظافة.

نعم، إن صاحب المذهب أو الثورة أو التعاليم الذي يذهب يصنع ذلك ليس أضخم غفلة أو عبثاً من النبي الذي يدأب يتلو على أتباعه أو على جميع الناس آياته وأحاديثه طالباً إليهم أن يكونوا أغبياء وضعفاء ومتبلدي الأذهان والنفوس والحواس وعاجزين عن الرؤية، عن رؤية الذنوب والعاهات والتشوهات والأخطاء والوحشية والبلادة التي تعيش في عقول ونفوس وعيون وأخلاق الآلهة ـ وإلا

فلهم كل الجحيم وكل الأهوال وكل العذاب. نعم، لقد كانت رسالة كل نبي أن يعلم المؤمنين به كيف يغلقون عيونهم وعقولهم وأخلاقهم ومشاعرهم عن كل رؤية وتفكير وغضب واشتراط، حماية لأربابه.

إن النبي، إن أي نبي لن يستطيع بتهديداته وتخويفاته وبكل نيرانه وأهواله أن يجعل الناس أو حتى المؤمنين به أغبياء وضعفاء ومتبلدي العقول والنفوس والحواس، أو رافضين للرؤية، أو عاجزين عنها ـ إنه لن يستطيع بتعاليمه وبآياته وأحاديثه أن يجعلهم كذلك لكي يحمي عاهات وتشوهات وذنوب وأخطاء ووحشية إلهه من رؤيتهم وغضبهم واشمئزازهم واحتجاجهم ورفضهم المحتوم حينما يستطيعون نفسياً واعتقادياً وبشرياً ذلك.

إنه لن يستطيع بالتهاويل والتعاليم أن يجعل الناس أصغر من أنفسهم أو أكبر، أقل من مستوياتهم النفسية والاعتقادية أي البشرية والذاتية، أو أكثر منها.

إن النبي، أي نبي لن يستطيع أن يجعل المؤمنين به يطيعونه إلا بقدر ما يعجزون بشرياً وذاتياً، نفسياً واعتقادياً، أن يعصوه. إنهم لا يطيعونه ولكنهم قد يعجزون بمستوياتهم النفسية والعقلية والذاتية أن يعصوه. وحينئذٍ يدعون عجزهم عن عصيانه أي عن عصيان النبي طاعة، أو يدعو المجتمع أو الوعاظ أو النبي نفسه هذا العجز العقلي والنفسي والأخلاقي والذاتي عن عصيان النبي طاعة له. لماذا يختلف الناس في طاعتهم للأنبياء والزعماء وللأديان والمذاهب؟ لأنهم في تفسير سلوكهم لا يطيعون شيئاً أو أحداً ولكنهم يعجزون عن العصيان.

إن النبي، أي نبي لن يجعل أقوى الناس إيماناً به يطيعون إلهه أو يحسون برغبات إلهه خوفاً من جحيمه أو شوقاً إلى فردوسه أكثر أو أقوى مما يطيعون أعضاءهم أو مما يحسون بجوعها، أو أكثر وأقوى مما تحتاج أعضاؤهم إلى أن تطيع وتعجز عن أن تعصي.

إن الناس لم يطيعوا أنبياءهم حينما دعوهم إلى أن يكونوا ضعفاء وأغبياء ومغلقي الحواس ومتبلدي الأذهان والأحاسيس إلا بقدر ما كانوا عاجزين عن أن يكونوا غير ذلك أو أفضل من ذلك. لقد عجزوا، ولم يطيعوا. وحينما قدروا عصوا بكل قدرتهم ولم يطيعوا ولا ببعض طاعتهم. إن الأغبياء والأذكياء ليسوا أذكياء وأغبياء بالطاعة أو بالعصيان، وإن الأتقياء والعصاة لكذلك، ليسوا أتقياء وعصاة بالطاعة أو بالعصيان بل بموهبة الذات.

إن الناس لا يستطيعون أن يكونوا مطيعين أو عصاة وإنما هم أبداً منفذون لأنفسهم إنهم لا يستطيعون أن يكونوا بحجم التعاليم أو المذاهب أو الأديان أو الأخلاق التي تقال لهم، والتي يدعون إليها، والتي يؤمنون بها، ولكنه يكونون أبداً بحجم أنفسهم.

إنه مهما كان حجم ذوات آلهة الناس فإن حجمهم هم لن يتخطى حجم ذواتهم.

إن الناس لا يجيئون على مستوى بلاغة زعمائهم أو قادتهم أو أنبيائهم أو كهان مذاهبهم، وإنما

يجيئون أبداً على مستوى أنفسهم. إن كل البلاغة، في كل التاريخ، في كل الأفواه لم تستطع أن تهب الإنسان ذهناً أذكى ولا نيات أنظف ولا قامات أطول ولا قلوباً أكثر أو أصدق حباً.

إن كل ما في الأنبياء والزعماء والدعاة والمعلمين والوعاظ، وكل ما في المذاهب والعقائد والأديان من بلاغة وتوتر وإرهاب وخداع ومبالغات وإغراء وغوايات.

إن كل ذلك لا يستطيع أن يتحول في المجتمعات إلى قوة عقلية أو أخلاقية أو حضارية أو بشرية أو حتى عاطفية وإنسانية ونفسية.

إن كل ما في جحيم الأنبياء وجناتهم، وإن كل ما في غضب أربابهم ووعودها، وإن كل ما في المذاهب والنظم والدعوات ـ إن كل ما في ذلك من سحر وتخويف وغموض وإرهاق وإقناع وديمومة ومحاصرة وتضليل، لا يستطيع أن يهب مستوياتنا الذهنية أو النفسية أو الأخلاقية أو البشرية أو الحضارية أو الإنسانية أي مزيد أو أية صياغة أخرى.

إن جميع تعاليم الدعاة والأنبياء وصناع المذاهب لا تستطيع أن ترتفع بمستوى ذكائنا أو بمستوى غضبنا على الدمامات والتشوهات والوقاحات، أو بمستوى تطهرنا النفسي أو الذهني أو الذاتي، أكثر مما تستطيع أن تفعل لنا ذلك أية حشرة نقرأ عنها أو نعاشرها وتعاشرنا. إن جميع الدعاة والأنبياء والقادة وواضعي المذاهب والنظريات والتعاليم لا يستطيعون أن يخترقوا حدود مستوياتنا البشرية أو الإنسانية. إنهم يتعاملون بها وعليها دون أن يغيروها، أن يجعلوها أكبر أو أفضل. إنهم عاجزون عن صياغة مستوياتنا العقلية أو الأخلاقية أو النفسية بقدر عجزهم عن صياغة مستوياتنا البشرية.

* *

لعل هذه القضية تحتاج إلى مزيد من التوضيح، أو لعل القارىء يحتاج إلى مزيد من التفسير. بل لعل الصحيح أن الكاتب هو الذي يحتاج هنا إلى مزيد من التكرار. إن التكرار موهبة في الكاتب بل في الإنسان بل في الطبيعة بل في كل شيء. إن كل الأشياء وكل الناس تكرار. حتى الموت، إنه تكرار كالحياة.

لهذا يريد الكاتب أن يقول خاضعاً لموهبة التكرار ولشهوته:

إن المراد هنا بالحالة الاعتقادية أو النفسية، أو بالمستوى البشري أو الذاتي ـ أن المراد هنا هو مستوى الموقف الفكري والنفسي والذاتي والبشري من الإنسان والحياة والكون ومن الأشياء.

إنه هو الحماس والتوقد والاحتجاج والتحديق والتصادم الفكري والنفسي والأخلاقي والذاتي بكل الأشياء المرئية والمعلومة والممكنة والمحتملة.

إنه هو القدرة على التصميم بالمنطق والأخلاق والمشاعر وبالذات وبالحركة.

إنه هو ما يساويه الإنسان مفكراً وناقداً وغاضباً ورافضاً ومحتجاً ومحدقاً ومبصراً وضارباً وهادماً وبانياً ومتخطياً وقادراً.

إنه هو الإنسان موهبة وقدرة ومستوى وانطلاقاً وكينونة ولغة فيها كل بلاغة التعبير وجنونه وفنونه.

إن المعني بالاعتقاد أو بالمستوى النفسي أو البشري هنا: الإنسان في صيغه القوية المقتحمة المتجاوزة أبداً ولكل شيء: المقتحمة المتجاوزة لكل الآلهة والمذاهب والتعاليم والزعامات والتاريخ ـ المقتحمة المتجاوزة لكل الحدود والأسوار، ولكل الصيغ والنماذج والمستويات السابقة والحاضرة والمقبلة والمتخيلة ـ الرافضة للاعتراف بها وللاحترام لها.

إن الإنسان هو الكائن المتجاوز أبداً. إنه المتجاوز لأربابه ولأنبيائه وزعمائه ولمذاهبه وأديانه. إنه المتجاوز لذلك والخارج عليه.

إن الاعتقاد ليس رؤية للأشياء ولا رأياً فيها ولا اقتناعاً بها، ولكنه احتياج إليها، وشهوة وإرادة لها، وتصادم أو تلاؤم معها أو بها.

إن المعتقد بالشيء ليس رائياً أو عارفاً له أكثر، وإنما هو ممارس له أو محتاج إلى أن يمارسه أكثر. إنه عاشق له ومرتبط به أكثر.

إنه ليس عشق حب أو ارتباط حب ولكنه عشق وارتباط جوع وافتراس.

إن اعتقادنا بالشمس لا يساوي رؤيتنا لها أو وجودها في ذاتها. ولكن اعتقادنا فيها يساوي كوننا محتاجين وشهوانيين ومريدين ومتناقضين ومتوافقين ومتصادمين ومتلائمين.

إن اعتقادنا بنبي، بأي نبي من الأنبياء لا يساوي رؤيتنا لمزاياه، أو معرفتنا بهذه المزايا، أو تجاربنا لها، أو انتفاعنا بتعاليمه وبأتباعه.

إن اعتقادنا بأي نبي لا يساوي شيئاً من ذلك.

إن الاعتقاد ليس رأياً أو رؤية أو معرفة في المعتقد، كما أنه ليس مزية أو تفوقاً في المعتقد به.

إن الإنسان ليس معتقداً أكثر من الحيوان، ولكنه معبر أكثر، معبر عن احتياجه وشهوته وإرادته، وعن تناقضه وتوافقه، وعن رؤاه وآلامه ومجاعاته وأحزانه. إنه معبر عن كل ذلك أكثر، ومبدع خالق له أكثر وأقوى.

نعم.. الإنسان معتقد دون الحيوان، ولكنه ليس باعتقاده قد تفوق على الحيوان.

إن الإنسان لا يكون لأنه معتقد، ولكنه يكون لأنه يستطيع أن يكون، ويريد أن يكون، ويحتاج إلى أن يكون، ويعرف أن يكون.

إن الإنسان لا يكون نموذج اعتقاده، ولكنه يكون نموذج كينونته، يكون نموذج قدرته وإرادته ومستواه. وكذلك الحيوان، بل كذلك كل شيء.

إن الاعتقاد بحث عن الكينونة، وليست الكينونة بحثاً عن الاعتقاد إن الكينونة تصنع الاعتقاد.

وهل يصنع الاعتقاد الكينونة؟ إن إرادة الكينونة تصنع الاعتقاد.

وهل إرادة الاعتقاد تصنع الكينونة أو تصنع الاعتقاد؟ وهل الاعتقاد إرادة أم ضرورة وفرض وإلزام وعجز؟ هل أنت تعتقد لتكون أو لتفرح أو لتصبح فاضلاً أو نظيفاً أو تقياً أو ذكياً، أم أنت تعتقد كما تمرض وكما تحزن وكما تجوع وتنام وتتألم، ولأنه يفرض عليك الاعتقاد، ولأنك تقلد؟

لو كانت الشمس أو الحشرة معتقدة أية عقيدة أو كل عقيدة فهل يتغير سلوكها أو كينونتها أو مستواها أي أسلوب من أساليب التغير؟

ولو أن الإنسان لم يعتقد أية عقيدة فهل تكون كينونته أو سلوكه أو مستوياته غير ما كانت؟ ليس هذا أو هذا محتوماً. وقد يقال إن هذا أو هذا ليس مظنوناً.

ومهما كان تاريخ الإنسان مثقلاً بالعقائد ولا يخطو إلا فوق العقائد ولا يتحدث إلا عن العقائد ولا يفسر نفسه ويفسر جميع الأشياء إلا بالعقائد فهل الإنسان حقاً كائن اعتقادي؟

* *

الأفعال الكبيرة لا تصنعها أو تقوى عليها إلا الانفعالات الكبيرة.

إن الانفعالات الحادة المتوهجة هي التي تستطيع أن تحول احتمالات الإنسان وطاقاته، حتى عقائده وأفكاره، حتى مواهبه، لتصيرها نشاطات وتحركات وأساليب مختلفة من الإبداع والخلق. إن الانفعالات الحادة المتوهجة هي التي تحرك ذات الإنسان، لتوزعها، ولتخرجها على شتى الصيغ والأساليب والاتجاهات.

إن الانفعالات القوية هي الوقود الدائم والعالمي لجميع الحضارات والعبقريات وللقفزات العظمى.

إن كل مواهب الإنسان واحتمالاته تظل مواتاً ما لم تحركها وتطاردها الانفعالات الكبيرة المتوقدة.

إن كل شيء خامد في ذات الإنسان ما لم تفجره الانفعالات العنيفة المزلزلة.

إن كل طاقات الإنسان تحتاج إلى أجهزة إطلاق وتفجير. وإن هذه الأجهزة ليست سوى الانفعالات الحادة الدائمة!

إن التحولات الكبرى في حياة الآحاد والمجتمعات هي التعبيرات الأخيرة عن الانفعالات المتحولة. إنها كحالة الفيضان والغليان. إن الغليان والفيضان ليسا إلا نهايتين من نهايات التجمع والحرارة. إن الفيضان والغليان أسلوبان من أساليب الانفعالات الحادة الكبيرة التي تصيب الطبيعة كما تصيب الإنسان. إن الطبيعة تنفعل كما ينفعل البشر.

إن جميع صيغ الطبيعة ليست إلا صيغاً انفعالية.

إن الفيضان والغليان انفعالان حادان يصيبان الطبيعة، وإن الانفعالات الحادة الكبيرة غليان وفيضان يصيبان الإنسان، ليصنعا له وفيه تحولاته الكبرى.

إن الإنسان ليصاب بالغليان والفيضان كما تصاب بهما الطبيعة إنه ليصاب بهما أكثر مما تصاب بهما الطبيعة.

إن الانفعالات الحادة تصيب الفرد والمجتمع بالأسلوب الذي يصيب الفيضان والغليان الطبيعة أي بلا تدبير أو وعظ أو تخطيط. أي أن الفرد والمجتمع يصابان بالغليان والفيضان كما تصاب بهما الطبيعة، أو كما تصاب الطبيعة بالانفعالات الحادة التي تتحول إلى غليان وفيضان، أي بلا أديان أو مذاهب أو نبوات بل وضد الأديان والمذاهب والنبوات.

إنه لولا هذا التناهي أو التصاعد في الانفعالات لتبلغ درجة الغليان والفيضان لما توالت قفزات البشر ليصنعوا وجودهم كما صنعوه.

إن المفروض دائماً أن المتفوقين والموهوبين وذوي الخطوات والتحركات السريعة القوية هم من المرضى والمصابين بالمشاعر الحادة المتفوقة في طاقاتها الانفعالية وفي توقدها الباهظ الأليم. إنه لمستحيل أن يكون هؤلاء خامدي الانفعالات أو مستريحيها. إنه لمستحيل أن يكون هؤلاء غير حرائق إنسانية، غير حرائق لأنفسهم وفي أنفسهم وفي الأشياء وفي الناس وللأشياء وللناس.

إن ذوي المشاعر المتوهجة ليشتدون ويعنفون جداً في ضغطهم على أنفسهم وفي قسوتهم عليها. إنهم ليطاردون أنفسهم ويسوقونها لتكون أقوى وأفضل وأعظم. إن هؤلاء يتمردون في الغالب على المسلمات وعلى الطاعة والقناعة والتصديق، وعلى الإعجاب الدائم أو الطويل بما وجد. إنهم يخالفون مجتمعاتهم في التفكير والسلوك وفي التعبيرات والمستويات الأخلاقية. إنهم يجنحون إلى النقد والتحدي، وإلى الرفض للصلوات في المعابد المتزاحمة بالمصلين وبالأرباب وبجثث التاريخ المتخلف المصاب بالبلادة والهوان. إنهم لا بد أن يتحولوا إلى تحد شامل وإلى تمرد شامل وإلى عصيان شامل. إن احتراقهم الشامل الدائم لا بد أن يحولهم إلى حرائق دائمة شاملة..

إن ذوي المشاعر الحادة القوية لا بد أن يكونوا قساة جداً في مطاردتهم لأنفسهم وفي ضغطهم عليها لتكون أقوى وأكبر وأعظم. إن الإنسان المتفوق هو إنسان محارب لنفسه بقسوة.

إن التفوق الإنساني ليس إلا أسلوباً من أساليب الضغط، على النفس ومن أساليب المطاردة لها. إن التفوق هو أعلى هذه الأساليب وأقساها. هو أعلى وأقسى أساليب المطاردة والضغط على الذات. هو أعلى أساليب مقاتلة الذات. إن كل البشر يقاتلون ذواتهم ولكنهم يتفاوتون في أساليب هذه المقاتلة. إن كل إنسان في قتال دائم لذاته. إن هذا هو معنى الحياة وقانونها.

إنه إذا كانت ظروف هؤلاء المتفوقين في توقد مشاعرهم واحتياجاتها تمنعهم من النشاط والانطلاق والتمرد الذي يتحول إلى تفوق وإبداع فسيصنع منهم تفوقهم الانفعالي نشاطاً أليماً وحزيناً ومخرباً. إنه سيصنع منهم مخربين ومعادين لأنفسهم ولحياتهم وللمجتمعات التي يعايشون. إنهم لا بد أن يصبحوا هدامين وعدوانيين أكثر من الآخرين. إن هؤلاء لا بد أن يكونوا أكثر خروجاً على القانون

وعلى أنفسهم وعلى جميع المستويات الإنسانية المهذبة. إنهم لا بد أن يكونوا أكثر عذاباً وأكثر صناعة وإبداعاً للعذاب لتوقيعه على الآخرين وعلى الحياة. إن المتفوقين في طاقاتهم الانفعالية لا بد أن يخرجوا على المقاييس والمستويات الحضارية والإنسانية والفكرية تفوقاً وإبداعاً أو أن يخرجوا عليها شذوذاً وتحطيماً.

إن المتفوقين في مشاعرهم وفي توقدهم النفسي لا بد أن يتحولوا إلى تفوق إنساني أو إلى عذاب إنساني. إنهم تفجرات لا بد أن تكون إما هذا أو هذا.

إن الإنسان المصاب بالانفعالات الحادة لا بد أن يصبح عبقرياً أو نشاطاً متفوقاً، وإلا فخليق به أن يصبح مجرماً أو هداماً متفوقاً أو شذوذاً أو أحزاناً وآلاماً متفوقة. إنه لا يستطيع أن يتحول إلى صمت وسلام.. لا مع نفسه ومع الأشياء ولا ضدها.

إنه لو أمكن أن ترتفع الطاقة الانفعالية في هذه المجتمعات التي قد تحولت إلى مقابر كئيبة صامتة تثوى فيها كل احتمالاتها وطاقاتها الإنسانية ـ في هذه المجتمعات الخامدة المصابة بكل معاني ومستويات العقم والعجز عن الغضب والاشمئزاز والغثيان النفسي والعقلي والأخلاقي مهما وقع الذباب وتنقل وأقام فوق كبريائها، ومهما بصق وتقيأ على عيونها وطعامها وعلى أخلاقها ونظافتها، ومهما عاشت عاهات الآلهة وتشوهاتها وذنوبها وأخطاؤها في أبصارها وفي عقولها وفي حياتها، بل وفي صحتها وصحة أطفالها، بل وفي صحة حيواناتها وحقولها، بل وفي صحة النجوم والأنهار والسحاب حولها وفوقها.

نعم، إنه لو أمكن أن ترتفع الطاقة الانفعالية في هذه المجتمعات لكان من الحري جداً، أو من المحتوم جداً أن تصاب بالرجفان العظيم ـ أن تصاب بكل أساليب ومستويات الغضب والاشمئزاز والغثيان النبيل، لتلقي بكل هذه المواكب الطويلة من الدمامات والبلادات والأكاذيب والتشوهات، ومن الهوان والتخلف والشقاء والتقبل الذليل، ومن الآلهة والمعلمين والزعماء الذين تحولوا إلى عاهات في تفكيرها وأخلاقها، وإلى أمراض مستعصية في حياتها وتاريخها.

أن تلقي بكل ما فوق عيونها وطعامها وكبريائها من ذباب، وأن تصوغ وجودها صياغات أخرى أقوى وأذكى وأنظف وأكثر شموخاً وغضباً ورفضاً، وأقدر على أن تهش من فوق أنوفها كل منابر ومحاريب وعروش الحشرات. كيف أمكن أن تصبح أنوف هذه المجتمعات منابر ومحاريب وعروشاً ومراقص لكل الحشرات؟ إنها بلادتها الانفعالية.

إن البلادة هي إحدى محطات الضعف الكبرى التي تراخت وهزمت عندها كبرياء الإنسان. إن هذه البلادة الانفعالية هي إحدى محطات الضعف التاريخية الكبرى التي تنازل فيها الإنسان عن كرامته وقوته ونشاطه وإبداعه. إنها المقبرة التي تثوى فيها كل احتمالاته ومواهبه القوية. إن بلادة الإنسان الانفعالية هي الهدية الكريمة التي قدمتها الطبيعة إلى الزعماء والمعلمين وإلى الحشرات والأديان والمذاهب لكيلا يتحول أي الإنسان المصاب بهذه البلادة إلى منكر وغاضب ومحارب ومسقط لها.

إن العجز في الانفعال ليس سوى تعبير عن العجز في الحياة. وهل الانفعالات القوية إلا الحياة في أقوى تعبيراتها؟

* *

كيف يمكن أن يتصاعد البشر بانفعالاتهم؟ وكيف يمكن أن يجعلوها تتصاعد بهم؟

كيف يمكن أن يتحولوا إلى قوم غاضبين ومشمئزين ورافضين ومصابين بالغثيان الروحي والأخلاقي والذهني والبصري، لكي يواجهوا كل المواقف والمواجهات بما يساويها من الغضب والرفض والاشمئزاز ومن الغثيان الروحي والعقلي والأخلاقي؟

كيف يمكن أن يتحولوا إلى عيون محدقة، ترى الدمامات والبشاعات بكل أحجامها وأوصافها وأخلاقها؟ كيف يمكن أن يتحولوا إلى رائين للذباب بكل بذاءاته وكبريائه وعدوانه على أنوفهم وأخلاقهم وعقولهم وشموخهم، وإلى معاقبين ومحاسبين لآلهة الكون على جميع عاهاتها ودماماتها وبلاداتها، وعلى كل ذنوبها وأخطائها، وعلى كل عبثها وضآلتها وطفولتها؟ كيف أمكن أن يحترم أو أن يقدس هؤلاء هذه الطفولة والضآلة التي يعيشها الكون أو التي تعيشها الآلهة في الكون؟

إن في طبيعة الحياة الشوق إلى هذا التصعيد والقدرة عليه. وإن في طبيعتها كذلك كل المحرضات التي لا عداد لها على هذا التصعيد.

إنه لا يصرف الحياة عن ممارسة التصعيد للانفعالات إلا شيئان: عملية التبريد وعملية التشتيت ـ تبريد الانفعالات لئلا تبلغ درجة الغليان، وتشتيتها لئلا تبلغ درجة الفيضان.

ولكن هل صحيح أن في الحياة أو في الإنسان شوقاً إلى تصعيد الانفعالات؟ هل في الإنسان شوق إلى إشعال الحرائق الكبرى في ضميره وأعضائه، في بيته وثيابه، وفي منطقه وتفكيره، وفي كل رؤاه وممارساته وتصوراته؟ هل يوجد كائن غير الإنسان يصنع الحرائق داخل ذاته وفي ضميره وطريقه؟

هل في الإنسان شوق إلى أن يعيش في الجحيم أو أن يعيش فيه الجحيم؟

كيف خلق الإنسان جحيمه؟ لقد أصبح للإنسان جحيم. فكيف حدث هذا؟

إن في الإنسان جحيماً يعيش داخل ذاته. وهل جحيمه هذا هو الذي ألهم أنبياءه أن يخترعوا له جحيمهم؟

هل الإنسان يخلق جحيمه أم يتخلق فيه جحيمه؟ هل تصور الإنسان الجحيم بالبحث والإرادة والرغبة أم فرض عليه تصوره؟ كيف حدث أن أصبح للإنسان جحيم؟ من صنع هذا العقاب؟ أي وحش تصوره أو أراده أو قبله أو صنعه؟

هل الإنسان يحزن ويخاف بالإرادة والبحث أم بالقهر والإلزام؟

هل نحن نضع للإله ولأعوانه من سكان السماء صفاتهم التي تحولنا إلى افتضاح من الذعر والانهيار والإنهزام والتوقع بالإرادة والشوق أم بالضرورة؟

بأي منطق أو بأية صداقة لأنفسنا وضعنا لسكان السماء صفاتهم ووحشيتهم المذلة لكبريائنا ولذكائنا ولشجاعتنا؟

هل الإنسان هو الذي علم قلبه الخفقان؟ هل قلبه هو الذي تعلم الخفقان؟ أم الخفقان هو الذي جعل قلب الإنسان يصاب بالخفقان؟ من علم قلب الإنسان الخفقان، ولماذا؟

هل الخفقان نبوة نتعلمها أم هو آفة نعيشها أو تعيشنا بإكراه وعذاب؟ هل هو رفض نتعلمه أم رجفان نكابده؟ هل هو نشيد سعيد نغنيه أم هو زلزال رهيب نقاسيه؟ من يستفيد من خفقان القلوب؟ وهل يوجد مستفيد؟ وهل الأشياء تحدث لأنه يوجد من يستفيد منها؟ إذن المستفيد من يستفيد من وجوده؟ إذا حدث الشيء بالمنطق فالمنطق بأي منطق يحدث؟

أليس الإنسان في اطراد دائم يبحث عن وسائل التبريد؟ أليس في معاناة دائمة ليصنع ويبتكر أجهزة التبريد وظروفه، ليعلمه ويتعلمه؟ أليس كل أنبيائه ووعاظه يجيئونه ليعلموه كيف يبرد انفعالاته، كيف يقتل فيها التوقد واللهيب؟ أليس أنبياؤه ووعاظه إنما يريدون تملقه والتقرب إليه حينما يذهبون يعلمونه كيف يميت انفعالاته؟

وهل آمن بأنبيائه ووعاظه إلا لأنهم يميتون انفعالاته ويساعدونه على تمويتها؟

أليس الإنسان يحاول دائماً أن يحول كل الأشياء إلى أجهزة مبردة لتعيش فيها كل أشواقه وآماله واحتياجاته وأفكاره وأحاسيسه وهمومه، بل وتطلعاته ونظراته وأعصابه، في خمود وخمول واسترخاء لادة محصنة ضد كل ذكاء وانزعاج ورؤية وتحفز وتوقع؟

أليس أثمن الأشياء في حياة الإنسان وفي مطالبه هي الأشياء التي تهبه الخمول والبلادة والعجز عن الرؤية وعن الإنكار؟

أليست جميع عقائد الإنسان، وجميع آلهته ومذاهبه وعباداته وأوهامه وتعاليمه وأقاصيصه وخيالاته ـ أليست جميعها مصانع تبريد، يريد منها وبها أن تهيىء له الطقس الخامل المريح، لكي يصنع له الرضا والقناعة والاقتناع بكل ما يحدث وبكل ما يصيبه، ولكي يحميه من كل غضب ورفض واشمئزاز واحتجاج، بل لكي يحميه من كل رؤية، بل لكي يجعله يتطلع إلى الدمامات والبلاهات والعاهات والآلام والأخطاء والمظالم العظمى معجباً مصلياً حامداً شاكراً مهزوماً مقهوراً أمام كل الجمال والذكاء والرحمة والعبقرية والإعجاز الذي يشاهده؟

أليست جميع عقائد الإنسان ومذاهبه وآلهته وأوهامه وتعاليمه وخيالاته وأساطيره بحثاً عن الإعجاب بالدمامات والعاهات وبالبلاهات وبالآلام والمظالم وبكل الأشياء الرديئة الموجودة أو التي قد توجد؟

أليس الإنسان يصاب بتوقد الانفعالات ـ أي إذا أصيب بها ـ دون أن يريد ذلك أو يطلبه أو يرحب أو يسعد به كما يصاب بالآلام والأمراض وبالهموم والشيخوخة والموت والعار؟

إنه يصاب بذلك تخطياً للأسوار التي أقامها حوله وتسللاً منها ونفوذاً فيها ومغافلة لها.

لقد ظل الإنسان في كل تاريخه وتحت كل ظروفه ومستوياته الحضارية والإنسانية والنفسية والثقافية يصوغ آلهته ومذاهبه وأنبياءه وأديانه وكل تعاليمه ونظرياته لتكون أقوى الأجهزة على تبريد انفعالاته وعلى تلقينها كل معاني ومستويات الخمول والاسترخاء والعجز والبلادة. لقد كان يصنع آلهته بلا عيون ولا آذان ولا أعصاب وبلا شهامة ولا نظافة لكي يعيش معها دون أي حماس. لقد جعل لآلهته حواس ولكنه جعل حواسها بلا وظيفة. إنها لا تخيفه ولا تزجره. إن أي إله أو دين أو مذهب ابتكره الإنسان أو آمن به أو تقبله مفروضاً عليه أو قاتل تحت اسمه، في أي عصر أو في أي مكان، لم يكن يريد منه إلا أن يكون أقوى وأفضل جهاز تبريد بل أقوى وأفضل جهاز قتل لكل أجهزة الحماس والتوقد والغضب والرفض والاحتجاج والاشمئزاز والتحديق فيه. ما أقبح ما صاغ الإنسان الإله. لقد وضعه في صيغة يستطيع أن يحتمي بها ويحتمي منها. لقد أوجده ليحتمي به ثم حوله إلى أعمى وأصم وخامد وبطيء وساذج ومخدوع ومتقبل للمديح وللتوبة وللاعتذار لكي يحتمي منه.

لقد كان الله في كل التاريخ أضخم وأشهر جهاز للتبريد عرفه الإنسان، وحاول أن يقاوم به كل تحريضات واحتجاجات وغضب الحياة فيه.

لقد كان الله في كل التاريخ جهازاً ممتازاً يراد منه وبه أن يبرد توقد واحتجاج اشمئزازنا من الذباب مهما كان طغيانه أي طغيان الذباب، ومهما كان سلطانه وانتصاره علينا.

لقد أريد من الإله وبالإله أن يحمي الذباب من غضبنا واشمئزازنا ومن صراخنا استفظاعاً لانتصار أي الذباب علينا. أو قد أريد بالإله ومن الإله أن يحمينا من الغضب والاشمئزاز حينما نجد مج الذباب قد تفوق على مجدنا، وحينما نجد بذاءته قد انتصرت على نظافتنا وعلى ذكائنا ونخوتن وشهامتنا. لقد كانت بذاءة الذباب دائماً منتصرة علينا. فكيف نخفي هذه الهزيمة أو هذا العار أو هذ الاذلال عن أنفسنا وعما ندعيه من شجاعة وكبرياء فينا؟ لقد أردنا أن يكون الإله هو جهاز الإخفاء

لقد كان انتصار الذباب والحشرات علينا شيئاً مرهقاً ومذلاً لكبريائنا وإنسانيتنا. إنه انتصار لا بد أ يصنع لنا الانزعاج والاحتجاج والشعور الحاد الباهظ والعار والاذلال.

إذن لا بد أن نحمي من هذه المشاعر. لا بد من محاولة للحماية من ذلك.

وهنا جاء الإله ليؤدي هذه الحماية، أو ليكون هذه المحاولة للحماية أو ليكون إحدى المحاولات الباحثة عن هذه الحماية.

إذن لقد جاء الإله ليكون قتلاً لعيوننا ولمشاعر الكبرياء والنظافة والشموخ فينا. لقد جاء لكيلا نر

الذباب وندرك بذاءته وقبحه واستعلاءه علينا، فنصاب بالغضب وبالمشاعر الأخرى الحادة المقلقة المعذبة لاستقرارنا ولإعجابنا بأنفسنا وبما حولنا.

لقد جاء الإله أو تصورناه ليكون تفسيراً جيداً مرضياً عن الذباب وتفسيراً مرضياً للذباب.

إن رؤيتنا للذباب أي لو استطعنا رؤيته لا بد أن تصبح هجاء للنجوم وتشويهاً لجمالها ونظافتها، بل وتشكيكاً في جمالها ونظافتها إن رؤيتنا للذباب لو رأيناه ـ لا بد أن تتحول إلى رفض لصلواتنا ولإيماننا ولتحديقنا في أطفالنا وفي المرآة بابتهاج وإعلان وإعجاب.

وكيف يكون الإله حماية لعيوننا من رؤية الذباب؟ لأنه يكون حماية لمشاعرنا من الغضب والرفض ضد الذباب؟ وعيوننا لا ترى إلا بمشاعرنا، أو لا ترى معزولة عن مشاعرنا أو خارجة عليها متحدية لها. إننا لا نرى أو نرى، ولكننا نشعر أو لا نشعر. إننا لا نشعر لأننا نرى، ولكننا نرى ونشعر لأننا لا بد أن نشعر، ولأننا نريد أن نشعر، ومحتاجون إلى الشعور، ومحكوم علينا به.

ولكن هل استطاع الإله أن يحمي الذباب من رؤيتنا؟ هل الإله هو الذي حمى الذباب من رؤيتنا؟ هل الإله هو الذي حمى الذباب من اشمئزازنا وغضبنا ومن عقابنا له؟ أم الذي حماه هو عجزنا عن مقاومته، أو عجزنا عن دفع ثمن مقاومته وعن فهمه وفهم ما فيه من بذاءة وقبح وعدوان علينا، أو رفضنا أن ندفع ثمن المقاومة والفهم له، وثمن الغضب والاشمئزاز منه.

* *

هل الانفعالات تساوي أسبابها أم تساوي ذاتها، أي أم تساوي نفس المنفعل؟ هل دمامة الذباب وبذاءته تساويان بذاءاته ودمامته أم تساويان الرائي المواجه لهما؟

وما هي أسباب الانفعالات؟ هل لها أسباب محددة محسوبة ثابتة بالصورة أو بالحجم أو بالوزن أو بالأبعاد والحدود الذاتية؟ هل للانفعالات أسباب عالمية أو إنسانية أو منطقية أو أخلاقية؟ أليس من المحتوم حينئذٍ لو كان ذلك كذلك أن تتساوى انفعالات كل الناس أمام المناظر والمواقف والممارسات المتساوية؟ أليس من المحتوم حينئذٍ أن ينفعل كل الناس أو أن يكفوا كلهم عن الانفعال، وأن تتساوى درجات انفعالهم أمام كل الأشياء، أي لو كانت للانفعالات أسباب عالمية؟

وهل الإنسان ينفعل لأنه يواجه أسباباً تطالبه بالانفعال أو تفرض عليه الانفعال. أم ينفعل لأنه لا يستطيع ألا ينفعل، لأنه محكوم عليه من داخله وبمجاعاته وبأخلاق أعضائه وذاته بالانفعال؟ هل أنت تنفعل كلما وجب عليك أن تنفعل، وتكف عن الانفعال كلما وجب عليك الكف عنه؟ هل أنت تنفعل بقدر ما يجب أن تنفعل وبقدر ما يساوي الموقف، أم بقدر ما تساوي ذاتك؟

ولكن متى يجب عليك الانفعال ويجب عليك الكف عن الانفعال؟ وما هو القدر الانفعالي الذي تجب عليك مقاساته أو القدر الذي يساوي أو يلائم الموقف الذي تواجهه؟

هل توجد لذلك حدود أو مقاييس أو أوقات معروفة أو يمكن أن تكون معروفة؟ أليس ما يجعلك

تتمزق من هول الانفعال وبطشه يجعل سواك يستلقي ويسقط على الأرض وعلى كل عروش الهوان والعار رضا واستقراراً واستمتاعاً بالهوان؟

أليس ما تراه سبباً من أسباب الغضب والبغض والزندقة والصراخ استفظاعاً واشمئزازاً يراه غيرك سبباً من أسباب الحب والإعجاب والإيمان والصلاة والهتاف والتسبيح والإلقاء بكل الذات فوق كل الأوحال والآلام استسلاماً وركوعاً؟

أليس ما يجعلك تهتف إعجاباً وإيماناً يجعل آخرين يصرخون رفضاً واستفظاعاً؟

أليست آلهتك ومذاهبك وأديانك تجيء إليك لتعلمك أشياء معينة ولتطالبك بالرضا عنها والإعجاب بها. وبالصلاة شكراً لها وعليها ومن أجل بقائها والمزيد منها، بينما تجيء آلهة ومذاهب وأديان أخرى لتعلم النقيض وتطالب بالنقيض؟ بل إن الآلهة والمذاهب والأديان الواحدة تعلم في وقت من الأوقات وتعلم قوماً من الناس نقيض ما تعلم في وقت آخر ونقيض ما تعلم أقواماً آخرين. إن إلهك أو مذهبك أو دينك أو نبيك ليعلمك ويطالبك ويريد منك في وقت من الأوقات نقيض ما يعلمك ويريد منك ويطالبك في وقت آخر. إن تعاليم وأخلاق آلهتك وأنبيائك وأديانك ومذاهبك لتتغير وتتناقض لأنك أنت تتغير وتتناقض، أو بقدر ما يحدث لك ذلك.

هل الاستقباح يساوي القبح أم يساوي المستقبح أم يساوي الاستقباح أم يساوي وقته وظروفه، أم يساوي بعض ذلك أو كل ذلك؟

وهل يوجد قبح أم يوجد استقباح ومستقبح؟ هل يوجد جمال أم يوجد راء له محس به جائع إليه؟

هل الغضب يساوي الموقف أم يساوي الغاضب أم يساوي المغضوب منه وعليه أم يساوي معلمي الغضب؟

هل أي شيء يساوي نفسه أو منطقه أم يساوي المواجهين له المتعاملين عليه المحتاجين إليه؟

هل الحب يساوي المحبوب أم يساوي المحب أم يساوي الحب أم يساوي الآلهة والمعلمين والوعاظ الذين حدثونا طويلاً عن مزايا الحب وشتمونا طويلاً لأننا لم نستطع أن نحب كما يقولون أو على مستوى به يطالبوننا ويريدون منا، أو لأننا لم نستطع أن نحب الحق أو الآخرين، أو أن نحبهم هم أي الآلهة والمعلمين والوعاظ بقدر ما يحبون هم أنفسهم وأهواءهم؟

هل الحب يساوي ما يجب أم يساوي ما يحدث؟ هل أي شيء يساوي ما يجب أم يساوي ما يحدث؟ هل أنت تساوي ما يجب أن يكون أو أن تكون أم أنت تساوي ما حدث أي تساوي ذاتك ووجودك؟ وذاتك ووجودك هل يساويان إرادتك لهما أم عجزك عن رفضهما؟

هل الإله يساوي الإله أم يساوي المؤمنين به؟ هل الإله يساوي ما يصنع أم يساوي ما يراد منه، أو ما يظن فيه، أو ما ينبغي أن يكون؟ هل الإله يساوي وجوده أم يساوي منطق وجوده؟

هل يساوي وجوده أم يساوي الاحتياج إلى وجوده أم يساوي فرض وجوده على وجوده؟

هل الإله يساوي ذاته وصفاته أم يساوي صفات وخيال وأماني وضعف من يتصورونه ويفسرونه ويريدونه ويرونه بلا رؤية ولا عيون ولا منطق؟

هل النبي يساوي تعاليمه ونبوته أم يساوي ذاته؟ هل نبوته وتعاليمه تساوي نبوته وتعاليمه أم تساوي أتباعه؟

* *

نعم، لقد كانت أكثر أو كل التعاليم التاريخية التي حكمت البشر أو التي أريد لها أن تحكمهم في كل عصورهم ومجتمعاتهم القديمة، والتي لا تزال تحكمهم جميعاً أو تحكم الأكثرين منهم موضوعة لكي تصبح شكائم ولجماً للتوقدات الانفعالية التي قد تنطلق تحت الآلام أو الضرورات أو الفظاعات والدمامات التي تغطي كل شيء، والتي تعيش فيها كل العيون والعقول والأخلاق، أو تحت أي مثير من المثيرات المالئة لكل الآفاق والاتجاهات والتحديقات والتصورات والقراءات، والتي يصدمنا بها الكون وتصدمنا بها أنفسنا وحياتنا كلما فكرنا أو نظرنا أو مارسنا أو أردنا أو اتجهنا، بل وكلما رفضنا أو عجزنا أن نفكر أو ننظر أو نمارس أو نريد أو نتوجه.

إنها كذلك كانت دائماً وسوف تظل أبداً هذه الشكائم واللجم سلوكاً وفنوناً وأخلاقاً وممارسات عالمية وأبدية، لها أنبياؤها ودعاتها وكل أجهزتها وأساليبها وفنونها ومحاريبها ومنابرها، يمارسها ويقاتل بها كل الطغاة والمتسلطين وكل الباحثين عن مقاومة وقهر كل قوى الغضب والاستقباح والاستفظاع والرؤية والتفكير والمقاومة في الإنسان.

إن مقاومة الانفعالات أسلوب من أساليب مقاتلة الإنسان ومحاولة من محاولات الانتصار عليه. ان جميع الطغاة وجميع الراغبين في التسلط والقوة والكبرياء والخديعة يمارسون هذا الأسلوب القتالي ضد البشر. إن الإنسان لا يكون جندياً جيداً أو عبداً جيداً إلا إذا فقد التوقد العقلي والنفسي والأخلاقي.. إلا إذا فقد توقد الرؤية والمواجهة وتوقد الإعجاب والاشمئزاز..

وهؤلاء حينما يضطرون إلى إشعال مشاعرنا ضد الشيطان أو ضد عدو ما أو ضد شيء ما، أو انتصاراً لقضية ما، أو لهم، أو لحماقاتهم ومغامراتهم، أو للإيمان بهم، فإنهم حينئذٍ لا بد أن يشتدوا في إخماد مشاعرنا وفي زجرها عن أي انفعال ضد أي شيء آخر. إنهم لا يريدون أن نكون متوقدي الانفعالات، وإنما يريدون أن نطيع ونفعل إرادتهم بتوقد أي ضد التوقد.

إنه قد يكون تحريضهم لمشاعرنا على الانفعال والغضب ضد الشيطان أو الأعداء أو ضد أشياء معينة أو للتعصب لهم والإعجاب بهم ـ قد يكون تحريضهم هذا أسلوباً من أساليبهم لإخماد مشاعرنا وتعجيزها عن أي احتجاج أو غضب أو رفض آخر، أي لتعجيز مشاعرنا عن أي انفعال آخر.

إنهم قد يحرضون مشاعرنا على الغضب من شيء ما لكي يصرفونا عن الغضب على أشياء أخرى أو عليهم.

إن الدعاة والأنبياء والقادة والزعماء وجميع الأقوياء والمتسلطين ليعلمون أنهم لن يقبلوا أو يطاعوا أو يبقوا أو يحبوا أو يرى فيهم شيء من الجمال أو الذكاء أو الحقيقة أو الصدق أو الفضيلة أو النظافة إلا بقدر ما تهون وتخمد وتستسلم مشاعر وتحديقات وغضب المجتمعات التي يتعاملون بها ويتسلطون عليها ويتحدثون إليها. إنهم ليعلمون أن انطلاق المشاعر لن يكون إلا عليهم وضدهم. وإنهم كذلك ليعلمون أنهم لن يقوموا في أي تفسير من تفاسيرهم إلا بقدر ما تعجز المشاعر عن التوجه إليهم، وعن التحديق فيهم، وعن الاشتراط عليهم، وعن الغضب والاحتجاج، وعن الاشمئزاز والاستفظاع والاستقباح. إنهم لا يقومون في كل تفاسيرهم ومستوياتهم إلا بقدر ما تعجز المشاعر عن الالتفات إليهم أو إلى الأشياء، وعن محاسبتهم ومحاسبتها، وعن الاشتراط عليهم وعليها أي على الأشياء. إن الاشتراط مخيف. إنه سلاح تخشاه الآلهة والزعماء والأنبياء والحكام وكل المعلمين.

إن تحديق المشاعر المتوقدة نفي لكل شيء. إنه رفض شامل. إنه رفض ونفي لكل الآلهة والزعماء والقادة والمعلمين. إنه هجاء واتهام لكل الأشياء. إنه إعلان عن قبح وتفاهة وكذب وخطيئة كل الناس وكل الأشياء. إنه إعلان عن عذاب كل شيء، وعن العدوان على كل شيء. إن تحديق المشاعر يتحول إلى عار في وجه كل شيء. إن التحديق المتوقد يتحول إلى عار وإلى افتضاح ودمامات وتشوهات في وجوه الآلهة والزعماء والقادة والمعلمين، وفي وجوه وأخلاق وتفاسير كل الناس وكل الأشياء، حتى في وجوه النجوم وفي أخلاقها وتفاسيرها ونياتها وضمائرها ـ حتى في نياتها وضمائرها.

إن التحديق في الضمائر والنيات هو أقوى الأعداء لكل الأشياء إن أقوى أعداء النجوم هو التحديق في ضمائرها ونياتها.

إنه لا توجد أية حماية أو حراسة تحرس وتحمي الآلهة والزعماء والقادة والمعلمين والأنهار والحقول والنجوم، تحمي وتحرس وجوهها وأخلاقها وضمائرها ونياتها من غضب المشاعر ورفض المشاعر إلا خمود المشاعر. إنه لا شيء يحمي ويحرس كل الوجوه والأخلاق والنيات والضمائر من أن تصاب بكل العاهات والتشوهات والدمامات والذنوب إلا إذلال المشاعر وهزيمتها. إن هزيمة المشاعر انتصار لكل الدمامات.

إن المشاعر المتوقدة لا بد أن تتحول إلى اشتراط وغضب ورفض وإلى استفظاع واستقباح.

إننا لو تعاملنا بكل طاقاتنا الانفعالية لما استطعنا أن نعايش الأشياء استقباحاً لذنوبها ودماماتها وعارها ولذنوبنا ودماماتنا وعارنا. إنك لو مارست كل طاقتك الانفعالية لما استطعت النظر إلى النجوم لقبحها وضآلتها وهبوطها، أي اشمئزازاً من قبحها وضآلتها ومن هبوط مكانها.

إن الانفعالات إذن لا بد أن تتحول إلى مقاومة وإلى قتال. لهذا كان محتوماً أو مطلوباً أن تخمد أو تموت.

ولهذا أيضاً كان إخماد المشاعر وهزيمتها قضية عظمى من قضايا جميع الزعماء والقادة والمعلمين،

بل من قضايا جميع الآلهة في جميع العصور. إن إخماد المشاعر هي نبوة كل نبي وزعيم وقائد وحاكم. إنه لا يوجد إنسان واحد لا يمارس أسلوباً ما أو عديداً من أساليب الاخماد للمشاعر. إن الطبيعة نفسها تمارس هذا الفن.

إنه لم يحدث في كل التاريخ أن جاء إله واحد أو زعيم واحد أو قائد واحد أو معلم واحد لم يضع في حسابه وفي تعاليمه وفي فنون مقاوماته وحروبه زجر المشاعر وإذلالها وإعطاءها جميع المسكنات والمثبطات والمخوفات مهما كان محتاجاً إلى إشعالها وتوجيهها إلى محاربة الشيطان أو الأعداء والخصوم والمخالفين، أو إلى التعصب له أو إلى الإيمان به أو إلى السير وراءه في جميع تحركاته الجنونية والعدوانية بلا أي قدر من الوقار أو الذكاء. إن كل نبوة وزعامة وقيادة وألوهية لا منطق ولا سلاح ولا بقاء ولا غفران ولا تفسير لوجودها ولا لسلوكها ولا لغبائها وتفاهاتها وأكاذيبها لو لم تستطع وتمارس إخماد المشاعر.

إن توقد المشاعر يصنع الرؤية، وإن الرؤية تصنع التفكير، وإن التفكير يصنع الرفض والغضب والاشتراط وإن الرفض والغضب والاشتراط يصنع المقاومة.

لهذا كانت نبوة وزعامة وقيادة كل نبي وزعيم وقائد لا تساوي أكثر من قدرته على هزيمة المشاعر ومنعها من التحديق.

إذن فلتقاوم المشاعر المتوقدة، لتكن مقاومتها قضية لجميع الأقوياء والمتسلطين والمخادعين، ولكل لصوص الإنسان. لتكن مقاومة المشاعر المتوقدة قضية لجميع الآلهة والزعماء والقادة والحكام والمعلمين. نعم، لقد كانت هذه المقاومة هي قضية هؤلاء جميعاً.

إننا في توقد مشاعرنا نجرؤ على اقتحام ما كنا نخشى اقتحامه، ونجرؤ على التحديق بغضب وبسالة بما كنا نتهيب النظر إليه، فيما كنا نتهيب مخاطبته بعيوننا المغمدة في كل معاني الرهبة النفسية العقلية الأخلاقية والتاريخية ـ المغمدة في كل معاني الهزيمة والاذلال التاريخي والاجتماعي.

.. إننا حينئذٍ لا بد أن نتغير في أحكامنا على الأشياء وفي تقويمنا لها وفي رؤيتنا لأحجامها ولصفاتها ولقيمها وأثمانها. إن إصابة المشاعر بالتوقد والغضب وبالشهوة في التحديق الغاضب تصنع التغيرات الكبرى.

إن الفكر حالة انفعالية. إنه خلق وحصيلة الحالة الانفعالية، وإنه خاضع وتابع ومستجيب لها ودائماً. إنه محكوم بها أبداً، بداية ونهاية واتباعاً.

الذين لا ينفعلون ـ لو وجدوا ـ هل يمكن أن يفكروا؟ والذين لا يتغيرون في انفعالاتهم هل يمكن أن يتغيروا في تفكيرهم أو في رؤاهم؟

ولكن هل يوجد من لا ينفعلون أو من لا يتغيرون في انفعالاتهم؟

إن التفكير أسلوب من أساليب العاطفة والرغبة والشهوة، أو هو استجابة لها، أو تحول عنها، أو هو

عمل من أعمالها. إننا لو لم نكن ننفعل ونرغب ونشتهي ونحب ونخاف ونريد لما كان ممكناً أن نفكر أو أن نكون مفكرين. لقد أصبحنا مفكرين بعد أن عشنا زمناً طويلاً منفعلين غير مفكرين. لقد أصبحنا مفكرين لأننا قد أصبحنا زمناً طويلاً منفعلين. لقد انتقلنا من الشعور أو الانفعال إلى التفكير.

إنها أبداً لتوجد انفعالات بلا تفكير. ولكن هل يمكن أن يوجد أي تفكير بلا انفعالات؟ إنه ليس حتماً أن يصنع الانفعال والتفكير أو أن يقاد به، ولكن حتماً لا تفكير بدون انفعال وجوداً وتكوناً، وكذا ممارسة.

نعم، إن التفكير ليس إلا حالة انفعالية قد جاءت بصيغة ما أو بتعبير ما. إنه حالة انفعالية متحولة. نعم، إنه صيغة من صيغ الغضب أو الحزن أو الاشمئزاز أو الاستقباح أو الاستفظاع أو البغضاء أو الحقد أو الحنق أو الشعور بالألم أو الهوان أو الظلم أو الحقارة.

إن التفكير حالة انفعالية متطورة أو متراكمة أو متكررة أو متقادمة أو حادة أو غاضبة أو مقاتلة على مستوى أكثر تقدماً. إن التفكير لا يهب ذاته ولا يعلمها ولا يأمرها ولا يلدها.

إن التفكير ليس ابن ذاته ولا إلهام ذاته ولا خادم ذاته، ولا حتى مؤدب ذاته أو واعظها.

إنه لهذا لا يمكن أن تكون أفكارنا معزولة أو بعيدة عن شهواتنا وأهوائنا وأنانياتنا. وإنه لهذا أيضاً لا ينبغي أن نقاوم أو نرفض أو نضعف شهواتنا أو أهوائنا أو أنانياتنا لأننا نريد القوة والمجد والانتصار وكل الطاعة لأفكارنا. إننا لو استطعنا أن نقاوم أو نعصي أو نضعف شهواتنا وأهواءنا وأنانياتنا لكان المعنى المحتوم لذلك أن نفعل كل ذلك بتفكيرنا، أي أن نعصيه ونقاومه ونضعفه.

إن الذي ينبغي أن نصنعه في هذه القضية أو في هذا الموقف هو أن تكون أفكارنا حصيفة وذكية وقوية ومتوازنة في خضوعها، بل في عبوديتها لأوامر وإملاءات أهوائنا وشهواتنا وأنانياتنا.

إني أريد هنا أن أكرر ما كنت قد قلته ذات مرة. وقد قلت في الصفحات السابقة: إن التكرار هو التعبير الشامل الدائم عن وجود كل موجود وعن حياة كل حي وعن ديمومة كل دائم وعن ممارسة كل ممارس لنفسه ولتفاسيره..

.. نعم، إن الذي ينتقل من اتباع مذهب أو فكرة أو دين أو عقيدة ما، أو ينتقل من عبودية إله أو زعيم أو معلم أو من موقف إلى موقف آخر مضاد، بعد طول تفكير وبعد تحديق ذهني، لا يمكن أن يكون معنى انتقاله أنه قد تمرد على هواه أو على أنانيته أو على شهواته، أو أنه قد هزمها أو عصاها أو أضعفها. ولكن المعنى كله أنه قد وجد شهوته وهواه وأنانيته فيما انتقل إليه.

إن أي إنسان يتمرد على كل أهوائه وشهواته وأنانياته، أو يعصيها أو يهزمها أو يضعفها ـ لو أمكن حدوث مثل هذا ـ لن يستطيع أن يفكر أو أن يرى أو أن يغير آراءه وأفكاره، أو أن ينتقل من مذهب أو من دين أو من اعتقاد أو من موقف أو من إله إلى آخر أو إلى نقيض من المذاهب أو الأديان، أو المعتقدات، أو من المواقف أو من الآلهة.

إن من اللغو أو من الغفلة أو من العبث العالمي التاريخي المكرر الدائم المتفق على تكراره تلك المناشدات والعظات والتوجهات إلى الآخرين وإلى جميع الناس، طالبة إليهم بدموع وحماس وصراخ وإصرار، بل وببراءة أو بما يشبه البراءة ـ طالبة إليهم أن يتنزهوا عن الأهواء والشهوات والأنانيات، حينما يفكرون أو يعملون أو حتى يريدون.

إن الأهواء والشهوات هي المبتكرة والمصححة والمنظمة والهادية والقائدة والآمرة الناهية للأخلاق وللأفكار ولكل المواهب والعبقريات. إن الأهواء والشهوات هي العاصية الزاجرة للأهواء وللشهوات.

ومرة أخرى:

هل يستطيع البشر أن يصححوا منطقهم أو سلوكهم على مستوى شامل أو عالمي؟ بل هل يستطيع أو يريد إنسان واحد أن يتجنب في تفكيره أو في ممارساته الأخطاء والخرافات؟

هل من مصلحة حياة الإنسان أو في قدرتها تجنب الأخطاء السلوكية والمنطقية بل والنفسية؟

لقد كان الصواب أن تجيء العظات والمناشدات والتعاليم لتعلم الناس كيف يطيعون أهواءهم وشهواتهم وأنانياتهم، وكيف يجب أن تكون أهواؤهم وشهواتهم وأنانياتهم قوية ومتوقدة ومنتصرة، وقائدة، لكي يفكروا، ولكي تكون أفكارهم قوية وذكية ومتوقدة ومنتصرة، ولكي تكون قادرة على أن تتعامل وتتكافأ مع شهواتهم وأهوائهم وأنانياتهم، لكي تصنع التغيرات والحضارات الكبرى، بل لكي تصنع النظافة والاستقامة والتقوى، بل لكي تعصي نفسها، لكي تعلم نفسها الخروج على نفسها والتجاوز لها. إن إنساناً ما لن يستطيع أن يعصي أو أن يتخطى شهواته وأنانياته وأهواءه إلا بطاعته لأهوائه ولأنانياته ولشهواته، وإلا بقوتها ونصائحها وتقواها.

إن المنطق الصحيح أو السلوك الصحيح هو البحث عن مكان الأهواء والشهوات والأنانيات لكي تسخر كل العقول والأخلاق وكل الآلهة والمعلمين وكل المذاهب والأفكار والتعاليم وكل الأشياء لكي تكون طريقاً موصلاً إلى تلك الأهواء والشهوات والأنانيات. إن كل المذاهب والتعاليم والأديان وكل الآلهة والأنبياء والمعلمين لم يكونوا في كل التاريخ إلا أدلاء يدلون الإنسان على شهواته وأنانياته وأهوائه.

إن الحق أو الذكاء أو الاستقامة والتقوى أو الخير في كل لغاته ومنابره ونصوصه ومحاريبه المختلفة، وفي أفواه وقلوب وعقول كل الآلهة والأنبياء والدعاة والقديسين وجميع المعلمين بل وجميع البشر العاديين، لا يعني إلا القدرة على بلوغ هوى أو شهوة أو أنانية من الأهواء والشهوات والأنانيات، بأسلوب ووسيلة من الأساليب والوسائل. إن كل قيمة المذاهب والأديان والتعاليم والآلهة والأنبياء والقديسين أنهم يساعدون على بلوغ الأهواء والأنانيات والشهوات أو يظنون كذلك.

إن المنزهين القديسين الأتقياء في تفاسيرنا وأحكامنا ومصالحنا، ليسوا هم الذين ليست لهم أهواء

ولا شهوات ولا أنانيات ـ وليسوا كذلك هم الذين ضعفت أو هزمت أو استسلمت أهواؤهم وشهواتهم وأنانياتهم، لأنهم قد قهروها طويلاً وكثيراً.

ولكن هؤلاء الأتقياء القديسين المنزهين ـ أعني الذين نراهم كذلك ـ هم الذين يعبدون أهواءهم وشهواتهم وأنانياتهم بأسلوب لا يصادم أو يعارض أو يناقض أو يهاجم أو يتحدى أو يهزم شهواتنا وأهواءنا وأنانياتنا نحن، بل ليكون ملائماً ومرضياً ومحققاً لها.

إن أعظم وأتقى الأنبياء في حسابنا هو النبي الذي تجيء شهواته وأهواءه أكثر توافقاً مع شهواتنا وأهوائنا، وليس هو الذي يكون أكثر عصياناً لشهواته وأهوائه أو رفضاً لشهواتنا وأهوائنا.

إنه لو أمكن أن يوجد من ليست لهم أهواء ولا أنانيات ولا شهوات، أو من يستطيعون الخروج على كل أهوائهم وأنانياتهم وشهواتهم، والعصيان لها كلها، لكان هؤلاء هم أشد الأعداء وأشد المناقضين لنا، وأشد الخارجين علينا وعلى تقوانا واستقامتنا ونظافتنا وإيماننا وأمانينا ومثلنا، ولكانوا لا مثيل لهم في الفسوق وفي البعد عن كل نماذج التقوى.

إن العصاة جداً لأهوائهم وشهواتهم وأنانياتهم هم المطيعون لها جداً. إنهم يعصونها بأسلوب أو بصيغة أو في موقف أو في وقت لكي يطيعوها جداً بأسلوب أو بصيغة وفي موقف ووقت آخر.

هل يمكن تحريض الانفعالات ووعظها لتكون كما ينبغي أن تكون أو كما يتطلب الموقف أن تكون؟ هل يستطاع صياغة الانفعالات أو التأثير في أخلاقها بالتحريض والإغراء والأوامر؟

هل يمكن تصعيد طاقتنا الانفعالية بالتعاليم والعظات والخطب القوية؟

نعم، إن ذلك يمكن، ويمكن جداً، ولكن بقدر ما يمكن تصعيد طاقة ذكائك أو حدة إبصارك بالمواعظ وبالتدليل على مزايا أن تكون ذكياً وأن يكون بصرك حاداً.

نعم، يمكن ذلك جداً ولكن بقدر ما يمكن شفاء الآلهة من شهوة التعذيب والعبث، ومن شهوة التحديق في العاهات والتشوهات والآلام، ومن شهوات الاستماع إلى صرخات المعذبين والمفجوعين والمهزومين المقهورين بابتهاج تشمئز من وحشيته وهمجيته وبلادته وسماجته أكثر الحشرات سماجة وبذاءة.

نعم، يمكن كل ذلك كما يمكن شفاء الآلهة من شهوات الطفولة، من شهوات العرض والصراخ والتعذيب في أخلاقها وفي منطقها وفي شهواتها وفي ثنائها على نفسها، وفي تمجيدها لقوتها ولعبقريتها، وفي محاولاتها لإثبات تفوقها وانتصارها على جميع الأنداد.

* *

ولكن ما هي المشاعر المتوقدة، أو ما هي الانفعالات الكبيرة المتوهجة التي تصنع التغيرات والقفزات والحضارات المتجددة الكبرى؟

ما هي الانفعالات القوية التي تهب آلهتنا ومذاهبنا وعقائدنا وأفكارنا وحياتنا كل حماسها وذكائها وألمعيتها وقدرتها، بل وكل تقواها؟

ما هي هذه الانفعالات التي تخلق وتصوغ وتقود وتحرك وتفسر وتعلم كل أربابنا ومعلمينا ومذاهبنا وعقائدنا وأدياننا وأفكارنا وأخلاقنا وحياتنا وكل نشاطاتنا وخطواتنا ـ والتي أيضاً تقتل وتغير وتهزم وتطارد وتذل وتفضح كل أربابنا ومعلمينا ومذاهبنا وعقائدنا وأدياننا وأفكارنا وأخلاقنا وحياتنا وكل نشاطاتنا وخطواتنا ـ والتي هذه كلها ليست إلا رعايا وخدماً من رعاياها ومن خدمها؟

نعم، ما هذه الانفعالات الساحرة الخالقة القاهرة؟ ما تفسيرها، وماذا تعني، ومن أين تجيء، وكيف تجيء، ولماذا تجيء، ولماذا تجيء كما تجيء، ولماذا لا تجيء؟

من يهبها، من يوزعها؟ ولماذا يهبها ويوزعها كما يهبها ويوزعها؟

لماذا ليست بأسلوب آخر؟ لماذا جاءت بهذا الأسلوب دون جميع الأساليب الأخرى؟

إن هذه الانفعالات هي الإنسان متحولاً إلى أعنف الصيغ والتعبيرات والاحتجاج والتصادم بكل الأشياء. إنها هي الإنسان في أعنف تصادمه العقلي والنفسي والأخلاقي والوجودي ـ إنها هي الإنسان ممارساً أعنف وأبهظ تحديقاته في نفسه وفي كل الآخرين وفي كل الأشياء. إنما هي التحديق بكل الذات بكل الرؤية بكل القسوة في كل الأوقات في كل الأشياء.

إنها هي الإنسان في أعنف اشمئزازه وإعجابه، وفي أعنف قبوله ورفضه، وفي أعنف تطلعاته وتوجساته ورؤاه وأحاسيسه نحو الأشياء وبالأشياء وللأشياء وضد الأشياء، وبالنفس ونحو النفس، وللنفس وضد النفس ـ محدقاً ومحتجاً ومسائلاً ومقاوماً ومحاسباً ومعاقباً ومحاكماً ومتفجراً، متفجراً. إنها هي الإنسان متفجراً على كل المستويات وإلى كل الاتجاهات.

هل يستطيع أي إنسان أن يكون كل ذلك؟ هل يستطيع أي إنسان أن يكون كل معاني الإنسان وكل احتمالاته؟

إن الإنسان ـ أي في أكبر وأقوى مستوياته وأساليبه ـ هو الإحساس العميق الأليم الشامل الدائم المفروض بالتصادم العميق الأليم الشامل الدائم المفروض بالأشياء، بكل الأشياء.

إنها هي التصادم الشامل بكل الأشياء مع الإحساس الشامل بهذا التصادم. إن الإنسان هو وحده الكائن المتصادم في هذا الكون. إنه لا أحد ولا شيء سوى الإنسان يتصادم بالأشياء، يتصادم بعقله وأخلاقه وأمانيه ومثله وتعاليمه وبتحديقاته الحادة البعيدة بكل الأشياء. إن الأشياء الكبيرة جداً لا تستطيع أن تتصادم بغيرها، إنها لا تملك موهبة التصادم. إنها لا تتصادم مهما تحطمت من التزاحم مع الأشياء الأخرى وبالأشياء الأخرى.

إن الشمس لو سقطت على شمس مثلها أو لو سقطت عليها الأرض لما أصبحت الشمس ولا الأرض متصادمة. إنها حينئذٍ متحطمة لا متصادمة. إنها متزاحمة.

إن التصادم هو حالة فكرية ونفسية وأخلاقية.

إن الإنسان هو وحده المتصادم في هذا الوجود لأنه هو وحده الحالة الفكرية والنفسية والأخلاقية.

حتى الإله، إنه لا يتصادم. إنها مهما واجه الأشياء وعاشها وعاشت في عينيه وضميره بكل عاهاتها وتشوهاتها وآلامها وأخطائها وعبثها لا يصاب بالتصادم، حتى الإله، إنه لا يستطيع أن يرتفع إلى مستوى التصادم.

إن مجد التصادم، أو عار التصادم، وآلامه وتلوثاته وتشوهاته وعاهاته حظ من حظوظ الإنسان وحده، لا يشاركه في ذلك أحد ولا شيء.

وهل حظ الإنسان بهذا الاختصاص جيد أم رديء؟ من يستطيع أن يحكم أو يعرف أو يعدل أو يشفق؟

إن التصادم حالة نفسية وعقلية وأخلاقية وشعورية وليس تزاحم أو تضاد أو تضارب أجسام فقط. إني أريد أن أفهم التصادم بأنه كذلك.

إني أريد أن أضع تعريفاً للتصادم، إنه حالة نفسية وعقلية وأخلاقية وشعورية إنه ليس لقاء أو تزاحماً أو تقابلاً أو تساقطاً بين أجسام. إنه شيء أكثر من ذلك.

فهل هذا تعريف جديد للتصادم؟ وهل التعريفات الجديدة تهب حقائق جديدة؟ وهل اللغات الجديدة تهب البشر مستويات أو حضارات جديدة؟ هل اللغة الجديدة تعني شيئاً جديداً؟

إن الحجر حينما يتحطم لأن حجراً آخر قد سقط عليه ليس متصادماً في هذه العملية أو في هذا اللقاء المحطم. ولكن الإنسان هو وحده المتصادم في هذا اللقاء بين الحجرين.

إن الإنسان هو الذي يتصادم حينما يرى حجراً يصدم حجراً آخر، أو حينما يسقط حجر على حجر فيتحطم الحجران، وحينما يفترس وحش حيواناً ضعيفاً مسالماً.

إن الإنسان هو وحده المتصادم المصدوم المحتج الرافض المتسائل المستنكر بمنطقه وبأخلاقه وبمشاعره وبمثله وقيمه وتعاليمه، أي حينما يفترس وحش حيواناً ضعيفاً مسالماً بريئاً. إن الإنسان هو وحده المتصادم حينما يقع هذا الافتراس المتوحش العدواني دون الوحش المفترس ودون الحيوان الضعيف البريء الذي وقع عليه الافتراس. لأن الإنسان هو وحده الذي سيكون هذا الافتراس نقيضاً له وخروجاً على جميع تفاسيره للأشياء وعلى جميع اشتراطاته وشروطه المختلفة. إن هذا الافتراس عدوان على مستويات الإنسان الأخلاقية والنفسية والمنطقية والدينية. إنه تحدٍ للإنسان في جميع مستوياته الإنسانية. لأن الإنسان ولو افتراضاً لا بد أن يكون صيغة فكرية ونفسية وأخلاقية.

لقد أصاب هذا الافتراس بأسلوب فيه كل معاني العدوان والقسوة والخروج على كل قانون ونظام وعدالة وأخلاقية موجودة أو مفترضة أو مطلوبة كل معاني الإنسان وتفاسيره.

بل إن هذا الافتراس هو افتراس للإنسان في منطقه. إنه تهديد له بالافتراس، بأن ينتقل من رؤيته إلى جسده.

نعم، لقد أصاب هذا الافتراس بتحد شامل رؤية الإنسان ومنطقه وأخلاقه وآماله وتمنياته، وجميع تعاليمه وتصوراته وجميع ما يعرف ويتمنى من قيم ومثل. بل وهدده بالانتقال إلى جسده، أي بأن يتحول من رؤية فقط ومن مكابدة شعورية إلى مكابدة جسدية.

ولقد أثار كذلك هذا الافتراس كل ما في الإنسان من اشمئزاز واستقباح واستفظاع واستنكار وغضب ورفض. إن هذا هو المفروض في الإنسان، أو هو مستواه الأعلى والأعظم والأقوى ولو في بعض أفراده. إن معاني الإنسان ومستوياته لا توجد في كل إنسان إن التفاسير للإنسان ليست تفاسير لكل إنسان، إنها تفاسير لآحاد قليلين. إن أغلب البشر هم في كل مستوياتهم نقيض للإنسان.

إذن لقد وقع هذا الافتراس على الإنسان وحده دون جميع الكائنات، بل دون من أصابه هذا الافتراس نفسه.

إن الحيوان الذي افترسه الوحش ليس هو الفريسة، ولكن الفريسة هي الإنسان وحده. إن الفريسة هي رؤية الإنسان ومنطقه وأخلاقه ومشاعره وخيالاته وتفاسيره لنفسه وللأشياء.

إن بذاءة الحشرة وبلادة الشمس لا تعيشان، أي البلادة والبذاءة لا في الحشرة ولا في الشمس، ولكنهما تعيشان في الإنسان دون أي كائن آخر سواه.

إن جميع البلادات والبذاءات والدمامات والتشوهات والمظالم لا تعيش إلا في الإنسان مهما وجدت في غيره.

إن الإنسان هو وحده المعاقب بكل هذا الكون، بكل أشيائه وآلامه وحماقاته ومظالمه وعاهاته وأخطائه، وهو وحده المسؤول عن كل هذا الكون، والمتهم بكل الكون، والمتألم بكل الكون وعن كل الكون، والمصاب بكل آلام الكون، والحامل لكل الكون، والذارفة عيناه لكل ما في الكون من دموع. ان شيئاً ما في هذا الكون لا يحمل ولا يستطيع أن يحمل فوق ذاته مثلما يحمل الإنسان فوق ذاته رفوق معانيه.

إذن ما أعظم حظوظ الإنسان. إذن ما أقسى حظوظ الإنسان وأردأها.

* *

وهل الإنسان حقاً كائن متصادم أم هو أكثر الكائنات تلاؤماً وبحثاً عن التلاؤم وعن مسوغاته؟ هل الإنسان يتصادم بالكون وبالأشياء الواجب التصادم بها لقبحها وجنونها وغبائها وظلمها؟

أليس الإنسان أكثر وأقوى تلاؤماً بأقبح وأكذب وأسخف الأشياء من كل شيء؟

إن الإنسان لا يعيش فقط الدمامات والتشوهات والعبث والمظالم والبلادات بتلاؤم شامل أو باستمتاع شامل، ثم يصمت حياء أو تأثماً أو ستراً على نفسه أو إبعاداً لها عن التحديق أو التفكير فيها

وفيما تصنع. بل إنه من شدة قدرته على التلاؤم ومن شدة رغبته في التلاؤم يذهب يسوغ ويفسر كل ما يصيبه وكل ما يواجهه وما يجده، بل وكل ما لا يواجهه ولا يجده ـ يذهب سوغه ويفسره بالآلهة والأنبياء والمعلمين، وبالأديان والمذاهب والعقائد والتعاليم والفلسفات والزعامات والقداسات. إنه يذهب يسوغ ويفسر بالآلهة والأديان والأنبياء والمذاهب كل ذنب وكل ظلم وكل قبح وكل بلادة.

بل إن الإنسان يذهب يحول كل ما يصيبه ويواجهه ويجده، وما لا يصيبه ولا يواجهه ولا يجده، إلى آلهة وأنبياء ومعلمين، وإلى أديان ومذاهب وعقائد وتعاليم وفلسفات وزعامات وقداسات، لكي يصبح تلاؤمه بكل شيء بلا حدود وبلا قيود وبلا شروط.

إن الإنسان لا يتقبل الألم والظلم والدمامة والكذب والعبث والغباء مستغفراً الله أو معتذراً إلى كبريائه وشرفه وتقواه وإلى إيمانه وذكائه، أو معتذراً إليه ضعفه وجبنه وهوانه وجوعه، أو مطأطئاً رأسه حياء وتواضعاً وأسفاً وبكاء، بل إنه يذهب بكبرياء وإعلان يفسر كل ذلك أجمل وأتقى التفاسير، وأكثرها إعجاباً واقتناعاً بنفسها.

إذن فالإنسان أكثر من متلائم مع كل شيء، وأكثر من عاجز عن التصادم مع أي شيء، بل إنه ليحول تلاؤمه هذا وعجزه عن التصادم مع أي شيء إلى تاريخ طويل مهيب رهيب من الآلهة والأنبياء والقديسين، ومن الأديان والمذاهب والفلسفات والنظريات والتعاليم المتوحشة العدوانية القتالية. إن كل أديان الإنسان وآلهته ومذاهبه وفلسفاته وتعاليمه ليست إلا بحثاً عن التلاؤم ومقاومة لأي تصادم. إن هذه كلها ليست إلا حرساً من حرس التلاؤم وإلا حرساً لمقاومة التصادم.

هل وجد في أي وقت، أي جنون أو سفه أو ظلم أو قبح أو غباء أو عبث كوني أو اجتماعي أو تاريخي أو إنساني لم يحول إلى مزية من المزايا المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو النفسية أو الإنسانية أو الفلسفية؟ إن أية دمامة أو بلادة أو حماقة أو سخافة أو تفاهة أو سفاهة لم ترفض المجيء في أي وقت احتراماً للإنسان أو خوفاً عليه من أن يعجز عن تفسيرها أتقى وأجمل التفاسير..

لقد كان الإنسان، وإنه لا يزال يحول كل الآلام والشرور، حتى المرض والجوع والبله والموت والتشويه والعجز ـ لقد كان الإنسان، وإنه لا يزال يحول كل ذلك إلى مزايا وتفاسير جيدة ومقنعة جداً، لانه كائن لا مثيل له في موهبة التلاؤم مع كل شيء، ولا مثيل له في العجز عن التصادم مع كل ما هو كائن ومع كل ما ليس كائناً لأنه يحتمل أن يصبح كائناً.

أجل. إن كل هذا حق في أخلاق الإنسان، وفي منطقه وسلوكه وفي تاريخه الطويل الأليم الحزين الذي يظن أحياناً بل ويزعم أحياناً بل دائماً أنه كان تاريخاً عظيماً وسعيداً ومجيداً، بل ونموذجاً لكل مستويات ومعاني البطولة الشاملة.

أجل. إن كل هذا حق قد عاشه كل تاريخ الإنسان في كل مجتمعاته. وإنه لا يزال حتى اليوم يعيشه بأسلوب لعله ليس أقل أو أكثر وقاراً أو ذكاء مما كان يعيشه.

إن التقدم الحضاري والعلمي لم يصنع مستوى أكثر وقاراً أو ذكاء في التهافت على التلاؤم وفي مقاومة كل تصادم.

ولكن لعل هذا لم يكن إلا أسلوباً من أساليب الدفاع عن النفس. لعله كان يريد بكل ذلك أن يحمي نفسه من نفسه. لعله كان نوعاً من الدفاع عن النفس ضد هجوم النفس.

لعله كان يدرك بأسلوب ما أو يشعر على نحو ما أن موهبة التصادم فيه باهظة ومتوحشة جداً، لا بد أن تهبه كل معاني العذاب ومستوياته وفنونه. لعله قد أراد أن يقاوم وأن يضعف من وحشية هذه الموهبة بكل ما ابتكره من تفاسير ومسوغات ومعوقات، أو بما يظن معوقات. ولعله قد وضع هذه التفاسير والمسوغات والمعوقات في صيغ آلهة وأديان ومذاهب وفلسفات وأخلاق وتعاليم وأفكار. بل لقد فعل ذلك.

لعل كل هذه التفاسير والمسوغات التي تعني أن الإنسان كائن متلائم بلا حدود لا تعني إلا أنه متصادم بلا حدود. لعله قد خاف على نفسه وعلى حياته وعلى كل أشيائه وممارساته وعلى كل ما حوله وعلى كل مواجهاته ـ لعله قد خاف على كل ذلك من موهبة التصادم فيه، فذهب بلا اتزان يبحث عن مسوغات ومسببات التلاؤم. فأصبح بحثه هذا دليلاً على النقيض ـ دليلاً على أنه متصادم جداً.

لعل الأمر كذلك، أو لعله يبدو وكأنه كذلك، أو كأنه قد قصد به ذلك.

أو لعل التفسير لذلك أن الإنسان كائن مركب دائماً من النقيضين الحادين جداً ودائماً. فهو متلائم جداً، ومتصادم جداً. وهو يفعل الشيء ويؤمن بنقيضه ويدعو إلى نقيضه. وهو كذلك يدعو إلى الشيء ويؤمن بالشيء الذي لا يريده والذي لا يمكن أن يفعله أو أن يحدث أو أن تؤثر فيه دعوته أو إيمانه. وهو أيضاً لا ينكر على نفسه أو يعجب من نفسه أن يفعل الشيء ونقيضه، وأن يدعو إلى الشيء وإلى نقيضه، وأن يؤمن بالشيء وبنقيضه ـ أن يكون دائماً نقيض نفسه، ونقيض إلهه ونقيض دينه وعقيدته ومذهبه ونقيض أخلاقه وخطبه.

وإنه كذلك لا يقف ليسأل نفسه أو ليعاتبها لماذا يقول ما لا يفعل وما لا يستطيع وما لا يريد، ولا لماذا يفعل ما يمتدح نقيضه وما يؤمن بنقيضه وما يدعو إلى نقيضه وما يريد نقيضه، ولا لماذا يقول الشيء ونقيضه، ويفعل الشيء ونقيضه، ويؤمن بالشيء ونقيضه، ويمتدح الشيء ونقيضه. إنه لا يسأل أو يحاسب أو يحاكم نفسه: لماذا هو دائماً بلا منطق وبلا تفسير وبلا صدق وبلا انضباط أو توافق ذاتي أو نفسي أو فكري أو أخلاقي.

إنه لا يسأل ولا ينكر ولا يعجب: كيف يكون دائماً متناقضاً ومعلناً عن تناقضه، ومفاخراً بتناقضه، وغير راء أو رافض أو لاعن أو مستفظع لتناقضه.

إن الإنسان موهوب بإسراف في قدرته على ألا يرى بعضه بعضاً، أو ينقد بعضه بعضاً، أو يحاكم

أو يعاقب أو يجادل أو يعاتب بعضه بعضاً، أو يشمئز أو يخجل بعضه من بعض، بل أو ينصح ويعظ بعضه بعضاً.

إنه لا يوجد راء عاجز عن الرؤية مثل الإنسان في عجزه عن رؤيته لنفسه، في عجز أفكاره عن رؤية أفكاره.

نعم، إن بعض الإنسان لا يرى بعضه. إن ذاته لا تستطيع ولا تريد أن ترى ذاته، حتى الرؤية، إن بعضه لا يرى بعضه. ولهذا فإن بعضه يجاور ويعايش بعضه، متعرياً مفتضحاً بعضه أمام بعضه، مناقضاً ونافياً بعضه بعضه، بل مكذباً ورافضاً بعضه بعضه، دون أن يرى أو يشعر بأنه محتاج إلى أي استتار أو اعتذار أو اشمئزاز أو غضب أو خجل أو تفسير أو تسويغ أو دفاع. إنه سلوك ليس فيه شيء يستحق حتى الاعتذار أو الاستتار، أو حتى التساؤل، بل أو حتى التفسير.

إنه لا مثيل لتسامح الإنسان في معاملته ومعايشته ورؤيته لنفسه. إن أشد الناس تعصباً وتزمتاً وتديناً وتقوى في معايشته ومعاملته ورؤيته للآخرين وفي محاسبته ومحاكمته الدينية والأخلاقية والمذهبية والإنسانية لهم ليصبح نموذجاً رائعاً في تجنبه لكل تعصب وتزمت وتدين وتقوى حينما يعايش ويعامل نفسه، وفي تجنبه لمحاكمتها ومحاسبتها ورؤيتها. إن الذين يرون أنفسهم أو يحاكمونها أو يحاسبونها أو يعاتبونها أو يجادلونها أو حتى يعظونها وينصحونها، إن هؤلاء ليسوا هم الناس ولا منهم. إنهم الخارجون على الناس.

ولكن لعل في القضية تفسير آخر. لعل الناس لا يملكون أي قدر من موهبة التصادم.

لعلهم لا يملكون أي قدر من الرفض أو الاحتجاج أو الاستفظاع أو الاستنكار أو الرؤية أو النقد أو الاشتراط. لعلهم كائنات لا مثيل لها حتى ولا الحشرات، حتى ولا الديدان في تلاؤمهم وتقبلهم وصبرهم وهوانهم وفي استسلامهم وتواضعهم النفسي والعقلي والأخلاقي، بل والديني والمذهبي والإنساني. إن تقبل الناس الديني والمذهبي والأخلاقي والوطني ليتحدى في هوانه كل هوان الحشرات وتواضعها وتقبلها. إنهم ليمارسون أديانهم ومذاهبهم وتعاليمهم، وباسمها بلا أي مستوى من الكرامة والذكاء.

لعل جميع الناس كذلك، ولكنهم مع ذلك يفرزون أو يلدون من داخلهم ومن صميم ضعفهم وحضيضهم أفراداً قليلين ـ يفرزونهم أو يلدونهم بلا تدبير أو علم أو ترحيب ليكونوا أي الأفراد الأقلون كالاعتذار عنهم، وكالاحتجاج عليهم، وكالغضب من أجلهم، وكالتعويض لهم. إن الناس بولادتهم لهؤلاء الأفراد إنما يلدون نقيضهم. لعل كل عبقرية البشر ومزاياهم أنهم يلدون نقيضهم، أي أنهم يلدون هؤلاء الأفراد الذين هم نقيض لهم.

ليكونوا كأنهم كل ما كان يجب أن يتقسم على كل الناس قد جاء متجمعاً في أفراد قليلين

يجيئون إلى الناس ويخرجون من ترابهم - يجيئون إلى الناس ليكونوا كالعقاب، كالمحاكمة، كالمقاومة، كالاعتذار، كالتعويض، كالكفارة، كالشذوذ، كالغلطة الأليمة، كالذنب العظيم.

ليكونوا كالرؤية في العيون الميتة، كالخفقان في القلوب الساكنة، كالتفكير في عقول المؤمنين والمذهبيين، كالحب والصدق في أخلاق ونفوس المتخاصمين والمتحاربين.

ليكونوا كالمنطق في تفاسير ونصوص وتاريخ الأديان والأتقياء. أي ليكونوا شيئاً غير معقول وغير معهود، بل شيئاً غير محتمل أو مغفور.

وهؤلاء الأفراد الأقلون هم الذين يجيئون متصادمين، هم الذين يتحولون إلى متصادمين عن كل البشر، هم الذين يجعلون البشر يبدون وكأنهم كائنات متصادمة بكل شيء - كأنهم كائنات لا مثيل لها في التصادم بكل الأشياء. إنهم يتحولون إلى تزوير للبشر. إن البشر بدون هؤلاء الأفراد يصبحون شيئاً آخر. إن البشر بدون هؤلاء الأفراد الأقلين يصبحون شيئاً لا مثيل له في الضعف والهوان والبلادة والتخلف. إن المسافات الفاصلة في أبعادها بين هؤلاء الأقلين وبين البشر في مستويات التصادم والتلاؤم، وفي مستويات التقبل والرفض، والرضا والغضب، والرؤية والعجز عن الرؤية، وفي كل المستويات الأخرى، ليست أقل من المسافات الفاصلة بينهم، أي بين هؤلاء الأفراد وبين الحشرات والديدان.

إن المسافات الفاصلة بين الإنسان والإنسان لأوسع من كل المسافات الموجودة أو المتخيلة في الكون والفاصلة بين وحداته.

إن هؤلاء الأفراد الأقلين المالكين لموهبة التصادم ليبدون بعيدين، بعيدين جداً عن البشر، حتى لكأنهم هجاء لهم، لا مجد من أمجادهم، ولا تعويض عن عجزهم وضعفهم، ولا ستر لعارهم، ولا محاباة لحياتهم، ولا تعبير حاد متجمع مركز مكثف عن مواهبهم واحتمالاتهم واحتياجاتهم ورغباتهم. إن البعد الذي بين حدي الإنسان لأوسع من البعد الذي بين الإنسان وبين خياله عن أنبيائه وأربابه ومن البعد الذي بين معلميه وتعاليمهم ومن البعد الذي بين قادته ونياتهم ومن البعد الذي بين المؤمن وإيمانه وبين العابد ومحرابه وبين المصلي وصلواته.

وهل في هذا شيء من الصدق؟ هل صدق أن في البشر من يتصادمون؟ هل يوجد إنسان واحد يملك موهبة التصادم ثم يستطيع أن يظل حياً أو موجوداً؟ هل وجد هذا المستحيل ولو مرة واحدة؟

إن التصادم بالأشياء يعني أن يتفجر كل الكون وكل ما فيه في كل رؤاك وفي كل منطقك وفي كل أخلاقك ومعانيك وأمانيك ومثلك واتجاهاتك وطرقك وتفاسيرك ومخاوفك واحتياجاتك - أي كل أحاسيسك وحواسك وتفاسيرك لنفسك وللأشياء.

إن معنى التصادم أن يتفجر كل الكون وكل الأشياء وكل الناس، متحولاً ومتحولة ومتحولين إلى حرائق داخل ذاتك.

وهل يستطيع إنسان واحد أن يحيا أو يوجد لو تفجرت في عينيه أو في أذنيه أو في أخلاقه أو في تفكيره أو في حبه أو في أشواقه ورحمته أو في قيمته وتقواه كل ما في الكون والأشياء والناس والذات من آلام وأحزان وعاهات وأخطاء وتوقعات ومظالم وضعف وخوف وهوان وحقارة وتفاهة، ومن احتمالات وتوقعات كئيبة رديئة شريرة؟ إن الذين لا يتصادمون مغلقون، مغلقة كل نوافذ ذواتهم دون كل ذلك مهما عاشوا داخله. إن الأشياء لا تجعلنا نعانيها ولكن نحن نصبح نعانيها أو لا نعانيها.

وإذا لم تكن موهبة التصادم موجودة في البشر، في أي مستوى من مستوياتهم، بأي مستوى من مستوياتها أي من مستويات موهبة التصادم، فلعلها أي موهبة التصادم قد بدأت تتخلق في البشر، ولعلها تتعاظم أو تكتمل فيهم في طائفة منهم يوماً من الأيام البعيدة القادمة. لعل موهبة التصادم توجد يوماً ما كما وجدت مواهب الإنسان الأخرى بالأسلوب الذي به وجدت.

وإذا جاء هذا اليوم - إن كان من الممكن أن يجيء - أي اليوم الذي يصبح الإنسان فيه مالكاً لموهبة التصادم بالأشياء، أي مالكاً للموهبة التي تعني أن تتفجر كل الآلام والهموم والتشوهات والذنوب والأخطاء والوقاحات والبذاءات والعبث والقبح والخوف والضياع والمذلات في كل حواسه وأحاسيسه وفي كل تفاسيره لنفسه وللأشياء - تتفجر فيها بإلحاح وتكرار وصراخ وإعلان وديمومة وشمول.

نعم، إذا جاء هذا اليوم إن كان ممكناً مجيئه فهل يستطيع الإنسان حينئذٍ أن يعيش أو أن يتقبل وجوده، ليعاني ويعيش كل هذه التفجرات؟ هل يريد حينئذٍ وجوده؟

هل يستطيع حينئذٍ ذلك؟ هل يريده؟ هل يملك حينئذٍ خياراً فيما سوف يحدث له، أو فيما سوف يصيبه، أو فيما سوف يكون؟

هل يستطيع الإنسان أن يحيا أو يقبل أن يحيا لو سقط كل الكون وكل الأشياء فوقه، ليبقى وتبقى أي كل الكون وكل الأشياء فوقه، ليتحرك كل الكون وكل الأشياء فوقه بكل القسوة والديمومة وبكل الأساليب والاتجاهات والحركات والتعبيرات والشمول؟

هل يقبل الإنسان وجوده أو يعيش وجوده إلا بقدر ما يكون عاجزاً عن التصادم بالأشياء وبنفسه؟

لعله لم يوجد في البشر متصادمون حتى المتفوقون والممتازون، لعلهم لم يكونوا فقط فاقدين للتصادم وعاجزين عنه، بل لعلهم كانوا مقاومين له ومعلمين للتلاؤم. لعلهم كانوا أنبياء التلاؤم.

لعل المتفوقين والممتازين في البشر ليسوا هم الذين يملكون موهبة التصادم بالآلام والدمامات والعبث والتفاهات والحقارات، بل هم الذين يملكون موهبة التسويغ والتفسير والتجريع لذلك.

لعل المتفوقين والممتازين هم الذين يعلموننا معايشة الآلام والحقارات بالمذهب والنظرية وبالدين وبالبحث عن الشهامة.

لعل هؤلاء هم الذين يتحولون إلى أنبياء ومعلمين ودعاة وقادة للتقبل والرضا والتلاؤم مع كل ما يهين عيون الحشرات أن تحدق فيه تحت أقوى الشعارات سحراً وغواية.

إن الذين أجلسوا فوق هذا الكون آلهة وكائنات سماوية لا بد أن يكونوا قد تصوروها أي هذه الآلهة والكائنات السماوية لا تملك أي قدر من التصادم، قد جعلوها بلا عيون ولا آذان ولا أخلاق ولا اشمئزاز ولا استفظاع ولا احتجاج ولا رفض ولا منطق، قد فرغوها من كل انفعال يغضب أو يرفض، قد صاغوها بلا أية أحاسيس أو حواس، قد أسرفوا كثيراً في تشويهها وتقبيحها. إن الذين وضعوا فوق هذا الكون الحزين آلهة وكائنات أخرى سماوية لا بد أنهم قد تصوروا هذه الآلهة والكائنات الأخرى غير قابلة لأن تخلق لها أو فيها عيون أو آذان أو مشاعر أو شهامة أو كرامة أو محبة أو رحمة أو حياء.

لهذا لم يتصوروا أنهم قد ظلموا أو أهانوا أو حقروا أو أشقوا هذه الآلهة وهذه الكائنات السماوية حينما أجلسوها فوق هذا الكون وجعلوها مواجهة له أو مسؤولة عنه أو متهمة به.

إنهم لو تصوروا هذه الآلهة والكائنات السماوية تملك موهبة التصادم بما تواجه أو بما تصنع وتعامل وتمارس وترى وتسمع وتعلم.

لو تصوروها تملك عيوناً وآذاناً وحواس أخرى أو من أي نوع، وتملك قدرة على الاستفظاع والاستبشاع والإنكار والحب والرحمة والتحديق والغثيان النفسي أو العقلي أو الأخلاقي أو المذهبي أو الديني أو الشعوري أو الذاتي.

إنهم لو تصوروها كذلك لوجدوا أنهم يعتدون عليها أبشع اعتداء، ويوقعون بها كل أهوال التعذيب والترويع والتعيير والتقبيح لأنهم قد أجلسوها فوق هذا الكون، أو لأنهم جعلوها تعايشه وتراه وتعرفه وتحسه وتقاسيه ـ تحس بأحاسيسه وبمقاساته وبآلامه وعاهاته وذنوبه وأخطائه وبكل احتمالاته وتوقعاته.

إنهم لو تصوروها كذلك أي متصادمة لوجدوا أنهم يرحمونها ويشفقون عليها ويحسنون إليها ويحابونها وينقذونها ويحمونها من أهوال العذاب حينما يطردونها وينفونها من هذا الكون، من أن تكون فوقه أو أمامه أو معه أو حتى فيه، أو حتى شيئاً منه. إنه لشيء أكثر وأفظع من البلادة ومن كل ضروب الوحشية أن تتصور فوق هذا الكون آلهة تستطيع أن ترى أو أن تسمع أو أن تشعر أو ترثي أو أن ترحم أو تحب أو تخجل أو أن تصاب بالشهامة أو بالكبرياء.

إن من يتصور معنى التصادم ثم يتصورك متصادماً ثم يلقي بك إلى هذا الكون حتى ولو جعلك إلهاً له لهو كائن لا مثيل له في وحشيته وفي عداونه عليك وظلمه لك، حتى ولو تصورك أو صاغك في أعظم وأفضل مستويات الكينونة. إنه لا يمكن فهم من يؤمن بأن إلهاً حياً يملك أقوى الأحاسيس وأفتك الحواس يخلق هذا الكون أو يعيش فيه أو حتى يراه أو يعلمه ثم يعتقد أنه بهذا الإيمان يكرم أو يعبد أو يرضي ذلك الإله.

إن كل شيء لا بد أن يتحول إلى أقسى عقاب وعذاب لك وعدوان عليك حينما تكون مالكاً موهبة التصادم. إذن لو كنت تملك موهبة التصادم هل يمكن حينئذٍ أن تتصور إلهاً يملك موهبة التصادم العقلي أو النفسي أو الأخلاقي لتلقي به في هذا الكون؟ هل يوجد حينئذٍ عدو له مثلك؟

إن أقوى ظروفك ومستوياتك على تعذيبك وعلى التنكيل بك أن تكون متلائماً ومتصادماً. إنك حينئذٍ واقع في منطقة التعذيب الرهيب. إنك حينئذٍ تعيش في درجة المعاناة العظمى.

إنك لو كنت متلائماً فقط، لو كنت متلائماً تلاؤماً شاملاً لرضيت وسعدت. وإنك لو كنت متصادماً فقط، أي لو كنت متصادماً تصادماً شاملاً لرفضت وتحطمت واسترحت. أي إنك حينئذٍ لا بد أن تموت منتحراً أو بأي أسلوب آخر. لقد بقيت لأن تصادمك ليس شاملاً.

أما أن تتلاءم وتتصادم، أي أن تعيش متصادماً، أي أن تتصادم دون أن ترفض وتتحطم، وأن تتلاءم دون أن تفهم أو تتقبل أو ترضى فهذا هو أقدر ظروفك ومستوياتك على تعذيبك وعلى التنكيل بك. إن هذا يضعك في موقف المعاناة العظمى.

إنه لم يوجد إنسان واحد متصادم تصادماً كاملاً. إنه لو وجد لما بقي. فهل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان الواحد؟ وإنه لم يوجد إنسان واحد متلائم تلاؤماً كاملاً. إنه لو وجد لما شكا أو بكى أو حزن أو غضب أو رفض. فهل يمكن أن يوجد مثل هذا الإنسان الواحد؟

إن جميع الناس إذن متصادمون ومتلائمون ولكن على مستويات متفاوتة جداً. لهذا جاء الإنسان أكثر الكائنات عذاباً مع أنه أعظمها موهبة وقدرة على التغيير.

إن الإنسان مهما استطاع وأخذ وأبدع يظل أكثر الأشياء دموعاً وأحزاناً وخوفاً وافتضاحاً وهواناً وتشوهاً، ويظل أكثرها ممارسة للحقارات والتفاهات والذنوب والصغائر. بل ويظل أكثرها تلوثاً نفسياً وذاتياً وأخلاقياً.

وإذا كانت أخلاق الكون لا تستطيع أن تحبل بالآلهة فهل تستطيع مواهب الإنسان واحتمالاته أن تحبل بكائن لا يصغر ولا يتلوث أو يتشوه أو يبكي أو يخاف، أو لا يعيش الغباء والتفاهة والهوان والذنوب والمذلات الكبيرة بنشوة وإعجاب وكبرياء؟

هل يمكن أن يحبل الكون أو يحبل الإنسان بإنسان لا يعيش أي شيء من الصغائر أو التلوثات أو التفاهات أو البلادات أو الإهانات أو التشوهات أو الدمامات أو الحقارات أو الذنوب إلا وهو يبكي أو يتعذب أو يرفض أو حتى يحتج أو حتى يرى ويفهم ويعاني من الخجل، أو حتى لا يحول كل ذلك إلى آلهة وإلى أنبياء وأديان ومذاهب من قوة وروعة وشمول التلاؤم معه وبه؟ هل يمكن أن يلد الكون أو الإنسان إنساناً لا يفسر أقبح العاهات والتشوهات والدمامات والآلام بذكاء الآلهة وبنبوات أعظم الأنبياء؟

أشعر أنه لا بد من الاعتذار إلى القارىء لإصرار رغبتي على معاودة التوكيد لهذه القضايا.

إنه لا حد لإصراري على أن أعود إلى التوكيد بأن الناس لا يستطيعون أن يصنعوا الحياة أقوى أو أفضل مما يحسونها إحساس التقبل والرفض، وإحساس الاعجاب والاشمئزاز، أي الإحساس الشامل الحاد المتناقض المتضاد، وأنهم حينما يعجزون عن الإحساس بها هذا الإحساس الحاد المتناقض المتضاد لا يستطيعون صنعها بكل ذكائهم وقدرتهم واحتمالاتهم، أو لا يستطيعون صنعها بجبروت ودوي وتعذيب وروعة.

وهل يستطيع البشر تحت أي ظرف من الظروف المواتية أو المحرضة أن يصنعوا بكل قدرتهم أو بكل ذكائهم؟

أليس صنع الناس للحياة هو دائماً أقل من إحساسهم بها؟ وهل يمكن أن نصنع الحياة أكثر من أن نحسها؟ ألا يمكن أن نصنعها كما تصنعها الطبيعة، أي بلا أحاسيس، أي بلا إعجاب أو اشمئزاز، وبلا تقبل أو رفض أو احتجاج، أي كما تصنعها أي الحياة قلوبنا ورئاتنا وغددنا الأخرى؟

إن الإحساس القوي بالحياة وبالأشياء لا بد أن يتحول إلى إحساس متناقض متضاد. إنه بقدر ما تكون أحاسيسنا أو انفعالاتنا قوية وشاملة فلا بد أن تكون متضادة متناقضة.

إنه بقدر ما تكون مواهب الإعجاب والتقبل والاشتهاء والإرادة والاستحسان فينا قوية تكون المواهب المضادة والمناقضة كذلك. أليس الذي يعجب ويرى ويتقبل بقوة محكوماً عليه أن ينكر ويشمئز ويرفض بقوة أيضاً؟

هل يمكن أن تكون موهوباً التحديق المستلهم المتطلع المسائل العنيف دون أن تكون موهوباً كل معاني النقد والبكاء والغضب العنيف؟ هل يمكن أن ترى جداً بدون أن تكره وتشمئز جداً؟

هل يمكن أن يثيرك الجمال والذكاء جداً بدون أن تثيرك الدمامة والغباء جداً؟

إنه لمحتوم أن تكون موهوباً أحاسيس الرفض والاشمئزاز إذا كنت موهوباً أحاسيس الاعجاب والتقبل المحدق المستلهم المتطلع المسائل.

ولكن هل محتوم أن تكون موهوباً أحاسيس الرفض والاشمئزاز والاستفظاع؟ ألا يمكن حينئذٍ أن تتحول أحاسيس الإعجاب والتقبل إذا كنت موهوباً أحاسيس الاستفظاع والرفض والاشمئزاز إلى غطاء شامل لكل أحاسيسك، إلى استهلاك شامل لكل أحاسيسك؟

إن الشعور العميق بالجمال والصحة والنظافة والاستقامة والذكاء والمسرات لا بد أن يصنع أو أن يعني الشعور العميق بالدمامة والمرض والتلوث والانحراف والأحزان والغباء.

ولكن هل الشعور العميق بقبح الطبيعة والأشياء، أو ببلادتها أو بقسوتها أو بمظالمها محتوم أن يصنع شعوراً عميقاً بجمال الطبيعة والأشياء، أو بذكائها أو برحمتها أو بعدالتها؟ أليس النقيض الرديء هزيمة بل نفياً بل هجاء للنقيض الجيد؟ أليس الموت والشيخوخة والدمامة والمرض هزيمة ونفياً بل وهجاء ومعاقبة بل وتشويهاً للحياة وللشباب وللجمال وللصحة؟

أليس ظلم الحاكم وجنونه وغباؤه هجاء ونفياً لعدله ولعقله ولذكائه؟ ولكن هل يمكن أن يكون ذكاؤه أو عدله أو عقله ثناء على جنونه أو على ظلمه أو على غبائه، أو نفياً له؟

أليس الحاكم الذي يظلم ويجن ويقسو ويغامر ويحارب ويكذب أحياناً هو حاكم ظالم ومجنون وقاس وكذاب ومغامر؟ ولكن هل الحاكم الذي يعدل ويعقل ويرحم ويصدق ويسالم أحياناً حاكم عادل وعاقل ورحيم وصادق ومسالم؟

إذن فالنقيض الرديء ليس رؤية لنقيضه فيه، بل هو رؤية له في نقيضه.

إن الإحساس بالنقيض الرديء ليس إحساساً بنقيضه فيه أو رؤية له فيه بل هو إحساس به في نقيضه ورؤية له في ذلك النقيض.

إن إحدى مواهب البشر الرديئة وقد يقال الجيدة أن أحاسيسهم دائماً بأنفسهم وبالأشياء أقل من الأشياء ومن أنفسهم. إن أحاسيسهم دائماً مجاملة أو محابية لأنفسهم وللأشياء. إن أحاسيسهم لتبدو وكأنها تتعمد أو تحاول أن تكون رحيمة بالأشياء وبحياتهم.

لهذا تريد دائماً أن تكون أقل منها. إنها لا تحسها بقدر ما يجب أن تحسها، إنها لا تواجهها بكل الأحاسيس ولا بمستوى الأحاسيس التي تستحقها، كما لا تراها بقدر ما يجب أن تراها.

إن أحاسيس البشر منافقة دائماً لأنفسهم وللأشياء أو رحيمة بها، لهذا لا تحسها أو تراها أو تعاملها كما هي.

إن إحدى مواهب البشر الرديئة، وقد تكون الجيدة أنهم خامدو الأحاسيس بالأشياء، موجودة ومفقودة، مقبولة مرادة، ومرفوضة غير مرادة. وإنهم كانوا متوقدي الأحاسيس فإن أحاسيسهم تظل أقل من الأشياء، ومما تستحق الأشياء، ومما تستطيع أحاسيسهم أن تكون، ومما يطلب منها أن تكون. إن أحاسيسهم دائماً مهزومة أو مزجورة أو منافقة أو رحيمة أو محكومة بالشهامة.

إن أحاسيسهم لا تعامل الأشياء أو حياتهم بكل طاقاتها. إنها لا تعاملها بالعدل أو بالصدق أو بالقوة أو بالصرامة.

إن البشر ليبدون دائماً أصغر من الأشياء وأصغر من أنفسهم ومن احتمالاتهم ومما تطالبهم به مواقفهم. إنهم دائماً يقفون أقصر من قاماتهم كما يعملون دائماً أضعف من قدرتهم، وكما يرون دائماً أقل من عيونهم مهما آمنوا دائماً أقوى وأكثر من اقتناعهم ومن تفكيرهم.

إنه ليست لدى البشر أجهزة علمية أو ذاتية يقيسون بها أو يضبطون بها مشاعرهم، أو يرفعون بها مشاعرهم لتكون على المستوى المطلوب أو الواجب أو المنتظر أو الملائم. إنهم لا يملكون أجهزة علمية أو ذاتية طبيعية، ليعرفوا بها أنهم دون ما يجب أو ما ينتظر أو ما يستطيعون أن يكونوا ـ ليعرفوا بها أنهم قد فقدوا أشياء كان عليهم ألا يفقدوها، وأنهم يعيشون أو يواجهون أو يتقبلون أو يريدون أشياء

ينبغي عليهم ألا يعيشوها أو يواجهوها أو يتقبلوها أو يريدوها أو يتعاملوا معها وبها على المستوى الذي به يتعاملون.

هل هي مشكلة من مشاكل الإنسان أو حاجة من حاجاته أنه لا يجد ولا يعرف ولا يحاول أن يجد أو أن يعرف جهازاً ما يقيس به مستوياته الشعورية والنفسية، ويكيف أو يضبط هذه المستويات الشعورية والنفسية، قبولاً ورفضاً، إعجاباً واشمئزازاً بهذا الجهاز، كيف شاء ومتى شاء؟ هل هي إحدى مشاكل الإنسان، أو هي إحدى احتياجاته، إنه لا يجد ولا يعرف مثل هذا الجهاز، بل لا يحاول أن يجد أو أن يعرف مثله؟

كيف لو كان الإنسان يملك مثل هذا الجهاز داخل ذاته أو خارجها، أو ليضبط ويحرك به انفعالاته بالأشياء وبنفسه، ليخفضها، أي الانفعالات بالأشياء وبنفسه، أو ليصعد بها كما يريد وكما يتطلب الموقف؟

هل من الأفضل أو من الأنفع للإنسان أن يكون مالكاً لمثل هذا الجهاز؟ هل كان عجزه عن امتلاكه خطة وتدبيراً ذكياً أم كان عجزاً لا تدبير فيه عن امتلاكه؟

هل في الكون أو في الحياة منطق أو قوة تريد للإنسان أو تدبر له؟ هل في ذات الإنسان جهاز ما يريد أو يدبر له؟

هل يمكن أن يصوغ أي منطق أو أي صائغ الإنسان كما جاء لو كان أي ذلك المنطق أو الصائغ مطلق القدرة وكان رحيماً وطيباً؟

هل ترتجف مشاعر البشر اشمئزازاً بقدر ما يستطيعون، أو بقدر ما يجب أو يطلب حين رؤيتهم للذباب أو للطاغية أو للزعيم الكذاب الجبان الملوث يتحدث فوق أكبر منبر، بأعلى وأجسر صوت عن الصدق والشجاعة والنظافة، لاعناً الجبناء والكذابين والملوثين؟ إن كل عيون البشر ومشاعرهم، في كل تاريخهم وفي كل مستوياتهم الحضارية لا تستطيع أن تتكافأ مع الذباب أو مع الطاغية مرئياً ومفسراً ومحاكماً.

هل تنفجر مشاعرهم بقدر ما يستحق الموقف حينما يتعاقب عليهم الخطباء والمعلمون يحدثونهم عن ذكاء الطبيعة أو الآلهة، وعن رحمة الطبيعة أو الآلهة، وعن حب الطبيعة أو الآلهة، وعن جمال الطبيعة أو عن جمال الآلهة، وعن عدل الطبيعة أو الآلهة، وعن تدبير الطبيعة أو عن تدبير الآلهة - يحدثونهم عن كل ذلك - يحدثونهم عنه موجوداً في مرض المريض، وفي تشويه المشوه، وفي ألم المتألم، وفي شيخوخة الشيخ، وفي دمامة الدميم، وفي هوان المظلوم - في مجيء من يجيء وفي ذهاب من يذهب، وفي حياة من يحيا وفي موت من يموت - في الإنسان مولوداً ومفقوداً في الإنسان ضعيفاً وقوياً، ذكياً وغبياً، في الإنسان مشوهاً وسوياً، منتصراً ومهزوماً، مهيناً ومهاناً - في الشمس قادمة بلا تفسير، ومفارقة بلا تفسير، وواهبة بلا تفسير أو كرم، ومانعة بلا تفسير أو بخل، ومستمرة متكررة بلا

تفسير أو شهامة أو خضوعاً للنظام - في النهر مغرقاً وجافاً ومدمراً ومحيياً وهارباً ومتبدداً وضخماً وضئيلاً، دون أن يدري شيئاً أو يعني شيئاً أو يقصد شيئاً أو يحترم شيئاً؟

إن حواسهم لتبتلع كل الأشياء، بكل صيغها وأساليبها وظروفها وتعبيراتها ولغاتها ووقاحاتها وصرخاتها دون أن تصطدم بها أحاسيسهم، بل ودون أن تمر بأحاسيسهم أو أن تمر منها، بل دون أن تتحول فيهم إلى أي مستوى أو نوع من الأحاسيس.

ما أقدر حواس البشر على الابتلاع. إنها تبتلع كل الكون وكل ما فيه من وقاحات وذنوب.

إن مواكب الأحداث ووقاحات الأشياء لتطحنهم وتحطمهم دون أن تمر بأحاسيسهم، ودون أن تتحول فيهم إلى أي نوع أو أسلوب من الأحاسيس. إن أحاسيسهم لا تتعامل مع حركة الكون ولا تتصادم ببذاءة الأشياء.

إن كل تاريخ البشر وكل احتمالات القدرة والابداع فيهم تظل مختزنة داخل ذواتهم، لا تتحول إلى نشاط لأن أحاسيسهم صامتة مهزومة، لأن أي شيء لا يغضب أو يعاقب أحاسيسهم. إن كل الأشياء مسالمة لأحاسيسهم. إن أحاسيسهم لا تتحول إلى حرب، إنها لا تقاوم ولا تهاجم.

إن وقاحات ودمامات وذنوب الأشياء لا تتحول إلى تفجيرات داخل أحاسيسهم لتحول ذواتهم وما فيها من قدرات واحتمالات إلى حرائق وقذائف ومعارك ضد هذه الوقاحات والدمامات والذنوب - لتحول ذواتهم وما فيها من احتمالات إلى أناشيد، إلى أناشيد لم يسمعوها ولم يغنوها - لتحولها إلى أسفار بعيدة، بعيدة عن هذه الدمامات والوقاحات والذنوب، وفوقها.

هؤلاء الذين لا تصعد أحاسيسهم إلى مستويات الاحتجاج على الطاغية أو على الذباب، شامخاً منتصباً مغنياً مسترخياً متثائباً فوق أنوفهم، يهجو ويشتم ويتحدى ويبارز كل ما لهم من آلهة وأديان ومذاهب ومواهب وتاريخ ومن ضخامة أجسام وصعود قامات بل ومن حضارات.

هؤلاء كيف يمكن أن يرفضوا أي تخلف أو جهل أو حرمان أو ظلم أو غباء أو هوان - كيف يمكن أن يغضبوا على شيء من ذلك - كيف يمكن أن يرتفعوا إلى مستوى القتال للدمامات والوقاحات والذنوب التي تمارسها الطبيعة في ذواتهم وضد ذواتهم، والتي تمارسها ذواتهم استجابة لشهواتهم واحتياجاتهم، ومجاملة لنياتهم ولنظافتهم ولتقواهم؟

هل تجوع أعضاؤنا إلى ذنوبها أو تمارسها إلا تحية وتكريماً لأخلاقنا أو استحياء منها؟

إن الطاغية أو الذباب واقعاً مستريحاً فوق عيني الإنسان لأقوى وأعنف وأصدق في تفسيره للبشر من كل تاريخهم وحروبهم وأمجادهم، ومن كل أنبيائهم ومعلميهم، ومن كل أديانهم ومذاهبهم ومواهبهم.

إن جميع لغات البشر وبلاغاتهم لا تستطيع أن تتحول إلى تفسير لبلادة الأحاسيس البليدة مثلما

يستطيع ذلك الطاغية أو الذباب مستقراً فوق وجوههم المغسولة والمطهرة والمنظفة والمجملة والمعقمة بكل المكتشفات والمجهزات العلمية والحضارية في كل تاريخ العلم والحضارة.

هؤلاء الذين تهزم أحاسيس الحياة فيهم وأحاسيسهم بالحياة كل هذا المستوى من الهزيمة، كل هذا المستوى الذي يغفر للطاغية أو للذباب أن يستقر فوق وجوههم وأنوفهم وجبهاتهم متثائباً مسترخياً مغنياً، مصلياً منشداً أناشيده المثيرة القوية التاريخية، دون أن يسقط من الحياء أو من الخوف أو من المجاملة أو من تحديق النظرات المتوعدة الغاضبة فيه.

هؤلاء لا بد أن تزول حدود الأشياء وصفاتها وتفاسيرها المختلفة من نفوسهم وعيونهم وتفكيرهم وأخلاقهم. إن كل معاني الرفض والغضب لا بد أن تموت حينئذٍ في معانيهم.

إن معاني ذوي الأحاسيس الخامدة لتقتل في الأشياء كل معانيها. إنهم عدوان على الأشياء بقدر ما هم مجاملة للأشياء.

إن صور الأشياء ومعانيها ولغاتها وحدودها وارتفاعاتها لتتداخل وتتشابه حينئذٍ في تقديراتهم وقراءاتهم ومواجهاتهم، فلا يستطيعون أن يروا أو أن يجدوا أن شيئاً ما هو نموذج لشيء، أو حد أدنى له، أو هدف نهائي، أو شرط من شروطهم، لا ينبغي أو لا يمكن التراجع أو التنازل عنه. كما أنهم لن يستطيعوا أن يروا أو أن يجدوا حينئذٍ أن شيئاً ما لا يصح تقبله ولا غفرانه لأنه تحت كل الشروط والنماذج المطلوبة والمقدرة والمحسوبة، وخارج على جميع الشروط والنماذج. خارج على جميع شروط ونماذج الكرامة والشهامة والشجاعة. خارج على جميع المذاهب والأديان والتعاليم.. إن الأحاسيس المتوقدة الغاضبة الرافضة المستنكرة المتفجرة هي التي تضع الشروط والنماذج وتحددها ـ إنها هي التي تضع وتحدد الشروط والنماذج للإنسان، لعقله ولأخلاقه، بل ولأديانه ومذاهبه، بل ولأربابه وأنبيائه ومعلميه. إن أرباب وأنبياء ومعلمي الإنسان لا يستطيعون أن يتعلموا غضبهم أو تقواهم أو همومهم النبيلة إلا من توقد أحاسيسه.

إن الأحاسيس هي التي تضع وتحدد هذه الشروط والنماذج، وهي التي ترفض الخروج عليها أو التنازل عنها. إنها هي التي تصنع صياغات الإنسان وتلزمه بها. حتى صياغاته المذهبية والدينية والأخلاقية والوطنية والإنسانية، هي صناعة أحاسيسه وإلزاماتها.

إن مستويات أربابنا وأنبيائنا ومذاهبنا وأوطاننا ليست شيئاً سوى مستويات أحاسيسنا.

إن أعظم نبي، مبعوث بأعظم رسالة، إلى أعظم شعب، لا بد أن يصبح مهزوماً ولا بد أن يرى أنه مهزوم أمام أي ذباب لو رآه واقعاً على أي وجه من وجوه أتباعه.

. إني هنا أفترض أن ذلك النبي مريض بذلك المرض العظيم، بذلك المرض الإنساني. أعني به مرض الحساسية، أعني به الأحاسيس المتحولة إلى أقسى أساليب العقاب للاسترخاء والاعجاب والتقبل بلا شروط أو بأسهل الشروط. إن ذلك النبي أي المصاب بمرض الحساسية لا بد أن يجد أن آلهته قد

فقدت كل شرفها وكبريائها وجاهها وشهامتها أمام وقفة أية ذبابة تنتصب فوق أي أنف أو فوق أية جبهة قد خلقتها آلهته لكي تتغذى وتتعزى بسجودها لها..

إن الأحاسيس العنيفة هي التي صاغت الإنسان ووهبته جميع مستوياته وقدراته وتعبيراته وجميع مواهبه ونماذجه الإنسانية. إنها هي موهبته الشاملة التي أبدعت كل مواهبه، والتي لا تعمل ولا تبدع أية موهبة من مواهبه إلا بها، إلا بإلهامها وتحريضها وزجرها ومطاردتها.

إن توهج الأحاسيس هو الذي يهب العقل نشاطه ويقظته وذكاءه، بل إن توهج الأحاسيس هو الذي أبدع العقل. لقد اخترعت الأحاسيس التاريخية المتراكمة عقل الإنسان.

لقد وهب الإنسان أحاسيسه قبل أن يوهب عقله. لقد وهب عقله لأنه قد وهب أحاسيسه، ووهب عقله النشاط لأن أحاسيسه قد وهبت النشاط. إن كل نشاطه هو نشاط أحاسيس.

إنه لغير ممكن أن يكون للإنسان عقل لو لم تكن له أحاسيس.

إن عقل الإنسان هو حصيلة أو اختراع احتجاج أحاسيسه عليه وعلى الأشياء. لقد ظلت أحاسيس الإنسان طويلاً، طويلاً تحتج عليه، وعلى ممارساته ومواجهاته وعلى جوعه وحرمانه وعذابه ودماماته، وعلى ذنوبه وأخطائه ونياته حتى صنعت له عقلاً.

إن احتجاج الإنسان على أربابه ومعلميه وغضبه عليهم قد ساعدا على اختراع عقله وتفكيره.

إن عقل الإنسان ليس سوى أحاسيسه متراكمة متحولة. إن عقل الإنسان ليس إلا صيغة تاريخية من صيغ أحاسيسه التاريخية. إن عقله مرحلة تاريخية لأحاسيسه.

لقد تحولت الأحاسيس إلى مواهب مولودة متفاوتة. إنها تولد وتتفاوت كموهبة الذكاء والأدب والشعر والفن والتفكير. إنها تولد وتتفاوت كالحواس، كحاسة الإبصار والسماع. إن إحساسك ضد الدمامة والطغيان وتفاهة الأشياء يكون ضعيفاً مثلما تكون رؤيتك ضعيفة.

إن الحيوان لا يستطيع أن يشمئز أو يرفض أو يغضب أو يحتج أو يستفظع أو يتألم ألماً نفسياً أو شعورياً أو أخلاقياً على مستوى الإنسان مهما واجه ومارس أفظع وأقسى من مواجهات وممارسات الإنسان.

إن قوماً ما لا يستطيعون أن يبلغوا مستوى قوم آخرين في ممارساتهم لأحاسيسهم وفي ممارسات أحاسيسهم لهم. إن الناس يتفاوتون في مستويات أحاسيسهم تفاوتاً مولوداً ومنقولاً وموروثاً. إنهم يتفاوتون تفاوتاً لا يتساوى بالمحاولات أو بالتعليم أو بالإرادة أو بالتدبير. إنه تفاوت كتفاوت الذوات والمواهب والحواس وطول القامات وصفات الأجسام الموروثة والمولودة. إن صفاتنا الشعورية والنفسية تولد معنا مثل صفاتنا البدنية.

إننا نصنع من داخل ذواتنا لا من خارجها مهما كان تلقيها لوجودها ونماذجها وخصائصها وأخلاقها ولتاريخها من الخارج، وبالتعامل والتصادم وبالخارج ومعه وفيه وضده.

إن ذواتنا تتلقى الأوامر والتحريضات والإغراءات والقدرة والعجز والإقدام والإحجام والحب والبغض من داخلها مهما تلقت من خارجها. إننا نبصر الخارج ونمارس الخارج ونحب ونريد الخارج ونتحرك فيه، ولكننا لا نفعل شيئاً من ذلك إلا من الداخل ومنطلقين من الداخل وبصفاتنا الداخلية، أي الذاتية. إننا نجد الخارج ونراه ونتصوره ونحسه ونتعامل معه وبه وفيه وبقدر ما نكون في الداخل أو بقدر ما يكون الداخل أو بقدر ما نجد الداخل. إن الاشمئزاز فينا لا في الأشياء التي نشمئز منها.

إن ذواتنا إذا لم تستطع أن ترفض وتشمئز وتغضب وتستفظع وتعاف وتشعر نحو الأشياء وضدها قوة وتوقد فلن تستطيع الأشياء الخارجية أن تجعلها تفعل ذلك مهما كانت صفات الأشياء الخارجية، مهما كانت إغراءاتها وقباحاتها.

إن جميع الأشياء صامتة بلا تفاسير وبا أخلاق وبلا صفات أو لغات والإنسان هو الذي يجعلها كل المعاني وكل التفاسير.

إننا لا نستطيع أن نجد العالم أو أن نراه أو أن نفهمه ونفسره، أو أن نقومه، أو أن نعرف جماله وقبحه، ذكاءه وغباءه، مزاياه ورذائله إلا بصفاتنا نحن وبما فينا من موهبة الإحساس وموهبة المواجهة الشعورية إن موهبة المواجهة الشعورية أو بالشعور هي كل آلهة الإنسان وأنبيائه وزعمائه وقادته وكل مذاهبه وأديانه وتعاليمه وأخلاقه وتفاسيره.

إن بذاءات ودمامات الطاغية في أحاسيس الصرصار وفي مواجهاته الشعورية ليست مثل بذاءاته ودماماته في أحاسيس الإنسان وفي مواجهاته المختلفة.

إن الطاغية ليس طاغية إلا في مشاعر من يرفضون الطغيان. إن الطاغية نبي أو قديس أو مجد قومي أو مجد إنساني أو مجد تاريخي في حسابات وفي منطق من لا يملكون مشاعر جادة ضد الطغيان.

إن دمامة المنظر لا توجد إلا في العيون المبصرة. إن الإبصار ليس في العيون المبصرة أو العيون السوية، ولكنه في الأحاسيس المبصرة أو المتوقدة.

إن القدرة على الابصار ليست في الأعصاب السليمة بل في الأحاسيس المفجوعة أو المبهورة.

إن الموت في خيال الإنسان ليس هو الموت في خيال أي حيوان. إن قبح الموت في مشاعرنا لا في نفس الموت، بقدر ما جمال الحياة والوجود في أحاسيسنا وليس في ذات الحياة أو الوجود.

إن صفات الأشياء فينا نحن لا في الأشياء. إن صفات الأشياء في أحاسيسنا لا في حياتنا ولا في ممارساتنا. إننا لا نعاني القبح أو الظلم أو العبث أو الغباء بقدر ما نعيشه أو نواجهه أو حتى نصنعه ولكن بقدر ما نشعر ضده. ونحن لا نشعر ضده فى نموذج واحد أو بمقياس واحد أو بالتدبير أو بالخطة أو بالتعليم أو بالمذهب أو بالدين والتقوى أو بالوطنية والإنسانية أو بالشهامة والبطولة. إننا نشعر ضده بالموهبة التي لم ندبرها أو نردها أو نخلقها والتي لا نستطيع أن نأمرها أو ننهاها.

إن هذه هي القضية. فهل يمكن أن يوجد لها قضاة؟ وهل يجب أن يوجد لها هؤلاء القضاة؟ إنه

ليس لكل قضية قضاة. إن أكبر وأعظم القضايا ليس لها قضاة ومن الخير ألا يكون لها قضاة.

هذه الأكوام البشرية التي تأكل الأوقات أو التي تأكلها الأوقات مسترخية في الأوحال والتراب والطرقات وفي النوادي والمعابد والمكاتب والبيوت المسكونة بالحشرات والعاهات والدمامات والآلام والهموم المتزاحمة ـ هذه الأكوام البشرية التي تأكل الأوقات وتأكلها الأوقات، كالمخدرة بأقوى المخدرات ضد الشعور بأي شيء، بأي ألم، بأي ظلم، بأية دمامة ـ ضد كل غضب ورضا وإعجاب واشمئزاز، ضد كل رؤية وانفعال وانزعاج وانبهار وانفجاع.

هذه الأكوام البشرية التي لا تستطيع أن ترى الأهوال أو الدمامات أو القذارات، أو الآلام أو الأمراض أو معارك الجوع والحرمان التي تملأ وتسد طرقها الكئيبة التي تتجمع فيها كل الأوبئة ـ هذه الأهوال والدمامات والقذارات والآلام والأمراض ومعارك الجوع والحرمان التي تعيش متجمعة متألقة في عيون ووجوه وأجساد أطفالها الشاتمين بتشوهاتهم وهزالهم وبكل مستوياتهم الرهيبة لأخلاق الطبيعة، ولمنطق التناسل، ولتعاليم كل المعلمين، ولتفاؤل جميع المتفائلين.

هذه الأكوام البشرية التي لا تستطيع أن تغضبها أو أن تلعنها بذاءة أو قبح الطاغية السارق الآكل لخبزها، المشوه المحقر لوجودها، الباصق المتقيء على أنهارها وحقولها وعلى مجد ونخوة أربابها، وعلى مذاهب وأديان معلميها وأنبيائها.

هذه الأكوام البشرية المخدرة بكل أساليب ومستويات ومعاني التخدير ضد الإحساس بالأشياء والإحساس ضد الأشياء، لو أن طاقة الأحاسيس فيها قد ارتفعت إلى المستوى الذي يساويه الموقف، أليس محتوماً حينئذٍ أن تقاتل حتى الموت أو النصر، بل حتى الموت فقط، أن تجد في الموت كل معاني وأمجاد النصر، أو أفضل وأعظم وأنظف من كل معاني النصر وأمجاده؟ أليس محتوماً حينئذٍ أن تجد في القتال ضد الحياة كل المزايا التي يبحث عنها في الانتصارات دون أن توجد فيها؟

أليس محتوماً حينئذٍ ألا تقبل حياتها بين الصراصير والعاهات والتشوهات والأمراض والآثام والتفاهات والإهانات، وبين طغيان الطغاة وطغيان الآلهة والطبيعة وطغيان المعلمين المنافقين الجهلاء وبين الأبناء المصابين بكل معاني الحرمان والمجاعات والجهل والقذارة والبله والتشوه والشذوذ والضعف والعجز والضياع، وبكل شراسة الآلهة والطبيعة، وبكل ذنوب الآلهة والطبيعة ـ بين الأبناء الذين قد أصيبوا بكل ذلك أو الذين قد يصابون بكل ذلك؟

أليست العاهة التي قد تقع تصنع الغضب والذعر والرفض والعلاج كالعاهة التي قد وقعت؟ أليست العاهة أو الآلام أو المخاطر التي نتوقع أن تصيبنا قد تصنع لنا الخوف والمعاناة أعنف من التي أصابتنا.

* *

كيف، أو لماذا جاءت أحاسيس الناس بالأشياء أو ضدها على هذا المستوى دون غيره؟ لماذا لم تجئ أقوى وأشد توقداً ومواجهة؟

إن المفروض أن أحاسيس البشر لو جاءت أقوى وأعلى مما جاءت لوقع أحد أمرين: إما أن ينتحروا فراراً مما يجدون ويواجهون، واستقباحاً له وعجزاً عن رؤيته وتقبله، واشمئزازاً وحياء منه. أما الأمر الثاني أو الاحتمال الثاني حينئذٍ فهو أن يصوغوا أنفسهم ووجودهم والوجود الذي حولهم صياغات أخرى جديدة، ليس فيها دمامات أو عاهات أو تفاهات أو تشوهات أو قذارات أو حشرات أو طغاة أو غباوات أو ذنوب أو هوان. وليس فيها كذلك إله يذهب يثني على نفسه ويمجد عبقريته ورحمته لأنه قد أراد ودبر وخطط وصنع كل ذلك.

ولكن الافتراض الأخير لا يمكن أن يصبح واقعاً، إنهم لا يستطيعون مهما أرادوه. إنه أكبر من كل قدرتهم. والكائن الحي مهما كانت أحاسيسه واحتياجاته وأمانيه لا يستطيع ان يفعل بأكثر من قدرته. إن كل شيء محكوم بقدرته مهما أراد أو حاول أن يكون أكبر أو أذكى منها، ومهما أراد أو حاول أن يكون محكوماً باحتياجاته وأمانيه وطموحه لا بقدرته أو موهبته.

إنه نوع من التعذيب الدائم أن يكون دائماً ما نستطيع أن نكونه وأن نفعله أقل مما نريده ومما نحتاج أو نطمح إليه.

إن أحاسيس الإنسان وأفعاله وإبداعاته محكومة بقدرته وموهبته مهما كانت قدرته وموهبته محكومتين بأحاسيسه. إن الإنسان كائن يحكم بعضه بعضاً. إنه كائن يعيش فيه حاكمون ومحكومون. إنهم يتصارعون بوحشية وبلا مجاملة أو استحياء أو محاباة داخل ذاته. ما أكبر وأقسى المعركة، وما أكثر المتحاربين المتصارعين فيها من حكام ومحكومين. ولكن ما أصغر وأضيق الميدان الذي تعيش فيه المعركة أو المعارك، والذي يلتقي فيه المتصارعون المتحاربون، أي الحاكمون والمحكومون. إن الإنسان كائن يحكم بعضه بعضاً مع أن بعضه لا يرى ولا يحاكم ولا يحاسب بعضاً. إن تعامل بعضه مع بعض يشبه تعامل وحدات الطبيعة بعضها مع بعض.

وهؤلاء المتصارعون المتحاربون في ذات الإنسان ـ أي الحكام والمحكومون ـ يتبادلون الوظائف الأدوار، أو تتحول الوظائف والأدوار فيهم إلى ثنائية المعنى والتفسير، أي إلى الشيء ونقيضه، أي إلى الخصم وخصمه. إن الحكام من هؤلاء المتصارعين المتحاربين في ذات الإنسان هم محكومون، وإن المحكومين منهم هم حكام. إن كل محكوم في ذات الإنسان حاكم، وإن كل حاكم فيها محكوم.

إن ذات الإنسان إذن هي أقسى وأعجب ميدان لأقسى وأعجب معركة أي معارك، لأعجب وأقسى متحاربين متخاصمين متعادين. إن ذات الإنسان هي المعركة أو المعارك الدائمة التي لا تستطيع أن تتحول إلى أي سلام، وإنها الميدان الدائم للحرب الدائمة. إنها الميدان والحرب والمتحاربون.

أما الافتراض الأول ـ أي أن ينتحروا أو يقاتلوا حتى الموت هرباً واشمئزازاً وخجلاً مما يجدون ويرون ويعلمون ويواجهون ويمارسون ـ فلم يريدوا أن يفعلوه. إنهم لا يستطيعون أن يريدوه أو أن يفعلوه. إنها لا يريدون، بل ولا يستطيعون أن يريدوا الموت تحت أي سبب أو أي تفسير نبيل. إنهم لا يريدون ذلك، ولو أرادوه لما استطاعوا تنفيذه.

إن إرادة الحياة والالتزام بها فوق كل الاشتراطات الفكرية والأخلاقية والمذهبية والوطنية. إن ذلك فوق كل الاشتراطات وأقوى منها.

وإن العجز عن إرادة الرفض للحياة مهما كانت بلا شروط وبلا مستويات بل وبلا مسرات لأقوى من كل مواقف البطولة وشعارات الشرف والكبرياء.

وهل الأحياء يريدون الحياة أم هم يخضعون لها ويعجزون عن رفضها وعن التخلص منها دون أن يريدوها كما يخضعون لتفاهاتهم ولنقائصهم وللمجاعات وإملاءات ذواتهم وأعضائهم عليهم دون أن يريدوها أو يفهموها أو يحترموها؟ هل أنت تريد الحياة أم تجبن عن التحرر منها؟

الذين يموتون في أي موقف، وتحت أية فكرة أو شعار ليسوا أكثر تقبلاً للموت أو جسارة عليه أو ترحيباً به، أو تفضيلاً له على الحياة تحت أي حافز أو أي تفسير كبير من حوافز الإنسان أو من تفاسيره الكبيرة لنفسه وللأشياء. وليسوا كذلك أكثر أو أصعب شروطاً أو اشتراطاً على الحياة أو للحياة. كما أنهم ليسوا أكثر إيماناً أو التزاماً بالشرف أو بالكرامة أو بالعدل أو بالتقوى أو بالمذهب أو بالفكرة. إن موت الإنسان في أية معركة تحت أية دعاية أو نظرية لا يعني من التفاسير النبيلة أو الكبيرة إلا ما يعنيه موت أي حيوان أو أية حشرة في أية مغامرة أو معركة.

إنهم لم يموتوا لأنهم أرادوا أن يموتوا أو أن يرفضوا الحياة تحت أي تفسير أو تفكير ديني أو أخلاقي أو مذهبي أو إنساني أو قومي أو وطني. ولكنهم ماتوا اضطراراً، ماتوا دون أن يريدوا الموت لأن شيئاً ما يؤمنون به أو يقدسونه قد طالبهم بأن يموتوا ويريدوا الموت.

إنهم لم يموتوا مختارين. إنهم لم يوجدوا في موازنة بين الموت والحياة فيختاروا الموت. لقد سقطوا في الموت ولم يختاروه.

لقد ماتوا لأنهم قد عجزوا عن الهرب. إنهم لم يستطيعوا أو لم يعرفوا أن يهربوا.

إن القدرة على الهرب معقدة. إنها مركبة من عديد الأشياء. إنها أحياناً تحتاج إلى قدرة وبراء وذكاء وصدق وشخصية قوية. إن القدرة على الهرب ليست فقط طريقاً مفتوحاً أمام الهرب. إنه أكبر وأصعب كثيراً من ذلك. إنه ليس كل الناس يملكون القدرة أو الجرأة على الهرب كما أنها ليس كل الناس أذكياء أو أقوياء أو أحراراً أو شجعاناً أو أباة أو رافضين للقهر والتسخير والسوق إلى الجنون إن الهرب في أحد معانيه أو في كل معانيه ليس إلا أسلوباً من أساليب الرفض للإملاء والأوامر التي فيها كل معاني التسخير وكل معاني الدفع إلى الحماقات الكبرى. إن القدرة على الهرب مطلب صعب. إن في القدرة على الهرب من المعاناة ومن الشروط مثلما في كل المواقف والمعاني والأعمال الكبيرة الشاقة. إنك قد تكون عظيماً لأنك هارب ولأنك تهرب.

أنت أحياناً لا تستطيع أن تهرب لأنك لا تستطيع أن ترفض أو تقاوم أو تكون حراً، أو لأنك لا تعرف أن تفعل ذلك أو تجرؤ عليه. إنك لا ترفض الهرب لأنك أكثر تقوى أو نبلاً أو شرفاً أو كبرياءً أو

احتراماً للنفس أو إيماناً بالقيم التي لقنتك إياها المحاريب أو المنابر أو الألواح. إن ممارسة الموت مأخوذاً ومعطى لا ينبغي أن تفسر تفسيراً أخلاقياً أو فكرياً أو إنسانياً.

نعم، إن الذي يموت في أي موقف، تحت أي شعار أو دعوى أو قضية معلنة لا يمكن أن يجيء الرأي المحتوم فيه أو الحكم المحتوم عليه أنه أكثر إخلاصاً أو إيماناً أو تديناً أو شرفاً أو نظافة أو صدقاً أو رفضاً أو إباءً أو حرية أو ذكاء أو كبرياء، بل أو حتى شجاعة ممن لا يموت مثل هذه الميتة. بل إن الذي يموت مثل هذه الميتة في مثل هذا الموقف قد يكون التفسير له أنه لا يعني إلا أضعف وأصغر المستويات والتفاسير الإنسانية. قد يكون هذا الموقف ليس إلا مثل موقف الحيوان الذي يموت من القهر أو العمل أو الاذلال أو التسخير أو من الخوف أو من الطاعة أو من الغباء، أو في معركة مع حيوان آخر، دون إيمانه بإله ولا بمعلم ولا بمذهب.

إذن هل نحن نريد الحياة أم نعجز عن الهرب منها؟ أم نهاب الهرب منها؟

إن عبقرية الأحاسيس أو الانفعالات، أو الاستفظاع والاشمئزاز والرفض والغثيان النفسي والشعوري ليست أقل من أية عبقرية أخرى. ليست أقل أو أضعف شأناً أو قيمة من عبقرية الذكاء، أو عبقرية القوة، أو عبقرية العلم، أو عبقرية الاختراع والاكتشاف، أو عبقرية المنطق، أو عبقرية الأخلاق، أو من العبقرية الفنية.

إن عبقرية الإحساس المقاتل، أو عبقرية التصادم الشعوري بالأشياء والمواجهة المحاربة لها ليست أقل في كونها ضرورة ومطلباً من مطالب الحياة، من أية عبقرية أخرى.

إنك لو امتلكت جميع العبقريات ولم تمتلك العبقرية التي تجعلك تتصادم بالأشياء وتحدق فيها تحديق الغاضب الرافض المتفجر استبشاعاً واشمئزازاً ومقاومة، تحديق المسائل المحاسب المعاقب المقاتل لكانت جميع عبقرياتك عاجزة وخامدة وغير مقتحمة، لكانت جميع عبقرياتك عاجزة عن أن تمارس نفسها ممارسة مثيرة عظيمة متألقة محلقة. إن جميع مواهبك حينئذٍ لا بد أن تصبح مواتاً وانهزاماً ـ أن تصبح عاراً فيك، وهجاء، بل وتعذيباً لك. إن أحاسيسك المتوهجة والمحاربة هي التي تهب عبقرياتك الحياة والمجد. إن أحاسيسك هي التي تعلم عبقرياتك العبقرية.

أيهما أفضل: أن نملك موهبة الأحاسيس العبقرية ونفقد كثيراً من مواهبنا الأخرى، أم أن نفقد عبقرية الأحاسيس ونملك الكثير من العبقريات الأخرى؟

وكأننا هنا نفترض أنه لا بد من الخيار بين هذا وهذا.

أليس الإنسان أحاسيس قد تحولت إلى مواهب، وليس مواهب إحداها الأحاسيس؟

إن بعض المراد بالأحاسيس وبعض تفاسيرها ومعانيها التي أعنيها هنا أن تكون موهوباً الرؤية الشعورية المحاربة لكل ما في جسد الإله أو جسد الطبيعة أو جسد الإنسان من تشوه أو تلوث أو ذنوب أو جوع أو أخطاء ـ أن تكون موهوباً بالتحديق النفسي في كل الأشياء المرئية وغير المرئية..

أن تكون موهوباً بالتحديق المقاتل، أن تكون مقاتلاً بمشاعرك ـ أن تكون محروماً من نعمة العمى الشعوري، أن تكون عاجزاً عن أن تكون أعمى الأحاسيس.

أن تكون عاجزاً عن أن تكون أعمى عن أية دمامة أو تشوه أو خطأ أو ألم أو عبث أو هوان أو ظلم أو حقارة أو تفاهة أو هزيمة ـ أن تخترق الأشياء الأليمة والرديئة مشاعرك اختراقاً..

أن تكون مشاعرك أضخم ميدان، لأضخم وأقسى معركة ضد ما في الطبيعة أو ضد ما في الآلهة من عيوب وذنوب وعاهات وضآلة وغباء وعدوان عليك أن تكون محارباً أبداً، أن تجد نفسك تعيش الحرب دون أن تطلبها أو تعلنها أو تبدأها..

أن تكون عاجزاً عن الغفران، عن الغفران للآلهة أو للطبيعة أو لنفسك ـ أن تكون عاجزاً عن غفران العلاقات والممارسات والنيات والصداقات التي بينك وبين الآلهة، وبينك وبين الطبيعة، وبين الطبيعة والآلهة وبينك، وبين الطبيعة والآلهة، وبين الآلهة والآلهة، وبين الطبيعة والطبيعة، وبينك وبين نفسك.

إن موهبة الغفران العقلي والنفسي والأخلاقي للأشياء وللمواقف وللممارسات هي أردأ وأضعف وأشهر مواهب الإنسان.

إن العمى الشعوري هو الجهاز العالمي المضاد الذي يستطيع أن يرى به الإنسان جمال الآلهة وجمال الطبيعة وجمال نفسه، والذي يستطيع أن يغفر به للآلهة وللطبيعة ولنفسه، أن يغفر به كل الدمامات والتفاهات والذنوب والعبث ـ أن يغفرها للآلهة وللطبيعة، وأن يغفرها أيضاً لنفسه. إن العمى الشعوري هو الجهاز العالمي الذي يحمي الإنسان من أن يرى أية دمامة أو تفاهة أو ذنب أو عبث من هذه الدمامات والتفاهات والعبث والذنوب التي تعيشها كل الآلهة والطبيعة ونفسه، والتي هي كل العلاقات والصداقات والمجاملات والأشواق بين الآلهة والطبيعة ونفسه.

إن الآلهة، وإن الطبيعة أيضاً لم تحاب قبحها وذنوبها وأخطاءها ومظالمها ولم تدافع عن كل ذلك بشيء مثلما فعلت حينما جعلت الإنسان عاجزاً عن الرؤية بمشاعره، وعن أن تتصادم مشاعره بتشوهاتها أو بوقاحاتها أو ببذاءاتها أو بعبثها، بل عن أن تراها.

وإن الإنسان لم يحاب نفسه ولم يدافع عنها بشيء مثلما حاباها ودافع عنها حينما جاء أعمى الأحاسيس، غافرها، متبلدها، جبانها، مهزومها، لا تستطيع أن تفرض أو تستفظع أو تنكر أو تغضب أو تقاوم، أو حتى أن تنقد أو ترى أو تشترط.

* *

إنه مهما كان مفروضاً أن تصبح الحروب بذيئة وقبيحة ومرفوضة ومهجورة كلما تقدم الإنسان وتصاعدت مستوياته الحضارية والفكرية والنفسية والأخلاقية، فإنه مفروض أبداً أن يتصاعد بسلوكه وبتفكيره وبحوافزه ونياته وأخلاقه وبكل مستوياته في حروبه الشعورية ضد الآلهة والطبيعة ونفسه ـ أي ضد العبث والتفاهات والدمامات والتشوهات التي تعيشها كل الآلهة وكل الطبيعة وكل نفسه،

والتي هي كل العلاقات والصداقات والمجاملات والممارسات والأشواق بين الآلهة والطبيعة ونفسه.

ولكن هل التصاعد في هذه الحروب الشعورية هو المفروض أم هو المطلوب؟

وهل توجد أية علاقة أو تفاهم بين كون الشيء مطلوباً وكونه مفروضاً أو مفترضاً أو منتظراً؟

فرعون يكتب سفر الخروج

« . . انه لمجتمع مخيف في تخلفه ، ذلك المجتمع الذي تصبح فيه خائفاً من ان يتهمك غيرك بالالحاد أو تصبح فيه مخيفاً لأنك قد تتهم غيرك بالالحاد . .

ذلك المجتمع الذي يستطيع فيه أي منافق كذاب مخادع أو أي جاهل بليد ، أو أي متعصب حقود ، أن يهزم كل الناس ، وأن يذل عقولهم ويسكت ذكاءهم .

. . أن يخيف كل ذوي المزايا دون أن تكون له أية مزية غير أن يطلق هذا السلاح ، سلاح الاتهام بالالحاد أو بالخروج على المذهب أو على النظام الموروث أو المفروض . . .

ان امتلاك هذا السلاح او القدرة على امتلاكه لهمجية تتواضع في مواجهتها جميع الهمجيات المصابة بكل الكبرياء .

أليس اسقاط هذا السلاح من جميع الأيدي هو أعلى مستويات التدين والتقوى والتمجيد للاله وللأديان والمذاهب وللعروبة ؟

أي عار يساوي أن تهدد أنت بذلك فتخاف وتكذب وتنافق وتصلي وتؤمن ، بلا صدق ولا حب ولا طهارة ولا إيمان ؟ . . . »